مبرة الآل والأصحاب

الأمانة العامة للأوقاف

الآل والأصحاب في الأدب العربي (٤)

صاحب النبي

رواية

عن النبي الذي صدق، والصاحب الذي صَدَّق

محمود توفيق

حب النبي

مكتبة الكويت الوطنية
National Library of Kuwait

عنوان الكتاب : صاحب النبي (رواية عن النبي الذي صدَق والصاحب الذي صدَّق).

اسم المؤلف : محمود توفيق حسين إبراهيم .

نوع المطبوع : كتاب - الطبعة : الأولى - عدد الصفحات : ٥٤٣

السلسلة : الآل والأصحاب في الأدب العربي .

الناشر : مبرة الآل والأصحاب.

ص. ب. ١٢٤٢١ الشامية - الرمز البريدي ٧١٦٥٥٥ - ت : ٢٥٦٠٢٠٣

ردمك: ٣ - ٦٦ - ٦٤ - ٩٩٩٦٦ - ٩٧٨ ISBN

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب

إلا لمن أراد التوزيع الخيري بشرط عدم التصرف

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E - mail: almabarrh@gmail. com

www. almabarrah. net

مبرة الآل والأصحاب
الآل والأصحاب في الأدب العربي (٤)
الأمانة العامة للأوقاف

صاحب النبي

رواية

عن النبي الذي صدق، والصاحب الذي صَدَّق

محمود توفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

تَقْـديم
ويستحق أبو بكر

لا شك أن تقديم القدوات الصالحة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى عموم القرَّاء من أبناء الأُمَّة الإسلامية ـ بل وغيرهم ـ لأمرٌ في غاية الأهمية، حيث يوقِف الأُمّة على مكامن قوتها ومواطن تميُّزها، ويمثّل مرجعيةً قيمية وأخلاقية وسلوكية لا غنى لها عنها.

وقد دأبت مبرة الآل والأصحاب على تقديم سير الآل والأصحاب والجوانب المختلفة من علومهم وأعمالهم بطرقٍ متنوعة، ما بين البحث العلمي التاريخي، والتوعوي، والتراثي التحقيقي، إلى القصص المصوّرة للأطفال والناشئة من المراحل العمرية المختلفة، فضلًا عن إقامة المؤتمرات وعقد الندوات والدورات واللقاءات الإذاعية والتلفزيونية المتعلقة بجوانب شخصياتهم وسيرهم العطِرة. ولم تُغفل المبرةُ العملَ الأدبي من رؤيتها، كيف والأعمال الإبداعية في عصرنا مِنْ أَشَدِّ ـ إن لم تكن أشدَّ ـ الأعمال تأثيرًا في شرائح واسعةٍ جدًّا من المجتمع، فهي تقرِّب المعلومة في قالب أدبي إبداعي، يمسّ العاطفة، ويحرّك العقلَ في آن واحدٍ، ولاسيما إذا توفّرت لها عناصر التوفيق من حُسن الأسلوب ومتانة اللغة وجمالها والقدرة الفنية على التخيل والتصوير، مع صِحَّة المضمون. ومن ثَمَّ قدَّمت المبرة سلسلةً كاملة للصحابة وآل البيت في الأدب العربي، قدَّمت فيها الأعمال الشِّعرية الرائقة التي تصوِّر مناقب الآل والأصحاب ومآثرهم، وكذلك أثرهم في البلاغة والأدب العربيين.

والآنَ تُبرز المبرةُ عملًا أدبيًّا إبداعيًّا جديدًا في السلسلة التاسعة من سلاسل إصدارات المبرة: «الآل والأصحاب في الأدب العربي»، وتخوض غمار الروايات الطويلة للمراحل العمرية الراشدة والكبيرة للمرة الأولى في سياق إصداراتها،

حيث الروايةُ هي العمل الأدبي الأصيل والأكثر تأثيرًا في عصرِنا الراهن، حتى كادت تأخذ مكانة الشعر الخالدة في تراثنا الأدبي القديم. حيث تعاونت المبرة مع أقلام أدبية رصينة، لها جهودها في ميدان الكتابة الأدبية والقصصية والروائية، فاقترحت عليهم وأوعزت إليهم الكتابةَ حول الشخصيات والأحداث الإسلامية المجيدة التي كان الصحابةُ وآل البيت أبطالَها، وكانت الثمرة الأولى لهذا التعاون، هذه الرواية التي بين يديك عزيز القارئ: «صاحب النبي».

إنها بداية طبيعية. فمَن يكون الشخصُ المناسب لتُسهِم به المبرةُ في هذا الخطِّ الإبداعي من إصداراتها إن لم يكن أبا بكر «صاحب النبي» ورفيق دربه وناصره وأحب الرجال إليه ووالد زوجته أم المؤمنين عائشة أحب النساء إليه، وخليفته من بعده؟ إننا نؤمن إيمانًا راسخًا أن شخصية الصحابي الجليل أبي بكر الصديق وسيرته الكريمة لا تزال بحاجة ماسّة إلى المزيد من القراءة والتأمل والبحث والتقديم بصورٍ متنوِّعة، ما بين البحث العلمي الجاد، والعمل الأدبي الممتع، ولا نعتقد أن المكتبة العربية قد وَفَت بهذا الدَّيْن مقارنةً بالكتابات حول شخصيات أخرى عظيمةٍ من رجال الإسلام.

نعم، يستحق أبو بكر؛ لما لهذه الشخصية العظيمة من مكانة عالية وقَدَمِ صِدْقٍ في الإسلام من جهة، ولما لها من تأثير كبير في تاريخنا الإسلام. ونعم يستحق تكون روايته موسَّعة وفي حجْمٍ يليق بما نستلهمه من سيرة هذه الشخصية الجليلة من جوانب نبيلة في العلم والعمل.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل، وأن يحقِّق هدَفه المنشودَ منه، وأن يكون فاتحةَ خيرٍ في هذا المجال، وأن يكون وفاءً ـ ولو يسيرًا ـ لحقِّ أبي بكرٍ الصديق «صاحب النبي».

مَبرَّة الآل والأصْحَاب

بيت الأصنام

نظر عثمان بن عامر إلى ولده الذكر الوحيد عبد الله الذي قارب البلوغ وهو شارد، ولده الرصين الذي يكنى بأبي بكر، الذي تبدو عليه علامات الرصانة والنجابة والذكاء، الأبيض النحيف، غائر العينين، ذي الجبهة البارزة، الذي يبشر بكل ما فيه بأنه لن يكون رجلًا عابرًا في قبيلة قريش.

كانت نظرة الأب ذي المكانة الطيبة، القليل الكلام، نظرة بها تلك العنجهية اللطيفة التي تكون في الآباء عندما يتمنَّعون عن التعبير عن انبهارهم بأبنائهم الذين يحوزون أسباب التفوق العقلي، والأخلاقي؛ كأنهم يخافون أن يحسدوهم، أو يخافون أن يصيبهم بسبب الحفاوة الزائدة شيء من الغرور الذي قد يعطِّلهم عن الاستجابة لنوازع الكمال التي تعمل فيهم، أو أنهم آمنوا بأن طفولة تلك الأنفس، الحاضرة أمامهم، ما هي إلا صورة وذكرى عابرة، لأن هذه الأنفس تستقر وتستريح في طور النضج الذي تعبر فيه عن عظمتها واختلافها، لذا فإن هؤلاء النابغين بحاجة إلى من يفسح لهم ويرقبهم بهدوء، لا لمن يبالغ في رعايتهم وتوجيههم.

فقد كان عنده منذ قليل بعض الأهل يتذاكرون أيامًا فاتت من حرب الفجار وما قيل فيها، فأدهشهم أبو بكر عندما ذكَّرهم بهدوء وثقة بشعر الحماسة الذي قالته عاتكة بنت عبد المطلب في يوم الشرب من أيام الفجار الرابع.

وشرد الرجل وابتسم وهو ينظر تجاه الحائط، وهو يتخيل ولده وقد كبر وساد مثل كبير بني تيم، ابن عم الرجل، عبد الله بن جدعان، الذي يشرب في

كأس من ذهب، وصار له من المال مثل ما له، حتى يعرف الناس قدره، وصار له أيضًا عبيد كثيرون مثل ما عنده، ينفعونه ويوفرون له المنعة والوجاهة في دنيا ليس له فيها عم أو أخ. ثم هز عثمان رأسه وهو لايزال شاردًا، وقد أثير فيه ما يثار في الأب من غيرة على مال ابنه، وحب منفعته أكثر من حب مجده، وخاصة إذا ما كان الابن الوحيد، فعدَّل أحلامه وتمنى له مال ابن جدعان ولم يتمن له سخاءه المفرط وكرمه.

ونشط مرة واحدة وقام وأخذ ابنه وهما في داره الفسيحة، وبدون أن يتكلم، ومضى به في الممر الطويل، حتى وصلا إلى الغرفة المنزوية التي على اليسار في آخر الممر، وأخذ المفتاح المعلق على مسمار بضفيرة من خيوط الصوف وفتح بابها به، ودفع الباب برفق وأدب، والطفل يسمع صوت الحجر الذي كان خلف الباب المغلق وهو يتراجع مع الباب.

دخل الطفل خلف أبيه، إلى هذه الغرفة القاصية في آخر الدار، وأخذ يتجول بنظره بين الأصنام الحجرية الساكنة الغارقة في العتمة، وفيها ما كان على شكل أسد، وما كان على شكل رجل، وفيها ما كان على شكل امرأة، وهو يشم ما بقي في الغرفة المغلقة من رائحة البخور منذ آخر مرة أشعل فيها البخور، ويسمع لهديل الحمام العذب على سطح الغرفة العالي. وأشعل أبوه فتيل مصباح الزيت الفخاري المعلق بالقرب من الباب، فاتضحت للطفل أكثر وجوه الأصنام التي بدت جامدة تافهة خالية من أي لمحة من لمحات الحياة، وبدت فيها هفوات الصنعة البشرية. ونظر الأب للأصنام ونظر لابنه، كأنه يحب أن يرى أثر حضوره عندها عليه. واكتفى الأب القليل الكلام الذي يستحضر عظمتها في قلبه، بأن أشار لابنه كي يتقدم ناحيتها أكثر، وقدمها له بالإكبار

اللازم معبرًا عن شموخها وعزتها: هذه آلهتك الشم العوالي. ثم تركه وحده.

تركه وحده، مؤمنًا بها، ومؤمنًا أيضًا به وبنجابته واستقامته، ليمتلئ بها إيمانًا معتمدًا على نفسه. مؤمنًا بها لدرجة أنه لايقبل من ابنه إلا أن يؤمن بها فورًا وبسهولة، لذا عبَّر عن هذا الإصرار بمشيه بسرعة. وقد مشى بسرعة أيضًا لأنه مؤمن به لدرجة الشعور بأن التلقين لا يناسب ذكيًا مثله، ولا الشرح الطويل يليق به وقد عرف فيه سرعته المدهشة في قبول الحق والرشد، كأي ابن يقول عنه أبوه: إنه لم يتعبني في تربيته بتاتًا.

وقد قبل الحق بسرعة كما يعرف عنه أبوه الذي مضى، إذ آمن بأن هذه الأحجار حالها في العتمة كحالها في الضوء، غارقة في سبات أبدي، وحالها بغير بخور كحالها إن أحرقوا لها البخور، لا تراعي الود ولا الإكرام، وهي بالتأكيد لم تحمد لأبيه أنه مدحها ومضى، ولن تغضب عليه هو الآن لو عبَّر لها عن احتقاره. وهي لا تأنس ببعضها البعض بأي وجه، ولو خرج واحد منها من الغرفة مائلًا تحت إبط رجل ما افتقدته البقية؛ وفي الجملة فهي لا تدرك وجودها تمامًا.

لم يكن هناك أي احتمال فيه لصدق العقيدة فيها، لم يكن لديه أي بلبلة، ولا أي خوف من طاقة كامنة بها، ولم يهز اقتناعه في عدم جدواها رغم صغر سنه أن أباه الحبيب، وأمه الطيبة الحنون، يعبدانها.

اختار أحد هذه الأصنام، واقترب منه، ليهزأ به، لا لكي يعطيه فرصة، ولكي يتصرف كما يتصرف الإنسان إذا اجتمع فيه الذكاء والإنصاف بأن يقدم أسبابه لقبول شيء أو رفضه، وخاصة إذا ما كان الأمر شديد الأهمية كأمر العقيدة.

قال للصنم: إني جائع فأطعمني.

وظل الصنم كما هو ذاهل عن نفسه غير حافل بالسؤال، ولا صوت يصل إلى سمع أبي بكر إلا هديل الحمام الوديع.

فقال له: إني عار فاكسني.

وظل الصنم في صمته الأبدي. فحمل أبو بكر الحجر الذي وراء الباب، وألقاه بغير أي تردد عليه، فترنح الصنم ثم استلقى على وجهه.

لقد شعر بأنه ارتاح بما فعل، وشعر بأنه أجاب على الصمت العقيم للصنم، ذلك لأن روحه الشجاعة ونفسه النظيفة تأبيان عليه أن يكون بلا إجابة، وتأبيان عليه أن يقف في تعامله مع الباطل عند حد إضمار الرفض، وفي تعامله مع الحق عند حد إضمار القبول، بل لا يرضيه من نفسه إلَّا أن يكون معلنًا.

في ذلك الوقت الذي أسقط الصبي الصنم ولم يكد أبوه الذي تركه قد استقر في جلسته في صحن الدار مع زوجته الطيبة سلمى ابنة عمه، كان شيوخ قبائل مسموعي الكلمة، وفرسان صناديد، وشعراء أصحاب قرائح ذكية جميلة، وتجار كبار عقلانيون قادرون على التفاوض والتعامل مع أمم أخرى أرقى حضارة، يسجدون لمثل هذا الصنم الذي ترنح ووقع، بدون أي ذرة من قلق، لأنهم وجدوا آباءهم هكذا.

اليوم المخبوء

هكذا أسقط الصبي الصنم في الغرفة، معلنًا نمط العيش القادم، لرجل لا يغش نفسه، ولا يفاوضها على قيمة الحقيقة. وقد تأسف الأب لملاحظته التي كانت في محلها، وستظل في محلها، وهي أن ابنه، كنز الحياة الذي لم يتبدَّد، لا يميل عليه ويطلب منه مفتاح بيت الأصنام أبدًا. وظل يعيش في بيت الأسرة، وعند البيت العتيق، وفي أندية قريش، وفي أسواق مكة، وفي أي ناحية، متجاهلًا وجودها، وشأنها عنده شأن أحجار الطريق الرخيصة.

وقد كان مثل أي أب يشعر بالرضا عن نجابة ابنه وحسن أخلاقه، يمني نفسه بأن الشيء الذي ينقص ابنه، وهو هنا الإيمان بتلك الآلهة، ربما يأتي وحده في أوانه بكل سهولة، ويترك فيه أثره، كما يهل الربيع فيبعث الروح في الصحراء بغير عنف، ويلوِّن سهولها القاحلة، وينفث في أشجار الوديان، فتتفتح براعم أزهارها.

وها هو ذا يمر هو وابنه الذي صار شابًا تاجرًا في الأقمشة والثياب من أمام صنم منعزل قلما يتوقف الناس عنده، وهو على هيئة رجل معمر جالس شديد النحافة، يلاحق المارة بنظرات ودودة بحدقتيه المصنوعتين من حجر السبج الأسود، كما لو كان جدًا عريقًا يتابع أحفاده اللاهين لكي يتغلب على شعوره بالملل. وسكت أبو قحافة عن الكلام في المسافة التي تفصلهما عنه، منتظرًا أن يبطئ ابنه الخطا، ويحدق فيه، ثم يتوقف عنده، ويجذبه الصنم الشيخ الذي يتابع الناس بعينيه اللامعتين الحزينتين، ويخدِّر أحاسيسه، بغلبة طيبته وعراقته، وقدرته على إثارة التعاطف؛ لكن أبا بكر كما في كل مرة، مرَّ كما يمر على

حجر، محض حجر.

كان أبو قحافة، وتلك كنيته، حزينًا لأن ابنه للمرة الألف لا تدب الروح فيه لعبادة الآلهة، ولا يستسلم فيه شيء بإلحاح وجودها حوله في كل ناحية؛ ولكنه كان حزنًا من هذا النوع طويل الأمد الذي يعتاد الإنسان عليه، حتى لا يذكره إلا في مناسبات تؤدي لتشنج هذه الأحزان النائمة.

واتفقا على أن يمر به الأب بعد انصرافه من عند البيت العتيق. وبعد مضي بعض الوقت، كان الأب قد انتهى من طوافه، ورفع يده بالتحية إلى صنم كبير يقف تحته، لرجل جالس وله قرنان كبيران كقرني الكبش. وبرغم ما يحز في نفسه في ذلك النهار من ألم بسبب انصراف ابنه تمامًا عن عبادة آلهة قومه، أخذ ينظر إليه مبتسمًا فخورًا متعجبًا، إذ كان ابنه الشاب في ناد من أندية قريش القريبة من البيت العتيق، وحوله جماعة كبيرة من القبيلة من الشباب والكهول، يستمعون إليه بكل تقدير. وخمن الأب أنه يكلمهم الآن في أيام العرب وأنسابهم.

وسبب ابتسامته، وما يعتلج بصدره من حذر وإعجاب بابنه، ومن خوف مبالغ فيه من أن لا يظل مجمعًا عليه من الناس الذين اتفقوا على كرمه وصدقه، وأمانته، ورفقه بالضعفاء، وتواضعه، وحبه للبساطة، وبغضه الشديد للكبرياء والاستعراض؛ سبب ذلك هو أنه لا يعبد تلك الآلهة التي يعبدونها، ولم يره واحد من هؤلاء الجالسين معه أو من غيرهم يسجد لأي إله منها أو يذبح عنده. وهو الأب الصريح لايعرف كيف يمكن لشخص بعيد تمامًا عن آلهة قومه ومستخفًا بها في باطنه أن ينال من أهله كل هذا الحب والتقدير والثقة، ويظل عندهم جميعًا شابًا مريحًا صافي الود وبدون أن يكذب وبدون أن ينافق.

إنه يتمتع بميزة من ضمن المزايا التي يوفرها حسن الخلق لأصحابه، وهو

أن الناس يحبون أن يفسروا انصرافهم عن العبادة على أنه من الفتور الذي يكون موجودًا عند كثير من الناس ولا يعتبر تهمة، ويتجنبون سؤالهم عن هذا الفتور؛ خوفًا من أن يغتموا بأن الأمر أبعد من ذلك، لذا كان أبو بكر في حماية التواطؤ على عدم السؤال عما يسيء.

وقد كان هناك سبب آخر أقل درجة لعجب الأب وقلقه، وهو أنه لا أحد قد بغض ابنه الشاب أبدًا بسبب كلامه في علم الأنساب الذي نبغ فيه؛ وهذا شيء بعيد المنال، ويزداد بعده إذا ما كان النسابة مثله شابًا شجاعًا صادقًا لن يدفعه كونه ودودًا لأن يجامل الرؤساء والنقباء بما يخالف الحقيقة، وإذا ما كان مثله شابًا جادًا أمينًا لن يدفعه كونه رحيمًا لأن يعزي الضعفاء بشرف ليس فيهم. وقد كان ينفعه في ذلك ما هو مشهود له به من سلامة القلب من الحقد والبعد عن الغرض.

وقد أخذ أبو قحافة يطمئن نفسه وهو يمشي في طريقه إلى بيته وهو ينظر لابنه الذي قرر أن يتركه في جلسته بين الناس، أخذ يطمئن نفسه بأن ابنه وصل في حسن السيرة والأخلاق وعفة اللسان والرصانة، للدرجة التي جعلت له من القبول ما يتحاشى الناس به أن يحدثوه عما قد ينزل به عندهم، فهكذا حبهم هؤلاء الناس، إن أحبوا أحدًا سهَّلوا له أن لا يتكلم فيما قد يضايقهم منه.

ولما كان بعيدًا، وقف مرة أخرى ونظر إليه، وأخذ يجهد فكره لكي يطمئن أكثر من ذلك، بالبحث عن شيء آخر ينفع ابنه في العيش سالمًا ومحبوبًا غير ابتعاد الناس عن سؤاله، فهز رأسه سعيدًا بعد قليل، فقد هداه تفكيره إلى أن ابنه عاقل وخلوق، ويعرف كيف يكون وصال الناس، فهو ليس اعتباطيًا يبتذل

نفسه بالجلوس بين عديمي المروءة والفاحشين والتافهين ويتكلم في كل أمر حتى يعتاد الناس عليه ويسقط من أعينهم، فيتحدثون في وجهه بنقائصه، وليس مترفعًا متعاليًا ينتقي قلة من أصحاب المكانة والثراء ويعرض عن غيرهم فييأس الناس منه ويكرهون غطرسته، ويتحدثون في ظهره عن نقائصه.

ومضى الأب وهو يدعي الاقتناع والطمأنينة، كأن هذه المزايا تمنع البلايا إن جاء وقتها. كان يحاول خداع ذاته التي يتعبها شعور مزمن وخفي بأن هذا الابن لن ينعم بهذا السلام السهل للأبد.

وقد كان من ضمن الجالسين الذين يكنون الود والتقدير لأبي بكر، الفارس الشاب عتبة بن ربيعة، الذي سيجعل أبا بكر في يوم مخبوء في الغيب، وبعد أن تخطى الأربعين سنة، وبعد أن توقف الأب عن القلق، يعود لأبيه وأمه محمولًا في ثوب وهو على وشك الموت من أثر الضرب المبرح، وهذا ما لا يتخيله الابن الجالس في أمان، ولا الأب الذي مضى يصارع هواجسه.

طاووس الخمر

في إحدى الليالي كان الأب أبو قحافة يجلس مع زوجته فوق سطح الدار، وسمعا غناءً غزليًا سعيدًا لرجل سكران في بيت من البيوت الخلفية، أعجبهما وأنصتا له وهما مبتسمان، لكن هذا الغناء الغزلي الذي جذبهما، قد انقلب بطريقة تدريجية مدهشة إلى بكاء مصحوب بعتاب مرير على الآلهة التي لم تقدر توسلاته وتركته يعاني من العقم والبرص ولم تفعل شيئًا، وهو يستطيع أن يعدد الآن أسماء حثالة توسلوا إليها واستجابت لهم، وهو لا يعرف كيف تمشي هذه الأمور في الحقيقة. وبعد فاصل خالص للبكاء قال إنه أدمن الخمر حتى صارت ربَّته الوحيدة التي تعطف عليه وتلهيه عن همومه إلى أن يموت وحيدًا، وقد انفض الأحباب عنه واحدًا وراء الآخر، حتى زوجته التي أحبها سئمت منه ومن آماله التي لا تحقق أبدًا، وهجرته، ولم يعد له في ذوات الأرواح أصحاب غير كلابه الوفية. وكأن كلاب السكير عرفت أنه ذكرها وامتدحها، فأخذت تعوي معه من بيته ذلك العواء المطوَّل الحزين كأنها تنضم له في احتجاجه البائس.

شعر أبو قحافة بالخزي والتشاؤم مما سمع، وقال لزوجته إنه من الجيد أن ابننا لا يشرب الخمر، فهزت المرأة رأسها وهي لا ترى أي وجه للشبه بين ابنها الذي لا ينقصه شيء يمكن للخمر أن تفضحه في شكوى من شكاوى الثملين، وبين هذا الرجل الأبرص العقيم. وقد قال أبو قحافة ما قال، لأنه اكتشف وهو يسمع عذابات السكير ثالث الأشياء التي نفعت ابنه في العيش مع

من يخالفهم، وهو أنه لا يشرب الخمر، لأنه لو شرب فلن يدري الأب ما كان يمكن أن يسمع منه الناس.

في ذلك الوقت من الليل كان أبو بكر في طريقه إلى الدار، يمر وهو يسمع صوت السكارى والمعازف في حانة مكية يحمله الهواء من بعيد، وتحت حائط بعد تلك الحانة في الطريق إلى منازل قريش، وجد رجلًا قاعدًا على الأرض مشعث الشعر، يهز رأسه، ويتكلم بكلمات متقطعة لا معنى لها، ويتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء ضاع منه، وعرف أبو بكر من حالته أنه كان في تلك الحانة وخرج منها إلى بيته بعد أن ثمل، فلفحه الهواء ولعبت برأسه الخمر. ولما اقترب أبو بكر من الرجل أكثر وهو في طريقه، عرفه في ضوء القمر الذي أعطى له ملامح مجنون مهموم، واستاء من أن يراه على هذه الحالة المزرية. وفيما لا يزال يرمي ببصره على الرجل وهو يتمنى أن لا يعرفه، حياءً منه ومن حالته، وجد الرجل ينظر بفضول بهيمةٍ إلى شيء عن يساره، ويمد أصابعه إليه، فأثار اشمئزاز أبي بكر، فقد مد الرجل أصابعه إلى غائط، ورفع أصابعه إلى وجهه، وأوشك أن يتذوقه، ولكنه كره الرائحة ومسح يده المرتخية في الجدار.

لقد جلس مع هذا الرجل منذ مدة، في مجلس من تلك المجالس المكية التي يتسامر فيها الناس ويتعارفون، وتكلم الرجل عن الخمر الجيدة التي جاءته مع القافلة من بصرى الشام، وفيما كان الناس يختلفون على الأنواع أيها أعتق وأجود، لاحظ الرجل أن أبا بكر لا يهتم بالحديث عن الخمر، وينتظر أن يتخطاه الجالسون إلى غيره. ولأنه سمع أن أبا بكر يولي اهتمامًا بالأخبار والأيام وقصص الأولين، أراد أن يلفت انتباهه بقصة، وأراد أيضًا أن يشير إلى أنه يأخذ منها ما ينعشه فقط، فقال إن آدم لما غرس الكرمة، جاء إبليس فذبح عليها طاووساً، فشربت دمه، فلما طلعت أوراقها ذبح عليها قرداً، فشربت دمه، فلما

طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه، فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه. وقال إن هذه أطوار شارب الخمر الأربعة، فأول ما يشربها وتدب في أعضائه، يزهو لونه ويحسن كما يحسن الطاووس، فإذا جاءت مبادئ السُكر لعب وصفق ورقص، كما يفعل القرد، فإذا قوي سكره جاءت الصفة الأسدية، فيعبث ويعربد ويهذي بما لا فائدة فيه، ثم يتمرغ كما يتمرغ الخنزير، ويطلب النوم وتنحل عرى قوته.

فابتسم أبو بكر للرجل الذي يكبره بأكثر من عشر سنوات، من باب الشكر على الأسطورة اللطيفة التي حكاها، غير أنه كان من الواضح عليه أنها لم تغير شيئًا من إحساسه ناحية الخمر، فهو لا يتعامى عن قبح شيء مهما كان الإغراء فيه، واحتفظ لنفسه برأيه وهو أن الدرب الذي ينتهي بخنزير، لا يليق بالإنسان الكريم أن يلج فيه منذ البداية لكي ينشد الطاووس.

وسأل أحد الحاضرين الرجل عن الطور الذي يغلب عليه معها، فقال وهو يبتسم إن نفسه في أحيان قليلة تغلبه من البهجة أو الحزن فيشرب ويشرب حتى يصل إلى حال الخنزير، أما في أغلب أحواله فهو معتدل يراوح بين الطاووس والقرد.

وفيما أخذوا يعددون أسماء السادات والشعراء الفحول الذي أغرموا بها، ويذكرون بعض أبيات الشعر عنها، كان أبو بكر يعدد لنفسه أسماء الذين حرموا على أنفسهم الخمر: عبد المطلب بن هاشم، وعبد الله بن جدعان، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس، وورقة بن نوفل، وقيس بن عاصم السعدي، وعثمان بن عفان، و...

وباغتته إجابة الحاضرين نيابة عنه، عن سؤال الرجل المباغت إن كان هناك في قريش شاب غيره قد حرَّم الخمر على نفسه، إذ كان الرجل مستفزًا نوعًا ما، ويشعر أن هذا الأمر شديد البأس على الشباب، ويكاد لا يصدقه، وسرَّ أبو بكر وهو يسمعهم يقولون: هو، ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

ثم أضاف أحد الجالسين اسم صديق آخر لأبي بكر لا يشرب الخمر، وهو عثمان بن عفان، وبعد أن أشاروا إلى ثلاثتهم، لاحظوا أنهم أحسن شباب قريش حلمًا وأخلاقًا، وأيد الرجل أيضًا رأيهم بابتسامة يغالب بها إحساسًا بالحسرة.

ومضى أبو بكر في طريقه وهو يظن أنه لن ينسى أبدًا كيف أهانت الخمر ذلك الرجل، الذي ربما خرج في أول المساء يطلب الطاووس، ثم ها هو ذا قد وقع بالليل تحت الحائط وقوع الخنازير.

وصعد أبو بكر لسطح البيت ووضع رأسه في حجر أمه، وحكى له الأب عن الأبرص العقيم في الجوار الذي سكت وسكتت كلابه، والأشياء التي رفع صوته بها بغير اكتراث، ولما أحس أن ابنه قد ابتسم بعفوية ولم يتنبه للخطر، قال له كنوع من النصيحة غير المباشرة، ليستمر في تحريم الخمر على نفسه: إن من يخفي شيئًا عظيمًا عليه أن لا يشرب الخمر أبدًا.

صاحب الجمل الأحمر

كان أبو بكر الشاب يشعر بالغبطة، وهو يرى علامات الرضا على وجه صاحبه الشاب الخلوق الأمين الصادق محمد بن عبد الله، أثناء عقد زواجه من سيدة قريش التاجرة المبجلة الكريمة قوية الشخصية التي رغب في الزواج منها الكثير من السادة ورفضتهم جميعًا، واختارت محمدًا ﷺ الذي أعجبها كل الإعجاب لأمانته وحسن خلقه وصدق حديثه، السيدة خديجة بنت خويلد.

وكان أبو بكر قد أتم الثانية والعشرين من عمره منذ أشهر وهو يحضر العقد الذي حضره رؤساء مضر، ويرمي ببصره كل قليل على وجه محمد ﷺ ليرى عليه انفعالات الرضا والحياء لنفس كريمة أضاء جوانبها اليتم والشرف. وقد كان انفعال الرضا الذي على وجه محمد ﷺ يليق به، فلم يكن به ذلك الفرح الصاخب لشاب خفيف طموح غير قادر على استيعاب الحدث الكبير الذي تم بسرعة، ولم يكن فيه ارتباك رجل مخدوش العزة في وجدانه غارق في الشعور بالفاقة ويشعر بالرهبة من الوجوه العزيزة والأنوف الشامخة التي حوله، بل كان عليه ذلك الرضا الطيب لرجل صادق إذا ارتاحت نفسه إلى شيء راحة لا تحفُّظ فيها، وكان عليه تلك السكينة لإنسان أصيل لا يترك إقبال الدنيا على ملامحه نذيرًا من الجحود والبطر.

وأبو بكر الشاب الذكي الذي خرج إلى الحياة وهو ذو دراية بالناس وطباعهم، وقدرة على وزن أفعالهم وكلامهم، لم يكن عنده أي حيرة في الحكم على صاحبه أنه أعظم من رأى من الناس خلقًا، ولم يكن بحاجة إلى أحد يؤكد

له رأيه في صاحبه، ولكن كان ينظر إلى هذه الشهادة العملية من امرأة راجحة العقل ناضجة قد أثار الشاب محمد ﷺ إعجابها من دون الناس، ومهدت الطريق إليه كي يطلبها من أهلها، ينظر إلى هذه الشهادة باعتبارها إعلانًا جميلًا وقويًا، وهو بطبيعته يشعر بالحماس والسرور عندما تُعلَن الحقيقة، لذا كان سعيدًا من أجل سعادة صاحبه، وسعيدًا أيضًا من أجل هذا الجهر الجليل بقدره أمام قبائل مكة كلها من لدن تلك المرأة العظيمة الحازمة.

وأخذ أبو بكر يهز رأسه هزة خفيفة وهو يبتسم ويستمع لهذه الكلمات من أبي طالب في الخطبة التي يطلب بها خديجة لمحمد ﷺ: ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًا وفضلًا وكرمًا وعقلًا، وإن كان في المال قلٌّ، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة.

وجلس أبو بكر وأكل مع الجمع الذي حضر الوليمة، وهي أول وليمة يولمها صاحبه، صاحبه الذي عاد من رحلته في تجارة خديجة من الشام منذ شهرين، خديجة التي كان شأنها شأن كثير من الأثرياء عندما يشعرون أنه لا شيء يثير الشعور بالراحة في هذه الحياة بقدر العثور على إنسان أمين يوثق به كل الثقة، ويعتمد عليه، إنسان لا تسول له نفسه الخيانة أبدًا، والتي اختارت محمدًا ﷺ بناء على سمعته الحميدة متوسمةً فيه أن يكون كذلك في غابة الدنيا المليئة بالرجال الطامعين، والكاذبين، ومن إذا أتتهم رياحهم اغتنموها؛ والتي كانت في عليَّة في وقت الظهيرة حينما رأته قادمًا على بعيره، فنزلت إليه مسرورة مطمئنة.

ولما أتاها ميسرة غلامها الذي ذهب مع محمد ﷺ، وأخبرها بأنه لا يشك في أن هذا رجل مبارك كريم، لا يحلف مثل الباعة بالآلهة، ولا يصخب كما

يصخب كثير منهم، ولا يكذب أبدًا، ولايغش، ولا يرضى لنفسه حتى بأن يعيب على من اشترى بلجاجة بعد أن يغادر ولو بإشارة على وجهه، فمن أدب سيدتي هذا اليتيم كل هذا الأدب!

كانت سعيدة بما تسمع كل السعادة، سعادة صارت أكبر من حاجتها للاطمئنان لوكيل. وتكلمت مع صاحبتها نفيسة برغبتها في الزواج منه، فذهبت نفيسة إليه وفاتحته في الأمر فرضي بذلك.

تذكر أبو بكر كل هذا الذي تم بسرعة، وهو مؤمن بأن صاحبه يستحق ذلك، وقد كان يظن وقتها أن إعلان خديجة هو ربما آخر نداء عظيم عن محمد ﷺ، وأن فيه الكفاية. ولم يتوقع أبو بكر أنه سيحضر هو ومحمد ﷺ، وبعد خمس سنوات تقريبًا، وفي حشد من الناس أكبر من حشد الزواج، إعلانًا آخر، أو نداءً في السوق لن يفهم وقتها أنه عن محمد ﷺ، وكذلك لن يفهم محمد ﷺ ذاته أن ما يسمع يخصه هو.

لم يكونا جنبًا إلى جنب في سوق عكاظ السنوي الذي يقام قرب الطائف، والذي يمتد إلى عشرين يومًا، وتروج فيه البضائع كلها، والأشعار، والخطب، وكذلك مفاخرات الناس التي قد تنشب بسببها الحروب. وأخذ كل منهما يتجول على حدة بين المئات من مظلات وعرائش وثايات السوق العظيم، بين متاجر اليمنيين التي يبيع بعضها البُرد والأكسية وبعضها يبيع الزعفران والمر والطيب، والعمانيين وعندهم اللؤلؤ وتمور هجر، والشوام وعندهم الزيوت والزبيب وأرجوان صيدا، ومصوغات البتراء، والأعراب وعندهم الصوف والجلود المدبوغة والأحذية، وتجار البحرين ومعهم الرماح الردينية. مروا على كل مكان يمكن أن يشد انتباه الناس، إلا مكان واحد لم يقربه أي منهما، وهو ساحة

صنم هوازن (جهار)، الذي كان في موقع السوق في سفح جبل أطحل.

ثم غابا في زحام الناس الذين تجمعوا حول خطيب تاريخي نادر. فبعد أن كثر الشعر والشعراء في جزيرة العرب واتخذوا الشعر وسيلة للتكسب وابتذلوا موهبتهم لكل من يملك المال، ونهشوا أعراض الناس وسمعتهم من أجل إرضاء الآخرين، صار الخطيب آخر الأمر عندهم فوق الشاعر. كأنما القدر يعد آذان الناس للكلام الذي ينفذ إلى الضمائر، في العمق، تحت أوهام (الأنا)، وخطل الرهط.

وقد كان (قس بن ساعدة)، الخطيب المسنَّ الشهير، وهو رجل موحد حنيفي على دين إسماعيل وإبراهيم، ويؤمن بالحساب، ويضرب به العرب المثل فيقولون (أبلغ من قس). ويومها قال وهو على جمله الأحمر:

(أيها الناس اسمعوا وعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، وسماء ذات أبراج، بحارٌ تزخر، ونجومٌ تزهر، وضوءٌ وظلام، وبر وآثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلَّكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطوبي لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه).

وقال أيضًا (في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر.. لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر.. ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر.. لا يرجع الماضي إلي ومثلي من الباقين غابر.. أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر).

لقد أثارت الخطبة إعجاب أبي بكر الشديد، وكذلك محمد ﷺ، وكل

منهما في مكان ما بين الآلاف الذين يستمعون للرجل المخلص الذي ترك إيمانه بما يقول على وجهه شوقًا عارمًا، وجعل لصوته الجهوري نفوذًا شديدًا، وقد مسَّ كلامه أحاسيس الحاضرين المطوية عن الفناء، وسر الوجود.

وربما لم يأت بذهن قس بن ساعدة وهو فوق جمله في حضوره المهيب أن نبي هذا الدين الجديد الذي يقسم للعرب بقرب ظهوره، موجود حوله في هذا السوق الواسع، ليس في هذه الناحية أو تلك من جنبات السوق، بل هو واحد من بين الآلاف الذين وقفوا يستمعون إلى خطبته وشخصوا بأبصارهم إليه.

ولم يكن يرد على ذهن أبي بكر أن هذا الصوت الذاهب في الآفاق من فوق الجمل الأحمر، للرجل الذاهب إلى الموت كما يذهب الناس، الباقي من بعدها في ذاكرة العرب، وذاكرة أبي بكر، وذاكرة محمد ﷺ، هو قد جاء في هذا النهار ليعلن عن محمد ﷺ، ولو لم يكن يعرفه. لم يكن يرد على ذهنه أن هذا الرجل الذي يؤمن بأن الناس لم يخلقوا عبثًا، وأنهم إلى الله راجعون، والذي أجمع العرب على فصاحته وحكمته، وحلمه، هو يعلن عن دين سيبشر به صاحبه محمد ﷺ الذي لم يكن يؤهب نفسه لشيء، وذلك بعد قرابة عشر سنوات.

وإنه لمن بدائع التاريخ والحياة التي تتكرر، أن يأتي يوم على خفيٍّ في وسط جمهور واسع يستمع إلى رجل عظيم جابت شهرته الآفاق، ويكون صاحب فضل كبير على اسم هذا العظيم؛ فعندما قال قس بن ساعدة هذا الكلام حفظه الناس ليفتخروا بنقله لمن لم يحضروا، ولم يكن محمد ﷺ وقتها أكثر من شاب عربي أبيض غائب في جمهور ابن ساعدة، ولكن عندما يروي محمد ﷺ للناس كلام قس بن ساعدة بعد عدة سنوات من بعثته ويبدي إعجابه به، يكون قس بن ساعدة الذي غيبه الموت قد حصل على إسناد فوق أمنيات الرجال.

كنز النبوة

كان أبو بكر عند البيت العتيق ومعه طفلته أسماء، عندما تقدم إليه رجل عربي وصافحه بحرارة، وأخذ يسأله عن رجل أراد أن يستعين به في التجارة، وأثناء شعورها بالملل من حديثهما الذي انشغل به أبوها عنها، شد انتباه الطفلة التي يقبض أبوها على كفها الصغيرة، صوت رجل مسن يأتي من خلفها، استدارت ولا تزال كفها في كف أبيها، إلى هذا الرجل ذي الضفيرتين الرماديتين الطويلتين، الذي يقف مستندًا بظهره إلى الكعبة، كأنه رجل مبارك يلتقط أنفاسه في مطاردة، ويجول بنظره بين الناس وهو آسف على أحوالهم وانشغالهم بهذه الغابة الكثيفة من الأصنام التي تحيط بالكعبة، ويقول لأهله: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري.

وقد بدا في عينيها وهو يظهر لها ويغيب عنها وبينها وبينه المارة، مثل شبح تاريخي جاء من زمن بعيد. وفهمت عندما ذهبت مع أبيها إلى بئر زمزم وشربا منها أنه رجل حقيقي من القبيلة، من بني عدي، بل وأثار الرجل إعجاب الصبية عندما أوضح لها أبوها أن زيد بن عمرو هذا، نجت الكثير من البنات من الموت بفضله، كان يذهب إلى أي بلدة يعرف أن فيها رجلًا أراد أن يدفن ابنته حية، فيلحق به وبها وهي تكاد تموت من الهلع، ويأخذها منه ويربت عليها، وهي لا تزال في رعدة الرعب، ورعدة النجاة، غير مصدقة أنها كادت تُقتل بغير أي ذنب، وغير قادرة على النظر إلى الرجل الذي كان أبوها في الأيام الخالية، وصار اليوم قاتلًا نجت منه قبيل أن يقضي عليها، وتضع يدها في يد زيد الذي تكفل للأب بالإنفاق عليها، وتمضي معه كسيرة رغم النجاة.

فقد كان هناك ما يدفع بعض الرجال الذين تحجَّرت قلوبهم إلى دفن البنت حية، كأن تولد مريضة أو بها عيب، أو بسبب الفقر المدقع.

ترقرقت عينا الطفلة البريئة أسماء من الدمع، وبدا لها الرجل الذي صار بعيدًا عنها وسكت صوته بطلًا شريفًا تخاف عليه من الموت، لأنه إن مات ماتت من بعده الكثير من البنات.

وتذكر أبو بكر وهو يمضي ومعه ابنته عندما كان جالسًا بالصبح بفناء الكعبة منذ فترة قريبة، وكان زيد بن عمرو هذا قاعدًا، ومر به أمية بن أبي الصلت، شاعر الطائف المعروف، وسيدها، الذي ترك عبادة الأصنام وحرَّم على نفسه الخمر، وطاف يبحث عن الحقيقة في البلاد، وقال لزيد: كيف أصبحت يا باغي الخير؟

فرد عليه زيد: بخير.

فسأله وهو يحاول أن يخفي ما في سؤاله من فضول وقلق: وهل وجدت؟

رد عليه رفيقه في البحث العظيم، الذي طحنه الانتظار والشعور بالغربة بين الوثنيين: لا.

فقال شاعر الطائف الذي يشق مثله غبار الوثنية في الجزيرة العربية بحثًا عن دين إبراهيم الذي أضاعت القرون معالم الطريق إليه

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والحنيفة بور

ويبدو أن الرجل كان يظن أن النبوة له أو لأخيه في البحث عن الحقيقة، الجالس في فناء الكعبة زيد بن عمرو، لأنهما على ما يبدو له أشد الناس التماسًا

لها في تلك المتاهة الواسعة، وربما لم يجد وحيًا يأتيه بعد أن تأهب له وأفرغ قلبه من الدنيا وانتظر، فجاء يسأل حبيبه ومنافسه إن كان الوحي هبط عليه، مشحونًا بالمشاعر المتضاربة، لأنه إذا لم يكن الوحي قد هبط على زيد حتى هذا الصباح، يمكنه أن يعود ويظل متعلقًا بالأمل في أن يباغته الوحي في الطائف.

وربما هذا هو الذي دفعه لأن يقول بعد الأبيات تلك الكلمات البسيطة التي سمعها منه أبو بكر، التي توحي بتشبثه بالاحتمال، احتمال أن يكون النبي العربي من الطائف، فيكون هو لا محالة، حيث قال: أما إن هذا النبي الذي يُنتظر منا أو منكم، أو من أهل فلسطين. وقد كان هذا الترتيب على النحو الذي يفضله، فهو في الأولى نبي، وهذا جيد جدًا، وفي الثانية حواري، وهذا لا بأس به، أما في الثالثة فستكون النبوة قد ذهبت بعيدًا.

ولم يكن أبو بكر قد سمع كثيرًا قبل هذا الحوار بين الرجلين عن نبي ينتظره البعض، نبي قد يظهر في العرب أو في أرض فلسطين. ولم يكن أبو بكر من النوع الذي يغلبه فضوله فيقتحم المحادثة بين رجلين مهتمين بأمر غريب لم ينشغل به من قبل. وكان كذلك حييًا، وعربيًا قرشيًا معتدًا بنفسه لا يفضل أن يبادر بالاستفسار من هذا السيد الغريب أو أمام هذا السيد الغريب، وكذلك فهو صاحب مروءة لا يحب أن يظهر أمام المتواجدين في الحرم على ما يخالفهم وما يمكن أن يعيبه عليه ولو واحد من الناس، فهو لن يفعل هذا إلا إن اطمأن قلبه إلى أنه على الحق فيما خالفهم فيه، ووقتها يكون من أهل الشجاعة الذين لا يعبؤون إن عابهم الناس كلهم على الحق الذي أعلنوه، وحاربهم عليه بلا تفاوض.

لهذا كله، اختار أن يراجع هذا الكلام مع رجل يشابه الاثنين وإن كان لا يتجول بأفكاره مثلهما، ذهب واستوقف ورقة بن نوفل العالم بالكتب القديمة، ابن عم خديجة، وهو عنده رجل كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر، وهو تعريف انطباعي من تاجر عربي كريم وخلوق، لم يقطع شوطًا في طلب الأديان وفي السفر بحثًا عن الحقيقة الموزعة على قلة من العلماء والأخباريين والمنقطعين للعبادة، كما فعل آحاد من العرب.

وحكى له ما سمع بين الرجلين، فأخذ ورقة بن نوفل يؤكد له أن الدنيا تنتظر نبيًا عربيًا سيخرج من أجود العرب نسبًا، وهو يرى أن هذا يتفق مع نسب قريش في العرب، وبالتالي استبعد ورقة آمال أمية بن أبي الصلت الذي لا يرى مانعًا في أن يكون النبي القادم من قبيلته ثقيف.

ترك أبو بكر ورقة وهو واثق من أن الرجل أخلص له في الإجابة ولم يدخر شيئًا، ولكنه وهو رجل معتاد على سماع الأخبار والأقاويل وادعاءات النسب، واعتاد على أن يتروى قبل أن يرجح شيئًا، وعلى أن لا يحدث الناس بكل ما يسمع، لم يقطع بصحة ما نقله له ورقة، ولم يتكلم بما سمع منه ومن الرجلين، ولم يلتصق أيضًا من بعدها بورقة بن نوفل، أو زيد بن عمرو، لأنه بجماع أخلاقه وطباعه، آمن أن النبوة التي ستحرر الناس من عبادة الأحجار هي كنز، ورأى أن البحث عن النبوة هو شيء مثل البحث عن كنز يقول الناس إنه مخبوء في جبل ما، إن أفنى الإنسان عمره في هذا البحث أو ذاك بغير فائدة سخر الناس منه واتهموه بالسفاهة، لذا دفعته مروءته إلى أن ينتظر سطوع الحق، بدلًا من أن يلاحق المجتهدين.

هذا محمد ﷺ

لقد مرت السنون إذن، وصار أبو بكر أبًا في الثلاثينات من عمره، وكذلك صار صاحبه محمد ﷺ أبًا. وقد صار أبو بكر أيضًا رئيسًا من الرؤساء العشرة لقبيلة قريش، حيث توزعت مسئوليات القبيلة على عشرة بطون، فكان أبو بكر من بني تيم على الديات والمغارم، أما بنو هاشم الذين ينتمي إليهم محمد ﷺ فكانت فيهم سقاية الحجيج، عند عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان سخيًا من أثرياء القبيلة.

وقد كان محمد ﷺ نائيًا عن هذه الأمور القيادية، ليس لأنه يفتقد مواهب القيادة، ولكن لأنه يؤهل من خلال النأي، وبعض الصمت، والعزلة، لقيادة أعلى، قيادة لن تغير الحال في هذه القبيلة التي تسكن بين جبال مكة الصخرية، بل ستغير العالم، للأبد.

وحدث ما جعل هذا الصاحب في نظر أبي بكر قيادة شريفة سامية بقوة الضمير، قيادة لا تزاحم في الأمجاد الثانوية، ولكن تحضر في الزمن المناسب لتحفظ الأشياء من الانهيار، ثم تعود بغير شهوة للاحتفال والمراسيم؛ ذلك لأنه بعد مرور عام على زيارته وابنته أسماء للبيت، كانت قريش تعيد بناء الكعبة، واختفت الجدران القديمة الآيلة للسقوط، وغيَّب الموت ذلك الشيخ الموجوع الذي كان يستند عليها، الذي كان يبغض الأصنام، وينقذ البنات الصغيرات.

لقد رأى أبو بكر القبيلة وهي تجمع الأحجار من الجبال القريبة من الحرم

وتعيد بناء الكعبة التي كانت على مشارف الانهيار التام، ورأى صاحبه محمداً ﷺ وهو يظهر في الوقت المناسب والأنظار متجهة إليه، ليرمم بنية القبيلة التي كانت على وشك أن تنقض بسبب الاقتتال على الشرف بين البطون.

كانت الكعبة بيتًا قد مرت عليه القرون وتركت فيه آثارها من التشقق والتفكك، بيتًا أصابته الطبيعة وجنايات الزائرين الفوضويين، ثم هبط عليها في الوادي سيل من السيول العارمة وهي تئن من وطأة السنين، واقتحمها من فوقها، فجعلها على وشك الانهيار تمامًا.

واعترى القرشيون الهم والكآبة من الحال التي وصلت إليها الكعبة، واتفقوا على إعادة بنائها من مال طيب ليس فيه كسب بغاء أو ربا. وكان عليهم أن يهدموا بناءها الذي هو شبه أطلال، ولكن تخوفوا من ذلك؛ فقد ورثوا تعظيمها تعظيمًا شديدًا عن آبائهم، حتى أن البيوت القديمة الأولى لآبائهم كانوا يصنعونها مدورة إكبارًا للكعبة وتنزيهًا لها عن الشبه؛ حتى أن أول من بنى بيتًا مربعًا كان اسمه حميد بن زهير، فقالوا بشأنه: ربَّع حميد بيتًا إما حياة وإما موتًا.

وامتلك الوليد بن المغيرة وهو سيد من سادات قريش الشجاعة، واختار أن يكون رائدًا في الهدم، أخذ المعول وقال: اللهم لا نريد إلا الخير، ثم هدم ناحية الركنين. وراقب الناس أحواله، لعله قد يموت في أي لحظة، ولما مر يوم كامل على ما فعل، ووجدوه يستيقظ من نومه بصحة جيدة، تناولوها هدمًا حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم.

وقسموا البناء على أربعة أجزاء، لكل قبيلة جزء، وشرعت كل قبيلة في البناء بهمة. ولكن وصلوا للشرف الذي بدا لهم غير قابل للقسمة، شرف وضع الحجر الأسود، واختلفوا وتنازعوا وثارت فيهم النعرات لمدة أربعة أيام، حتى

كادت تقوم الحرب بينهم عند البيت الذي يعظمونه. وبالطبع كان هناك دمثون وعقلاء ومتمهلون، يقفون بين الناس في ارتباك، تتخبَّط فيهم أكتاف الحمقى والعصبيين والنزقين، الذين يمكن للواحد فيهم أن يشعل الحرب من أي جانب في الزحام، بصيحة نخوة غير مسؤولة.

وحلًا لتلك الأزمة التي لا يبدو أي انفراج لها، بل والتي كان من الممكن أن تؤدي إلى مذبحة حول البيت، اقترح أبو أمية بن المغيرة المخزومي، وقد كان أكبر قريش سنًا، وواحدًا من أحسن أبنائها سمعة وأشهرهم بالكرم، أن يجعلوا حكمًا بينهم فيما اختلفوا فيه أول من يدخل إلى الحرم من باب بني شيبة، فوافقوا على ذلك.

وكان أول من دخل إليهم من الباب هو محمد بن عبد الله ﷺ، فقالوا قبل أن يصل إليهم فرحين لأن القادم نزيه ومتجرد، وعاقل مترفِّع عن الأهواء، ولا يداري ولا يماري: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد.

وما إن بسطوا إليه مشكلتهم، بدا له الأمر بسيطًا، بسبب تأثير نظافة القلب على البصيرة، فطلب منهم ثوبًا، فأخذ الحجر ووضعه فيه، وأشار لأن تأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الثوب وترفعه، فرفعوه حتى وصلوا إلى موضعه، فوضعه بيده.

لقد كان الرجل المسن الموقر أبو أمية بن المغيرة المخزومي، تمامًا مثل زيد بن عمرو، وتمامًا مثل الرجل المسن الحكيم قس بن ساعدة الإيادي، يشير إلى رجل لا يعرفه، ويعلن عنه قبل أن يجيء، وهو نفسه في المرات الثلاث، إنه محمد ﷺ.

لقد كان أبو بكر، الابن البار للقبيلة، يشعر بغربة عما يدور حوله من

تفاخر وتهجم وتهديدات طيلة الأيام الأربعة، وكان فيه هذا الحزن الذي يشعر به إنسان راجح العقل، طيب الروح، كاره للعنجهية والعناد، حريص على ما يجمع الأقارب، عندما يجد قبيلته على وشك الاقتتال لأن زعماءها غير قادرين على تجاوز مشاعر التعصب البغيضة، وأفرادها على وشك أن يقطعوا أرحامهم. كان بمنأى عن الشر الذي أخذ يصيب الناس من حوله، السفهاء، ثم العقلاء أنفسهم، مثل عدوى عجيبة، ذلك لحصانته الأخلاقية، ثم لكونه ينتمي لبطن ليس من البطون التي على خط المواجهة الأول في معركة السيادة الباردة.

لقد كان أبو بكر، العالم أكثر من غيره بأنساب قريش وأيامها، والواعي جيدًا لميراث الحقد المتسلسل على الأنصبة منذ أن تخاصم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على تركة قصي، والواعي جيدًا لكون بعض البيوت تشعر بجدارتها بالسيادة ومنافسة بني عبد مناف، كان يشعر بالضيق من هذا التهديد المستمر لبنيان القبيلة، وهذه القابلية المزمنة للتنازع، ويشعر بتلك الصدمة التي يشعر بها أكثر الأبناء برًا لأي جماعة، عندما تأتي ساعة ينكشف له النخر الذي يدب في بدنها.

ومن المؤكد أنه كان واحدًا من أسعد الناس بإطفاء نار هذه الحرب، وسعيدًا بهذا الإعلان الجليل والجديد عن محمد ﷺ. قد يكون عامة الحاضرين قد حسبوا ظهور محمد ﷺ لهم وهو يدخل من باب بني شيبة من قبيل الصدفة السعيدة، وقد يكون بعض الحاضرين قد حسبوا ظهور محمد ﷺ هو من تأييد الله لهم فيما يسعون إليه، وهو في الحقيقة كذلك، وفوق ذلك، فهو تأييد من الله لمحمد ﷺ.

اقرأ

قد خرج أبو بكر إلى الحياة ولم يجد في انتظاره وضعًا عليه أن يتخطاه، فقد كان أول شيء يستوعبه في طفولته من ضمن ملاحظات الأطفال الأولى أن الأبوين موجودان، ويحيطانه برعاية تامة باعتباره الذكر الوحيد، ثم لاحظ أن الدار فسيحة والأسرة ميسورة الحال أيضًا. وبعد أن خرج من طور الطفولة صار تاجرًا حاذقًا ومحبوبًا وموفقًا، ثم صار هذا التاجر سيدًا أيضًا من سادات قريش، بل وصار رجلًا معروفًا بين العرب في أنحاء الجزيرة. وإنسان كان له هذه الظروف، ومسيرة الحياة المطردة قدمًا، التي لا تعرف النكبات التي تكون في طريق الرجال وتعيدهم إلى الخلف، ويمتلك الصدق والوضوح والشجاعة، وقبل هذا روح القيادة، لا يكون مثل الناس في التعامل مع أي انهيار يهدد شيئًا قد بناه أو شارك في بنائه مشاركة جادة، إنه يفضل الموت على الوقوف على الأطلال، هذا هو تمرين الحياة له وهذا استعداده، وسيكون نافعًا جدًا في ظروف شديدة الصعوبة، عندما تهب ريح الردة الشديدة تريد أن تقوض العالم الذي شارك في بنائه.

أما محمد ﷺ، فالأمر مختلف، فهو يتيم الأبوين، وانتقلت كفالته من جده لأبيه إلى عمه أبي طالب تاجر العطور الفقير كثير الأولاد، لذا فإن صاحب نفس كريمة مثله يكون طموحه في الناس أن لايكون عبئًا على أحد، ويكون متعجلًا لأن يتخلص من هذا الشعور، لدرجة أنه منذ كان طفلًا صغيرًا بين أبناء أبي طالب الكثيرين، لا يهجم على الطعام مثلهم، وينتظر ما أبقته الأيادي المتزاحمة على الطعام القليل، وأحيانًا ما كان يظل على جوعه لأن الطعام قد

نفد، إلى أن لاحظ أبو طالب ذلك وجعل زوجته تعزل لمحمد ﷺ نصيبه بمفرده. وعندما تخطى هذا الألم الطويل بنفس صبورة، وتزوج كذلك مثل أي إنسان، وحقق رغبته الإنسانية في الذرية، لم يعد هناك لديه ما يجب تخطيه. وفي نحو السابعة والثلاثين صار قلبه مستعدًا لشيء آخر، تمام الاستعداد، شيء أعمق مما يأتي عليه الناس ويذهبون في التراب، شيء خارج الغفلة البشرية.

لقد كان فيه ما يعلم الله به وحده من شوق فطري عارم لأن يَعبد، قلبه يريد هذا بشدة، ولم يعد هذا الشوق قابلًا للتأجيل. ولم يكن هناك قلب على الأرض كلها فيه هذا الشوق للعبادة رغم أن صاحبه لم يكن لديه طريقة قويمة قد تلقَّنها للعبادة؛ فاختار من بين جبال مكة الصخرية الشاهقة التي تحيط بها، جبلًا صخريًا يقع شمال شرق البيت العتيق، وبدأ يختلي في غار في أعلى ذلك الجبل.

ومن ذلك الغار رأى البيت العتيق الذي تعلق قلبه به، الذي بناه أبوه إبراهيم وولده إسماعيل، واطلع أيضًا إلى الطوارئ السيئة حول البيت، تلك الأصنام الكئيبة التي يعبدها الناس، وشعر أن أمره وأمر البيت واحد، كلاهما مخنوق من تلك الأصنام. ومن هناك، بدأ يشعر بغبطة نادرة، وجرت ريح الإيمان الطيبة شيئًا فشيئًا بسفينة قلبه، فاطمأن واستبشر، ورأى الشرك الذي ضاق به طيلة السنين، من هناك، مثل جزيرة بعيدة يصل صخبها إليه ضعيفًا مثل الوسوسة.

أحب الاختلاء، ووجد راحة نفسه فيه، وصار يواعد فطرته في رمضان هناك، وفي غير رمضان، هاربًا من الصخب والعدم والخراب، والأباطيل العريقة، متأملًا في الكون الفسيح، مستحضرًا في قلبه الطيب عظمة الخالق، منزهًا إياه عن أن يكون له شريك من هذه البلاهات التي صنعها الإنسان بيديه. ولم يعد يربطه بجزيرة الشرك إلا ما يصنع من معروف، وما يصل من رحم،

وما يكرم من ضيف. وزوجته الكاملة الطيبة تبتسم له حينما يذهب حاملًا معه طعامه، وحينما تذهب له بطعامه وتمكث عنده بعض الوقت، أو حينما يعود. وكل ما تعلم تلك الزوجة المحبة المتفانية عن اختلائه أنه يوفر له شعورًا عميقًا بالرضا والراحة، وأنه يناسب زوجها الأكمل عقلًا وروحًا الذي يبحث عن بقعة وعن زمن يودع فيهما أضغان الناس وأقذارهم.

كان يعلم وهي تعلم أنه يفعل هذا بلطف يجعل سيره ذاهبًا إلى الغار وعائدًا منه شيئًا غير ملحوظ للناس، ومن لاحظ منهم هذه الزيارات لم يفكِّر فيها. ولكن ما لايعلمه ولا تعلمه هو أنه معروف تمامًا بين أهل السماء قاطبة، وأنه لا أحد على وجه الأرض، في مدينة أو في برية، ينتظر في الصبح أو في المساء ساعة كالتي ستأتي على محمد ﷺ فيتنزل عليه من رب السموات ما تنزل.

وبدأت تباشير نبوة محمد ﷺ قبل أن يكلف وينزل عليه الوحي بستة أشهر، بالرؤى الصادقة، فلا يرى رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح.

وفي ليلة صيفية، ولم يكن محمد ﷺ يتوقع أي شيء، فاجأه الملك جبريل وقال له اقرأ، فرد عليه معتذرًا بعدم القدرة: ما أنا بقارئ، فضمه جبريل ضمة شديدة، حتى ظن محمد ﷺ أنه ذاهب إلى الموت، ثم تركه جبريل وكرر ما قال: اقرأ، وكرر محمد ﷺ اعتذاره: ما أنا بقارئ، فكانت نفس الضمة الشديدة وهو لازال في خوفه وإجهاده، ثم تركه وقال اقرأ فقال له محمد ﷺ للمرة الثالثة: ما أنا بقارئ، فضمه ثم تركه وقال ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الباكورة

في ليلة رمضانية صيفية، كان فيها أبو بكر في بستانه بالطائف مع أسرته وأبيه وأمه وأختيه غير الشقيقتين أم فروة وأم عامر، بستانه الذي اشتراه منذ فترة قريبة جريًا على عادة أثرياء مكة من شراء بساتين في تلك القرية للتمتع بالهواء اللطيف، والشعور بالمسرة عند العيون الجارية، والسمر تحت الأعناب.

وكان قد عاد منذ قليل طيب النفس من عند عروة بن مسعود سيد ثقيف، فقد استضافه الرجل بحفاوة في بيته، فقد حمل عروة دية قتيل قتله رجل من شباب قبيلته، مائة من الإبل، واستعان بالوجهاء والموسرين في حمل هذه الدية، وأخذ يجمع من هذا رأسًا، ومن هذا رأسين، وأعانه أبو بكر وهو ليس من أهله، بعشرة من الإبل الشابة أرسلها مع خادمه في هدوء وبغير أي استعراض أمام الناس لطلب المديح. وقد كان أبو قحافة سعيدًا بمكانة ابنه المرموقة التي حققها بسخائه ولطفه، والتي جعلته يتلقى كل هذا التوقير من عظيم الطائف، وإن ألمح لابنه مرتين في معرض حديثه بلطف بأن خمسًا من الإبل الشابة كانت تكفي وزيادة لإعانة عروة، الذي ستكلفه السيادة جمع مائة من الإبل من ماله ومال الأجاويد، الذين تجبرهم السعة ومكارم الأخلاق على غسل سوأة السفهاء.

يجلس أبو بكر خالي البال، يشعر بالدعة والطمأنينة وهو يسمع لضحك أطفال الأثرياء القرشيين أصحاب البساتين المجاورة الذين جاؤوا يلعبون عنده، فيما أخذ صغيره عبد الله الرقيق ينظر إليهم بغبطة وهو يتمنى أن يشاركهم المرح.

وقد كان سعيدًا تلك السعادة التي تمنحها البساتين لأصحابها بسخاء، ويستمع خلف صخب الأطفال اللطيف إلى زقزقة العصافير، وينظر كل قليل إلى الزرقة الحالمة للسماء، والهلال البديع، وقد حمل النسيم إليه وإلى أهله المحيطين به روائح الفواكه الصيفية.

لم يكن يعلم وهو في هذه النشوة الآسرة التي يتمنى فيها الإنسان أن يتوقف الوقت ويترك الناس لهذا السلام الأخضر، لم يكن يعلم أن هذا آخر عهده بالدعة والاسترخاء، وأن العالم سيتغير من حوله بعد رتابة طويلة تشابهت فيها حياة الأجيال، ولم يكن يعلم أنه سيكون واحدًا ممن سيغيرون هذا العالم ويصنعون له بخناجر القراء وسنابك الخيل خارطة جديدة. هذا الرجل النحيف ذو الملامح المسالمة، الذي وصل إلى سن السابعة والثلاثين في رخاء، سيحمل حملًا ينوء به الأبطال الصناديد.

ووقف ابنه عبد الكعبة القوي البنيان يستعرض أمام العائلة مهارته العالية في التصويب، على حبات تين في شجرة، وقد سكت الجميع وحبسوا أنفاسهم وهو يشد وتر قوسه ويصوب تجاه تينة من مسافة بعيدة. وعندما فضخها سهمه، أخذ يهز رأسه لهم بكبرياء ظريفة ردًا على تحيتهم له على براعته. وبناء على طلب من عمته، أخذ يقلد بعض رجال قريش، هذا وهو يكثر من الحركة ولا يكاد يستقر في مكان، وهذا كيف رأى امرأة جميلة عند الحرم بجانبه تتعبد لإله آخر غير الذي يتعبَّد عنده، فقطع مناجاته وظل واقفًا مكانه وهو ينظر إليها عن يمينه، ولم يستأنف عبادته إلا عندما وقفت بجانبه زوجته، حتى غرقوا من الضحك.

كل هذا وأبوه الهادئ الحكيم ينظر لعلامات الفتوة البادية عليه وهو واقف

أمامه بخفة ظله نظرة إعجاب ورضا، سعيدًا بأوجه الشبه بينهما، فهو صادق مثله، وشامخ في الحب والنفور، وسعيدًا بتفوقه عليه، في بسطة الجسد وروح الدعابة. كان ينظر له باعتباره سندًا لن يغيب عنه أبدًا، لكن العالم سيتغير من حول أبي بكر تغيرًا كبيرًا، وينخل الناس، حتى لا يمكن توقع الأصدقاء والخصوم، وسيكون ابنه هذا في يوم ما عدوًا في جيش أعدائه، بينهما تلك المسافة بين عبد الكعبة وحبة التين.

كان من ضمن الجالسين في البستان أيضًا الصبي ابن التاسعة، مسطح بن أثاثة، وهو ابن بنت خالة أبي بكر، وقد تكفله أبو بكر منذ أن كان في الرابعة من عمره، لأن أباه قد مات وتركه هو وأمه في فقر شديد. وقد كان الطفل القصير غائر العينين قد لعب مع الأطفال المنعمين قليلًا ثم شعر بالملل، وجلس من خلف حلقة الكبار، وأخذ يختلس النظرات إلى أبي بكر، كما كان يفعل في أي وقت يقدر أن ينزوي فيه وينظر على راحته. ولو رأى أحد الجالسين وجه الصبي وهو شارد في وجه أبي بكر، سيرى في عينيه لمعة كلمعة السعادة والامتنان، غير أنها لم تكن كذلك.

وهذا العالم الذي سيتغير من حول أبي بكر وينخل الناس، لا يمكن توقع من ستظهر مودته فيه ومن ستخرج أضغانه، وسيكون هذا الصبي الذي يطعمه مثل أبنائه والذي تلمع عيناه بحسد الروح المحرومة، سيكون رجلًا قد عذبه الإحسان عذابًا مزمنًا لدرجة أن يطعن في عرض ابنة أبي بكر راغبًا في ذل الأسرة الكريمة.

لم يستطع أبو بكر أن ينام بسرعة في تلك الليلة، فقد فاض فيه حرص مبهم على العودة إلى الديار، ذلك الشعور الغامض الذي يدفع إنساناً أن يعود

فجأة إلى موطنه كأن هناك شيئًا ما يلح عليه بالعودة. لقد نام ليلتها وقد غلبته صبابة لصخور مكة السوداء، والزهرة الصفراء لنبتة السنا، وكل شيء هناك حتى الحمام، حتى هذا الهلال، يريد أن يراه من هناك.

وعندما عاد أبو بكر لمكة، كان كل شيء كما كان، باستثناء تغير واحد سيعرفه بسرعة، فقد صار صاحبه نبيًا آمن به أربعة إلى ذلك الوقت في تكتم.

كان محمد ﷺ قد عاد إلى بيته يرجف بعد أن نزلت عليه الآيات من سورة العلق، وحكى لزوجته خديجة ما حدث، فشهدت له بما لمست فيه بعشرة خمسة عشر عامًا، وكان من كمالها عندما شهدت لزوجها شهادتها التلقائية التي تعبر عما تبطن، أنها لم تشهد له باعتباره زوجًا، متأثرة بما يخصها فيه، إنما كان من عقلها أن تشهد شهادة عامة على أخلاقه: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وانطلقا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فسمع من محمد ﷺ ما حدث له وما قيل له، فاغتبط الرجل العالم الأعمى، لأن انتظار النبي قد انتهى أخيرًا، وها هو ذا بين يديه، لقد تجسدت البشارات أخيرًا في رجل من قبيلته. آمنت خديجة، وآمن ورقة، فكان أول اثنين آمنا بمحمد ﷺ لا تُجرَح درايتهما، فهي ألصق الناس به من القبيلة، وهو أعلم الناس فيها بالنبوة.

ثم أسلم علي بن أبي طالب الذي كان صبيًا يتكفله محمد ﷺ تخفيفًا عن عمه الفقير الذي كان يكفله، ومن نفس بيت محمد ﷺ آمن زيد بن حارثة مولى محمد ﷺ الذي كان ابنًا بالتبني وقتها لمحمد ﷺ.

وقد كان أبو بكر هو أول رجل فكر فيه محمد ﷺ لدعوته للدين الجديد

بعد الأربعة، متخطيًا بالتفكير فيه أقاربه جميعًا من بني هاشم. إنها البداية، حيث يراجع النبي في ذهنه كل من يمكن أن يأمل فيهم، ولم يكن هناك أحد قبل ذلك الرجل النبيل الودود ترغب نفسه في عرض الدين عليه، وذلك لأنه سيد عاقل، خال من الكبر والتكلف، مما يجعل بسط الأمر إليه سهلًا، وكذلك فهو محب يشعر تجاه محمد ﷺ وميله للصمت والعزلة بالثقة والارتياح؛ وغير هذا فإن أبا بكر رجل سمح وكريم يحسن القبول ويحسن الرفض، وسيتجنب إيلامه إن لم يقبل، وإن كان الألم واقعًا لا محالة، لأن تكذيب من لا يكذب أبدًا مؤلم بغير شك ويحز بالنفس.

كل هذه الأمور وغيرها كان محمد ﷺ يراجعها وهو في طريقه إلى بيت أبي بكر وقد عزم على أن يعرض عليه الإيمان، وعلى وجهه ترتسم ملامح الحسم والرجاء، وذلك الإحساس القوي بالمصير الذي يكون عند الإنسان في محاولاته الأولى، مضى إليه وهو يأمل في أن يكون هذا الصاحب سندًا له في الطريق الطويل المليء بالمصاعب. ولو شاهد أحدهم وجه محمد ﷺ وهو يدخل ثم شاهد وجهه وهو يخرج بعد قليل وقد تفجر بالسرور، وقد ازدادت خطوته فتوة، لغلبه الفضول لمعرفة ما كسبه محمد ﷺ داخل هذا البيت فجعله يخرج فرحًا كل هذا الفرح.

لقد سعد محمد ﷺ باستجابة أبي بكر السريعة ولن ينساها أبدًا، فلقد كانت مثل هدية جميلة أهداها الله إليه في الأيام الأولى له في درب النبوة، الرجل الذكي الزكي صاحب الفراسة وصاحب الشأن، آمن بينما محمد ﷺ لم ينته بعد من كلامه، لقد انفتحت نافذة قلبه لضوء الإيمان وهوائه وهو لازال يسمع.

بنبرة لا شائبة فيها من قلق، وببسمة رجل مطمئن تمامًا، شهد أبو بكر

فورًا لمحمد ﷺ بأنه جدير بالنبوة وبايعه. وكان هذا رائعًا حقًا، فمحمد ﷺ المشهور بالصدق والأمانة، لم يكن يتحمل هذا الشيء الذي لم يجربه ويعلم أنه سيجربه لا محالة وهو أن يرتاب فيه أحد ويكذب كلامه، لذا شعر براحة عظيمة تجاه الإقبال الجميل لأبي بكر. وسيظل أبو بكر من بعدها عند محمد ﷺ وللنهاية، وبعد أن أسلمت قبائل بالجملة، الرجل الذي انشرح صدره على الفور وصدَّقه.

لقد ترك محمد ﷺ صاحبه أبا بكر أيضًا وهو رجل آخر غير الذي دخل عليه منذ قليل، لقد غمر روحه إخلاص وانفعال وحمية رجل آمن منذ مدة، ودعا منذ مدة، كما تغمر شمس الصباح وجهًا ينام في أمان فيتحرك بكل علامات الحياة مرة واحدة. وخرج أبو بكر من بعد أن خرج من عنده محمد ﷺ وطاف على الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص في اليوم الأول من دخوله الدين وعاد إلى بيته مساء سعيدًا بأنهم أسلموا جميعًا. وفي اليوم التالي تحرك مرة أخرى فأسلم على يديه عثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وعبد عمرو بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم.

فرح محمد ﷺ بهذه الباكورة من المسلمين الذين دعاهم إلى الدين صاحبه. لقد أدخلهم أبو بكر الإسلام، وأدخلهم التاريخ الذي سيشد رحله محمد ﷺ، فهؤلاء الذين دعاهم أبو بكر منهم خمسة من العشرة الذين سيبشرهم محمد ﷺ بالجنة من بعد بخلاف أبي بكر نفسه، ومنهم الخليفة الثالث للمسلمين، ومنهم أربعة من الستة أصحاب الشورى الذين سيختارهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده، ومنهم قائد جيش

القادسية وفتح فارس. وسينضم إلى هذه الباكورة آخرون، ويلتقون جميعًا في بيت الشاب الصغير ابن السادسة عشر الذي عند جبل الصفا، الأرقم بن أبي الأرقم، ليعلمهم الرسول الدين.

وعلى خلاف ما كانت مشاعر أبي بكر وهو يحدق في وجوه أهله جميعًا في البستان، لا يحجزه عنهم أي شيء، ولا يؤلمه فيهم شيء، وجد أنه يرغب في أن يتغير هؤلاء جميعًا، وبسرعة، حتى لا يكون هناك حاجز بينه وبينهم. وأخذ يتذكر الأماجد الراحلين من قريش الذين ماتوا على الوثنية ومصيرهم إلى النار، ومنهم عبد الله بن جدعان سيد بني تيم.

وبدأ بابنته الحبيبة أسماء التي عادت لتوها من زيارة أمها قتيلة بنت عبد العزى التي طلقها أبو بكر، والتي كان بعينيها حزن شفيف يليق بشابة صغيرة كريمة تفرَّق أبواها، فقبلها وربت على ظهرها، واختار لها أن يجمعها به هي دون العائلة كلها ودون حتى أم رومان زوجته الحالية الحنون، صلة جديدة، فأعجبها أن تعرف تلك الصلة التي تزيدها قربًا من أبيها، وبعد قليل كان وجهها قد أشرق بالنور وهي تختار الإسلام كما اختاره أبوها. وتلا ذلك بأيام أن أسلم الشاب عامر بن فهيرة مولى أبي بكر بيسر أيضًا.

ومضى أبو بكر يدعو من يتوسم فيهم القبول، ينفعه حب الناس له، ومنزلته، وسمعته الطيبة ومن قبلها سمعة محمد ﷺ. وقد نفعه مرة اشتهاره بأنه يجيد تفسير الرؤى في دعوة أحدهم، وقد كانت الرؤية بغير أي حاجة إلى مفسر؛ فقد رأى خالد بن سعيد بن العاص في النوم أنه يقف على شفير النار، وذكر كم هي هائلة الاتساع، وكان أبوه مصرًا على دفعه فيها، فيما كان محمد بن عبد الله يمسكه من جانبيه لكي لا يقع. وقام من نومه مفزوعًا متقطع الأنفاس

ولاذ بأبي بكر لكي يفسر له ما رأى، فكان هذا أيسر ما فسَّر من الرؤى، ودخل خالد بن سعيد بن العاص الإسلام بذلك التفسير، ليصير واحدًا من أوائل المسلمين.

وظل أبو بكر مشغولًا بإيمان أهله جميعًا، وكان أبو بكر يشعر بالأسى وهو يحدق في وجهي أبيه وأمه وهما يتسامران على ضوء الحطب في سطح الدار، ويتذكران الأمور البعيدة، بذلك الصوت الذي يغالبه النعاس، خائفًا من أن يغيب هذان الوجهان عنه في الموت قبل أن يستطيع أن ينجدهما من الشرك، ويصيران ذكرى مؤلمة.

حجر العوراء

وبدأ أبو بكر يكلم أم رومان زوجته عن الله الواحد، والجنة والنار، وكل الأخلاق التي يدعوها إليها الإسلام. وكانت سعيدة برفقه معها، متمتعة بشرحه، معجبة بهذا الأثر العميق الذي تركه الإيمان على ملامح وجهه وعلى نبرة صوته، كأن هذا الإيمان قد تمم أخلاقه. وظلت في هذه المتعة، متعة الاعتناق، حتى أنها دخلت في العهد الجديد، وهي لا تذكر تحديداً ما هي الليلة التي وضعت فيها رأسها على الوسادة مستهترة تمامًا بالأصنام، ولا ما هو الصبح الذي قامت فيه مستبشرة ومسلمة.

وكانا يختلسان النظرات إلى ابنهما عبد الكعبة، ثم ينظران إلى بعضهما البعض، كأن كل منهما ينصح الثاني بأن يصبر على هذا الشاب، فموعده لم يحن بعد، فهو شديد الإخلاص لهبل، وشديد الغيرة على عقيدة الآباء، ومثله وهو بهذه الفتوة والإصرار، سيحتاج إلى أن يرى تغير العالم من حوله حتى يتغير معه.

وتمر الشهور، وتشعر القبيلة بأن هناك جماعة ما سرية تكونت، ينطوي أفرادها على أنفسهم؛ ولم يكن هذا شيئًا يثير الكثير من الحنق، لأن العالم لم يتغير في شيء تقريبًا، فلا زالت قريش كما هي في أعين العرب في المواسم، ولا زالت الأصنام تقف في قداستها الوافرة، ولا زال العرب يعظمون ذا القداح صاحب اليد الذهبية هبل، ولا زالوا يعلقون على الخلصة بيض النعام. فكان يغلب عليهم الظن أن هؤلاء جماعة خيالية سيغلبها الزمن ويطوي سجلها مثلما غلب كل من شذوا عن دين آبائهم، وينمحي أثرهم كما تمحو الريح آثار الأقدام

على الرمال. كان الشيء الذي يمكن أن يمتحن صبر القبيلة هو إعلان احتقار الأصنام، والقول بأن الراحلين من آبائهم احتضنوا عقيدة غبية وماتوا على ضلالة، وهذه إهانة لم تحدث. نعم، كانوا يشعرون ببعض الانزعاج، لكن في ذات الوقت كانوا يأملون في أن تكون هذه بيضة غير مخصبة عليهم أن لا يقربوها، وهي من جانبها لن تخرج أي شيء.

وفي السنة الرابعة من البعثة، كان النبي وصاحبه جالسين بالقرب من الكعبة، فوقعت عينا أبي بكر على العوراء زوجة عم النبي أبي لهب، أروى بنت حرب بن أمية، قادمة باتجاههما وهي تولول من الغضب وفي يدها حجر، وبهمَّة حيوان مسعور، ولم يعد هناك وقت يكفي لتجنب هذا الحيوان، الذي لم يمنعه الغضب من قول شيء شبيه بالشعر:

مُذمماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا

فعبر أبو بكر الذي يشعر بالمسئولية عن النبي عن خوفه من أن تراه، كان من أدبه ولياقته وهو في هذا الخوف عليه، ومن مهابة النبي عنده، أنه لم يقل أخاف أن تضربك بالحجر، ففعل كما يفعل إنسان إن أحب إنسانًا ووقره، فينبهه للخطر بمبدأ الخطر لا منتهاه، فاكتفى بالتعبير عن خوفه من أن تراه.

قال له النبي إنها لن تراه، وأخذ يقرأ شيئًا من القرآن يعتصم به. وعندما قال له النبي إنها لن تراه كان هذا نهاية قلق أبي بكر، فرغم أنها قادمة، إلا أنه صار متيقنًا من أنها لن تراه، لأنه قال ذلك. وقفت المرأة الغليظة العوراء وحجرها في يدها على بعد خطوات منهما وقالت لأبي بكر وهي تراه ولا ترى أحدًا بجانبه.

يا أبا بكر فأين صاحبك؟

الساعة كان هاهنا.

إنه ذكر لي أنه هجاني، ووالله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فمه، وايم الله إني لشاعرة وإن زوجي لشاعر ولقد علمت قريش أني بنت سيدها.

والله ما صاحبي بشاعر ولا هجاكِ.

أليس قد قال ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، وما يدريه ما في جيدي؟

فقال النبي لصاحبه: سلها هل ترى غيرك؟ فإن ملكًا لم يزل يسترني عنها.

فسألها أبو بكر، فقالت له: أتهزأ بي؟ ما أرى غيرك.

وذهبت للطواف، فداست على طرف ثوبها ووقعت على الأرض وقالت: نفْس مذمم.

فقال النبي لصاحبه: ألا ترى يا أبا بكر ما يدفع الله تعالى به عني من شتم قريش؟ يسمونني مذممًا وأنا محمد.

إذن لم يكن الأمر عبارة عن بيضة متوارية غير مخصبة كما رجحت قريش، ففي بداية العام الرابع من البعثة أعلن النبي محمد ﷺ دعوته على الناس، ومن ذلك النهار إلى أن حملت المرأة البذيئة الحجر، استهل الفريقان كفاحًا، فريق يكافح باسم الأصالة، والمصالح، وعواطف الجمهور، وباسم مكانة البلد المعرضة للتهديد، وفريق يكافح باسم الحق؛ فقد أمر الله النبي بالبلاغ، وبأن يبدأ بدعوة أقاربه في أول جهره ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

ودعا محمد ﷺ أقاربه إلى طعام، وجاءه خمسة وأربعون رجلًا، واحتفى بهم وجلس بينهم وهو يرجو أن يسمعوا منه ويقبلوا دعوته، ويكونوا لها. ولكن

قبل أن يقول أي شيء، جاء عمه أبو لهب متأخرًا وعلى وجهه علامات الاستفزاز، وقال وهو لا يزال واقفًا ويشير إلى الأهل الجالسين: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة [الخروج عن الدين]، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به.

فعرف محمد ﷺ أن عمه أثار مخاوف قوية لدى الجالسين ووضعه في مواجهتهم وهو يشير إليه بالبقاء على التكتم والتحفظ حتى لا يجعل العشيرة في مواجهة القبيلة والعرب. فقد نظر في وجوههم ورأى في تعبيراتها ضخامة المسألة، فسكت ولم يرد عليه.

ودعاهم مرة ثانية وبادرهم بالكلام وأقسم لهم أنه رسول الله، وأن هناك حسابًا، وأن هناك جنة ونارًا. وقد تأثر عمه أبو طالب الذي رباه وأحبه بالعاطفة القوية التي يتكلم بها، فعبر له عمه أبو طالب عن تعاطفه معه ووعده بتوفير الحماية، وحتى لا يأمل محمد ﷺ في أكثر من ذلك وهو مدفوع بالشعور بالتكليف العظيم، اعتذر له عن أن نفسه لا تطوع له فراق دين أبيه عبد المطلب. كان أبو لهب ينظر بضيق إلى أبي طالب وهو يتكلم، ويشعر أن هذه النبرة الحنونة ستجعل محمدًا ﷺ يتمادى ويلحّ ويحاول مرة أخرى، فحذرهم من هذا الأمر، وحرضهم على أن يشدوا عليه، لأنهم إن تركوه الآن فقد يضطرون يومًا إلى تسليمه وهذا إذلال هم في غنى عنه، أو يدافعون عنه ويتعرضون للقتل. لكن أبا طالب الذي رباه أخذه العطف والحمية وقال: والله، لنمنعنه ما بقينا.

في أول مرتين يرغب فيهما محمد ﷺ في الكلام علانيةً عن نبوته ودينه

كذبه أبو لهب، ويبدو أنه سيروق له أن يلاحقه بالتكذيب للنهاية. في المرة الثالثة فعل محمد ﷺ ما كان يخشاه أبو لهب وخرج من النطاق الضيق، إذ قام على جبل الصفا، وجعل ينادي يا بني فهر.. يا بني عدي. وأخذ ينادي على بطون قريش حتى اجتمع الناس عنده. فجاء أبو لهب أيضًا.

قال محمد ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال بنبرة صادقة مخلصة وهو يرجو أن يفيقوا: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فاخترق أبو لهب الصفوف وقال له بغلظة: تبًا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ وقد حزن محمد ﷺ مما قاله عمه، فهو رجل عاش معروفًا بالصدق والكياسة والبعد عن سفاسف الأمور، ولم يغلظ عليه أحد من قبل.

نزلت سورة المسد في عم محمد ﷺ الثري وجاره في ذات الوقت الذي فرَّغ نفسه للسير وراءه وتكذيبه والتشويش عليه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

لقد ضايق أبو لهب النبي ثلاث مرات أمام الناس، وفي كل مرة كان النبي يشعر بالحزن من شدة العم واستخفافه، ولكنه لم يرد عليه في أي مرة؛ ففي المواقف الثلاثة كان ابن أخ أمام عمه، يثقل عليه الرد الشخصي بسبب حيائه، ومنعة العم أيضًا ومكانته، وكذلك اتقاءً لغضب الأقارب. ولكن عندما نزل عليه هذا الوعيد المزلزل من عند الله، صار نبيًا يبلغ كلام الله ويتحمل تبعاته، ومنها تطليق ابني العم لابنتي الرسول، وقدوم زوجة العم وهي تحمل الحجر.

الجريمة البطيئة

عينا محمد ﷺ تكاد تخرجان من مقلتيهما، ووجهه المنكفئ قد احمر تمامًا، وفمه مفتوح عن آخره يحاول أن يجد الهواء، إنه يكاد يودع الحياة وعذاباتها مبكرًا من أثر الخنق الشديد، وعقبة بن أبي معيط، وهو من كبار بني أمية، لا زال يشد أعصابه على الثوب الذي يلفه حول رقبة محمد ﷺ الذي كان يصلي في حِجر الكعبة، وقد سيطر عليه الغل كأنه قد أصابه الجنون، حتى أن بعض الحاضرين الذين أشفقوا على محمد ﷺ من أن يقتل بهذه الطريقة، عجزوا من الهول عن التدخل، وأصابهم ذلك الخدر الذي يصيب الناس وهم يشاهدون جريمة بطيئة.

وكان أبو بكر يركض بعوده النحيف في الطرقات، بعد أن جاءه من يصرخ عند بابه: أدرك صاحبك. يركض وعيناه دامعتان من الرعب على محمد ﷺ، يركض وهو يتمتم مرة باسمه، ومرة يتمتم ويقول: النبي، وأنفاسه متلاحقه، والدنيا كالحة من حوله، والهواجس مؤلمة، وعضة الخبر في سويداء قلبه، ووقع كعبيه كأنه في جمجمته.

اندفع أبو بكر، وأخذ بمنكبي عقبة وهو يبكي ويقول وهو لم يسترد أنفاسه: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟

فهدأت ثورة الرجل وترك محمدًا ﷺ وهو ينظر له بغضب وحقد.

كانت محاولة القتل خنقًا، عندما جحظت عينا محمد ﷺ عند الكعبة وهو محروم من النفَس، من يوميات العناء الذي بدأ ولم ينته بعد، وكان هذا في

السنة السادسة للبعثة. ولم تكن الأيام بيضاء خالية منذ أن حملت المرأة حجرها في السنة الرابعة وإلى ذلك اليوم. كانت الأيام الشديدة قد بدأت، وصفير الريح قد ارتفع، وصار الصبر رزق هذه الجماعة من المؤمنين.

أول ما بدؤوا به حربهم هو التشكيك. ولأن العامة يمكن إقناعهم بأقل مجهود أنهم حراس القيم، صار النبي عرضة للمارة المتحمسين ضيقي الأفق الذي تلقفوا اتهامات السادة وأخذوا ينادونه بها أينما وجدوه: أيها الكذاب، ذلك المجنون، يا ساحر، هذا الشاعر الذي يفتن الناس، ما هو إلا كاهن. ذلك ولم يكن من صنعوا هذه التهم مقتنعين بها ويشعرون بالاطمئنان إليها، ولكنها كانت ما يمكن فعله لصد الناس عنه من ناحية، ومضايقته وتعطيله من ناحية ثانية.

ولم يكتف السادة بالتهم التي ألقوا بها للدهماء، بل مارسوا التنغيص والتطاول، فقد كان يصلي عند البيت مرة، وعمرو بن هشام المخزومي الذي يكنى بأبي الحكم مع بعض أصحابه، وتذكر واحد منهم أن هناك ناقة ولدت ورمى أصحابها الغشاء الذي كان يحيط بجنينها، واقترح أحدهم أن يوضع هذا الغشاء الخفيف المقزز الذي يسمى السلا على ظهر محمد ﷺ وهو ساجد، فيظل عليه بعض الوقت، لأنه لن يشعر به. وأعجبتهم الفكرة على رغم أنها من ذوق الرعاع، ولا تليق بمن لهم شأن حتى في العداوة. وقام عقبة بن أبي معيط لينفذها وهو فرح بتشجيعهم، شاعرًا بالظرف واللوذعية. وجلب عقبة السلا وتسلل بهدوء ووقف خلف محمد ﷺ وهو ينظر إلى أصحابه الذين يكتمون ضحكاتهم، إلى أن سجد محمد ﷺ، فوضعه على ظهره بحرص شديد وتراجع، وأخذوا يضحكون ويتمايلون على بعضهم البعض. وبعد قليل جاءت فاطمة بنت محمد ﷺ وهي تهرول وتبكي من شعورها بالغيرة على والدها

الكريم الذي يتعرض للحماقات في صلاته، بعد أن أخبرها أحدهم بالخبر، وألقت بالسلا بعيداً عن ظهره، وشتمت هؤلاء الضاحكين. ولما فرغ محمد ﷺ من صلاته، تألم من بكاء بنته التي يحبها جداً، ومن جرأة هؤلاء عليه، ورفع وجهه الغاضب ودعا عليهم بصوت جهير ثلاث مرات، فسكتوا واعتراهم القلق، ثم دعا مرة أخرى وهو يسميهم بالاسم، فباغتهم الخوف.

وكما اجتمع هؤلاء الذين دعا عليهم على الضحك، اجتمعوا وهم جثث ملقاة في بئر كئيبة بعد سنوات، وربما كان هذا أفدح ثمن في التاريخ لمكيدة من أجل الضحك. ووقف محمد ﷺ ينادي من أعلى البئر على هؤلاء الذين قتلوا في الحرب وأُلقوا فيها ليوبخهم. كان بينه وبينهم مسافة قصيرة إن قيست بالذراع، ولكنها طويلة بطول الحسرات الأبدية، والثبور الكثير.

الأيام السوداء

لم يكن هذا هو كل نصيب أبي بكر من الألم من بعد أن أعلن محمد ﷺ دعوته وإلى أن خنقه عقبة، فكما تألم من أجل النبي، تألم أيضًا من أجل المستضعفين الذين دفعوا أثمانًا باهظة من أجل الدعوة.

فإذا كان غضب قريش على أبنائها المؤمنين بالدعوة الجديدة غضبًا محسوبًا حتى في انفلاته، فإن غضبها على العبيد والموالي الذي اتبعوا دين محمد ﷺ كان غضبًا منفلتًا همجيًا. وقد كانت قريش قبيلة متحضرة ومتاجرة، ولديها عدد كبير من العبيد الذين اعتادت على وجودهم وتعرف كيف تنتفع بهم، فلا تنكل بهم كما يمكن أن يحدث في قبيلة أخرى في الجزيرة لديها عبيد قليلون ولا يحسن أهلها الانتفاع بهم فيدفعهم الجهل والفراغ للتنكيل. لم تكن قريش كذلك، ولكن الحرب بين الفريقين جعلتها كذلك.

لقد كان في المؤمنين القرشيين الفتوة التي يبثها الدين في النفوس، وفيهم أيضًا الإحساس الواقعي بالضعف الذي تفرضه الظروف، لذا عندما جرَّ المشركون القرشيون إخوانهم الضعفاء من العبيد الذين أسلموا إلى كابوس العذاب في الخلاء المنبسط خارج مكة، سيطر على هؤلاء المؤمنين القرشيين صدمة أولى، وشعور بالألم والغم والارتباك المأساوي، كالذي يمكن أن تشعر به جماعة من السباع الحرة والمجهدة، فوجئت بكثرة من الضباع تنقض وتتخطف الأشبال من هنا ومن هنا وتغرس فيها أنيابها وتمضي.

ها هو ذا أمية بن خلف الثري المتكبر الذي يحتقر الفقراء والعبيد، والذي

كان من ضمن ما لايروق له من محمد ﷺ التفاف المساكين وأصحاب الثياب الرثة حوله، ها هو ذا يقف أمام بيته يتابع عبيده وخدمه وهم يربطون الحبل بقدمي بلال بن رباح، العبد الحبشي النحيف الفارع الطول، وذلك بعد تجويعه وتعطيشه، ويقيدون يديه إلى الخلف، فيأمرهم بالانطلاق به. أخذه الصبيان في جولة بين جبال مكة وهم يصيحون حوله ويسبونه ويهددونه. بعد ذلك أخذه العبيد منهم، وانطلقوا به عندما اشتعل الرمل والحصى في شمس الظهيرة القاسية، وعرقلوه، فانطرح على الرمل المتقد، وضغط بعضهم بأقدامهم على قدميه وكتفيه حتى يثبتوه على الأرض الملتهبة، وهو ينظر للآخرين القادمين إليه وهم يحملون صخرة كبيرة، وينزلون بها على صدره. وعندما مالت الشمس للغروب جاءه السيد الذي يتجنب الشمس اللافحة، وقد صارت حنجرة بلال بعد الساعات الطويلة من العذاب والعطش مثل حجر من الملح، ولسانه كحديدة صدئة مسننة.

ما رأيك الآن يا بلال، أذقت العذاب، فهل آن لك أن ترجع إلى عبادة اللات والعزى؟

فيأبى بلال رغم ما هو فيه ويقول: أحد أحد.

وظل بلال في هذا العذاب لا ينطق بكلمة واحدة ترضي سيده، وظل في عذاب أشد من هذا العذاب رجل آخر هو خباب بن الأرت الحداد، الذي كانت سيدته أم أنمار تجبره على الاضطجاع على فحم متقد، فيتلوى من الألم وتفوح من لحمه رائحة الشواء. وارتاح من هذه الآلام ياسر بن عامر الذي مات من أثر العذاب، ولحقت به زوجته سمية التي فاض بها الكيل بسبب العذاب وموت زوجها، فشتمت أبا الحكم وختمت بالاسم الذي أطلقه عليه محمد ﷺ:

يا أبا جهل. فطعنها بحربة.

هذا فريق الذين كانوا لا يستطيعون الجلوس بعد انتهاء يوم من أيام عذابهم من شدة الوهن، فيقعون على جنوبهم. هذا فريق الذين صبروا على العذاب الطويل والعطش حتى اضطر رجال منه ونساء لأن يقولوا ووجوههم متورمة إن اللات والعزى إلهان من دون الله؛ حتى يجدوا لذلك الويل نهاية.

وأبو بكر الذي جرى لكي ينقذ النبي من الخنق، هرول حاملًا نقوده لمواقع التعذيب المؤسفة، ليدفع ماله لتحرير المعذبين بيد غير مترددة، وبدون أن يفكر في أن هذا النوع من الإنفاق قد يضر بما ادخره طيلة عمره؛ ذلك لأنه لا يدخر شيئًا في مرضاة الله.

وفيما كان أمية بن خلف في ظهيرة يوم ما ينزل بالسوط على بلال بن رباح، كان أبو بكر قد وصل إليه محزونًا مما يرى وقال له: يا أمية ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ إلى متى ستظل تعذبه هكذا؟

فقال أمية: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى. وأكمل الضرب.

فعرض أبو بكر شراءه، وأعطاه ثلاث أواق من الذهب.

فقال له أمية: فواللات والعزى، لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعته لك بها.

فرد عليه: والله لو أبيت أنت إلا مائة أوقية لدفعتها.

وأبو قحافة الذى تمنى لابنه منذ الطفولة مجد ابن جدعان وثروته، ولم يحب له أن يكون منفقًا نفس إنفاقه، والذي يحب لابنه الوحيد أن تتوفر له

الحماية، بلغه سخرية الناس من ابنه الذي يضع المال في غير موضعه لتحرير رجال هزلى قد هدَّ أبدانهم التعذيب، وهو نفسهم كان يشعر بالامتعاض من حرص ابنه على شراء هؤلاء المنهكين والمنهكات الذين أشرفوا على الهلاك، ويشعر بالحنق على هذه الدعوة التي سحرت ابنه وأفقدته صوابه، وقد زادوا بكلامهم إحساسه بالحسرة.

انفرد بابنه في البيت وقال له: يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت أعتقت رجالًا جلدًا يمنعونك، ويقومون دونك؟

فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله ﷻ.

فسكت الرجل، لأنه يعلم أنه لا يوجد على الأرض من يستطيع أن يفسد على ابنه همته في هذا الدين. وترك ابنه وخرج مهمومًا وهو يشعر بالغيظ لأن أمية بن خلف قد أخذ من ابنه ثمنًا كبيرًا لبلال، وها هو ذا بلال حر قد أعتقه ابنه ولم ينتفع به.

وفي الليل كان أمية بن خلف في مجلسه وعنده أصحابه وأمامهم الفاكهة والخمور، والنسيم يهب عليهم من النافذة الواسعة، يرتدي ثوبًا شفيفًا من الحرير الأصفر يظهر من تحته ثندوتاه الكبيرتان، متندرًا من بعثرة أبي بكر لماله، ومتندرًا من صلابة العبد الغريبة، الذي كان ينجيه من العذاب ويسقيه الماء أن يسب محمدًا ﷺ أو يذكر اللات والعزى بخير، ولكنه لم يفعل.

وهو في الخمر والفاكهة والنسيم العليل والصحبة المؤنسة، والشعور بالعزة والكبرياء، قال له أحد الجالسين إن هذا العبد سيتحاشى أن يراه ويعود من حيث جاء مذعورًا إن رآه في أي سبيل، بسبب هذه الأيام السوداء التي

ستظل في ذاكرته، فقهقه أمية وهو لا يدري أنه سيأتي عليه يوم يفر فيه من بلال مرعوبًا عندما يراه، وسيعيقه ثقل بدنه عن الانطلاق، ويبرك على الأرض عندما يدركه بلال ومن معه مثل دابة مذعورة منهكة، ولن ينفعه الصحابي الذي سيلقي بنفسه عليه ليحميه، فتتناوله السيوف من كل ناحية وهو في هذا الوضع المهين لينتهي قتيلًا، ثم يرمى في القليب، فهو من الذين دعا عليهم محمد ﷺ وسمَّاهم بالاسم.

خطبة الحرم

أم رومان عائدة في الطريق من عند بيت ابنها عبد الكعبة الذي ولدت له صبية اليوم، وكان قد انقطع عن زيارة بيت العائلة بسبب الجفاء الذي حدث بينه وبين والديه بسبب إسلامهما، لكن أم رومان بدأت تصله بعد انقطاعه مدفوعة بعاطفة الأمومة، ولان لها بعض الشيء ملتمسًا لها العذر ظانًا أنها اتبعت أباه على ما آمن به، مثل أي امرأة يغلبها حبها لزوجها فتسير خلفه في كل شيء.

وكان أبو قحافة أثناء سيرها في طريق العودة يجلس في البيت وحده حزينًا وخائفًا بعد ما سمع أن محمداً ﷺ كاد يموت خنقًا في الحرم. لقد شعر أن الأمور تمضي بسلاسة إلى نهاية مقبضة، وأخذ يتخيل ابنه النحيل وهو يتعرض للخنق الشديد، ويداه متشنجتان، ويطلب الهواء ولا يجده، حتى أسلم الروح. تحسس الرجل رقبته في انتظار ابنه وقال لنفسه إذا كان هذا قد حدث مع ابن عبد المطلب، فلن يكون ابن أبي قحافة عزيزًا.

وعندما سمع صوت الباب وهو ينفتح، ثبَّت بصره عليه وتأهب لرؤية ابنه أبي بكر، فوجدها أم رومان تدخل وتحييه وتبشره بحماسة بابنة حفيده، فهز الرجل رأسه وابتسم ولم يبد الكثير من الفرح، بل قال لها وهي تمضي أمامه إلى غرفتها: لقد انقسمنا، وآخر يوم كنا فيه بعافية هو اليوم الذي كنا فيه في البستان لو تذكرين.

وأرادت أم رومان أن تلهي حماها عن أن يكلمها في دينها ودين زوجها،

فقالت له وهي تبتسم إن ابنها لا يزال يحلم بليلى بنت الجودي بنت ملك دمشق منذ أن ذهب يبيع القطن ورآها خلسة، ولقد أعاد شعره فيها بعد أن دخل على زوجته النفساء وأغاظها به.

تذكرت ليلى والسماوة دونها فمال ابنة الجودي ليلى وماليا

لكن الرجل تجسدت له حسرته في نسله بشكل أوضح عندما قالت ذلك، وقال إن هذا خضاب من اليأس في شيبته، فحفيده يهيم بابنة ملك تعيش في قصر مشيد ويمدون لها البساط تحت قدميها أينما ذهبت ويجمعون لها الياسمين، وابنه العزيز فقد رشده عندما كان يقترب من الأربعين، ومن يومها صار يعشم في أن يهزم هبل.

قالت بصوت خافت: يكون. ومضت بدون أن تستفز حماها المسن.

أخذ الرجل يعد كلمات هادرة شديدة القسوة حتى دخل المساء، ولكن عندما جلس إليه ابنه الذي عاد وهو لا يزال يشعر بالهم مما جرى على محمد ﷺ، تبخرت كلها، وأخذ كل منهما يقرأ عين الآخر ولا يفهمه، وطال الصمت وقتًا قليلًا. ثم قال الرجل وفي صوته بعض الارتباك؛ لأنه لم يعتد على أن ينصح ابنه منذ أن كان صغيرًا: أظن أن كلا منا كان في الحقيقة يراهن الآخر بغير كلام، على أنه سيأتي عليه يوم ويدرك أنه أخطأ خطأ فادحًا، وأنه كان يمضي بلا هوادة في بحر من الرمال. وأنا أعلم أني لا أستطيع أن أردك عن سيرك خلف محمد حتى تكون مأساتكما معًا، فقط أقول لك دعني أجعل حبلًا بيني وبينك؛ لعلي أنتشلك يومًا ما، ولن أكلفك حتى وقتها أن تصرخ، سأوفر عليك هذا لأني أعلم اعتدادك بنفسك منذ صغرك، بل وأزيدك، لن أعاتبك بعد أن أنجيك.

فابتسم أبو بكر رغم ضيقه وقال لأبيه إنه لا يرضى أن يموت ويبعث وفي

يده طرف من حبل الشك هذا، فهو لم يشك في الله ساعة.

: ألا تذكر يا ولدي بشيء من الحزن جلستنا في البستان عندما كنا نشعر بالصفاء جميعًا، وها نحن قد افترقنا من بعد ذلك؟

: أذكر ذلك جيدًا ولكننا في عهد غير العهد، وأنا في نعمة خير من تلك النعمة. وبستان الطائف زائل مثل بساتين الذين سبقونا، ولا أحد أحب إليه اجتماعنا مني يا أبي، هناك في الجنة بغير كدر.

: كنت أعلم أنه لا رقية لك يا أبا بكر، وأنك ستظل على ما أنت عليه إلى النهاية.. حسنًا، فلنستمر في الرهان.. ولكن إن عاد بك الناس إليَّ في يوم قتيلًا، كيف تعترف وقتها بأنك خسرت الرهان؟

وبعد أيام، وقف أبو بكر عند الكعبة وأعطاها ظهره وحمد الله، وبدأ يخطب في الناس، في مفاجأة مذهلة للقرشيين، فتجمع عنده المسلمون من هنا وهناك. كان قد ألحَّ على النبي في ظهور المسلمين، ألحَّ على أن يعلنوا عن أنفسهم كما أعلن هو نبوته ودعوته، فذكَّره النبي بقلة العدد، ولكنه ألحَّ على ذلك؛ مؤمنًا بأن الحق لابد أن يفرض نفسه. فتوزع المسلمون في ساحة الحرم على أن يجتمعوا على صوته عندما يخطب.

وفيما كان أبو بكر في بدايات خطبته، مخلصًا فيها، وليس فيه أي ذرة ندم على هذه الخطوة الشجاعة، إذ به فجأة يشم رائحة الغبار ويشعر كما لو كان يختفي تحت قطيع من الثيران الهائجة، كانت الأقدام عليه تضربه في كل ناحية، وقعد على بطنه عتبة بن ربيعة، الفارع الطويل القوي البنيان، وأمطره باللكمات المتلاحقة، حتى نزف وهو لازال يحمي وجهه، لكن الرجل الشديد أزاح يديه عن وجهه، وأخذ يضربه بنعليه، حتى ما عاد أبو بكر يرى شيئًا من

حوله، وغاب في الظلام والهمهمة.

وصل الصياح إلى بني تيم بأن أبا بكر على وشك الموت عند الكعبة، فجروا وتركوا من ورائهم أبا قحافة الذي منعته الشيخوخة من اللحاق وارتخت عراه من الهلع على ابنه، وجرى ابن أبي بكر عبد الكعبة معهم ناسيًا الخصومة.

حمل عبد الكعبة وإخوانه من بني تيم أبا بكر في ثوب، ومضوا به إلى البيت، وكان عبد الكعبة ينظر إلى وجه أبيه الأبيض الدقيق الذي غابت معالمه، ذاهلًا من أن يصل به الحال لأن يتعرض للضرب بالنعل على وجهه، تختلط في قلبه مشاعر الشفقة والتأنيب. وأدخل أباه البيت مع شباب بني تيم وهم يظنون أنه ميت لا محالة، لذا أشاروا لبعضهم البعض ورجعوا ودخلوا المسجد وقد انتفضت عروقهم وأخذوا يرددون بأصوات مجلجلة: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

وأخذ أبو قحافة يقترب من وجه ابنه ويناديه بصوت حنون وأبو بكر لا يجيبه ولا يجيب نداء بقية الأهل، وهم يسمعون صفير صدره. وقد كانت أم رومان التي ذهب قلبها فزعًا على زوجها، تمسك بيد ابنها الشاب الذي لم يدخل البيت منذ مدة، كأنها تتمسك به وتشكره على أنه رق لأبيه وشارك أهله هذا اليوم الحزين. وظلوا وقتًا طويلًا ينظرون إلى وجهه ينتظرون إفاقته وحركة شفتيه المتورمتين.

وفي آخر النهار، وفيما كانت الغرفة مزدحمة برجال من بني تيم، حرَّك أبو بكر شفتيه، وفتح عينيه قليلًا كعين النائم، فاستبشروا، ثم قال بصوت ثقيل: ما فعل رسول الله؟ فغضب الحاضرون من انشغاله به وهو في مثل هذه الحالة الصعبة، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض مستائين، وقال أحد المسنين وهو

يشيح بيده ممتعضًا: لو كان هاجر إلى الحبشة مع إخوانه الذي هاجروا لأراح واستراح.

وانسحبوا وهم يوصون أم أبي بكر أن تطعمه شيئًا أو تسقيه. أما عبد الكعبة فأشار لأمه إلى أبيه الراقد وكأنه يقول: هل رأيت؟، وتوددت إليه أمه واستعطفته كي يقترب من أبيه حتى يعرف أن ابنه هرع إليه في هذه المحنة، ولكنه ربَّت على يدها وسحب يده من يدها ومضى.

انفردت أم أبي بكر بابنها وألحت عليه أنها ستعد له شيئًا من الطعام يتقوى به، ولكنه لم يكن يقول غير شيء واحد: ما فعل رسول الله؟ فقالت بنبرة امرأة بسيطة حنون ومغتاظة: والله ما لي علم بصاحبك. فقال لها: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فسليها عنه.

عرفت المرأة أن ابنها لن يأكل ولن يشرب إلا إذا اطمأن على صاحبه، فذهبت إلى أم جميل وسألتها، فاحترزت أم جميل وردت بلا مبالاة، خوفًا من أم أبي بكر، فهي ليست مسلمة، لكن قالت إنها يمكن أن تذهب معها إلى ابنها. وعندما دخلت عليه أم جميل صاحت من منظره ووجهه المتورم: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. فلم يرد عليها إلا بنفس سؤاله: فما فعل رسول الله؟

فنظرت إلى أمه مرتابة منها وقالت: هذه أمك تسمع.

فقال: فلا شيء عليكِ فيها.

فقالت: سالم صالح.

فقال: فأين هو؟

فقالت: في دار الأرقم.

فقال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا أو شرابًا أو آتي رسول الله.

انتظرت السيدتان حتى هدأت الحركة في الطرقات، وخرجتا به وهو يتكئ عليهما، حتى دخل على النبي، فأكب عليه النبي وقبَّله، وتزاحم عليه المسلمون يقبلونه وهم مشفقون عليه من حالته الصعبة، ورق له محمد ﷺ رقة شديدة.

وقال للنبي: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس من بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها، عسى أن يستنقذها بك من النار.

كان الشيخ الذي ضعف بصره يجلس حزينًا في البيت وهو يتخيل عتبة بن ربيعة وقد قعد على بطن ابنه النحيل وأخذ يضربه، ثم آذاه بالنعلين، وقد ازداد تغضن وجه الشيخ من الأسى وهو يتخيل ذلك. وأخذ يرجع إلى الذكريات القديمة المشوشة عندما كان ابنه شابًا يجلس في جلسة فيها عتبة بن ربيعة الذي يشاركه العلم بالأنساب، وكيف شاهد الجلسة وقلق وقتها من أن يسأله عتبة أو غير عتبة عن إعراضه عن الآلهة ولا مبالاته بها. كان أبو بكر يعيش الأمر كل يوم ببساطة، أما هو الأب، الذي ليس له ذكر من نسله غيره، فقد عاش بالقلق هذا طيلة عمره، كأنه كان يتنبأ بهذا القلق عن دين محمد ﷺ القادم.

فيما كان الشيخ غائبًا في أحزانه هذه وحسرته، وخوفه من المصير وشتات العائلة، كانت الأم من الخارج تفتح الباب وتذكر ابنها الموجوع بجانبها بصوت خافت للمرة الرابعة أنهما اتفقا على أن لا يعلم أبوه بإسلامها، وهي تغريه بأنها تعرف كيف تدخل له وتغير أفكاره وتقنعه في نهاية الأمر، فابتسم لها وقال: أظن أنك خائفة من الطلاق.

فرحة الشيخ

أخذ أبو بكر يشفى من أوجاعه يومًا بعد يوم، ويسترد ملامح وجهه بهبوط أورامه واضمحلال ألوان كدماته، محاطًا بسعادة الأسرة بنجاته من الموت، وهناءة أمه التي لم يكدرها في هذه الأيام إلا ما كانت تعاني منه من قلق كلما ناداها زوجها الشيخ، فتذهب إليه وهي خائفة من أن يكون نداؤه لأنه اكتشف حقيقة أمرها.

وكان أبو قحافة في تلك الأيام يلح على ابنه بأن لا يخرج حتى لا يشمت به أحد، وكان يجلس بجواره يتأمل في وجهه، وهو يحاول عبثًا البحث عن شيء يواسي به ابنه، حتى تيقن أنه ليس بحاجة إلى مواساة، عندما عبر له بلهجة صادقة ليس بها أي ادعاء عن أنه لا يندم على ضرر وقع عليه في الله، وقد كان هذا شيئًا عجيبًا في نظر الشيخ الذي لا يوجد في دينه شيء عن التضحيات، إنه غير قادر في هذه السن على استيعاب كل هذه المفاهيم القوية التي تشرَّبها ابنه وتمكَّنت منه. ولم يبق عند أبي قحافة إلا أن يتوسل إليه بأن لا يخطب في أصحابه مرة ثانية أمام قريش، ولكنه منع نفسه من أن يفعل ذلك، واكتفى بأن يشير مرارًا وتكرارًا إلى الرعب الذي عاشه أفراد الأسرة جميعًا بسبب الحالة التي دخل فيها البيت منذ أيام وهو محمول في ثوب، ولم يشأ أن يقول له إنه بكى وحده، ومسح دموعه وحده، عندما تركه الناس لخطوات الشيخوخة البطيئة وركضوا إليه، لم يشأ أن يقول له إنه كان يعاتب ضعفه الذي أخَّره عن ابنه.

وقد حمل الشيخ استفساره في وجدانه طيلة تلك الأيام: كيف يمكن أن لا يتكرر ما حدث؟. وكان يظن أن هجرة أبي بكر هي الحل الوحيد الذي يحفظه من الاغتيال، ويرفع عن أبيه وابنه عبد الكعبة الحرج. ولعل الهجرة بعيدًا عن محمد ﷺ لفترة طويلة تغيره، فيستعيد مشاعر التجار ولهفتهم إلى الأسواق وصلصلة النقود أثناء عدها، فيفيق ويحزن على ما أنفق، ويحزن على الفرص التي ضاعت، ويعتبر ما مضى تجربة صعبة لا يحب أن يتذكرها.

وفي يوم جلس أبو قحافة مع صديق مسن له عند الصفا على المصطبة أمام دار هذا الصديق، وهو مثله لا يحب الكلام، فجلسا لا يجدان شيئًا يقولانه. ثم إن أبا قحافة رأى من بعيد قليلًا جارية يعرفها من جواري قريبه الراحل عبد الله بن جدعان تركض ناحية رجل طويل قوي ومشدود العود يتوشح بقوسه، وألقت إليه بسرعة كلمات قليلة وركضت، فتركها وتغيرت خطوته وتغير اتجاهه.

وعندما مرت من أمام أبي قحافة سألها من هذا الهمام، فحكت له أنه الحمزة بن عبد المطلب، وأنها قالت له إن أبا الحكم اعترض ابن أخيه محمد عند جبل الصفا وآذاه وشتمه ونال منه ما يكره ثم انصرف عنه بدون أن يكلمه محمد. وقد أبلغته أيضًا أن أبا الحكم الآن عند الكعبة.

هز الشيخ رأسه، وقد توقع شيئًا جعله يشعر بالسعادة، وقام وذهب لابنه منتظرًا الأخبار.

وما توقعه الرجل هو أن هذه الخطوات الغاضبة هي خطوات رجل قوي من بني هاشم وارثي الشرف، راح يؤدب رجلًا من بني مخزوم أصحاب الثروات الذين يشعرون بأنهم فاقوا بني هاشم بالمال، وما يجعل غدر الأيام

ظاهرًا في عين هذا الصياد الذي ذهبت ابتسامته الجميلة عنه فور أن وشت إليه الجارية، هو أن التطاول جاء من أكثر الناس حماقة وتسرعًا في بني مخزوم، وعلى أكثر الناس عقلًا وحلمًا في بني هاشم. وهذا ما يخرج كل احتجاج النفس الأبية.

ومنذ أن دخل أبو بكر في هذا الدين الجديد، لم يشاركه أبوه الفرح بأي خبر من أخبار هذ الدين، ولم يستبشر بإيمان رجل أو امرأة، ولم يستبشر بأي وعد بالنصر أنار وجه أبي بكر. وقد كان أول ما شارك فيه ابنه هو الفرح بخبر إسلام الحمزة بن عبد المطلب عم محمد ﷺ، وخبر ضربه أبا الحكم بالقوس حتى شجه شجة منكرة، وخبر الثورة التي كادت تقوم عند البيت بين رجال من بني مخزوم ورجال من بني هاشم نتيجة لهذه الضربة. لقد فرح أبو قحافة كثيرًا، رغم أن العين ما زالت على عهد الرهان.

كان يحرجه ويضايقه أن يكون اسم ابنه الظاهر دائمًا في موالاة محمد ﷺ عندما يتكلمون عمن تبعه على دينه، باعتباره أعلى رجال قريش منزلة ممن أسلموا وأقرب رجالها إلى محمد ﷺ، ولم يكن يعرف كيف يعتذر عن هذا، ولا يعرف كيف يبتلع الغصة التي تجيئه كلما قالوا (صاحبه أبو بكر) ولو لم يقصدوا تبكيته. وبإسلام هذا الرجل العزيز المهيب، ابن عبد المطلب، يكون لدى القرشيين صدمة جديدة قوية تشغلهم عما يستشفه في نظراتهم من لوم، وتشغلهم عن التآمر على ابنه.

عاش يومين في فرحته هذه بإسلام حمزة، وفي اليوم الثالث تجددت فرحته وهو يسمع من داخل البيت جميل بن معمر الجمحي، وهو أنقل قريش للحديث، ينادي بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ، وعمر يقول من خلفه:

كذب، ولكني قد أسلمت. وكان عمر هو الذي كلفه بإعلان الخبر.

وتابع أبو قحافة باهتمام أخبار تجمهر الناس عند بيت ابن الخطاب يريدون قتله، حتى فضهم عن بيته العاص بن وائل، وهو من بني سهم حلفاء بني عدي. إذن هذا رجل عزيز ومهيب آخر، ومن بطن غير بني هاشم وبني تيم، صدم القبيلة صدمة كبيرة. ونام الرجل يومها نومًا هانئًا، وهو يؤكد لنفسه أن الرجال الصناديد أصحاب الجسامة يستفزون أعداءهم أكثر من غيرهم. هذا وفي ذات الوقت، وعلى هامش هذا الفرح الغريزي، كان يدخل في نوبات سريعة تائهة من الحزن على دين قومه الذي خسر رجلين كريمين.

وعندما زار أبو قحافة حفيده عبد الكعبة، وعبر له الحفيد المتعصب لدين أهله، ووليدته في حجره، عن غيظه واندهاشه من الإسلام المفاجئ لبطلين من أبطال قريش، وقال إن هذه أيام محمد، سند الشيخ وهو جالس رأسه إلى الحائط كأن الألم يعتصره، مفضلًا أن يداري فرحته عن الكل بما فيهم حفيده، باستثناء زوجته الطيبة التي يعرف أن مشاعر الأمومة عندها تلغي أي مشاعر أخرى، وهي استمعت جيدًا بهدوء، وهي تقرأ عينيه ضعيفتي الإبصار، بدون تعليق، لأنها لم تعد تعلِّق على أي خبر من هذه النوعية منذ أن أسلمت.

الضلوع البارزة

رفع الشيخ رأسه الذي يسنده على الحائط عند حفيده عبد الكعبة، ليجده جالسًا أمامه، وابنته لم تعد في حجره، بل تلعب بدمية من القطن وقد صار عمرها ثلاث سنوات؛ وهذه المرة لم يكن الشيخ يمثل التألم، بل فقط غاب قليلًا في حصاد السنين الفائتة، فابنه أبو بكر قد تحرك بالأمس ليلحق بالذين هاجروا إلى الحبشة منذ سنوات.

كان حال المسلمين قد تغير للأسوأ عن الأيام التي فرح فيها بإسلام الحمزة وعمر، وهو اليوم يرفع رأسه عن الحائط ويظن أن نهاية هذه الدين وشيكة جدًا بغير شك، وأن السيد الذي سيكسر إرادة محمد ﷺ وإرادة من نصروه هو السيد الجوع. ولم يحمل الشيخ إلا هم الأسى الذي سيشعر به ابنه بعد خروجه من هذه التجربة المجهدة التي امتدت لتسع سنوات، عندما يعود وقد ذهبت الريح بما جاء به محمد ﷺ، ويقف أبو بكر وقتها ببعض الكآبة على مواضع الذكريات؛ ولكنه على أية حال ثمن أقل فداحة من القتل.

لقد رفض محمد ﷺ مساومة قريش التي لجأت إليها بعد إسلام حمزة، فقد ذهب إليه عتبة بن ربيعة، وقال له إنه فرَّق جماعة قومه، وعاب آلهتهم ودينهم، وكفر من مضى من آبائهم. وحثه على أن يعرض صراحةً ما يريد من هذا كله، فإن كان يريد مالًا جمعوا له حتى يكون أوسعهم ثراءً، وإن كان يريد ملكًا نصَّبوه ملكًا عليهم، وإن كان ما به من وحي الجن بذلوا مالهم ليجدوا له الطب مما فيه. كان الرجل الذكي يظن أن توضيح الأثر الفادح للدعوة على القبيلة من ناحية، وإظهار القبيلة من ناحية أخرى على أنها كيان متحمل وسخي ويبحث

عن حل، هما كافيان للضغط العاطفي على محمد ﷺ ليقول ما في قرارة نفسه، فيعترف ببساطة بأنه صاحب غرض، أو صاحب مرض، كأنه لا يوجد شيء آخر.

قال له محمد ﷺ بعد أن تأكد من أنه فرغ مما عنده: فاسمع مني، وقرأ عليه من سورة فصلت حتى وصل إلى الآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فانخلع قلب عتبة من الإنذار الذي بالآية وخاف أن يقع به، فوضع يده على فمه وقال: أنشدك الله والرحم، أنشدك الله والرحم. وذهب إلى قومه وهو لا يزال مرتبكًا من قوة الآيات، مؤمنًا بأن الأمر أبعد من شكوكه، وقال إن ما سمعه ليس من الشعر ولا من السحر ولا الكهانة، ونصحهم بأن يتركوه وشأنه، وتوقع أن لا يضيع هذا القول الذي سمعه منه ببعض المضايقات، فإما غلبته العرب فارتاحوا بأيدي غيرهم، وإما يغلب بقوله على العرب فيصير عزه عزهم. فلاموه واتهموه بأنه تعرض لسحر محمد ﷺ.

ولم يعد لدى عم محمد ﷺ أبي طالب أدنى شك في أن قريشًا ستغتال محمداً ﷺ ولن تراعي حمايته له، لذا دعا بني هاشم وبني المطلب، من أسلم منهم ومن لم يسلم مثله، لحماية محمد ﷺ ومنع الناس من الظفر به، فأجابه المسلمون حرصًا على نبيهم، وأجابه الوثنيون حميةً لواحد منهم، وخرج من هذا الإجماع فقط أبو لهب.

وما هي إلا أيام حتى كان بغيض بن عامر بن هاشم في تلك السنة السابعة من البعثة يكتب صحيفة المقاطعة شديدة القسوة، الكفيلة بتجويع الجماعة التي اختارت حماية محمد ﷺ، تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، فلا يزوجوا إليهم، ولا يتزوجوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم شيئًا، ولا يكلموهم، ولا يجالسوهم، ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا، حتى يسلموا

محمداً بن عبد الله. وعلقت هذه الصحيفة في جوف الكعبة.

وعاش المحاصرون حياة قاحلة داخل شعب أبي طالب، بين أيام سيئة وأخرى كارثية، وكان الناس يأكلون في فترات الحرمان الشديد أي شيء يمكن أكله مثل ورق الشجر، أو قطعة من جلد الإبل، ويصل صراخ أطفالهم الجوعى ضعيفًا إلى الناس وفيهم حي العواطف وفيهم ميت القلب، ومظاهر البؤس هذه ترجع لكون القبيلة قد أحكمت حصارها بالفعل حتى لا يدخل التجار من أي ناحية للبيع داخل الشِعب المحاصر. وفي هذا الوضع الذي تفتر فيه همة أي قائد شاب، كان الرجل كبير السن قوي العزم أبو طالب، قد أقام حراسة دائمة على ابن أخيه محمد ﷺ خوفًا من أن يهجم عليه أحد من قريش، وأصر على الصمود للنهاية لأن نفسه تأبى تسليم ابن الأخ مهما كانت الضغوط.

وأخذ أبو قحافة وحفيده عبد الكعبة يراجعان ما حل بالمسلمين من ضيق، وكيف أنهم يعيشون على ما يتم تهريبه كل فترة ممن تعاطفوا مع أحوالهم، أو ممن لهم أرحام أو أصدقاء مقربون، ممن يستغل الواحد منهم حلكة الليل وهفوات الحراسة، ويصل إلى رأس الشِعب، ويترك خطام بعيره المحمل بالطعام والثياب، فيمضي البعير داخل الشعب.

وقد اتفقا على أن دعوة محمد ﷺ إلى زوال، وأن أبا بكر سيعود من هجرته إذن عندما ينتهي للأبد هذا الضجيج. واختلفا فقط في الوقت اللازم لينتهي كل شيء، ولم يأخذوا في حسبانهم أن العرب سمعت بهذا الحصار وأثار هذا الصمود فضول الناس لمعرفة ما جاء به هذا الرجل فاتبعه البعض لدرجة تحمل كل تلك المصائب الشديدة، ولم يأخذوا في حسبانهم أن أصوات الأطفال الجوعى كانت ترهق أصحاب النفوس التي فيها شيء من الرحمة

والنبل، ولم يأخذوا في حسبانهم أن التهم مهما تم إعدادها بعناية، ومهما سخَّروا لتمريرها أصحاب الشأن والحجة، تنحط أمام الدفاع الرهيب، لمشهد الضلوع البارزة.

كان محمد ﷺ نبي الدعوة داخل الحصار، وكل الرجال المحاصرين في حمايته؛ أما أبو بكر الذي يعتبر رجل الدعوة الثاني فهو خارج الحصار، ويعيش بغير أن يجيره أحد من أصحاب الشأن عيشة مهددة. وكان مؤمنًا بأن هذا الدين سيخرج من تلك المحنة، وسينتصر يومًا ما، ولكنه لا يعرف التوقيت، وما يقدر عليه وقتها هو أن يحفظ نفسه، ويجد متنفسًا للعبادة بغير تهديدات واعتداءات.

تحرك أبو بكر للهجرة إلى الحبشة ليبتعد عن محمد ﷺ للمرة الأولى، وفي فترة محاصرة، وبإذن من محمد ﷺ؛ خوفًا على الحياة، ولكن ليس أي خوف، وليس أي حياة، فإذا كان المعماري الذي وضع تصميمًا عجيبًا لقصر لا سبق له، وأخذ يشرف لسنوات طويلة على بنائه على الشكل الذي اختار، وكل ما يتمناه هو أن لا يهدم الموت لذته ويأتيه قبل أن تقف أعجوبته شامخة وكاملة أمام أعين الناس، لتمر عليها القرون من بعد ذلك وقد خلَّد فيها إرادته وبراعته، وإذا كان الرجل المؤلف قد هام بفكرة كتاب يؤمن بأنه لو أتمه سيكون من أمهات الكتب، وسيكون بين أيدي قراء لهم سحنات وملابس مختلفة بعد قرون، فينكب على تأليفه وهو يصل الليل بالنهار وحوله تل من المراجع، ويصير خوفه من الموت راجعًا لشوقه الشديد لأن يرى الكتاب كاملًا، فلا غرابة في أن يكون لدى أبي بكر خوف مماثل على الحياة، خوف الحريص على أن يرى بعينيه ويشارك بكل ما يستطيع في إتمام الشيء الذي كرَّس له حياته وهو هذا الدين.

وهذا الذي كان يسير بالليل في الطريق إلى الميناء حتى تحملة سفينة من هناك إلى الحبشة، لم تكن به خفة نفس تافهة فرحة بالنجاة، لأن هذا كان من اليسير عليه بأن لا يدخل هذا الدين ولا يدعو له ولا يخطب عند الكعبة ويتعرض للضرب وهو في هذه المكانة. بل كان يعاني من تعب النفس الأبية الجميلة من الشعور بالعجز، الشعور بالعجز عن رفع الحصار.

بخور التلاوة

عندما كان أبو قحافة يجلس بعد أيام مع حفيده في بيته، وكان كل منهما يتوقع حال أبي بكر الآن في الحبشة في أيامه الأولى، ومن سيكون أقرب الناس إليه من المهاجرين، والأسواق التي سيمشي فيها باحثًا عن فرص التجارة، والوعكة التي قد تكون أصابته من تغير المناخ؛ فوجئا بعبد الله بن أبي بكر طفل الأيام الخالية الدمث الرقيق، الذي بلغ مبلغ الرجال الآن ولايزال محتفظًا برقته وأدبه ولطفه، والذي أسلم مبكرًا، فوجئا به يدخل عليهما ويبشرهما بما لم يكن لهم فيه بشرى، وهو يبتسم ابتسامة خجولة: عاد أبي. قالها وقفل الباب ومضى.

كان أبو بكر قد وصل إلى برك الغماد التي على طريق تهامة التجاري، الذي تذهب فيه قريش في رحلتها بالشتاء إلى اليمن، ونزل عند مياه جارية، وأناخ راحلته، وأخذ يتجول بنظره بين الأشجار الموزعة والشجيرات التي على الصخور، ويشتم رائحة بحر السفر القريب. وجلس يتعبد لله بين الصخور السوداء المتناثرة حوله. وقد كان هناك شجرة في ممر على الناحية الثانية بعيدًا قليلًا عن المياه يجلس عندها في ساعة الصبح هذه ابن الدغنة سيد قبيلة القارة الكنانية التي تسكن هذا المكان، وحوله جماعة من أهله.

أرسل خادمه ليأتي له بهذا المسافر عند الضفة الثانية الذي يجلس متعبدًا، وقد ظن أنه لا محالة من أصحاب محمد ﷺ الذين لهم أحوال أخرى في العبادة. وعندما اقترب أبو بكر عرفه ابن الدغنة، وقام وأسرع إليه واحتضنه،

وأخذه وأجلسه بعيدًا عن رفاقه وهو ينظر إلى علامات الخشوع التي عليه، ثم نظر ناحية المقابر حيث يرقد عندهم عبد الله بن جدعان كبير بني تيم الراحل، كأنه يود أن يقول لمن مات إنه قد حدثت من بعدك أحداث وأحداث. ثم تأثر الرجل بالشحوب الذي على وجه أبي بكر، وأرسل خادمه ليأتي له ببعض الطعام والشراب.

وسأله: إلى أين يا أبا بكر؟

قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا عليَّ، فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي.

واستاء الرجل من أجل سيد مثله يضايقه أهله حتى يضطروه للعيش بعيدًا مستضعفًا بين من لايعرفون قدره ونسبه، وغار من أن يغيب رجل عربي من أهل المكارم في بلاد غير عربية، وقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يخرُج ولا يخرَج، فوالله إنك لتزين العشيرة، وتعين على النوائب، وتفعل المعروف وتكسب المعدوم، وتقري الضيف. وأنا لك جار فارجع، فاعبد ربك ببلدك، فإنك في جواري.

وتغير رأي أبي بكر بعد أن كان قد اقترب من ركوب البحر إلى الحبشة، ووافق على جوار الرجل وحمايته، فهو رجل يحبه القرشيون، وهو شهم مضياف، ومن كنانة مثلهم، وهو غير ذلك على طريق التجارة إلى اليمن ومن الصعب أن يخفروا جواره. وبعد أن أعد الرجل عدته واستراح أبو بكر، تحركا متجهين إلى مكة.

ولما وصلا إلى مكة، وقف ابن الدغنة عشية عند مجلس يضم أشراف قريش وقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله. وأخذ يستنكر أن تخرج قبيلة مثل

قريش رجلًا يتحلى بصفاته، وهم يسمعونه ولا يكذبون رأيه فيه. ثم قال إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير.

ونظروا إلى بعضهم البعض، وتشاوروا بسرعة، فهم لا يستطيعون أن يرفضوا جواره، فقال له أحدهم: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ويصلِّ فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ابن الدغنة: ذلك لأبي بكر.

ورضي أبو بكر بأن لا يعلن إيمانه الذي يخيفهم أثره، ولا يظهر بصلاته عند البيت الحرام، ويكتفي بعبادته في داره.

وتنفس أبو قحافة الصعداء هو وحفيده عبد الكعبة، عندما غاب عبد الله ثم عاد إليهم بخبر الجوار ثم مضى. وقال عبد الكعبة لجده الذي كان في زيارته: لا بأس بهذا، صار الآن في جوار سيد القارة فلا خوف عليه من القتل، ومن أن يتعرض له أوباش الناس، وصار أيضًا ملزمًا بأن يتستر بعبادته هذه ولا يغيظ بها أهلنا، فلن نشعر بالحرج منهم إذن بعد الآن.

فرد عليه الجد: وإني لأرجو أن يكون بسبيله إلى الإفاقة يا عبد الكعبة، فليأخذ وقته.

ولم تدم راحتهما طويلًا، فكما كان صوت أطفال الحصار يترك أثره المؤلم في بعض أهل مكة وفي بعض زوارها، كذلك فعل صوت أبي بكر بالناس. فقد صنع لنفسه عند باب البيت من الداخل مسجدًا صغيرًا هو عبارة عن مستطيل من الأحجار وضع فيه حصيرًا. وقد اندهش العبيد والصبيان والنساء والجواري وهم يمرون في هذا الطريق فيسمعون رجلًا يبكي ويشهق وهو يتلو، وقد راح

بعيدًا عن الناس في صلواته غارقًا في النور والرحمات. كان نشيجه شيئًا غير مسبوق لم يشاهدوا مثله من عبدة الحجارة، ولم يتنصتوا على مثله من رجل يناجي ربه. لقد مرت قلوبهم من الباب إلى هذا الرجل المتعبد الرقيق الذي يبكي حبًا لله وخشية منه، فألفت أن تزور هذا المكان كلما حانت فرصة، مثلما تألف القطط بيتًا طافت فيه وطعمت بغير خوف.

وبدأت الوجوه تتراص بجانب بعضها البعض وفوق بعضها البعض، تارة وجوه العبيد، وتارة وجوه الصبيان، وتارة وجوه النساء. وأبو بكر يخطف القلوب من الطرقات وهو منشغل عن الطرقات والصفقات والدنيا كلها. وهؤلاء الذين يسمعونه لا يعودون من عنده كما ذهبوا، ولا الوجوه ترجع وهي ذات الوجوه. لقد أدهشهم الاستماع إليه، وعلق شيء من بخور تلاوته وتقواه بقلوبهم، كما يعلق البخور بالثياب، فأحبوا أن يمروا من هناك مرة أخرى، ومرة، ومرة.

ارتعدت قريش من عبادة أبي بكر التي تفعل فعلها في الضمائر، فأرسلوا وفدًا منهم على وجه السرعة إلى ابن الدغنة، ليأتي إليهم. ولما جاءهم ابن الدغنة مستاءً بعد أن كان قد سمع من الوفد أن أبا بكر خرق الاتفاق، قالوا له: يا ابن الدغنة؛ إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره، وإنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة، ونحن نتخوف من أن يُفتتن صبياننا ونساؤنا وضعفاؤنا، فأته فمره بأن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فمشى ابن الدغنة إليه في بيته، ووجد مكان المسجد عند الباب، فدعاه أبو بكر للدخول، فامتنع ابن الدغنة، وأشار بيده إلى المسجد الذي كان مكانه

كما وصف القرشيون، وقال باستياء: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك، وقد كرهوا مكانك الذي أنت به، وتأذوا بذلك منك. وقد علمت الذي قد عاقدت عليه قريش، فاقتصر على ذلك، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له.

ولم يشعر أبو بكر برغبة بالتمسك بهذا الجوار، لأنه لا يرضى بأن يعيش حياة هينة يتنازل فيها عن أن يسمع الناس منه آيات القرآن، وأن لا يبعث مصباحه أي بصيص من الضوء للناس، فقال للرجل: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.

قال: فاردد علي جواري.

قال: قد رددته عليك.

وأخذها ابن الدغنة ونادى في الناس: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد عليَّ جواري فشأنكم بصاحبكم.

وقد كان أول ثمار رد الجوار المؤلمة لأبي بكر وأسرته، هو أنه كان عند الكعبة فمر من خلفه شاب سفيه من سفهاء قريش ووضع على رأسه ترابًا وهرول. فمر الوليد بن المغيرة من أمام أبي بكر وقد رأى ما حدث، فقال له أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟

فرد الرجل بهدوء: أنت فعلت ذلك بنفسك.

فأخذ أبو بكر يقول: أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك.

القدمان الداميتان

يحتج أبو قحافة على ظن حفيده عبد الكعبة أن أبا طالب قد غلبته الشيخوخة وسينكسر عزمه ويسلم ابن أخيه في أي يوم من الأيام القادمة. وكانا يجلسان معًا تحت عريشة على الطريق. وأكد له بشيء من التعصب أن كبير بني هاشم سيصمد إلى النهاية، ولن يسلم ابن أخيه أبدًا. ولم يكن هذا الرأي إشفاقًا منه على المسلمين أو على محمد ﷺ، بل تحيزًا لرجل كبير في السن مثله أثار إعجابه، ولا يحب أن يقال عن شيخ مثله إنه استكان وانكسر أمام زعامات قريش الأقل منه سنًا. ومال بجسمه للأمام ونظر من داخل العريشة إلى صنم الرجل النحيل الهرم ذي النظرات المتابعة الحزينة، وقال: لا تظن أن المسنين وحدهم يا عبد الكعبة.

وما كان يرجحه الكثير من سادة قريش وقد قارب الحصار على إنهاء عامه الثالث، هو أن الحصار في النهاية سيدق عظام السيد الصلب أبي طالب الذي بلغ الثمانين، فيحدث للمحاصرين صحوة بعد أن يدفنوه، كتلك التي تحدث للجماعات عندما يهلك زعماؤها الذين حببوا إليهم التحمل والكفاح، وفي هذه الصحوة يعون حجم خسائرهم الهائلة التي زينها لهم الراحلون، ويتكلمون عنها بغير حرج؛ وعندئذ لن يكون أمامهم إلا تسليم محمد ﷺ. وكان أبو قحافة يظن أن أبا طالب سائر إلى الموت بغير معرة التسليم، ليكون التسليم من بعده من زعامة من بني هاشم، وهذه أشياء تحدث من الزعامات الأقل سنًا، على حد قوله.

كان أبو قحافة وحفيده يتكلمان مثل أغلب الناس عن الآثار الظاهرة للحصار، ولم يضعا في حسبانهما أن له آثارًا أخرى جادة على غير المحاصرين، كان يسحق ضمائر بعض الرجال من قريش، الذين شعروا كما لو أن الجوعى والمنهكين هم الذين يحاصرونهم ويقطعون عليهم الطريق عندما يرمون نظرة إلى الشعب ويجدونهم على هذه الحال الرثة.

مر عبد الله بن أبي بكر على جده وأخيه وهما في العريشة بوجهه المبتسم ونقل لهما خبرًا جديدًا ثم انطلق: لعل الناس قد خرجوا من شعب أبي طالب الآن؛ لقد انتهى الحصار.

كان خمسة من الرجال من قريش قد اتفقوا ليلًا على نقض صحيفة المقاطعة التي أهلكت أحبابهم وأرحامهم، وفي الصبح بدأ الكلام منهم عند المسجد الحرام زهير بن أبي أمية المخزومي، وأقسم أنه لا يقعد حتى تشق الصحيفة، فكذبه أبو جهل وأقسم أنها لا تشق، وكان قد ضايقه أنها جاءت من مخزومي مثله، فكذبه الأربعة، حتى شعر أن الأمر مدبر. وما جعل الأمور تفلت من أبي جهل الذي كان أكثر الناس قسوة فيما يخص الدعوة وأهلها، هو أنه عندما كان يحاول أن يجابه رأي الخمسة الحانقين على المقاطعة، كان أبو طالب عند المسجد أيضًا في ناحية أخرى يقول لزعامات من قريش إن ابن أخيه أخبره أن الله قد سلَّط على الصحيفة النمل الأبيض، فأكل ما فيها من قطيعة وظلم إلا ذكر الله. وعرض عليهم أن يفتحوا وينظروا، فإن لم يكن الأمر كما قال، فسيرفع عنه الحماية، وإن كان صادقًا فليرجعوا إذن عن القطيعة الظالمة. وانتهت القطيعة بعد قليل، لأن الصحيفة قد تآكلت بالفعل ولم يبق من كتابتها إلا ذكر الله.

وخرج محمد ﷺ ابن الخمسين عامًا من هذه الأزمة الطويلة الطاحنة،

إلى شدائد متتالية، فمات عمه أبو طالب الذي كان يفرض عليه حمايته بعد ستة أشهر من الخروج من الحصار، ثم ماتت الزوجة المخلصة خديجة بعد العم بشهرين.

وبعد شهر كان المطعم بن عدي قد تسلَّح هو وبنوه وأهله ووقفوا عند أركان البيت ومحمد ﷺ بجواره، ليعلن المطعم بن عدي حمايته لمحمد ﷺ حتى لا يتعرض له أحد من قريش. كان يبدو على محمد ﷺ في وقفته آثار رحلة شديدة السوء، كان متربًا، مرهقًا، ودماؤه قد جفت على حذائه. منذ خمسة عشر عامًا كانوا قد ارتضوه حكمًا وحمل الحجر الأسود من الثوب ووضعه في مكانه، واليوم يقف قريبًا من الحجر الذي وضعه، بعد أن وصل إلى الخمسين من عمره، مجهدًا، مخضب النعلين بدمائه، فاقدًا العم الحنون، والزوجة الحبيبة، وثقة الناس.

كان قد رجع لتوه من تجربة صعبة لدعوة أهل الطائف التي تبعد قرابة الستين ميلًا، قطعها ذهابًا وإيابًا مشيًا على قدميه، وتعرض هناك للسب والصياح والرمي بالحجارة حتى نزفت قدماه، فرجع إلى مكة بلدته غير المرحبة بوجوده، التي جحدت أمينها، وكان عليه أن يجد من يوفر له الحماية من تطاول الناس واجترائهم.

ابن الخمسين عامًا الذي عاد بهذه الحالة لم يكن يريد أن يجد من يحميه في شوال في السنة العاشرة من دعوته، من أجل فترة نقاهة سيقضيها في بيته، بل لأن موسم الحج قد اقترب، وسيخرج لدعوة الناس على أي حال.

مخيمات الحجيج

كان أبو لهب قد ارتدى ثوبًا مفضلًا من ثيابه ووضع الدهن على شعره وتعطر واتجه إلى الباب، عندما نادت عليه زوجته أم جميل وسألته عن جهته، فقال لها وهو ينظر في مرآة الفضة القريبة من الباب معجبًا بهندامه ووضاءة وجهه، إنه ذاهب خلف محمد ﷺ ليفرق الناس عنه، فهو يريد أن يظفر بالعرب فرادى وجماعات في موسم الحج ليصرفهم عن اللات والعزى، وهو سيظل خلفه ولا يجعله يهنأ أبدًا.

هزت رأسها وقد غلبها الغل، وسألته: أجل؛ ومتى تعود يا أبا عتبة؟

: لن أعود إلا بعد أن يعود هذا الأبتر إلى بيته وحيدًا خالي الوفاض وقد تعبت قدماه، وحزن من صدود الناس عنه.

وفي ذات الوقت من الصبح كان أبو بكر في بيته، وعلى قسماته تلك الدعة التي تتركها عبادات الليل على الوجوه الطيبة، يلح على الله في الدعاء كي ييسر لنبيه الأمر ويعود اليوم مظفرًا راضيًا وقد وجد ما يرتاح به قلبه، فهو سيطوف معه على مخيمات الحجيج ليدعو وفود القبائل. وهو في انتظار وصوله إليه وبصحبته علي بن أبي طالب الذي صار شابًا ناهضًا في الثامنة عشر. وقد كان يغلب عليه وهو في وقت الانتظار هذا تلك السعادة التي تغلب على الإنسان عندما يكون متحفزًا للعطاء لمن يحب.

فبعد ما جرى على محمد ﷺ في الطائف لم يعد يكفيه أن يعمل على

دعوة الأفراد والقبائل للإيمان بالله وحده كما فعل في السنوات الست الفائتة من الجهر، بل صار عليه أيضًا أن يبحث عن قبيلة تنصره وتحتضن الدعوة حتى يبلِّغ رسالة ربه. ولم يكن أبو بكر الذي جاد بماله حتى أنفق منه الكثير، وجاد بشأنه بين الناس حتى تعرض للضرب والإهانة، لم يكن ليبخل بأن يجعل علمه بالقبائل والأنساب في خدمة الدين والنبي، فهو أعلم بمن في القبائل من الأشراف والشعراء والحكماء، ممن يمكن للواحد منهم إن رضي بالدين أن يؤثر على أهله ويجمعهم على رأيه.

وقد كان ما بين أبي لهب وما يريده من تفريق الناس عن محمد ﷺ باب بيته، وقد كان ما بين أبي بكر وما يريده وهو أن يجمع الناس على محمد ﷺ باب بيته، ولكن شتان ما بين هذين البابين، فسيفضي باب أبي لهب الذي يريد أن يفرِّق في نهاية الأمر إلى أن يصاب بمرض مشؤوم معد، يترك له تقرحات فظيعة، فيتفرَّق عنه أهله؛ فسيموت بعد سنوات قليلة، وسيترك أهله جثمانه ثلاثة أيام لا يقربون منه خوفًا من العدوى. وبعد الأيام الثلاثة، وخوفًا من أن يعايرهم الناس بأنهم تركوا أباهم يتحلل في الهواء كالدواب النافقة، سيحفرون له حفرة ويدفعونه فيها بعامود، ثم يرجمون جثمانه بالحجارة حتى يختفي برائحته وعدواه. أما باب أبي بكر الذي يريد أن يجمع، فسيفضي في نهاية الأمر إلى أن يجتمع الناس عليه خليفة بعد موت النبي.

لم ييأس محمد ﷺ ولا صاحباه وهم يتركون مخيمًا من مخيمات الحج في تلك السنة العاشرة من البعثة بعد أن رفض من كانوا فيه دعوته، ويذهبون إلى مخيم آخر تُرفض فيه الدعوة أيضًا، كان لزامًا على محمد ﷺ أن يجد بلدة أخرى تحتضن هذا الدين بدلًا من بلدته التي تحاربه. ومن أجل أن يجد تلك

البلدة التي قد يكون أهلها في هذا المخيم أو ذاك أو ذلك، عليه أن يجرب ويعرض ويفتش في وجوه الناس عن أمل، وأن يرضى من الناس عن طيب خاطر بردود الرفض المهذبة، وأن يتحمل ويواصل بعد الردود المتهكمة الفظة المحبطة؛ وهو بين خيمتين، واحدة خرج منها، وواحدة يتجه إليها في زحام الناس، لا يزال يقول: هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلغ كلام ربي.

ودخل مخيم قبيلة عامر بن صعصعة، وهي من القبائل القوية التي لم تذق ذل سبي النساء ولم تدفع مالًا لغيرها. وتكلَّم واستحسنوا بيانه، حتى أثار إعجاب بيحرة بن فراس وهو زعيم من زعمائهم، فقد شعر الرجل المحنك بالقوة الروحية الهائلة التي عند محمد ﷺ، والسطوة الكامنة لديه التي تكون عند الرجال الذين يتغلبون على الإحباطات وينتصرون بالنهاية، والتي يمكن أن تستعين بها القبيلة في صناعة مجد جديد غير مسبوق، فقال لمن حوله: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.

واختصر الرجل على نفسه وعلى محمد ﷺ واتجه لما يريد: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

وكان الرجل يظن أن العرض عادل ومناسب للطرفين، فهو يقول له دعنا نستثمر فيك بغير تقتير، فإن نجحتَ ورثناك.

ورغم ما كان فيه محمد ﷺ من احتياج لقبيلة قوية، وها هو ذا قد تلقى عرضًا من أقوى قبائل الجزيرة، ولو رفضه سيخرج من هذه الخيمة ليستمر في الطواف على المخيمات معرضًا نفسه للاستخفاف وللإساءات، إلا أنه قال بغير

أي تردد: الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء.

وبالطبع رفض الرجل أن تقدم القبيلة التضحيات والحماية مقابل ما رآه لا شيء.

وقد كان بجوار محمد ﷺ رجلان يستميتان في الدفاع عن المبادئ، وفي تنزيهها من أوحال الحسابات البشرية، أبو بكر وعلي، إلا أنه يظل بالنسبة لهما معلمًا فذًا كما في مثل هذا الموقف، عندما لم يفكر لحظة في أن يتفاوض على ما هو لله، بينما أتباعه بين مضطهد في مكة ولاجئ في الحبشة، ولن ينتفع أحد من هذا الموقف إن سمعه أو قرأه مثلما انتفع به رجلان عاشا معاناة الفترة، ومضيا بجواره من بعدها في البحث المضني عن أمل تحت خيمة.

ومن ذلك المخيم مضوا يبحثون عن مخيم آخر، وها هو ذا أبو لهب يرى النبي، ويسرع الخطوات، ولما وصل النبي عند بني محارب بن خصفة، فوجد فيهم شيخًا معمرًا عند باب الخيمة، كلمه ودعاه إلى الإسلام، وإلى أن يحفظه حتى يبلغ رسالة ربه؛ فارتعد الرجل المعمر من الغضب وقال له: أيها الرجل، قومك أعلم بنبئك، والله لا يعود بك رجل إلى أهله إلا عاد بشرٍّ ما يعود به أهل الموسم، فأغن عنا نفسك. فمضى محمد ﷺ في طريقه.

وكان أبو لهب يسمع رد الرجل وهو سعيد ومبتسم، وقال للرجل فخورًا به: لو كان أهل الموسم كلهم مثلك لترك هذا الدين الذي هو عليه، إنه صابئ كذاب.

فقال المحاربي: أنت والله أعرف به، هو ابن أخيك لحمتك.

وكان لدى الرجل وقت فراغ، حتى أنه أشار لأبي لهب بأن ما قد يكون

بمحمد ﷺ هو من مس الجن، وقال إن معهم رجلًا قد يستطيع علاجه، لكن أبا لهب لم يكن لديه وقت فراغ، فلم يرد على الرجل، وأخذ ينظر من حوله باحثًا عن محمد ﷺ وهو مغتاظ من تعطيل الشيخ له، ومضى، في هذا الاتجاه، بل في ذاك، حتى تنفس الصعداء، أين تذهب مني، وأسرع الخطوات ووقف خلفه وهو يكلم جماعة من الناس، وقال وهو يشير بيده: إنه صابئ كاذب. التفت إليه الرجل مستنكرًا، لم يكن النبي، لقد اختلط عليه الشبه من الظهر، فاعتذر ومضى في بحثه؛ فيما كان الثلاثة قد دخلوا خيمة بني شيبان.

كان أبو بكر قد وقف قبالة مخيم بني شيبان، تلك القبيلة القوية التي تحالف الفرس، وعرف وجوه الرجال الجالسين وفرح، وقال لمحمد ﷺ: بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لسانًا وجمالاً.

أي أن هؤلاء الموجودين هم أكابر بني شيبان وزعاماتهم، ولفت نظره قبل أن يتوجهوا إليهم إلى أن بينهم رجلًا سيكون من الجيد أن يرتضي بالدين، وعلامته أنه الأجمل، والأحكم، واسمه مفروق.

وتقدم أبو بكر وبدأ الكلام وهو ينوي أن يثير فيهم الحمية: من القوم؟

قالوا: شيبان بن ثعلبة.

فقال: كيف العدد فيكم؟

فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة.

فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟

فرد عليه مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى. وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر

من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى.

وكان مفروق قد حسب أنه ربما يكون النبي الذي سمع عنه، فأكمل كلامه وقال: لعلك أخو قريش؟

فدفعت العاطفة الإيمانية أبا بكر لأن يحاول أن يقتنص شيئًا، كأنه يرغب في أن ينهي هذا الرجل العاقل الأمر ويعترف بالرسالة، فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا.

فرد عليه مفروق بسرعة بديهة: قد بلغنا أنه يذكر ذلك. ثم رمى ببصره إلى محمد ﷺ وسأله بلطف يليق برجل كيِّس: إلام تدعونا يا أخا قريش؟

فقال محمد ﷺ: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تُؤووني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد.

وطلب مفروق المزيد: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا.

فتلا النبي: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ورغب مفروق في أن يستمع إلى المزيد، فقرأ عليه النبي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال. وأبدى تعاطفه وأسفه على ما سمع من تكذيب ومعاداة فقال: ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك.

ثم جعل حسم الأمر عند هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا.

أما هانئ فأوضح أن أمرًا مثل هذا لا يحسم في جلسة وهو بهذه الخطورة، وسيحتاج الأمر إلى شيء من التروي، وأن نعود لبلادنا ونراجع أنفسنا.

وقد أحب هانئ أن يشرك صاحب الحرب فيهم فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

وأوضح المثنى بن حارثة لمحمد ﷺ أن القبيلة تعيش بين عالمين، بين الفرس من ناحية، والقبائل العربية في الجزيرة من ناحية أخرى، وهي وإن كانت لا تحفل بالقبائل العربية ولا تحمل هم حربها، إلا أنها تحذر غضب فارس، وعليه فهو يقول إن ما يمنعنا من المجازفة بإيوائك هو خوفنا من أن يستفز هذا الإيواء كسرى ملك الفرس.

وأنهى المثنى كلامه بعرض حماية جزئية: فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فرد عليه محمد ﷺ ردًا طيبًا يرفض به العرض كما رفض العرض السابق: ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه.

إمبراطورية فارس التي عبر المثنى عن قلقه المشروع منها، كانت قد أكلت

في ذلك الوقت أطراف الإمبراطورية الرومانية بما فيها دمشق وبصرى وأذرعات والقدس نفسها، وقد كان آخر خبر وصل إليه قبيل الحج يقول إنها أسقطت الإسكندرية وستقطع القمح عن عاصمة الرومان. والمثنى الذي يعرف عنها كل هذا وأكثر، والذي يعرف مثل غيره أن هذا الرجل الرصين الخلوق الذي يكلمهم يطارده عمه بين المخيمات، لم يجد شيئًا يرد به إلا التبسم عندما دعاهم محمد ﷺ في نهاية الجلسة الطيبة إلى أن يسبحوا الله ويقدسوه عندما يعطيهم عما قريب ديار فارس.

وبعد ١٥ سنة من خروج محمد ﷺ من مخيم بني شيبان، كان المثنى بن حارثة يدخل فارس قائدًا من قادة الجيوش المسلمة التي أطاحت بعرش الإمبراطورية الفارسية.

النسمة والمخلب

يجلس محمد ﷺ وحده صامتًا عند الكعبة، وملامحه تشي بشيء من الحزن، حينما رآه أبو جهل وهو سائر في طريقه يطارد فراغ أوقاته. وأبو جهل رجل خفيف الجسم كثير الحركة جامد التعبير، ويضع همته في نبرة صوته وجرأة نظرته. وهو نموذج شديد السوء للإنسان المفرط النشاط، فإذا سيطرت عليه فكرة قهرته، وظل يعمل عليها بغير هوادة، فلا يعطي نفسه عطلة للنظر في الأمور من جديد، ويظل يشعر بأن هذا الكفاح الذي خصص نفسه له يقع على عاتقه هو في الأساس، ويشعر بأن الآخرين الذين يشاركونه الهم هم كسالى ومتراخون، وقد يتوقفون عن العمل في أي لحظة، لذا لابد أن يستمر في العمل ليعوض قلة إخلاص من حوله، ويظل يدور في فلك يوميات العمل بلا انقطاع، فتزيده طاقة عمياء، حتى يصير مثل حجر يدور في مقلاع.

عندما شاهد أبو جهل محمدًا ﷺ في جلسته منطويًا على ذاته، سيطرت عليه شهيته للسخرية منه، وخاصةً بعد أن صار محمد ﷺ بالنسبة له رجلًا يعيش في مفارقة غريبة بين إيمانه بالنصر القادم ودخول الإسلام كل بيت في الجزيرة، وبين أنه صار يعيش في حماية رجل آخر من قريش. وتحرك بتلك الشهية، وبنشاطه وفراغه باتجاه محمد ﷺ، ليستخف به ويتندر بجديده.

بالنسبة لمحمد ﷺ لم يكن هذا وقت أبي جهل على الإطلاق، فقد كان محمد ﷺ يحمل هم ما يجب عليه أن يعلنه للناس، ويخشى أن يكذبه بعض من صدَّقوه، ويكره أن يحتفل أعداؤه احتفالًا شنيعًا بما سيعلنه.

فقد أسري به البارحة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس بصحبة جبريل على البراق، الدابة البيضاء هائلة السرعة. وربط البراق بحلقة في الحائط ودخل إلى الساحة وصلى بالأنبياء. وبعد ذلك عرج به جبريل إلى السماوات، حيث كان يمر بنبي من الأنبياء في كل سماء. وهو يعرف جيدًا أن مقولة الذهاب إلى بيت المقدس والرجوع في ذات الليلة، وبغير كلام عن السماوات، سيحتفلون بها احتفالًا مختلفًا باعتبارها شطحة بعيدة.

قال لمحمد ﷺ مستخفًا: أولم يأتك الليلة شيء جديد؟

وبكل صدق خالص قال: نعم.

فقال: ما هو؟

قال النبي: أُسرِي بي الليلة.

قال أبو جهل: إلى أين؟

قال النبي: إلى بيت المقدس.

قال أبو جهل: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال النبي: نعم.

أطربت المقولة أبا جهل جدًا، لدرجة أنه كان فقط يريد من محمد ﷺ شيئًا واحدًا وهو أن يصر عليها، ولا يتراجع عنها. فقال له: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم بما حدثتني؟

قال النبي: نعم.

فشعر أبو جهل بسعادة غامرة، فها هو ذا سيجني ثمرة كفاحه أخيرًا،

وسيقف محمد ﷺ من بعدها وحده، بعد أن ينفضَّ عنه حتى أقرب المقربين وهم يشعرون بالندم والإحراج، ويختفي في إعصار مقولته الغريبة، فنادى بحماس: هيا يا معشر بني كعب بن لؤي.

وتجمع الناس حولهما، فقال أبو جهل لمحمد ﷺ وهو يشير بيده له وللناس المتجمهرين: حدث قومك بما حدثتني.

قال النبي: إني أسري بي الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال النبي: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال النبي: نعم.

ووجد محمد ﷺ نفسه أمام جمع من الناس، فيهم من يضرب كفًا بكف، وفيهم من يبتسم له ويهز رأسه ساخرًا، وفيهم من لم يتحمل ووضع يده على رأسه من غرابة الكلام، كان وحده في مواجهة حفل تكذيب عامر.

هؤلاء الذي كانوا يكفرون به ويعبرون الآن عن ذهولهم مما قال، كان فيهم الكثيرون ممن مرت بأذهانهم نسمات عابرة من الوعي تتخلل جحودهم، خلال فترة الدعوة الطويلة، يشكون فيها تحت تأثير إلحاحه وصموده في ألوهية تلك الآلهة المصنوعة، ثم تذهب هذه النسمات سدى بعد ضربة على صدورهم من مخلب الحنين، مخلب الحنين للآباء والأمهات والأجداد، الذين يقول عنهم محمد ﷺ إنهم مشركون سيتعرضون في جهنم للعذاب الدائم والإهانة.

ولهذا كانوا يكرهونه، ويتمنون أن ينتهي أمره ويتضح أنه كاذب، حتى لا تمر بهم تلك النسمات مرة أخرى، وحتى يهدأ الحنين على الراحلين في التراب ولا يخمشهم بمخلبه؛ لذا كانت تعبيرات الدهشة حوله تعني من ضمن ما تعني فرحة بالخلاص من أوجاع طويلة مسكوت عنها.

وللإجهاز عليه، دنوا بوجوههم منه وقالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد. معتمدين على أن من بينهم من سافر ورأى نواحي المسجد وما يحيط به، وبعض هؤلاء لديه ذاكرة بصرية قوية.

فبدأ في الإجابة، ثم سألوه عن نواحي لم تثبت في ذاكرته، حتى شعر بالكرب الشديد، غير أن الله أظهر لعينيه البقعة كاملة حية أمامه وهو يكلمهم، ساحة المسجد، والصخرة التي في منتصف الساحة، والحائط الذي ربط عنده البراق، والأطلال التي حول الساحة، والممرات إلى الساحة.

ولدقة وصفه قالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب.

ولكن لم يؤثر هذا على إحساسهم بالغنيمة، حتى بعد أن وصف بالإضافة إلى ذلك قافلة في طريقها للعودة، ولم يبق الآن إلا الجائزة الكبرى، أن ينشق عنه خير رجل يعتمد عليه، أن يكذِّب هذا الكلام رجل مقرب إليه وله وزن وقبول وسمعة، فتوجه جماعة منهم إلى أبي بكر، وهم يسرعون الخطى، ويؤكدون لأنفسهم أنهم سيستردونه منه، ويؤكدون لأنفسهم أن تكذيب أبي بكر له ستكون خاتمة قصة محمد ﷺ بعد هذا السنوات.

استمع أبو بكر لنداءات متتالية، ولما رد عليهم من الداخل ليتريثوا قليلًا حتى يخرج إليهم، لم يصبروا وقالوا: تعال واسمع خبر صاحبك محمد.

فخرج محتدًا من الخوف عليه: ويحكم هل أصابه سوء؟

قالوا: إنه يحدث الناس عند الكعبة أنه أسري به إلى بيت المقدس.

قال: أوَ قال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال لقد صدق.

فرد عليه أحدهم متعجبًا: وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك: أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة.

ورغم أن المسلمين صدقوا ما قاله محمد ﷺ، إلا أن أبا بكر، الذي يعرفون أنه عاقل حكيم، وصاحب قدرة على تمييز الكلام، هو الذي أفسد فرحتهم، عندما لم يناضل في أعماقة لثانية واحدة من أجل التصديق، كما لو كان مع صاحبه. أبو بكر الذي جاؤوا ليرتاحوا في شكه لو أنه شك، أتعبهم بإيمانه العظيم، وتركهم يتدبرون أمر عقولهم وقلوبهم، وإلى أن تأتي ساعة الحقيقة، بين النسمة والمخلب.

الرهان

في ظلام العمى الذي انهال على بقية إبصار أبي قحافة، فلفَّه بالسواد، كان يتقدم ببطء ويده في يد حفيده عبد الكعبة، ليضع يديه على ركبة صنم من الأصنام الحجرية بالقرب من الحرم، ويتشبث بالركبة وهو في سبيله للتضرع، فتراجع عنه حفيده ليناجي إلهه على انفراد، فقال: جئت أشكرك على زواج أسماء بنت أبي بكر، وإن كانت وزوجها من الصباة، لكن لا بأس به على أية حال؛ أما عن العمى فلم أفاجأ به، فقد أخذ يتسلل إليَّ خطوة وراء أخرى، ويمكنني الاعتماد على غيري إن أردت أن يوصف لي شيء، وحاجتي إلى هذا ليست شديدة في الحقيقة. أنا جئتك اليوم يا ملاذي من أجل شيء كبير طامعًا في حنانك على عبدك الشيخ، فأرجو منك أن..... صراحةً أن تنصر الروم على الفرس، بل وفي زمن قريب حتى يرتاح قلبي، هذا لأن ابني لم يجد كنزًا عظيمًا مثل عبد الله بن جدعان، حتى يدفع لأحد هذا العدد من الإبل من جراء الرهان ولا يبالي، أرجوك. أرجوك.

وبعد فترة من الصمت وقد خفض رأسه قليلًا، أشار لحفيده كي يأتي ويأخذ بيده، فمضى معه وهو يكلمه: صدَّق أبوك صاحبه في أنه أسري به ليلًا إلى بيت المقدس وفي الصباح كان في فراشه في مكة موفور الصحة والنشاط، وهو قد عاد من الطائف القريبة بعد أيام في حالة تثير الشفقة، وها هو ذا أبوك يا عبد الكعبة يتمادى ويذهب بعيدًا ولا يكتفي بهذا التصديق الذي لم يكلفه شيئًا، بل راح يراهن على كلام صاحبه في حرب كبيرة بين العجم والعجم ليس لنا فيها غنيمة ولا معرَّة. أول الأمر قلت من شدة حنقي عليه: فليراهن

إذن ويخسر؛ لعل الخسارة ترده إلى صوابه. لكن في نهاية الأمر غلبتني العاطفة يا عبد الكعبة، وكرهت أن يسوق إلى غريمه مائة من الإبل.

ربت حفيده على ساعده بيده الأخرى وقال: كما لو كان ابنك قد حلف أن لا يترك لنا إرثًا وينفق كل ما عنده على أمنيات محمد وأمته التي يتوهَّمها.

كان الفرس قد قرضوا أطراف الإمبراطورية الرومانية وأضعفوها حتى كانت على وشك الانهيار التام، وقد كانت هناك مراحل مأساوية صادمة لهزيمة الروم منها خسارة القدس في عام ٦١٤ ميلادية، حيث حرق الفرس كنيسة القيامة، واستولوا على الصليب المقدس الذي يؤمن المسيحيون بأن المسيح قد صلب عليه، واستولوا على البطريرك نفسه وأخذوه معهم، وبعث كسرى لهرقل يسأله: إنك تقول إنك تعتمد على إلهك، فلماذا إذن لم ينقذ أورشليم من يدي؟

هذا السؤال كان يعجب القرشيون الذين يعتبرون أن الفرس مقاربون لهم، أما الروم المؤمنون بالإنجيل فهم أقرب للمسلمين، الذين يؤمنون بأنبياء اليهود وبنبوة المسيح وبالله وبالحساب، ولديهم كتاب مثل الأمتين. وكانوا يعايرون المسلمين بهزائم الروم المستمرة منذ سنوات، وبخراب بيت عبادتهم في القدس. ويقولون إنه لو حدثت مواجهة بينهم وبين المسلمين فسينتصرون عليهم كما انتصر الفرس على الروم.

في هذا الوقت الذي كانت فيه عودة الروم إلى سابق حالها بعيدة مثل عودة الشيخ إلى صباه، نزلت سورة الروم على محمد ﷺ: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ

وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وما إن سمع أبو بكر هذه الآيات، حتى ارتفعت معنوياته وأراد أن يغم بها قومه، فخرج بها إلى ناد من أندية قريش وقال لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخوتنا؟ فلا تفرحوا، ولا يقرن الله تعالى عينكم فو الله تعالى ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا.

فقام أبيّ بن خلف وقال له: كذبت.

فرد عليه أبو بكر بحدة: أنت أكذب يا عدو الله.

: أراهنك، عشر من الإبل مني، وعشر منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ، والمدة ثلاث سنوات.

وذهب أبو بكر إلى النبي وحكى له ما حدث، فقال له: ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر، ومادِّه في الأجل.

خرج أبوبكر ولقي أبيًا وتوجه إليه، فابتسم الرجل متوقعًا أن أبا بكر فقد حماسته وتراجع، وقال له: لعلك ندمت؟: لا، تعال، أزايدْك في الخطر، وأمادَّك في الأجل، فاجعلها مائة من الإبل لمائة، إلى تسع سنين.

وقد كان هناك لبس وحيد قد تم علاجه حول معنى بضع، فصارت إلى تسع سنين، تبدأ من نزول الآية والرهان، في الأشهر الأخيرة لمحمد ﷺ وصاحبه في مكة قبل أن يغادراها، وإلى موعد أقصاه ٦٣٠ ميلادية، لكن لم يكن هناك لبس حول معنى النصر، فالمعارك كثيرة، وقد تأتي متضاربة النتائج، أما النصر لأهل الكتاب الذي يعترف به أبي بن خلف ولن يجادل فيه، فهو النصر الحاسم الذي يعتبر نهاية للحرب. وهزيمة الفرس التي لا يتخيلها في

ذلك الوقت أبيّ بن خلف، أو المثنى بن حارثة، أو أكثر الرومان تفاؤلًا، ستكون من النوع الذي لا يستطيع أبيّ بن خلف أن ينكره، لأن الفرس الذين راهن عليهم سيعترفون بها ويوقعون على الصلح وهم أذلة؛ هذا وسينال عليها الصنم ثناءً حارًا من أبي قحافة.

ثاني اثنين

قبيل فجر يوم جمعة، يمشي شاب هادئ في سكينة وغنمه أمامه، هابطًا بها من عند جبل ثور الواقع في جنوب الحرم على بعد ميلين ونصف الميل منه. وخطواته في هذه الزرقة القاتمة التي يختلط فيها النور والظلام، تبدو خطوات بريئة لراع بسيط يغالب النوم، ويكافح الحنين الشديد للمأوى في هذا الجو اللطيف قبيل الفجر، فيمضي شاردًا في الأرض إلى أن يفيق مع صعود الشمس وجلبة الساعين على أرزاقهم.

وقد كان هذا الراعي عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، نزل بهدوء من عند غار في ذلك الجبل، بعد أن حلب للنبي وصاحبه أبي بكر، وتلك كانت أول ليلة يبيتان فيها في ذلك الغار. وكان ينظر إلى الأرض هكذا ليس لأنه يكاد يسير نائمًا، بل حتى يمسح بأظلاف الغنم آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر الذي نزل من عندهما منذ قليل بعد أن بث إليهما ما يدور في البلدة بشأنهما بعد أن غافلا قريشاً وخرجا للهجرة، ذلك لأن آثار الأقدام كفيلة بأن تهدي القرشيين إلى الغار.

ولن يهاجر النبي وصاحبه إلى مجهول، ولن يكون في طريقه إلى أغراب كما كان حاله وهو في طريقه إلى الطائف، فدار هجرته تنتظره بشوق شديد كأنه شوق القرون.

فالنبي الذي كان عمه يطارده وهو يدعو الناس والقوافل في الموسم، وهو في سبيله للبحث عن بلد يأويه، كان قد استطاع أن يغافل عمه عدة مرات في

الزحام، ولكن العم كان يعود سعيدًا إلى بيته؛ لأن أخبار الرفض التي فاتته كانت سرعان ما تصله. مالم يعلمه العم في وقته أن ابن أخيه ظفر بشيء في النهاية بعد اجتهاده وعاد إلى بيته مجبور الخاطر.

فبعد أن خرج محمد ﷺ من مخيم بني شيبان، وجد ستة من الشبان يتكلمون، واقترب منهم وتعرف عليهم، وهم من الخزرج من يثرب، وطلب أن يكلمهم فاستمعوا إليه، فعرض عليهم الإسلام وأسمعهم القرآن، فآمنوا كلهم.

لقد كانوا مرتاحين تمامًا وسعداء وهم يتأملون في وجهه الصادق الجميل وهو يكلمهم، لأنهم وجدوا أنفسهم يستمعون إلى النبي الذي كان اليهود يتكلمون عن قرب مجيئه منذ أن خرج هؤلاء الشباب للحياة، إنها السعادة بأن يكون الإنسان بغير ترتيب أمام نبوءة كبيرة تحققت. وقد كان اليهود يقولون لهم في أوقات التنفيس المختلفة، إن هناك نبيًا موحدًا مظفرًا سيفر من أمامه هؤلاء المتوكلون على الأصنام، القائلون للأوثان أنتم آلهتنا، وهم مجللون بالخزي، وسنتحالف معه في القضاء على الوثنيين. وعلى هذا فقد رأى الشباب الستة أنه طالما اتضح أن نبوءات اليهود حقيقية، وليست من مجاز الكتب، فلنتبعه نحن، بدلًا من أن يضعنا اليهود بين يديه أسرى.

الشيء الثاني الذي حبَّب إليهم الإيمان هو أنهم لمسوا نفس ما لمسه بيحرة بن فراس من بني عامر بن صعصعة، تلك القوة الروحية الهائلة التي عند محمد ﷺ، والسطوة الكامنة لديه التي تكون عند الرجال الذين يتغلبون على الإحباطات وينتصرون بالنهاية، ولكنهم لا يريدونها من أجل مجد قبيلة مثل شيخ بني عامر، بل للصلح بين القبيلتين المتطاحنتين في يثرب، الأوس والخزرج، فقد تركت الحرب الطويلة آثارها عليهم وكرهوها وكرهوا أن تشتعل

مرة أخرى؛ فإذا كان شيوخ القبيلتين لا يضمنون السلام، فالنبي يضمن ذلك. لذا وعدوه بأنهم سيعرضون عليهم أمره بعد العودة حتى يجمعهم الله عليه. وبالفعل بعد أن عادوا إلى أهلهم الذين تركت الحرب القاسية عليهم أثرًا من التواضع والتعقل والاعتدال، صار النبي محمد ﷺ حديث البلد.

بعد عام جاء إلى محمد ﷺ في الموسم اثنا عشر رجلًا من أهل يثرب، خمسة ممن أسلموا في السنة الماضية وسبعة جدد، وبايعوه في شعب العقبة بمنى.

وفي العام الذي يليه، كان وفد حج يثرب المكون من خمسمائة قد وصل، وفيهم سبعون رجلًا مسلمًا وامرأتين. وفي ليلة الثالث عشر من ذي الحجة، أي في آخر ليلة للوفود قبل العودة في ظهيرة اليوم التالي، كان الموعد الذي حدده محمد ﷺ، حتى يأخذوا سر البيعة معهم ولا تضرهم قريش إن وصلها شيء. كان النبي محمد ﷺ في شعب العقبة ينتظر المسلمين في وفد يثرب، الذين كانوا يتركون الآخرين بلطف، ويذهبون إليه في تلك الساعة التي يكون أغلب الناس فيها نيامًا أو مجهدين ليس لديهم طاقة على متابعة غيرهم، ويأتون إليه فرادى، أو كل اثنين معًا. ولم يكن مع محمد ﷺ إلا ثلاثة يعينونه، كان علي بن أبي طالب على فم الشعب، وأبو بكر على فم الطريق، وعمه العباس الذي لم يكن مسلمًا جاء ليتوثق له مع أهل البلد الذي سيحميه. وبايعه المسلمون من أهل يثرب على السمع والطاعة والنصرة.

وأخذ المسلمون يهاجرون إلى يثرب من الحبشة، وأخذ المسلمون في مكة يتسربون إليها على هيئة موجات صغيرة سرية، يلاحقهم غضب قريش وغيظها، ومباركة النبي الذي كان قد أفهم المسلمين أنه سيكون لهم دار هجرة

يجتمعون فيها وستظهر منها الدعوة.

وقد كان معروفًا لأبي بكر وغيره من المسلمين أن النبي سيهاجر هو أيضًا، عندما يؤذن له بذلك، فاستأذن أبو بكر النبي في الخروج، فقال له محمد ﷺ: لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا، فإني أرجو أن يؤذن لي.

قال: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟

قال محمد ﷺ: نعم.

وصار هدف أبي بكر هو الاستعداد لهذه الرحلة، فأخذ يعلف ناقتين من النياق الصالحة للسفر والأحمال.

وقد بكى أبو بكر من الفرح عندما جاء محمد ﷺ على غير العادة في الظهيرة يبشره بأنه قد أذِن له بالهجرة، ويبشره بأنه سيكون صاحبه الذي سيخرج معه من العالم القديم الذي جحده فيه الأقارب إلى العالم الجديد الذي ينتظره فيه المؤمنون.

وأخذه أبو بكر ليرى الناقتين اللتين رباهما في بيته من أجل هذا اليوم الموعود. ثم اتفقا مع رجل غير مسلم اسمه عبد الله بن أريقط ليذهب بهما في طريق غير الطريق المعروف إلى يثرب، ومر الرجل وأخذ الناقتين من عند أبي بكر ليمر عليهما عند الغار بعد ثلاثة أيام.

ثم مر محمد ﷺ على أبي بكر ليلاً، وبان على وجهيهما عزم الرحيل. وقد كانت ابنتا أبي بكر السخيَّتان مثل أبيهما، أسماء، وعائشة الصغيرة التي ورثت من أبيها الذكاء وقوة العاطفة والإيمان بمحمد ﷺ، تشاهدان تلك اللحظات

الأخيرة وهما تلملمان بسرعة ذلك الطعام الذي انتهيتا من إعداده، من فرط إحساسهما بعظمة اللحظة. وقد كان مشهدًا بسيطًا وعجيبًا في ذات الوقت، وسيبقى خالدًا، ذلك الذي حدث في الدقيقة الأخيرة عندما وضعت أسماء الطعام في جراب، ولما لم تجد حولها ما تغلق به فم الجراب، فشقت النطاق الذي تلف به وسطها توفيرًا للوقت إلى نصفين، لتربط بنصف من نطاقها جراب الطعام. ليخرج أبو بكر ومحمد ﷺ من باب خلفي في بيت أبي بكر مسرعين سيرًا على الأقدام.

لم يكن غياب محمد ﷺ الذي أرق قريشًا طيلة هذه السنوات بالشيء الذي تتأخر ملاحظته، هي كلمة (أين؟) قالها أحدهم في الصبح، حتى رددها الآخرون هنا وهناك ولم يجدوا إجابة، بل اكتشفوا وهم يبحثون عن إجابة أن صاحبه أبا بكر ليس موجودًا أيضًا. وبالرغم من أن هذا كان شيئًا متوقعًا تمامًا، إلا أنه صار مستفزًا كثيرًا. لقد جن جنون قريش وحشدت كل طاقتها في البحث عنهما في كل ناحية، ورصدت جائزة مقدارها دية الرجل، أي مائة ناقة عن كل واحد منهما، لمن يأتي بهما حيين أو ميتين.

واستعانت قريش بقصَّاص الأثر الخبير كرز بن علقمة الخزاعي، الذي خرج معهم بالثقة التي يوفرها التخصص. لقد مضى بهم يتبع خطوات محمد ﷺ وأبي بكر من عند باب بيت أبي بكر الخلفي، ومضى وراء الخطوات ميلين ونصف الميل، وصعد بهم ذلك الجبل الوعر جبل ثور وهو يتابع آثار خطواتهما بكل تركيز، في اتجاهه بكل يقين إلى الغار الذي بات فيه محمد ﷺ وصاحبه. وبعد أن صعدا وقد غلبهم الإجهاد جميعًا، قال لهم وهو يشير للأرض بالقرب من الغار، حيث اجتهد عامر في مسح آثار عبد الله بن أبي بكر بعد نزوله، وهو لا يدري أن في النهار بعد أن مضى بأغنامه رجلًا سيأتي بالآثار من عند بيت

أبي بكر بدون أن يرتبك؛ قال لهم بكل ثقة، ولا تزال أنفاسه مضطربة من مشقة الصعود: هذه قدم محمد ﷺ، وهذه قدم أبي بكر، إنهما ما تجاوزا هذا المكان، إلا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو دخلا في جوف الأرض.

لم تكن وقفة تلك الجماعة بعيدًا عن محمد ﷺ وصاحبه، فلقد كان أبو بكر ينظر إلى أقدام القرشيين الكثيرة التي أمامه، فقال بصوت خفيض: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. فرد عليه بكل ثقة بالله ليطمئنه: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. لا تحزن إن الله معنا. فاطمأن قلب أبي بكر الذي يحب النبي أكثر مما يحب نفسه، ويخاف عليه أكثر مما يخاف عليها. فأبو بكر كما هو، ذات الرجل الذي كاد يموت من الضرب، وفوجئ أهله بسؤاله عن محمد ﷺ وهو في قمة وهنه، وليس من صحة الوصف أن يقال عنه إنه أفاق يومها فذكر محمداً ﷺ، بل يقال عنه ذكر محمداً ﷺ فأفاق؛ وأقسم ألا يأكل أو يشرب حتى يطمئن على محمد ﷺ.

وبرغم هذه المسيرة المجهدة التي أخذت منهم وقتًا طويلاً، ووصلت بهم إلى هدفهم، وبرغم أن القرشيين كانوا ينظرون خلف كل شيء، وتحت كل شيء، ويدققون النظر في فروع الأشجار، إلا أنهم جاؤوا عند الغار الذي فيه طلبهم ووقفوا هكذا ولم يشعروا بأي رغبة في النظر فيه، ولم يكن الأمر يكلف أكثر من أن يجلس أحدهم ويرى وجهيهما أمامه، إلا أن فتورًا غريبًا صرفهم عن المكان، فأخذوا قصاص الأثر وإحباطهم ومضوا.

وقد تخلَّدت حادثة الغار بآيات القرآن الكريم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقد برأت ذمة الاثنين من مال الناس وألسنة الناس، فقد طلب أبيّ بن خلف من أبي بكر كفيلًا على الرهان قبل الهجرة بفترة بسيطة، ذلك لأنه كان يتوقع تلك الهجرة مثل غيره، فكفل عبد الله بن أبي بكر أباه. أما محمد ﷺ فقد جعل على عاتق علي بن أبي طالب مهمة رد ودائع الناس التي هي عنده على سبيل الأمانة، فردها في ثلاثة أيام.

وفي هذا النهار الأول بعد خروج محمد ﷺ وأبي بكر، كان الجد الأعمى قد دخل على أسماء وأمها وأختها وهو يستند على الحائط، وكان مصدومًا من خروج ابنه من غير أن يخطره، وقد فكر في أنه قد أخذ أغلب ما معه من نقود ليكون عياله قد افتقدوه وافتقدوا المال أيضًا، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه.

فردت عليه أسماء: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرا كثيرًا.

ولملمت بعض الشقفات والأحجار الصغيرة، ووضعتها في كوة كان أبوها يضع فيها ماله ثم وضعت عليها ثوبًا. وأخذت بيد جدها الأعمى، وقالت: ضع يدك على هذا المال.

وضع الرجل يده وتحسس وهز رأسه: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.

فاستطاعت بتلك الأحجار أن تسكن نفس الشيخ الذي جعلته هذه الهجرة شبه يائس من ابنه.

في ليلة الاثنين جاءهما حسب الموعد مرشدهما عبد الله بن أريقط ومعه

عامر بن فهيرة، وتحركوا.

وكما رأى أبو بكر وهو في الغار أقدام الوثنيين قريبة جدًا، ثم رآها تستدير وتمضي، رأى وهو ملتفت من فوق الناقة في الطريق فارسًا يركض من ورائهم، وانزعج أبو بكر، فالرجل يقترب بسرعة عالية. وفجأة ساخت يدا الفرس في الرمال، حتى غاب فيها إلى الركبتين، فوقع الفارس من فوق الفرس، وقام وزجرها، فنهضت، وأجهدت وهي تخرج يديها، حتى أثارت الكثير من الغبار. أخرج الفارس قدح الأزلام وأخذ يرجه بين يديه، وسحب سهمًا، فكان السهم الذي عليه (لا تفعل)، فوضع قدحه وأسهمه في جرابه وصاح: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

لقد وقع سراقة مرة قبل تلك المرة التي رآها أبو بكر، عندما رآهم من بعيد، وكان هذا الأمر جديدًا بينه وبين فرسه، فلما وقعت به الفرس للمرة الثانية أيقن سراقة أن الأمر أكبر من قدراته على قيادة الفرس، وأن محمدًا ﷺ سيظهر، ولا أحد سيستطيع أن يعيده إلى مكة حيًا أو قتيلًا ولو خرج كل الساكنين في الطريق بإغراء الجائزة الكبيرة.

وجاءهم سراقة، وأخبر محمدًا ﷺ بعد أن تغيرت عاطفته تجاهه من الطمع فيه إلى التقدير، أن قومه جعلوا جائزة لمن يظفر به، وأن من يجده سيقتله. واتفق معه محمد ﷺ على أن يخفي عن الناس أنه رآهم. وبالفعل رجع سراقة من حيث جاء، فوجد من يسيرون في طلب محمد ﷺ في الجهة الصحيحة، فأخذ ينظر لهم نظرات تقدير مزيفة، كتلك النظرات التي تتبادلها فرق الباحثين عن كنز من الذهب رغم أن كل فريق لا يعمل إلا لمصلحته، وأخبرهم أنه غطى لهم هذه الجهة ولن يجدوا أحدًا، فامتنوا لهذا الكريم الذي وفر عليهم جهدًا

بلا فائدة واستداروا.

إذن نجا محمد ﷺ وصاحبه مرتين، مرة وهما في الغار، ثم مرة عندما كانا في الطريق ومن ورائهما سراقة، ولم تكن هذه النجاة لتغذية إيمان أبي بكر ويقينه، فقد وصل إلى الغاية في ذلك، ولكن هي معايشة لانسلاخ المرحلة المكية بما فيها من خطر، تلك المرحلة التي لا تريد أن تنتهي فخرجت من ورائهما، والتي انتهت بصعوبة باستدارة سراقة، تلك المعايشة التي من الطبيعي أن تترك فيه أثرًا ليس كأثر المتابعة وسماع الأخبار. فمن عاش هذا الخروج وأجواءه سيكون له إدراك مختلف لعصامية تجربة النبي محمد ﷺ في بناء مجتمع جديد بعد أيام، فيتصدى في المستقبل بكل عنفوان لأي محاولة لإعادة المسلمين لزمن الاستضعاف، ويكون لديه شعور مضاعف بالمسؤولية.

وكما أن المرحلة المكية لم تكن تريد أن تنتهي فأرسلت وراء محمد ﷺ وأبي بكر سراقة ورمح سراقة، كذلك فإن المرحلة المدنية كانت تتعجل الابتداء فأرسلت زوج أسماء بنت أبي بكر، الزبير بن العوام وثيابًا بيضاء مع الزبير، ليجدهما بغير اتفاق في الطريق إلى المدينة. لقد فوجئ الزبير هذه المفاجأة الرائعة وهو عائد من الشام من رحلة تجارية ومعه جماعة من المسلمين، فرحب بهما وسعد كثيرًا بخروج النبي من بين أيدي القرشيين سالمًا، وقدم لهما ثيابًا بيضاء يدخلان بها المدينة.

واستمر النبي ومن معه في سيرهم، إلى أن كان هو ومن معه يختفون ويظهرون في ثيابهم البيضاء في وهج الظهيرة، في بقعة من السراب، في عين رجل يهودي كان يطل من حصن من الحصون، فصاح يبشر أهل يثرب بمجيء حظهم.

وداع

كان أبو قحافة يجلس بجوار زوجته أم الخير، غائب في عماه وشيخوخته، ويسمع أصوات دقها في الهاوون النحاسي، ويشم خليط روائح البهارات، وهو يعبر لها عن انزعاجه من تلك الهجرة التي أعادت إليه الشعور بالحرج من ملازمة ابنه لمحمد ﷺ، وملازمة اسمه لاسمه، فالناس هنا جميعًا يقولون خرج هو وأبو بكر، دبَّر الأمر ومضى بليل هو وصاحبه أبو بكر. وذكر الأيام التي فرح فيها بإسلام الحمزة وعمر، وطلب لهذه الأيام السقيا. كان يتوقف كل قليل، لعلها تجاوبه، وكانت تجاوبه بالدقات الرتيبة؛ وفي النهاية قال لها إن ابنه هذا يقينًا يحب أن يقبر بجانب صاحبه في نهاية تلك المسيرة الصعبة، ولعله يدرك هذا. وكان يظن أن هذا التعبير الأخير لاذع جدًا.

وقتها، عندما كان الشيخ يعبر عن ضيقه من أن يلي ابنه النبي في كل شيء، كان النبي قد خط بعصاه خط قبلة مسجد قباء، أول مسجد يبنى في الإسلام، وأخذ حجرًا ووضعه، ونظر إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر خذ حجرًا فضعه إلى حجري. وبعد أن وضع أبو بكر حجره نظر النبي إلى عمر وقال: يا عمر خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر، وبعد أن وضع عمر حجره نظر النبي إلى عثمان وقال: يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر. وبعد أن صار هناك أربعة أحجار موضوعة بترتيب، التفت إلى الناس وقال: ليضع كل رجل حجره حيث أحب على ذلك الخط.

وبعد أيام مرت لا يعرف عددها لأن الأيام في الظلام صارت متشابهة

كثيرًا، وكان جالسًا يعبر لزوجته عن افتقاده لعائشة، ولطف عائشة، وحيويتها، وسرعة بديهتها، وحنانها، عائشة التي كان يصر على أنه ينتظرها مستقبل باهر، تمامًا كما توقع لأبيها من قبل في صغره، لأن لديها نهمًا للفهم والمعرفة لم يره عند أحد؛ غير أن هذا الدين الذي ظهر فجأة واختطف أبوها ولا يريد أن يفلته، قد أضلهما عن طريق النبوغ. وقال لها إن هذا الإسلام لو لم يكن شيئًا وكتب لهذه الجميلة النابهة الحافظة أن تتزوج من سيد، لصارت أحكم نساء قريش، بل أحكم نساء العرب، ولحفظ التاريخ اسمها، ولكن هكذا جاء الحظ بأن يقطف محمد ﷺ الفلتتين منه ويمضي في مغامرته، حتى إذا ما ذهبت دعوته ذهب الاثنان معها.

فوجئ أبو قحافة بزوجته التي بجانبه وبكل بساطة تسأله: إن كنت تراهما فلتتين من بيتك، ولا ترى نفسك كذلك، فلماذا لا تسلم كما أسلما؟

بهت الشيخ من كلامها، ولم يستطع أن يسألها السؤال اللازم: هل فعلتها وأسلمت؟ وأبعد وجهه عنها بهدوء حزينًا، كمن يبعد وجهه عن طعام لم يعجبه. وعلى عكس ما ظنت، فلم يكن الشيخ الأعمى الضعيف وقتها يشعر تجاهها بالغضب، بل فهم بهدوء أنها إذن أسلمت منذ وقت وأخفت إسلامها، وهو الآن يدرك ضعفه واعتماده عليها وبخاصة بعد أن فقد بصره، لذا تسلل إليه شعور بالامتنان لها على أنها لم تصارحه وتضعه في وضع حرج، فهو يرى بصوتها، واعتاد على العيش معها، ويعجز عن أن يستغني عنها، لذا هو كسب على أي حال بسبب هذا الكتمان سنوات إضافية من العشرة الطيبة مع بنت العم، كان تقدير الرجل الذي بحاجة إلى الرعاية لإسلامها السري أنها لم تشأ أن تضايقه لا أنها شاءت أن تخدعه.

لكنه من ناحية ثانية يفهم الآن جيدًا لماذا اختارت هذا الوقت لتصارحه؛ إنها لم تكن عفوية عندما قالت ما قالت، بل كان عليها أن تقول أي شيء قبل أن ترحل؛ لذا رد عليها بعد قليل من الوجوم بأنه لم يبق له إلا عبد الكعبة، وسيعيش معه. ورغم أنه لا يراها، إلا أنه كان على يقين بأن معالم الألم ارتسمت على وجهها وهو يتفوَّه بهذا معبرًا عن قلة حيلته.

وكان مشهدًا مؤثرًا وابن العم، الزوج الأعمى ينزل من السطح مستندًا على زوجته العجوز التي اعتنقت دينًا غير دينه، كان يحاول أن يتجاهل حنان يدها، وقد كان حنان اليد الوسيلة الأولى والأخيرة لدى هذه المرأة البسيطة لتدعو زوجها إلى الإسلام.

لقد عرف أنها اختارت هذا الوقت لتقول ما قالت قبل أن تمضي مع الأسرة المهاجرة، فكما هاجر أبو بكر مع محمد ﷺ، كذلك سيهاجر عبد الله بن أبي بكر ومعه أم رومان وأسماء وعائشة وجدته، وبرفقته زيد بن حارثة وأبو رافع ومعهما فاطمة وأم كلثوم بنتي محمد ﷺ، وسودة بنت زمعة زوجته، وامرأة زيد وولديها أيمن وأسامة.

وقف الشيخ أمام البيت يودعهم وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه لن ينزعج كثيرًا بغيابهم، مثلما كان يقنع نفسه بأن غياب بصره شيء هين وغير مفاجئ؛ ودعاهم للحرص على أسماء وأن لا يرهقوها.

قتيلة أم أسماء كان لها نصيب أن تلقي نظرة أخيرة على بنتها الحبلى طويلة القامة من بعيد أثناء تجمعهم بجوار الإبل، ونادى الحنان أسماء من ظهرها، فالتفتت ببطنها، ورأت أمها تنظر إليها من بعيد، وتبكي وتضحك، فلوحت لها

ودمعت عيناها، إذ لم يعد للشابة الطيبة من الأمنيات إلا أن تسمع أن أمها أسلمت.

وجاء عبد الكعبة وأخذ جده إلى بيته بكل حفاوة، وهو الذي تبقى له بعد أن أسلم أهل هذا البيت، وأبقى له أبوه شيئًا آخر في عنقه، فقد تكفل برهان أبيه بعد أخيه عبد الله، لأن التقاليد لا تسمح له بأن لا يكفل أباه رغم اختلاف الدين، فالامتناع يطعن فيه وفي أبيه.

عندما جلس أبو قحافة مع حفيده في بيته، وبعد أن التقط أنفاسه، عرض عليه في وسط الكلام أنه إذا ما خطر للواحد منهما أي خاطرة، مهما كانت عابرة، فعليه أن يتكلم مع الآخر، حتى يؤنسا بعضهما البعض، ووافقه الحفيد، ظانًا أن الجد يعاني من خوف الكبار من أن لا يسمعهم أحد، لكن الحقيقة أن الجد يعيش في صدمة إسلام زوجته، وشعر بأن الإسلام يأخذ الناس على غرة، في أي وقت، وخاف من أن يفعلها عبد الكعبة ويجد نفسه وحيدًا.

وفي خلال أيام قليلة، وبالنهار، كان أفراد الأسرتين المسافرتين الذين عايشوا الاضطهاد والاستتار بالعبادة، بما فيهم أم رومان التي عاد لها زوجها مضروبًا ضربًا مبرحًا من عند الحرم، وفاطمة بنت محمد ﷺ التي بكت عندما كان السلا على ظهر أبيها وهو ساجد في الحرم، قد امتلأت أعينهم جميعًا بالمنظر البشوش للمسلمين وبعضهم يحمل الأحجار، وبعضهم يصنع اللبِن الترابي، والنبي يحمل اللبِن الذي جف إلى موقع بناء مسجد المدينة، وهم يقولون بعض الشعر بأصوات متفائلة.

شامة وطفيل

في المساء كان أمية بن خلف جالسًا في الهواء الطلق، مع بعض أشراف مكة، ومعهم بنيامين، وهو تاجر يهودي صديق لأمية بن خلف من بني قينقاع، يجلسون جميعًا على سجادة بالقرب من عين ماء بمجنَّة وقد أشعلوا بعض الحطب، متمتعين بالأجواء الرائعة بين جبلي شامة وطفيل، ويشاهدون الظباء والطيور، التي تحوم حول المياه في مشهد بديع، ويشمون الرائحة الطيبة للنبات العطرية.

وبعد أن قال لهم الرجل اليهودي الذي سألوه عن أنباء محمد ﷺ إن محمدًا تزوج من بنت أبي بكر، قال له أمية لا نسألك عن زواجه وغير زواجه، إنما نريد أن تقول لنا ما نعود به إلى إخواننا لنهزأ به من محمد ومن فعاله، أو نبشرهم بأي شر له ولإخوانه، فإن الناس قد أساءهم خبر معاهدته مع يهود.

فقال الرجل وهو يبتسم أظن أن إخوانكم جاؤوا لأهل يثرب بالفقر، فقد عرفت قبل خروجي بأن محمدًا آخى بين الذين خرجوا من بينكم مفلسين، وبين أتباعه من أهل يثرب الذي يسميهم الأنصار، وأنت وحظك، فتكون أبيض ويهب لك محمد أخًا عبدًا، أو رجلًا صنديدًا فيدفع إليك أخًا عليلًا، وهذا الأخ الذي لم تلده أمك يشاركك في محصولك من التمور.

وقال أحد الرجال السكارى لأمية، وقد تمدد من خلف الجميع مستمتعًا بالهواء: لا خير فيك يا أمية، ما سألت الرجل عن حبيبك بلال ولا عن ابن أبي قحافة الذي اشتراه منك، ماذا صنع الله بهما؟

فقال اليهودي: تركتهما متجاورين راقدين من حمى المدينة، يهذيان ويرتعشان، ويهذي معهما مولى أبي بكر عامر بن فهيرة. ضحك اليهودي ثم أكمل كلامه وقال: إن عبدك يا أمية قد حنَّ لمياه مجنة التي نجتمع عندها الآن؟ ولو رجعت معي إلى يثرب ودخلت عليه لتعوده قال لك، وهو لايدري ما يقول، ما قاله الشاعر:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل تبدون لي شامة وطفيل

وانفجر الجالسون في الضحك وأمية يقول إن له ذوقًا ابن السوداء. وقال الرجل اليهودي وهكذا تجدون أن صاحبكم الذي كان يعد إخوانه بالمجد قد ساقهم إلى مجد الوباء، وجلب معه الفقر لأهل يثرب، وعوضهم عن ذلك بأن سماها المدينة. هذا كل ما في الأمر، وإني أرجو أن يكرهها هو وإخوانه ويعودوا لإذخر مكة وجليلها.

وكان من ضمن جلسة الأثرياء تلك صفوان بن أمية الجمحي، وبجانبه صاحبه وقريبه الفقير الذي جاء معه، عمير بن وهب الجمحي، وقال عمير لليهودي: ولكن ما الذي جعل أبا يوسف، الحصين بن سلام، حبركم، بكل ما عنده من علم ودراية وذكاء، يسلم في أول يوم رأى فيه محمداً، أما وجعتكم هذه؟

كان يبدو كأنه يستهجن ما حدث، أو يتخوَّف من أن ينتهي الأمر بأن يدخل اليهود رجلًا وراء الآخر في دين محمد ﷺ فيقال إن اليهود شهدوا له؛ وفي الحقيقة أنه كان يشعر في داخله ببعض الانزعاج من أن يؤمن بمحمد ﷺ رجل له علم بالكتب والأنبياء.

فقال الرجل اليهودي وهو لا يبالي كثيرًا بالسؤال: لا أدري ما دار في رأس ابن سلام، أما ما شاع من أمره فهو أنه رأى محمدًا ﷺ وحدث نفسه بأن وجهه ليس بوجه كذاب، وسأله عن ثلاث فأجابه. وأنا لست من علماء يهود بل من تجارهم يا صاحبي. وإن سألتني عنا فأقول إننا مثلكم لم نقصر، فمن أسلموا منا معه سميناهم خونة باعوا دينهم، وطعنَّا فيهم حتى لا يتأسى بهم غيرهم.

وأنا أقول لكم إن محمدًا يعيش في جهد ويقظة هناك أيضًا، فنحن معشر يهود لسنا معه، ومن أهل يثرب من هم على دينكم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول الذي أفسد عليه محمد جاهه وصرف الناس عنه بعد أن نظموا له الخرز ليعلنوه ملكًا، ومنهم من أعلنوا الإسلام وودوا لو يجدوا فرصة فينقلبوا عليه وعلى من معه.

فارتاحوا لما أكَّد لهم ما سمعوه من غيره بشأن اليهود وشأن عبد الله بن أبي بن سلول، كبير يثرب الذي يضمر الحقد على محمد ﷺ الذي أزاحه، والزعامات التي تتمنى أن تتخلص من هذه الدعوة ومن هؤلاء الأغراب الذين ملؤوا أزقة البلدة وزاحموا أهلها.

وأكمل كلامه وهو يبتسم، وقال: انتبهوا أنتم لأمركم، فإننا نحن اليهود لن نؤمن به أبدًا، فقد أخذنا حظنا كافيًا من الأنبياء، وأغلبنا الآن يفضلون أن يجدوهم في الكتب على أن يجدوهم في الحياة بيننا، فهم يأتون بالأغلال. وحتى القلة الذين انتظروا نبيًا يأتي من عند الله ما كانوا ينتظرون شاهدًا للمسيح وأمه، وكتابًا يوبخهم. ما كان أغناه عن ذلك.

فسأله أحد الحاضرين: ولو بعث الله رجلًا نبيًا في العرب يا بنيامين، هل

تراه يبعث غير رجل سيد عظيم الشأن يتبعه الناس؟

فقال الرجل اليهودي: أنا من تجار يهود كما قلت، ولست من أصحاب النظر الطويل في الكتاب، ولكن أعرف العرب جيدًا، فهم أهل فصاحة وأهل أنفة، فلو بعث الله فيهم رجلًا لابد أن يضع كبرياءهم به حتى يؤمنوا، بالقول والسيف، وغير ذلك لن يؤمن كافة العرب لأحد أبدًا. وقد جاء بالقول، وتحدى الناس به، ولم يبق إلا الثانية، ولا شيء بعد الثانية، فلو ظهر على العرب سيؤمنون به، فانتبهوا.

فأجمع الحاضرون وقد انتفخوا على أنه لن يذل قريشًا أبدًا ولو كان من ورائه من كان، وأنهم سيهزمونه ويمزقون جماعته حتى يعلم الناس أنه ليس على شيء. أما هو فأخذ يتفرَّس في وجوههم ليرى أي نوع من الصمود على وجه رجالات قريش، وفي لحظة عابرة بدا عليه كما لو كان مستاء، فكف عن النظر في وجوههم.

لسان الحمار

وقف الساحر داود في غرفته المعلقة على حوائطها الطلاسم المكتوبة بالزعفران وبدم الحمام، وكذلك قرنان كبيران لكبش، وأذيال مجففة وأظلاف، ورف خشبي مليء بالأنياب وفكوك حيوانات مختلفة، وقف وهو يهز في يده النقود التي أعطتها إياه المرأة العربية من أهل المدينة التي تقف وفي يدها لفافة صغيرة أخذتها منه، وقال لها بهدوء وبصوت جاد كأنه يحثها على التركيز لخطورة الأمر: إذن سأشتري لك الحمار البالغ، وأخفيه عندي في الزريبة، وعندما تنظرين إلى القمر وتجدينه بدرًا، سأكون بانتظارك عند الزريبة ومعي عبدان شديدان، يفتحان لي فكي الحمار بعدة البيطار فأقطع لسانه وهو حي، وتذهبين باللسان إلى بيتك على الفور، وتطبخينه مع الأعشاب السحرية هذه التي في يدك، وتطعمينه اللسان كله، وابتداءً من شمس اليوم التالي وإلى أن يموت، تكونين الآمرة الناهية في البيت، ولن تسمعي منه من بعدها إلا نعم ولبيك أم عوف.

وبعد أن نزلت المرأة من هذه الغرفة العلوية المقبضة الهادئة مثل القبور، فتح الساحر داود نافذته الصغيرة فتجدد هواؤها واقتحمها الضياء والجلبة. وأطل على سوق بني قينقاع العظيمة، واستمع للضجيج العالي فيها من صياح المارة على بعضهم البعض، ومن نداءات الباعة، وجرجرة الإبل التي ضجرت من الزحام، وتهنيد السيوف التي تشحذ على دواليب السَّن.

ورمى نظرة إلى متجر الصائغ منشي الذي أمامه إلى أسفل، فوجد صاحبه

بنيامين أخا منشي قد عاد من مكة، ويبدو أنه يحتد على أخيه الصغير في أمر، فقرر أن ينزل ويرحب بصاحبه، ويلطف الجو بين التاجر وأخيه الشاب الطائش.

كان بنيامين مستفزًا وهو يشاهد أخاه الشاب الوسيم منشي يمسك العقد الذهبي على راحة يده ويكلم المرأة العربية بنبرة هادئة شهوانية وهو يقترب منها ويقول إن هذا سيكون رائعًا عليك، جدًا، جدًا. وبالفعل اضطربت المرأة وانتفضت من هذا الذي يتنفس بالقرب منها تنفس الحمير، وتعللت بأنها ستأتي في وقت آخر ومضت، فأخذ يفترس جسمها بنظراته وهو يترنم.

فوبَّخه أخوه الكبير قائلًا: هذا الذي صرت إليه باستضافتك لحثالة شباب العرب واليهود في متجرك لا يليق بتاجر لا يتعامل إلا مع النساء. وليس لتاجر فيه ذرة من عقل ويبيع للنساء أن ينزل إلى متجره ثملًا. وعلا صوته وهو يقول له: تعقَّل وجنِّب اليهود أن تخرج الشرارة التي تحرقهم من عندك، فتكون شؤمًا على نفسك وعلى أهلك.

نزل داود واحتضن صاحبه، وسألهما عما بهما، ولما فهم الأمر نصح للشاب وأمره بأن يعتذر لشقيقه ويعاهده على أن لايعود لمثل هذه الأمور، لأنها لا تناسب تاجرًا يقف في السوق ويريد أن يكون محل ثقة، وإن كان مستغربًا من هلع صاحبه من أن يأتي يوم ويقتحم فيه المسلمون السوق العظيمة على من فيها من اليهود، وقال بكل رضا عن النفس وهو يوجه كلامه لمنشي وهو يهز سبابته كرجل يقدم النصائح الطيبة: أنا لي خمسون سنة أسحر بكل شرف ولم اجترئ على امرأة يا منشي، خمسون سنة ولم تشعر امرأة في غرفتي بالريبة، مثلما يمكن أن تشعر أي امرأة في العالم عند ساحر وثني لا دين عنده ولا أخلاق. وبالفعل، اعتذر منشي وقبل رأسه أخاه المتوتر ووعده بأن ينتبه لاسمه وسمعته.

وجلس بنيامين والرجل الساحر أمام المتجر، يتلهيان بمتابعة المارة، وكان يبدو عليه الشعور ببعض التشاؤم، وهو يجيب عن سؤال الرجل عن قريش، وهل لديها عزيمة على اقتلاع هذا الدين أم لا. إذا قال له إن دين هؤلاء العرب دين أنعام، فهم يعبدون الحجارة وليس لديهم وراء عبادة الحجارة أي دعوى أو علم، ولو تحطمت تلك الأصنام أمامهم ذهب دينهم الذي دانوا به طيلة القرون في لحظة، وأحرجهم الشعور بالغباء، وآمنوا جميعًا. الأمر ليس كمن عندهم دين عميق عريق مثل ديننا يا داود، ولا حتى مثل الدين الذي أضل النصارى عبَّاد المسيح، فمن كان لديهم كتاب وتراتيل وتعاليم وأنبياء وعلماء، يمكنهم أن يجادلوا لألف عام وهم مهزومون، مثلما تعرضنا للهزيمة والشتات وبقينا يهودًا، أما هؤلاء العرب فلن يبقى من دينهم شيء بهزيمة واحدة تتحطم فيها أصنامهم، سيكون الأمر كأن تجد واديًا لا ترى أرضه من كثرة الحمام الذي يلتقط الحبَّ، وما هو إلا حجر واحد حتى لا يبقى منه شيء.

لم يكن داود مقتنعًا على الإطلاق، ويعزو هذا الكلام لما هو معروف عن صاحبه من القلق وسوء التوقع. وحاول الساحر أن يذكره بأن محمدًا ﷺ معه جماعة صغيرة ولا طاقة له بالعرب جميعًا، ولو اجتمعت العرب عليه مع قريش سيبيدونه، وأنه وإن بدا مثل حاكم هنا، إلا أنه غريب في النهاية يحكم البلد بحزب صغير على أية حال.

فرد عليه بنيامين: أنا خائف من أن ينتصر محمد في حرب انتصارًا يفاجئ العرب، فيملأ أعينهم، وبعدها يا داود سيكون له شأن آخر. وعلينا الاعتراف بأن حزبه الصغير حزب قوي، وأن هناك الكثيرين الذين يتابعون وينتظرون أول فأل حسن له. أخاف أن يكبر شيئًا فشيئًا يا داود بصبر الناس عليه وبعدم وقوفهم معًا ضده؛ فقد جاء إلى يثرب ودينه يحرم السحر، فإن هيمن على الأمر لن

يبالي بك تجار الخمر إن بارت صنعتك وأحرقت كتبك، ثم إذا ما حرَّم الخمر، لن يبالي المرابون بكساد تلك التجارة الرابحة، ثم إن حرم الربا من بعدها، لا قدَّر الله، لن يجد المرابون مثلي من يلطم معهم.

قال داود: الزوابع لم تأت بعد يا بنيامين، ولكنها ستأتي حتمًا، وعبد الله بن أبي بن سلول لن يسكت طويلًا، فإن قام قمنا معه.

قال بنيامين: نعم، لكن محمدًا رجل صبور ونشيط ولطيف العشرة، ولا تغرك عينيه الحييتين ولا طول نظره إلى الأرض، فما إن ينظر إليك تشعر أن عينيه عينا رجل يعرف أنه لن ينهزم. هذا وحوله جماعة من المخلصين الذين هم معه في أي شيء يخوض فيه. أما عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه، فمثلهم مثل الكبار من السكان الأصلاء لأي بلدة يا داود، عندما ينظرون لجماعة من النزلاء الجدد الذين يكافحون لامتلاك بئر هنا ومتجر هناك وحقل في تلك الناحية، ينظرون إليهم وقد غلبهم الكسل والغرور، ويظلون في ارتخائهم وتسويفهم لا يشعرون بالخطر وقد غرَّهم تواضع هؤلاء الدخلاء واجتنابهم للقلاقل، حتى يفيقوا في نزاع ما على هزيمة منكرة وقد صار الأغراب أسيادهم، وتغيرت الدنيا وأنكرتهم وأنكروها.

عندما اكتمل البدر، هرعت المرأة للزريبة المسوَّرة ووقفت عند بابها وصاحت بالساحر، فاقترب من الباب الخشبي الذي يرتفع إلى صدره، وحل الحبل الذي يربط به الباب إلى عامود من الخشب وخرج وحياها، وقال لها إن العبدين معه ولن يغيب عنها إلا قليلًا، وستسمع نهيقًا مؤلمًا فعليها ألا تبتئس، لأن الدنيا بطبيعتها قاسية. وبعدها بقليل هالها النهيق الفظيع للحمار الذي مزقه الألم، وكان يقول لها من الداخل حتى تتماسك: الدنيا بطبيعتها قاسية يا أم

عوف. وخرج لها وعلى وجهه تلك الابتسامة التي تكون على وجه المولدة وهي تحمل المولود، وفي يده خرقة غارقة في الدم فيها اللسان الدافئ للحمار، ومضت باللسان الملفوف مهرولة وهي خائفة منه تكاد ترميه من ارتعاشة يدها.

في ذلك الوقت كان أبو بكر في سفر قريب مع بعض الصحابة من أهل المدينة، ونزلوا عند عين ماء يسكن عندها جماعة من العرب، فاستضافهم هؤلاء العرب وأعدوا لهم مكانًا ملائمًا للسمر والبيات، وقد كان بين الأنصار رجلًا حديث الإسلام خفيف الظل، لا يكاد يكف عن المزاح، اسمه النعيمان بن عمرو، فأراد أن يقوم بالواجب مع أصحابه المسافرين، فانسل من بينهم واتخذ هيئة جادة وجلس بين العرب أهل العين، وأخذ يخط خطوطًا على الأرض، ويكلمهم عن المستقبل، ويقول لهذا تنتظرك ثروة طائلة، ويعد تلك بعودة المسافر، ولما جاءته امرأة حبلى تسأله عما في بطنها قال لها: أيسرك أن تلدي ذكراً؟ فقالت نعم، فسجع لها أسجاعًا، فسعدت المرأة الساذجة لأنها ظنت أن هذه الأسجاع ستأتي لها بذكر. وبعد قليل، كان يأكل أحسن الطعام ويعامل أحسن المعاملة من هؤلاء الناس، ومن أجل عيني هذا الكاهن المزيَّف أرسلوا لهؤلاء الذين معه الكثير من الطعام واللبن، وزادوهم من وسائل الراحة.

وخرج أحد الأنصار وهاله ما رأى، فعاد لأبي بكر وقال له: تعلم ما هذا؟ إن هذا ما تكهن به النعيمان يخط في الأرض خطوطاً من أجل أن يلهمهم أنه يعلم أشياء من الغيب بواسطة هذه الخطوط. فقال أبو بكر: ما أراني كنت آكل من كهانة النعيمان منذ اليوم، وأجهد نفسه كل جهد في التقيؤ حتى خافوا عليه، وهدأ أخيرًا بعينين سالت منهما الدموع، وأنفاس متلاحقة، بعد أن اطمأن إلى أنه لم يبق في بطنه شيء من كسب الوهم الحرام.

وجه محمد ﷺ

وفي نصف شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، وفي جو التربص المحيط بالدين الجديد، تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فاغتاظ اليهود الذين كان يضفي عليهم اتباع المسلمين لقبلتهم شعورًا بالأصالة، فبدؤوا يقولون إنه لو كان نبيًا حقًا ما ترك قبلة الأنبياء، وحاولوا أن يصوروا الأمر على أنه نوع من المزاجية غير المحسوبة. أما القرشيون الذين يتابعون جيدًا ووصل إليهم الأمر فنظروا لرجوع محمد ﷺ لقبلتهم على أنه انجذاب للوضع الطبيعي ولقوة البديهة، وخطوة على طريق عودته لدين القبيلة. وقد راح في اختبار تحويل القبلة قلة من المسلمين الذين لم يكن لهم شأن في الدعوة، ويمكن تشبيههم بالأسماك التي تتبع سربًا متضامًا من الأسماك بانفصال قليل عن الكتلة، وعندما تغيب تلك الأسماك المتناثرة المتابعة وتغير مسارها ويبتلعها ظلام البحر، يظل السرب محتفظًا بشعوره بالقوة والديمومة كأنه لم يخسر أي شيء؛ ففي أول هذه الكتلة المتضامة رجال معلمون مؤثرون خلف محمد ﷺ، منهم من صدَّق على الفور ومن قبل أن يرى النبي بأن محمدًا ﷺ أسري به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس وعاد إلى فراشه في ليلة واحدة، لذا فلن يكون هناك أي صعوبة تذكر عند المسلمين في استساغة تحول القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.

وبعد فترة صغيرة من تحول القبلة، كان بنيامين المرابي يجلس في مجلس في المدينة في مكان هادئ منزو بين بيوت الخزرج يطل على طريق ترابي

ضيق، وفي المجلس عبد الله بن أبي ابن سلول ومجموعة مختلطة من الوثنيين واليهود والمسلمين، وكان عبد الله يتكلم بلهجته المترفعة الهادئة الواثقة. ورمى بنيامين بصره فرأى النبي محمداً ﷺ قادمًا على حمار عليه قطيفة فدكية، ومن خلفه الطفل أسامة بن زيد. وكان لدى بنيامين فضول لمعرفة لغة الأعين بين الرجلين، فعبد الله بن أبي كان رجلًا لبقًا صبورًا يتابع بلطف حرب بعاث بدون أن يوقد لها نارًا، حتى راح فيها زعيما الأوس والخزرج، فالتف الناس المرهقون حول هذا الرجل الذي بدا لهم واقعيًا ومتجاوزًا للحقبة الدامية وقادرًا على لم الشمل، ولا يوجد أي ضغينة ضده في فترة الحرب، فجاء محمد ﷺ وأطاح بصبره وآماله الكبيرة.

وبعد أن أطاح محمد ﷺ بصبره وآماله الكبيرة ها هو ذا يمر من أمام المجلس فيثير حماره الغبار، فتضايق عبد الله بن أبي، ووضع رداءه على أنفه وقال: لا تغبروا علينا. فحياهم محمد ﷺ وأوقف حماره، ونزل إليهم وأخذ يدعوهم ويقرأ عليهم القرآن، وعبد الله في قمة استفزازه من هذا النبي الذي أحاله إلى الظل، وجاء يفاجئه في مجلس ينسى فيه أحقاده قليلًا ويشعر بوجاهته والتفاف الناس حوله، فقال: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقًا، فلا تؤذنا به في مجلسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة، وهو من الخزرج أيضًا، بل وممن بايعوا بيعة العقبة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك.

ووقعت مشاجرة بين المسلمين والوثنيين واليهود، تحاشى بنيامين أن يكون له دور فيها؛ وكان يفضل أن يراقب العيون. وطلب محمد ﷺ من الحاضرين الهدوء، وركب حماره ومضى باتجاه ضاحية بني ساعدة عند بئر

بضاعة. وعرف بنيامين من أحد الحاضرين أنه ذاهب ليعود سعد بن عبادة.

لقد ارتبك بنيامين من هذا العزم والإخلاص عند رجل يمر في دربه فيجد بالصدفة خليطًا من الناس يعلم أن فيهم من يحبه وفيهم من لا يطيق رؤيته، فينزل ويقبل عليهم ويدعوهم لا يمنعه التحسب من اللامبالاة والجفاء. ثم ارتبك بنيامين من حلم محمد ﷺ وعفوه وصفحه، ووجهه الكريم الذي يبدو جيدًا وجهًا لرجل مشغول عن حظ نفسه بأمر عظيم. ومضى بنيامين بعد أن رمى نظرة أخيرة على محمد ﷺ الذي يمضي بعيدًا، ثم نظرة من بعده مباشرة على عبد الله بن أبي بن سلول، فشعر أنه بجوار رجل غاب في غبار لن يخرج منه أبدًا.

صخرة عاتكة

قامت عاتكة بنت عبد المطلب عمة محمد ﷺ من نومها في بيتها بمكة مفزوعة، فقد رأت رجلًا ينادي من أعلى جبل قبيس: يا آل غدر، ويا آل فجر، انفروا لثلاث. ثم دحرج الرجل على البلدة صخرة كبيرة، أخذت تنفلق في هبوطها الهادر إلى صخور كثيرة، واقتحمت تلك الصخور المندفعة بيوت قريش. وقالت لأخيها العباس: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكتم عني ما أحدثك به. ولما سمع منها أوصاها بأن تتكتم هذه الرؤيا.

ومضى من عندها ولم يستطع أن يقاوم هو وطأة ما سمع، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة فذكرها له، فذكرها الوليد لأبيه، ففشا الحديث، حتى أنه عندما كان يطوف بالبيت وجد أبو جهل وجماعة من قريش يتكلمون عن الرؤيا، فانقبض العباس وندم على أنه كلم الوليد، وطلب منه أبو جهل أن يقبل إليهم بعد أن يفرغ من طوافه، ولما جاءهم قال له: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها هذه أنه قال: انفروا لثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن كان ما تقول حقًا فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء كتبنا عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، كان ضمضم بن عمرو الغفاري يصرخ ببطن الوادي والدم ينزف من أنف بعيره الذي جرحه ليثير النخوة، ويشق

قميصه، ويقول للقرشيين إن بضائعهم من الثياب والعطور التي مع أبي سفيان بن حرب في قافلة العودة قد تعرض لها محمد وأصحابه.

وأعدت قريش على وجه السرعه جيشًا قوامه ألف وثلاثمائة مقاتل، انطلق بقيادة أبي جهل، لمقابلة جيش المسلمين، الذي لم يكن يزيد عن الثلاثمائة إلا بقليل، فقد كان غرض ذلك الجيش الإسلامي التعرض للقافلة لا التعرض لجيش آخر، فقد حارب القرشيون محمداً ﷺ وضيقوا عليه لأسباب عدة على رأسها حماية رؤوس الأموال، فأراد أن يوجعهم في رؤوس أموالهم كما أوجعوه في رأس ماله وهو دينه وأتباعه.

ورغم أن أبا سفيان راوغ بالقافلة وانفلت من جيش محمد ﷺ سالمًا، وأرسل رسالة مطمئنة لجيش قريش، إلا أن أبا جهل الذي يشعر بأنه الأكثر إخلاصًا للقضية، يبدو أنه أصر على أن يجعل رؤيا عاتكة حقيقة واقعة، بأن يذهب الجيش إلى عين بدر التي تبعد ثلاثة وتسعين ميلًا جنوب غرب المدينة، وهي محطة معروفة للقوافل، يقام بها سوق عربية معروفة في أول ذي القعدة، ويرى أنه من الضروري المكوث هناك لثلاثة أيام يأكلون ويشربون ويستمعون للغناء والموسيقى، كنوع من إثبات الوجود، والتأكيد على الهيبة والثقة وقوة رد الفعل. أما الأخنس بن شريق، فرأى أنه يكفي القبيلة اليوم نجاة أموال القافلة ولا داعي للاستعراض والمفاخرة. ولم يطع الأخنس إلا بنو زهرة، فانسحب من جيش أبي جهل ثلاثمائة رجل، ولم يدفعه هذا إلى إعادة حساباته، وتحرك للأمام يحرضه نشاطه الزائد.

عرف محمد ﷺ الأخبار الجديدة، وهو يعلم جيدًا أن فكرة الاستعراض التي أعجبت أبا جهل تضر بالمسلمين في مجتمع الجزيرة وقد يجرؤ من بعدها

كل من يرغب في النهب والفخر عليهم، وهو يعرف أن رجلًا طائشًا مثل أبي جهل، قد يسخن مع عزف القينات والخمر وأبيات الشعر الفارغة، فيرى خيالات مجده أمامه ويأمر من معه بالسير تجاه المدينة. هذا النبي الذي كان عبد الله بن أبي بن سلول يكلمه بكل عجرفة منذ أيام وطرف ردائه على أنفه، فأربك بحلمه وصفحه بنيامين، أراد المواجهة بكل ثبات، وعرض الأمر على الناس، فتكلم منهم أربعة، بدأ الكلام أبو بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم المقداد بن عمرو، ثم سعد بن معاذ.

وأخذ محمد ﷺ صاحبه أبا بكر وذهبا يتحسسان الأخبار، فقابلا شيخاً عربياً لم يعرفهما، وسأله محمد ﷺ عن مكان قريش، وعن مكان محمد ﷺ وأصحابه، فحدد لهما مكاني الوصول لكل منهما، مستنتجًا إياهما مما سمعه عن آخر مكان خرج منه كل فريق ووقت خروجه.

وتحرك محمد ﷺ بجيشه ليصل إلى ماء بدر قبل قريش، فوصله في ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان، وهناك بنوا له عريشًا يكون فيه في وقت القتال. وفي الصبح نزلت قريش من الكثيب إلى وادي بدر، وظهر كل جيش للآخر من مسافة.

وقد حاول عتبة بن ربيعة، وبنصيحة من حكيم بن حزام، أن يدعو الناس للعودة، حتى لا يعانوا من بعد ذلك من ضغائن القتل بين الأقارب، وليتركوا محمدًا ﷺ وشأنه. ولكن أبا جهل بالطبع رفض وتعجَّل وهيَّج الناس حتى يضيع أي فرصة للرجوع.

ووقف أبو بكر حارسًا على النبي عند العريش، فهو غرض قريش الأول. ونظر محمد ﷺ إلى جيش قريش الذي يزيد كثيرًا عن جيشه، واستقبل القبلة

ومد يديه وأخذ ينادي ربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد في الأرض. وأخذ يدعو ويدعو وأبو بكر ينظر إليه وقد رق قلبه كثيرًا، مشفقًا على حبيبه. ولما سقط رداء محمد ﷺ عن منكبيه، أخذه أبو بكر ووضعه عليه وهو يكاد يبكي من الرأفة، وقال له: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

صاحبا الغار اللذان كانا ينظران إلى أقدام بعض الناس معًا منذ سنة وستة أشهر من ظلمة الكهف، ولا يراهما أحد، أمامهما الآن جيش مدجج بالسلاح تعداده ألف. ولم يكن أبو بكر بالطبع أكثر يقينًا بالله من نبيه ومعلمه، بل في هذه اللحظات التي رأى فيها التضرع الشديد للنبي الذي يكافح من أجل أن يعبد الناس ربه، كان قلب محمد ﷺ متوجهًا تمامًا إلى الله بالرجاء، وكان قلب أبي بكر متوجهًا تمامًا إلى محمد ﷺ بالعطف.

ومن فرط رضا أبي جهل عن نفسه قال (اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم). ووقعت مبارزة انتهت بخسارة قريش لفرسانها الثلاثة البارزين الذين خرجوا. فغضبت قريش وقامت بهجمات متوالية، أظهر تجاهها المسلمون ثباتًا شديدًا وركزوا على صدهم بالسهام. وعبد الكعبة بن أبي بكر، الذي كان يصوب في البستان على ثمرة التين، كان قريبًا من أبيه، وقوسه معه، وسهمه على الوتر، والمسافة قريبة، ولكنه ابتعد عن أبيه الذي لم يلحظ ذلك.

وأغفى محمد ﷺ إغفاءة سريعة، ثم انتبه ورفع رأسه وقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه الغبار، إنه يقول له من فرط الحب الذي يكنه له ومن شدة رغبته في إسعاده: (أتاك) ولم يقل (أتى). وقد كانت هجمات قريش قد فترت، فرأى المسلمون النبي يقول

لهم ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وتلقوا منه أمرًا بالهجوم. واشترك محمد ﷺ في الهجوم هو وصاحبه أبو بكر، وقاتلا قتالًا شديدًا وخاضا بين القرشيين بكل شجاعة.

ورأى أبو بكر ابنه عبد الكعبة من بعيد، فقال له: أين مالي يا خبيث؟ فقال له عبد الكعبة:

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب

أي لك عندي ما أقتلك به، وبعد قليل ظهر التخبط الشديد والانهزام في صفوف قريش، لكن أبا جهل أخذ يرفع معنويات جيشه، وأقسم باللات والعزى على أنهم سيعودون بعد أن يأخذوا جنود محمد ﷺ معهم وهم مربوطون بالحبال.

وأخذ هجوم المسلمين يشتد، وبخاصة على أبي جهل التي كانت الرماح والسيوف تحيط به من كل ناحية كأنه مختبئ بين أغصان شجرة كثيفة الأغصان، لكن عاصفة الهجوم المرعبة أخذت تنزع تلك الأغصان غصنًا غصنًا، حتى انكشف القائد العنيد في لحظة فادحة من لحظات الحقيقة. وبعد قليل تلقى ضربة أطاحت بنصف ساقه، فقعد غير مستوعب ما جرى عليه، وقد صار من المحال حمايته، ثم أخذ طعنة شديدة من آخر أبردت جسمه الذي عاش لا يكف عن الحركة، ولكنه مع هذا لم يمت، وظلت فيه نسمة الحياة، وعندما جاءه عبد الله بن مسعود الضعيف شديد القصر بعد وقت، وقال له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ رد عليه مكابرًا وقد فقد الكثير من دمائه: وبماذا أخزاني؟ ما أنا إلا رجل قتلتموه. وفي تلك اللحظات الأخيرة التي يودع فيها الحياة بعد نشاط مفرط بائس، أبدى ضيقه من أن يكون من قتله مجرد مزارع من الذين

يعرقون في حقول المدينة. وبقي فيه فضول وهو في هذه الحالة ليسأل عبد الله بن مسعود عن آخر الأخبار: أخبرني لمن الغلبة اليوم؟ فرد عليه: لله ورسوله. ثم صعد عبد الله بن مسعود على صدره ومسك لحيته ليقطع رقبته، فقال له في آخر لحظاته: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويعي الغنم. ومات أبو جهل من دون أن يسمع في بدر عزفًا.

وفي ذهول الهزيمة نادى أمية بن خلف الذي كان يعذب بلال بن رباح، على صاحبه القديم عبد الرحمن بن عوف، الذي كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، فهو لم يتمكن من الفرار هو وابنه، وصارا مثل طفلين تائهين مذعورين، فأراد أن يستسلم لأحد يعرفه ويمكن أن ينفعه، ومشى عبد الرحمن بن عوف بينهما وهو يطمئنهما، سعيدًا بأنه سينقذ صديقًا قديمًا من القتل هو وابنه، وسعيدًا بفدية الاثنين التي تلوح في الأفق. ورآه بلال الذي لم ينس عذابه، ولا ركض الأطفال به بين جبال مكة، ولا الصخرة التي كانت توضع على صدره، ولا حنجرته التي تصير في آخر النهار مثل حجر من الملح، فقال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. ونادى بالناس ليتكاثروا معه على الرجلين. ولم يكن أمية يتخيل أن يأتي هذا النهار الذي يخاف فيه من غيظ عبده القديم الذي أذاقه الويلات، وما نفعه في هذا النهار رجاء عبد الرحمن بن عوف لبلال بأن يترك له الأسيرين، لأنه كان يريد أن يبرأ من عذابات النفس السحيقة التي لا يزال لها أثر على جسده. وصرخ أمية مرعوبًا وهو يرى رجلًا يقطع رجل ابنه فخرَّ ابنه على الأرض، وأزاح عبد الرحمن وجه أمية عن مصيبته في ابنه وحثه على أن يهرول، فهرول الرجل قليلًا بشكل بائس بسبب وزنه وانهيار أعصابه، فجعله عبد الرحمن يبرك، وألقى نفسه على جسده الثقيل، ولكن السيوف قد نالت منه من تحته.

وألقى المسلمون بجثث القرشيين في بئر كئيبة مهجورة، ولما حان وقت الرحيل بعد ثلاثة أيام، وقف محمد ﷺ عند حافة البئر ووبَّخ القتلى بعد أن ناداهم اسمًا اسمًا: أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟

وقد اجتمع بينهم كل الذين دعا عليهم عند الكعبة، هؤلاء الذين ضحكوا من وضع السلا على ظهره، باستثناء من وضع بنفسه السلا وهو عقبة بن أبي معيط، الذي وجده محمد ﷺ بين الأسرى، وقد ظن أن ما يسري على الأسرى يسري عليه، لكن النبي جعله يقاسم أصحابه الموت كما قاسمهم الضحك.

الفداء

في الخيمة التي تجمع فيها الأسرى السبعون في حالة من الإعياء والخوف والحزن، وتحيط بهم الجبال القاتمة في بدر ورائحة الموت، وخيالات أهلهم الذين ينتظرون عودتهم ظافرين، ووجوه السادة الغارقة في الدماء، أسرهم الصمت وهم في أسرهم، ذلك الصمت الذي يغلب على مجموعة من الأقارب الأباة إذا ما جمعهم الذل وجهًا لوجه، فيفضل كل منهم أن لا ينظر إلى أحد وأن لا ينظر أحد إليه، لأنه لا يستطيع أن ينفع، وكل من حوله كذلك.

بعد وقت الصدمة الأول، بدأ كل منهم يشعر بقيمة الحياة، وبدأ يؤمن بأن الأيام يمكن لها أن تمحي ما هو فيه من عار، ثم بدؤوا بغير خجل يفكرون معًا فيمن يمكن أن ينفعهم. ولم يكن هناك رجل تعلقت أعينهم به من داخل الخيمة كلما مرَّ أو ظهر أكثر من أبي بكر. فقال أحدهم: لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا، ولا نعلم أحدًا آثر عند محمد منه. وطلبوا من شقران خادم محمد ﷺ الذي يقف عليهم أن يذهب لأبي بكر بلطف إن اقترب منهم ويطلب منه أن يأتي إليهم ليكلموه قليلًا.

عندما شاهد شقران أبا بكر قريبًا من الخيمة، جرى إليه وهمس في أذنه، فجاءهم أبو بكر ووقف أمامهم قليلًا وسمع منهم وهم يرجونه بحق القرابة أن يسعى لهم من أجل الفداء، فنظر في وجوه أهله المتعبة وأيديهم المكبلة، ووجد نفسه ما زال يأمل في أن يؤمنوا يومًا ما بعد أن يؤهلهم هذا الأسر للإفاقة من الغرور. ورغم أن فيهم من كان يضايقه، وفيهم من كان يتبع الأكابر في تسميته أبا فصيل بدلًا من أبي بكر، كنوع من التحقير، وفيهم من طمع في الجائزة

وبحث عنه وعن محمد ﷺ، إلا أنه وعدهم بأن لا يدخر جهداً.

لكن محمداً ﷺ الأب، كان ينتظره خبر حزين في المدينة وهو راجع بانتصاره العجيب؛ وها هي ذي فاطمة ابنته تقعد عند قبر أختها رقية التي ماتت أثناء رجوع الجيش من غزوة بدر، بجانب أبيها المحزون، وأخذت تبكي، ومحمد ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه، بأبوة فياضة طيبة.

واسى أبو بكر النبي بعد العودة في وفاة ابنته رقية الشابة زوجة عثمان بن عفان التي ماتت عن اثنتين وعشرين سنة، وتذكر بعينين دامعتين أيام هجرتها للحبشة وكيف أن الرسول جعل عثمان يأخذها معه لأنه لا يظن أن أحداً منهما يصبر بعيداً عن الآخر من شدة تعلقهما ببعضهما البعض، وتذكر كيف أرسل محمد ﷺ أسماء ابنة أبي بكر لتطمئنه بشأن هجرتهما، وقد كان من الضروري أن لا يلحظ أحد من أهل مكة خروج الزوجين الشابين للهجرة، فرجعت أسماء إلى النبي الذي كان في انتظارها هو وصاحبه أبو بكر وقالت: يا رسول الله أخرج حماراً موكفاً [عليه برذعة] فحملها عليه، فنظر النبي إلى صاحبه المقرب بعيني أب حنون وقال: يا أبا بكر إنهما لأول من هاجر بعد لوط وإبراهيم عليهما السلام.

أول ما دخل الأسرى المدينة، وبدؤوا في توزيعهم على البيوت، افتقد كل واحد منهم تلك الطمأنينة التي كان يوفرها لهم وجودهم معاً. لكن هذه المخاوف زالت عندما وجدوا أن أصحاب البيوت يحسنون معاملتهم ويقدمون لهم أفضل ما عندهم من الطعام، وقد أوصاهم النبي بذلك ولم يلهه عنهم حزنه على بنته أو أيام السوء الطويلة التي عاشها بينهم في مكة.

وكان جماعة من المسلمين يطلون على محمد ﷺ وهو يجلس مع صاحبيه أبي بكر وعمر في المسجد مساءً وهو مضاء بسعف النخيل، يستشيرهما في أمر

الأسرى، كانوا يتابعون باهتمام شديد، الكلمات، وتعبيرات الوجه، منتظرين القرار.

بدأ بأبي بكر كالعادة، فقال: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام. هم عترتك وأصلك وقومك، تجاوز عنهم، يستنقذهم الله بك من النار.

ثم سأل النبي عمر بن الخطاب، الذي قال: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، إنهم أخرجوك وكذبوك، وأرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

وقد ظهر على الرسول أنه يرتاح لرأي أبي بكر، وهذا حتى ما شعر به عمر وهو ينظر في وجه محمد ﷺ. أما محمد ﷺ فظل صامتًا قليلًا ثم دخل من بابه. وبعد وقت وجيز خرج وقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه، حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه، حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وإن مثلك كمثل موسى، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

ثم أعلن أن على الأسرى الفداء، آخذًا برأي أبي بكر الذي تميل إليه نفسه.

وفي صبح اليوم التالي، ذهب عمر للنبي فوجده منفردًا بأبي بكر بالقرب من شجرة منزوية يبكيان، فجزع واقترب منهما وسأل النبي: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد

تباكيت لبكائكما. فقال له: أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة. وعرف عمر ما نزل من العتاب على محمد ﷺ من القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهذا العتاب لأن المسلمين كانوا وقتها قلة في جزيرة العرب بحاجة للتغلب والسيطرة وفرض الوجود والهيبة، وقبل أن يتحقق إثبات الوجود لا يصلح أن تكون فرحة الجندي الكبرى هي بأسر أسير للحصول على الفداء، بل تكون فرحته الكبرى بانتصار القيم الإيمانية التي يقاتل بسببها. فكان لابد من مهاجمة التفكير النفعي الذي يكون حتى عند بعض الجنود المخلصين في أول معركة، حتى لا يتفاقم من بعد ذلك وتعتاده الجموع ويؤثر على العقيدة القتالية. وقد كان أبو بكر أشار بالفداء رحمةً بهم ورجاءً فيهم، وهي مشورة وجدت قبولًا عند الآخرين من أجل قيمة الفداء.

وظل الجدل قائمًا بين المسلمين على الرأيين رغم هذا منذ أن نزلت الآيات، فظلت هناك طائفة تنظر لرأي أبي بكر باعتباره الأصوب، لأن الأمر قد استقر عليه، ولأنه يوافق الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك، ولإسلام أكثر هؤلاء الأسرى بعد تلك التجربة، ولخروج مسلمين من أصلابهم، ولأن الرحمة تغلب الغضب.

ويظل هذا المشهد الفريد لبكاء محمد ﷺ مع صاحبه بالقرب من شجرة دليلًا على حب شديد، فمشورته التي مال إليها جلبت هذا العتاب الشديد، ومع ذلك لما أراد أن يبكي ويبوح كان أبو بكر نفسه هو الأقرب.

لم تسلم الجرة

لم يكن بنيامين سعيدًا عندما وجد أن ظنه في محمد ﷺ وفي وجه محمد ﷺ قد تحقق، لقد عاد محمد ﷺ أقوى مما كان كثيرًا بسبب النصر المدهش، ودخل في دينه جماعات كبيرة من أهل المدينة، وتحرك عبد الله بن أبي بن سلول مع تلك الموجة وأعلن إسلامه.

ولقد بدأ اليهود فيما بينهم يتداولون عبارات التشكيك في القرآن وفي نبوة محمد ﷺ ردًا على قول محمد ﷺ بوقوع التحريف في التوراة التي يعظمونها ويعظمون مخطوطاتها لديهم، ثم بدؤوا يبثون هذه الشكوك إلى من لهم علاقة ودية بهم من أهل المدينة، بروح متعنتة، حتى تلك التعبيرات التي يعرف علماؤهم أنها مجازية ويوجد كثير منها في كتبهم، قدموها لأبنائهم ولمن حولهم باعتبارها مسيئة وتدل على ضعف التصورات الروحية عند المسلمين. وقد كان أحبارهم قد منعوهم قبل ذلك من الكلام عن النبي المنتظر الذي سيحارب الوثنيين وينتصر عليهم، فتوقفوا عن ذلك جميعًا، لكن لم يعد محمد ﷺ وأتباعه بحاجة إلى ذلك، لقد تخطوا تلك المرحلة. وكان أول إشعار بالاستغناء هو تحويل القبلة، ثم هذا النصر لفئة قليلة على فئة كبيرة، وهو ما يشد انتباه العرب لأقدار الله ربما أكثر مما تشد انتباههم نبوءة الكتب.

وقد كان أبو بكر ينظر لبعض علماء اليهود على أنهم يمنعون الحقيقة عن عامة اليهود الذين يعيشون عالة عليهم في مسائل الإيمان والعقيدة، ومن هؤلاء فنحاص الذي كان يعلم أنه ينشط في مهاجمة القرآن والنبي في المدراس حيث

يعلم اليهود دينهم.

وقد دخل أبو بكر المدراس ووجد اليهود متحلقين حول فنحاص وحبر آخر اسمه أشيع، فقال له: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا ﷺ لرسول الله، جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو بغني ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، وينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الربا، وهو يقصد هذه الآية من سورة البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ولم يملك أبو بكر نفسه من الغضب فصفعه على وجهه صفعة قوية مهينة أمام جمهوره، لأنه سخر من القرآن، وقال له: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت رأسك، أي عدو

الله، فأكذبونا بما استطعتم إن كنتم صادقين.

وذهب فنحاص يشتكي إلى محمد ﷺ، ويريه أثر الصفعة: انظر يا محمد ما صنع صاحبك. فاستدعى محمد ﷺ أبا بكر وسأله، فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولًا عظيمًا، إنه زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله. وجحد فنحاص ما حدث وأقسم بأنه لم يفعل؛ فنزل القرآن مصدقًا لقول أبي بكر ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

وظل بنيامين مؤمنًا بأن دين الوثنية دين أجوف لن يبقى منه شيء في جزيرة العرب إذا ما حطم محمد ﷺ الأصنام بجيشه، فيتحول من يحاربوه إلى

مؤمنين؛ وكان تقديره أن عقدًا من الزمن كاف بالنسبة لرجل مثل محمد ﷺ ليحول الوثنية إلى شيء رخيص زال ولا يحن له أحد، كل هذه الأفكار كانت تموج برأسه وهو مذعور على الثروة وأمنه وأمن أهله في مجتمع يستعد لتغيير واسع.

وقد كان بنيامين مارًا عند المسجد، عندما رأى رجلًا ينيخ جمله بالقرب من باب المسجد وسيفه في يده وعليه إجهاد الرحلة، وإجهاد الشر، فقام عمر بن الخطاب من بين جماعة من المسلمين ودخل المسجد مسرعًا، وقتها تذكر بنيامين ذلك الرجل، فهو الذي كان مستغربًا إسلام الحبر، يوم أن كان مع صاحبه القرشي عند مياه مجنة. سرعان ما خرج عمر ومسك الرجل من حمالة سيفه وجعلها على عنقه واتجه به ناحية الباب وهو مسيطر عليه كأنه حيوان مسعور، وقد تجمع حولهما المسلمون الذين كان يجلس عمر معهم بالقرب من المسجد، فأمرهم عمر بأن يجلسوا عند الرسول ليحموه من هذا الرجل.

مضى بنيامين متأسفًا على جليس الليلة الجميلة، الذي يظن أنه سيفشل في إقناع محمد ﷺ بأنه كان يمر من هنا شاهرًا سيفه بالصدفة، مضى وهو يقول لنفسه إنه ميت لا محالة، ولن يكون أعز من أمية بن خلف صاحبه الذي قتله العبد بلال في الحرب، وقد كانوا يسخرون منه في الأمسية.

مضى بنيامين كئيبًا فاترًا، يفكر في مدينة أخرى ينزلها بماله وطموحه لا يسمع فيها أي خبر عن محمد ﷺ، وينام فيها وقت النوم هو وزوجته وأولاده نومًا عميقًا لا ينتظرون أي أخبار مزلزلة. مضى بنيامين وقبل أن يصل إلى بيته كان عمير بن وهب الذي جاء بسيفه قد أسلم، فقد ادعى أنه جاء من أجل ابنه الأسير، فسأله محمد ﷺ عن السيف الذي جعله عمر في عنقه، ما باله؟ ولكن

الرجل أصر على أنه لا شيء قد جاء به إلا موضوع ابنه الأسير، فقال له محمد ﷺ: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحِجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش [البئر التي ألقيت فيها جثث القرشيين]، ثم قلت: لولا دينٌ عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله.

في أيام قليلة شاهد بنيامين ما جعله متأكدًا من أن الانفجار قادم، فأهله يهود بني قينقاع، كان لديهم غرور شديد بسبب الثراء والتحصينات وكثرة السلاح، ولم يكتفوا بالغضب الذي كان يتكتمه البعض من أهل المدينة، بل وجدوا أنفسهم يؤكدون بغير داعٍ أن هذا النصر لا يهددهم، وأن المسلمين يجب أن يعرفوا قدرهم كجماعة يغلب عليها الفقر، لذا مال تجارهم وأفرادهم وحرفيوهم الذين يشعرون بالتميز من ناحية المهارات، للتعامل مع المسلمين بشيء من الاستخفاف والسخرية التي لحظها المسلمون بسهولة. وقد كان هناك فجوة نفسية كبيرة بين الفريقين، فاليهود ينظرون للمسلمين على أنهم متخشِّبون بسبب العقيدة، ويفتقدون للطف الاجتماعي، فكلما قابل الواحد منهم أحدًا يعرفه وثنيًا كان أو يهوديًا دعاه بجدية للدخول في الإسلام، أما المسلمون فكانوا ينظرون إليهم باعتبارهم دنيويين منسجمين مع ملابسات الحياة، حتى أنهم يجتمعون عند الوثني الذي يحبونه في ساعات الاحتضار يبكون ويلطمون ويضعون التراب فوق رؤوسهم، ولا يفكرون في دعوته للكفر بالأصنام وبعبادة

الإله الواحد قبل أن يرحل.

من أجل كل هذا أعد بنيامين نفسه لرحيل قريب، مدعيًا أنه ذاهب للشام من أجل تجارة، هذا بعد أن فشل في إقناع أخيه منشي بالسفر معه.

وفي نهارٍ وقف محمد ﷺ في سوق بني قينقاع وحوله جماعة من فرسان المسلمين ينادي في اليهود، فتجمع عليه بعض التجار والأعيان وهم في قمة الغيظ والكبرياء، يشعرون بأنه ليس له أي حق في أن يتسيَّد عليهم ويجمعهم، وقال لهم: يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا. ففجَّر التهديد المزيد من الغضب والكبرياء، وأخذوا يحتجون عليه، وقال له سيد منهم وحوله اليهود يهزون رؤوسهم موافقين: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا. في ذلك النهار كان بنيامين على جمله مهاجرًا يؤمن بأنه يرى مشاهد ما قبل النهاية لبني قينقاع في المدينة.

بعد أيام، كان الساحر داود في غرفته وعنده امرأة، ينظران إلى جرة صغيرة من الفخار عليها طلاسم بلون الدماء، وقال لها: كلما سكبت أنا هنا قطرات من الماء في هذه الجرة المشروخة، غلب على طليقك الشرود والذهول وعدم الفهم، وربما سال لعابه من فمه، مرة كل أسبوع، أو مرة كل شهر، كما يحلو لك، كلما قلتِ سكبتُ. وإن أشفقت عليه ومللتِ من اللعب به، تخبرينني فأكسر الجرة، وكسر الجرة له أجر أيضًا.

ما إن انتهى من شرح سحره للمرأة حتى سمع صراخ امرأة يصله ضعيفًا، ففتح النافذة، فوجدها امرأة تصرخ بأعلى صوتها تستنجد أمام متجر منشي،

ومنشي ومن معه من الشباب يطردونها ويأمرونها أن تسكت وتمضي ولا تجمع الناس بصوتها، والمرأة لا تزال تصرخ وتبكي وهي تشعر بالإهانة. وفكر داود أن ينزل لعله يستطيع امتصاص غضبها وتطييب خاطرها وإقناعها بأن ترحل إلى حال سبيلها، ولكنه فوجئ برجل يتقدم منها وتشتكي له وهي تبكي من أن منشي علَّق ثوبها من ورائها وهي عنده في متجره فانكشف فخذاها له ولزملائه فأخذوا يضحكون، وجعلها الرجل تمشي أمامه قليلًا وهو يكلمها فظن الشباب اليهود أنه تجنب الشر، ووقفوا وهم يتصنعون الثبات، رغم أن صراخها على ما يبدو أفاقهم من الخمر، فاهتزوا لما فعلوا. وما إن ابتعدت قليلًا، حتى استدار الرجل وركض تجاههم مثل جمل غاضب فأفسحوا له، فدخل على منشي الذي وقع على الأرض وطعنه، فبكى داود وأصابه الرعب، وتركته المرأة صاحبة السحر مسرعة، فيما كان الشباب اليهود أفاقوا من هول الصدمة وأخذوا يلوحون للرجل الذي طعن صاحبهم بالسيوف، فأربكوه بالجراح من كل ناحية حتى سقط في دمائه في عرض الطريق.

بعد أسبوعين كان داود يؤمن بأن صاحبه بنيامين أدرى الناس على وجه الأرض بالخطر، فها هو ذا يخرج بين جموع يهود بني قينقاع من حصونهم وقد غلب عليهم الرعب، بعد حصار من المسلمين استمر لأسبوعين، فرحلوا تاركين بيوتهم في أول ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة. وطليق المرأة الذي صدم لما سال لعابه وحزن عليه أهله، لم يتكرر معه ذلك مرة ثانية، فقد انكسرت الجرة بغير أي أجر.

العروس

أخيرًا! هكذا كان يقول عمار بن ياسر والصحابة والآخرون وهم يسيرون خلف أبي بكر وكل منهم يقبض بيديه على أشياء متنوعة من الثياب والأثاث، وبعضهم لا يكاد يرى الطريق أمامه، ويعتمد على الحظ ومساعدة أصحابه الذين يسيرون بجواره؛ فقد ذهبوا لشراء احتياجات العروس بنت محمد ﷺ فاطمة، ومعهم أبو بكر الذي كان يقف خلفهم وكلما انتقوا شيئًا كان عليهم أن يعرضوه عليه أولًا ليحكم عليه إن كان جيدًا أم لا، ثم ليساوم في ثمنه قدر الإمكان، فهو صاحب خبرة، وكذلك فهي بنت محمد ﷺ، وهو يرغب بأن يشتري بالمال أكبر قدر من الأغراض التي تسعد العروس، وكذلك فإن أي مهمة يكلفه بها محمد ﷺ يبذل لها كل نفسه ويؤديها بحب وتفان حتى لو كان بإمكان رجل من عامة الناس أن ينجزها على وجه حسن. لقد تنفسوا الصعداء عندما انتهوا بسعادة من المهمة التي كلف بها محمد ﷺ أبا بكر وأرسل عماراً وآخرين معه، وقد أدى هذه المهمة على خير وجه؛ حتى يسعد حبيبه محمداً ﷺ، وحبيبه عليًا، وبنت حبيبه فاطمة.

وقد كان أبو بكر شاهدًا على زواج علي من فاطمة، يبتسم بين الحضور، سعيدًا بسعادة النبي، وسعيداً بسعادة علي بن أبي طالب الشاب الفقير الكريم النفس الشديد الورع الذي يتفجَّر بالذكاء والحكمة، وهو أبو بكر يحب هذه النوعية من الرجال، وأخذ ينظر تجاهه حتى تداعت إليه الذكريات الجميلة البعيدة قبل كفاح الدعوة، عندما كان ينظر في وجه محمد ﷺ يوم زواجه من خديجة أم فاطمة.

وقد كان النبي محمد ﷺ لا يرضى لبناته إلا بزيجات يشعرن فيها بعاطفة

واضحة تجاه أزواجهن، ويبادلهن الأزواج تلك العاطفة. وقد كانت ابنته رقية التي ماتت وزوجها مثلًا للزوجين المتحابين، ولا ينافس هذه المحبة بين زوجين إلا حب ابنته زينب لزوجها أبي العاص بن الربيع وحب زوجها لها، ولم يكن يرضى لفاطمة إلا بذلك.

وقد طلبها أبو بكر من النبي، فاعتذر إليه بأنها صغيرة، بعد أن عرض عليها الأمر ولم يجدها مرحبة، ولما طلبها من بعده عمر بن الخطاب، اعتذر إليه أيضًا بأنها صغيرة، ذلك لأنها لم تكن مرحبة أيضًا عندما عرض عليها الأمر. فهو وإن كان حييًا وكريمًا مع أصحابه، إلا أنه أب غاية في الحنان والعطف مع بناته. وهما كانا رجلين ناضجين أحدهما في الثانية والخمسين، والثاني في الثانية والأربعين، عاركا الحياة وجرَّبا عشرة النساء، وهما يطلبان الزواج منها فقط تقربًا من النبي، أما علي بن أبي طالب فيمتاز بأنه شاب يكبرها بفارق بسيط، وليس له زوجة أخرى، أي سيكون توجهه ناحيتها بابتهاج أكبر بعاطفة شاب صغير غير مجرب. وقد تميز بشيء ثالث لا يتوفر لأحد غيره، وهو أنه تربى في بيت محمد ﷺ، ورأى كيف كان محمد ﷺ يعامل فاطمة الطفلة، وبناته كلهن، بما هو غير معهود عند الناس من الحنان والتودد، فتكون المعرفة بمثابة شرط غير منطوق من محمد ﷺ يشترطه على علي بن أبي طالب: أنت عرفت كيف أعامل فاطمة، فعاملها على هذا النحو.

وهذا الجو الطيب الذي كان يعيش فيه أصحاب محمد ﷺ المقربون جعل أبا بكر وعمر، المعتذر إليهما، يتحمسان لأن يتزوج علي بن أبي طالب من فاطمة، ويذهبان إليه ويكلمانه وهما مترفقان به بسبب فقره، في أن يذهب لمحمد ﷺ ويذكر له فاطمة، ولم يتركاه حتى تشجَّع وفعل.

خير من عثمان

في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، كان أبو بكر يلحظ هذا الوجوم البادي على وجه عمر بن الخطاب، وقد كان الاهتمام المتبادل هذا وضعًا طبيعيًا بصفة خاصة بين شريحة الصحابة المقربين من محمد ﷺ، حيث لا ينشغل أي منهم بأمور حياته عن هموم من هم حوله من الأحباب.

حفصة بنت عمر، الشابة بنت العشرين عامًا التي عاشت مع زوجها خنيس بن حذافة من غير أن تنجب منه، فعكفت على تعلم القراءة والكتابة ونهلت من العلم والأدب، أصيبت بابتلاء آخر، فقد مات زوجها، وعاشت وحيدة من بعده، وانقضت عدتها ولم يخطبها من أبيها أحد. وكان عمر بن الخطاب الرجل الصلب حزينًا مشفقًا على بنته التي هي أول من رزق به، والتي تشبهه في الصراحة والوضوح.

وحمل عمر بن الخطاب هم ابنته إلى عثمان بن عفان الذي كان أرملًا بعد أن ماتت زوجته بنت الرسول رقية. وبكل وضوح عرض عليه أن يزوجه حفصة إن كان يرضى بذلك، فطلب عثمان منه مهلة. وبعد عدة ليال التقيا فأخبره عثمان وهو يحاول أن يضبط شعوره بالحرج، بأنه لا يفكر في الزواج هذه الأيام الحالية.

ولما يئس عمر من عثمان الذي صدمه بالرفض فكَّر في صاحبه المقرَّب أبي بكر، ولم يكن عثمان عنده أعلى منزلة من أبي بكر عندما بدأ به ولم يبدأ بأبي بكر، ولكنه اختار من الرجلين الفاضلين من ليس عنده زوجة. ذهب إلى

حبيبه أبي بكر، مدفوعًا بحنانه الأبوي، ووضوحه، وثقته في سماحة أبي بكر ونبل طباعه، فلم يشك في أنه سيقدر هذه المبادرة، ولم يشك أيضًا في أنه سيقدر بجانب ذلك عُمْر هذه الشابة الصوَّامة القوَّامة الفصيحة التي هي جديرة برجل مثله. لكنه حتى لم ينل من أبي بكر مثل المهلة التي طلبها عثمان للتفكير، بل صمت ولم يرد عليه، فتوجَّع عمر من موقف أبي بكر أكثر مما توجَّع من عثمان، فهذه أول مرة يراه على هذه الدرجة من التحفظ وعدم العطف. ذهب عمر بجرحه المزدوج من أن رجلين مقربين منه ويعرفان قدره ويعرفان دين ابنته قد رفضا مصاهرته، ذهب بجرحه إلى محمد ﷺ وعرضه عليه بكل وضوح، ليس ليوغر صدره عليهما، ولكن ليجد عنده راحة لصدره، فقال له محمد ﷺ: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة. فهدأت نفس عمر، وكتم في جوانحه سعادة بالغة طيلة الجلسة، فبعقله الكبير، لم يتوقع أن يكون هناك في هذه الأمة من يراه النبي خيرًا من عثمان إلا أبا بكر نفسه، وبما أنه أخبره عن إعراض أبي بكر، فلم يبق هناك إلا النبي نفسه، وفهم أن حب النبي الشديد لأبي بكر هو الذي جعله لا يحب أن يقول: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان وأبي بكر. لقد مشى من عند محمد ﷺ في الطريق مبتسمًا مستبشرًا وقد قرر أن لا يقول لابنته شيئًا حتى يصير الحلم حقيقة، وجاءته في شروده صورة أبي بكر الذي كان غاضبًا منه قبل الدخول، فابتسم لهذا الطيف وكأنه أمامه، وهو يغبطه على محبة الرسول له التي جعلته لا يحب أن يبشِّر عمر برجل خير من أبي بكر، حتى يعيش عمر الشديد القرب من محمد ﷺ وهو يعرف فضل أبي بكر.

وعندما خطبها النبي من عمر، وتم الاتفاق على موعد قريب للزواج في ذات الشهر، التقى أبو بكر عمر في الطريق، بعد أن امتلأ وجهه بالنور والسرور،

ونفضت حفصة عنها أحزانها، فابتسم أبو بكر في وجهه وصافحه، وقال له: لعلك وجدت عليَّ [حزنت مني] حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئًا؟ فقال له عمر: نعم. فقال له أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضتَ عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها رسول الله لقبلتها.

كون النبي يفكر في أن يخطبها من أبيها، منعه من أن يترك لدى عمر أي أمل فيه ولو بطلب المهلة. ورغم أنه كان يحمل في قلبه بشرى رائعة لعمر الشديد القرب منه، إلا أنه أبدى، ظاهريًا، قدرًا كبيرًا من التحفظ وعدم الاهتمام، حفظًا للسر. ثم ها هو ذا يطيب خاطر صاحبه بكلام صادق لا كذب فيه، وليس في نفسه من ناحية أخرى أي وخزة لكون هذه العروس الفصيحة ابنة صاحبه ستكون ضرة لابنته عائشة، وليست أي ضرة، بل بنت رجل له قدر كبير عند محمد ﷺ؛ لكن الرجال المقربين من محمد ﷺ كانوا يعيشون في أجواء أخرى بقلوب مغسولة من شهوة التطلع لمقعد في الصفوف الأمامية، لذا كانوا في الصف الأمامي، يبحث فيها كل منهم عن رضا صاحبه، وجميعهم يتعاونون معًا في البحث عما فيه رضا محمد ﷺ.

أفيكم محمد ﷺ؟

عندما يعيش الإنسان في عالم بلغ فيه الحقد عليه وعلى من معه إلى حد أن تشجِّع الضغينة الأعمى على رمي التراب ناحيتهم عندما يمرون به، تصير الوداعة خيارًا قاتلًا. هذا ما حدث للنبي وجيشه وهو يبحث عن طريق إلى أُحد لا يقطعه عليه القرشيون، الذين جاؤوا بجيش كبير قوامه ثلاثة آلاف مقاتل للثأر من هزيمتهم المنكرة في بدر. فمر جيش المسلمين عبر مزارع بني حارثة وقت الفجر، ومر في طريقه ببستان للرجل الأعمى مربع بن قيظي، الذي أظهر عداوته وأخذ يرميهم بالتراب رافضًا أن يجتازوا من عنده.

مر محمد ﷺ وجيشه وهو بزي القتال، كان قد دخل بيته مع صاحبيه أبي بكر وعمر، فساعداه على أن يلبس درعين، بدلًا من درع واحد، وقد كان هذا مناسبًا تمامًا حتى لا تقتله ضربات شديدة الغل والقسوة من الذين سيصلون إليه في المعركة التي يشق طريقه إليها. كان يتجهز للحرب هكذا وقد رأى رؤيا فسرها بأنه سيفقد في المعركة القادمة جماعة من أصحابه، وسيفقد أيضًا رجلًا من أهل بيته. وقبل أن يطل الأعمى عليهم في الفجر ويرمي عليهم التراب، كان محمد ﷺ قد خسر منذ قليل ثلثمائة مقاتل من الألف، بعد انسحاب عبد الله بن أبيّ برجاله راغبًا في أن يصنع اضطرابًا قبل المواجهة في صفوف الجيش، ولكن النبي قد مضى بمن معه.

وجعل محمد ﷺ ظهر جيشه للجبل، ووجه جيشه للمدينة، وجيش قريش أمامه بينه وبين المدينة، وحتى يضمن أنه لا يأتيه جيش قريش من الخلف، وضع فصيلة قوامها خمسون فردًا من الرماة بالسهام على جبل، وأمرهم أن لا

يتحركوا من أماكنهم أبدًا، سواء لمشاركة غيرهم الغنائم، أو حتى لنجدتهم من القتل؛ لا يتحركون إلا بعد أن يُؤذن لهم.

وقد كان عبد الكعبة بن أبي بكر، وهو أحد أبطال قريش الصاعدين قد طلع من الصفوف وتحدى من يبارزه، فاغتاظ أبو بكر لما رآه شاهرًا سيفه يلوِّح به للمسلمين بكل كبرياء، وأشهر سيفه وتحرك ليخرج له، إلا أن النبي نادى صاحبه الذي وصل إلى سن الثالثة والخمسين، ومنعه من أن يتصدى لهذا الشاب القوي من صلبه، وقال له: شم سيفك [ضع سيفك في غمده] وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك.

وقد كانت الحرب الشرسة في صالح المسلمين، حتى أن بني عبد الدار حاملي اللواء، قد فقدوا عشرة رجال متتالين، كلما سقط رجل وسقطت معه الراية، التقطها غيره، ولما مات العشرة حملها غلام شجاع لهم حاول أن يحتفظ بها، إلى أن لحق بأسياده ولم يعد أحد يلتقط الراية. وفي أجواء المعركة الملتهبة التي أظهر فيها أبو دجانة وعلي بن أبي طالب والحمزة بن عبد المطلب وغيرهم بطولة نادرة، قتل عبد حبشي يسمى وحشيّ الحمزة بن عبد المطلب عم محمد ﷺ برمية حربة من أجل أن ينال الحرية من أسياده، فكان هذا هو المصاب في الأهل الذي رآه محمد ﷺ في الرؤيا.

وبدأ جيش قريش الكبير يتفرق بغير هدى، في كل ناحية، كما تتفرَّق الأوراق في العواصف، والنساء اللائي جئن لتشجيع الجيش أخذن يشققن لأنفسهن طرقًا في الجبال هاربات مع رنات الخلاخيل.

غير أن الرماة الخمسين الذين منعوا هجمات القرشيين وسببوا اضطرابًا في صفوفهم، لا يزال أغلبهم يحمل جرثومة التنفع الشخصي التي تم التحذير منها بعد بدر، فنزلوا يشاركون أصحابهم في جمع الغنائم، فوقعت الكارثة،

وأصبح جيش المسلمين عبارة عن ظهور لا أحد يحميها. فانتهزها خالد بن الوليد فرصة وهجم على ظهر الجيش ومعه فرسانه يصيحون، فانتبه الهاربون من قريش لهذا الأمل الجديد، فلملموا أنفسهم وتحمَّسوا وضغطوا من الأمام، ليصير جيش المسلمين في دقائق معدودة في كابوس بين فكين. وفي تلك اللحظات التي تطيش بالعقول، سيطرت غريزة النجاة على البعض وصار هدفهم البحث عن مخرج حتى خرجوا من هنا وهنا، وحدثت بلبلة شديدة لقطاع آخر في زحام الحرب، فصار كل رجل يضرب بسيفه أي رجل بجانبه، ولم يعد أحد يعرف عدوه من صاحبه، وزادهم بؤسًا أن سمعوا من يصيح ويقول: إن محمداً قد قتل. حتى أن بعضهم رمى سلاحه وهو لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، ولا يعرف ما الذي يجب عليه أن يندم منه. واستمر هذا الوهن الكابوسي وقتًا، إلى أن بدأ بعض القادة ينصحونهم بالثبات والموت على ما مات عليه محمد ﷺ.

وبدأ محمد ﷺ بكل شجاعة ينادي في المسلمين الذين اختلطوا وتفرقوا كما لو كانت موجة عالية ألقت بهم وفرَّقتهم، رغم أن هذا سيوجه إليه القرشيين أيضًا الذين يبحثون عنه ليقتلوه، وهذا ما حدث بالفعل، وقد دافع عنه سبعة من الأنصار حتى قتلوا واحدًا وراء الآخر، فاندفع كل من طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص ليصدا معًا الهجوم الشرس الذي يستهدف قتل النبي. وأخذ عتبة بن أبي وقاص يقذف النبي بالحجارة حتى وقع وتلطخ وجهه بالدم وانكسرت سنُّه التي تجاور الناب الأيمن السفلي. وتلقى محمد ﷺ ضربة على رأسه من رجل يسمى عبد الله بن شهاب الزهري شجَّت رأسه، ومن ورائها ضربة موجعة على كتفه من ابن قمئة، تلاها بضربة أخرى على وجه محمد ﷺ تسببت في دخول حلقتين من حلقات الخوذة التي تغطي رأسه ووجهه في وجنته. واستمر سعد وطلحة في أدائهما البطولي لصد عدد كبير من القرشيين عن محمد ﷺ. وقال محمد ﷺ: اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله.

وبعد أن أيقن الصحابة بموضعهم وموضع النبي، وأفاقوا من رمية موجة الهجوم العاتية، هرعوا إليه والقرشيون يحيطون به كالوحوش الجائعة، وما كان أبو بكر وعمر وعلي قد نسوا النبي لحظات ثم تذكروا وعادوا إليه، بل كان كل منهم، وآخرون أيضًا من أخلص الرجال لمحمد ﷺ، الذين يفضلون موتهم عن موته بلا أي تردد، كان كل منهم في موضع وضعته فيه ملابسات القتال، في ذلك الوقت الذي بدا فيه النصر محسومًا للمسلمين ولا خوف يُذكَر على محمد ﷺ، كانوا على مسافة صغيرة منه في وقت الأمان، وصارت نفس تلك المسافة الصغيرة كبيرة جدًا لما صار محمد ﷺ في قلب المخاطر.

وكان أولهم عودة هو أبو بكر، الذي أفزعه أن يرى الدم يغطي وجه محمد ﷺ والخوذة المسدلة عليه، واقترب باضطراب وشفقة يريد أن ينزع الحلقتين من وجنة محمد ﷺ، لكن أبا عبيدة الذي كان يركض تجاه النبي هو أيضًا ووصل بجانب أبي بكر أصر على أن يقوم بالمهمة بنفسه، فخلع الحلقتين بالعض عليها بأسنانه بكل ما فيه من عزم، ولم يبال بسقوط سنَّين من أسنانه الأمامية. وخلال لحظات قليلة، تجمع حول محمد ﷺ أيضًا أبو دجانة، وعمر بن الخطاب، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وأم عمارة، وغيرهم، من نقاط مختلفة.

قدم الصحابة بطولات نادرة للدفاع عن حياة محمد ﷺ، الذي يحاول الموت أن يمد أذرعه إليه من كل زاوية وهو في هذه الحالة من الإعياء وثقل الحركة، وقد آمنوا أن بقاءه حيًا بينما حرص كل هذا العدد من القرشيين على قتله بالسيوف والحجارة والسهام التي تهوي إليه من كل ناحية هو معجزة. وطلب محمد ﷺ المغفرة من أجل قومه: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. واستطاع أن يجمع عناصر جيشه ويصعد إلى الجبل ويرتكز فيه، وفشل القرشيون

في الصعود إليهم بسبب استماتة المسلمين في ردعهم، وفي ذات الوقت اشتغل بعض القرشيين قبل الرجوع بالتمثيل بالجثث.

وقبل الرحيل ظهر أبو سفيان ووقف من بعيد قليلًا أمام الجبل الذي انسحب المسلمون إليه، وسأل عن الثلاثة الذين يتمنى موتهم لينتهي أمر الإسلام.

: أفيكم محمد؟ رددها ثلاث مرات، ولما لم يجيبوه، بأمر من النبي. قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ وأعادها ثلاث مرات، فلم يردوا عليه أيضًا فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ وكذلك كررها فلم يجيبوه. فالتفت ناحية أصحابه وقال لهم بصوت مرتفع ومستبشر: أما هؤلاء فقد قتلوا.

ولم تستمر سعادته طويلًا؛ فقد عرف أن أكابر الدين الثلاثة ما زالوا على قيد الحياة.

وقدم نام المسلمون بأوجاعهم في المدينة ليلة الأحد الثامن من شهر شوال بعد يوم المعركة الشديدة نومًا متقطعًا احترازًا من حدوث غارة على المدينة، وفي صبح الأحد، ورغم حالة الإرهاق الشديد التي يعانون منها والجراح التي ما زالت مفتوحة والرضوض المختلفة، والنوم الذي لم يكن هنيئًا، إلا أن النبي نادى في الناس ليخرج معه جماعة منهم ليذهبوا في إثر جيش قريش في هذا الصباح، وانتدب سبعين رجلًا أطاعوه وصبروا ومضوا بغير خوف ثمانية أميال حتى وصلوا إلى منطقة حمراء الأسد، ليثبتوا قوة شكيمة المسلمين وصلابة روحهم، ومكثوا هناك أربعة أيام، وقد كان منهم أبو بكر والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان. وقد مدح القرآن هذه الاستجابة ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

شيء ينمو في المدينة

احتفلت قريش بثأرها احتفالًا عصبيًا طويلًا مرهقًا، ترك لهم مذاقًا مريرًا، لأنه لم يكن هناك شيء أفضل عندهم من أن لا يحدث هذا كله. أما أبو قحافة فكان احتفاله هادئًا يناسب عماه وسنوات عمره، ويتركز على أهم خبرين وهما أن أبا بكر لا يزال على قيد الحياة، وعبد الكعبة عاد سالمًا. وواسى عائلات القتلى في مصابهم بحزن عميق، وذهب للعزاء عند جيرانه أهل أبيّ بن خلف، فهو يسكن في خطهم خط بني جمح. وقد كان حزنه على أبيّ بن خلف الجمحي أقل كثيرًا من حزنه على قتلى القرشيين في هذه المعركة الأخيرة أو التي قبلها، كان حزنًا رسميًا رصينًا، لكن هذا كان مستورًا في تجاعيد وجهه. وقد ظن أهل أبي بن خلف أن الرجل الهرم في غاية التأثر وهو يقول بهدوء وهو يضغط على الحروف إن الإنسان يفكر في الجمع والأخذ من هنا ومن هناك ثم يخرج من هذه الدنيا بدون أن يأخذ معه أي شيء، وقد يُكتَب عليه أن يموت في الطريق كالغرباء مثلما مات العزيز أبيّ بن خلف؛ حتى أنهم أخذوا يربتون على كتف الرجل مقدرين مشاعره، ولم يفطنوا إلى ما يشغل باله، لم يفطنوا إلى أنه يود أن يقول إن هذا الميت الذي مات ودفن في سرف وهو في طريقه عائدًا من الحرب، لم يأخذ معه إبلًا بالتحديد، في خلطة شعورية عجيبة من الحزن والتشفِّي، فهو لا يستطيع أن ينسى أن الرجل الذي مات قد راهن أبا بكر على مائة من الإبل على حرب الروم والفرس، ولا يزال الأمر معلقًا وقد ورث أبناؤه الرهان فإما يغرمون من التركة وإما يأخذون من أبي بكر.

وخرج كثير من القرشيين من هذه الاحتفالات وهم أشد مقتًا لمحمد ﷺ؛

بإدراكهم لكلفة الحرب معه من المال والأنفس، وهم قبيلة تجارية ليس لها ميل فطري للحرب وما تسبب فيه من نزيف الدم والأموال، فلولا محمد ﷺ ما حدث أي شيء مما حدث، وما تقاتل الناس برغم النسب والمصاهرة والصداقات القديمة في الزمن البريء. أما بعض الناس، وخاصة الشباب، الأذكياء منهم، فتحيروا وهم بمواجهة الفراغ الذي تركه الثأر الذي نالوه، فقد كان هذا الثأر دينهم بين بدر وأحد ولا دين لهم غيره، ولما ثأروا ومات من مات من كبرائهم الذين كانوا يفكرون ويوجهون ويتخذون القرارات، واجه الشباب الشكوك الصعبة، فدين الوثنية الذي شنوا الحرب بسببه لا عمق فيه على الإطلاق، وما يعلمه منه الصبي الذي يلهو في طرقات مكة هو نفس ما يعلمه منه المعمَّر الذكي الذي يجتمع الناس إليه ليسمعوا نصحه وحكمته. وهم يتابعون من مكة أخبار ما يفعل محمد ﷺ بالمدينة والصوم الذي علمهم إياه، والتعاليم الجديدة، والحض على الصدق والأمانة ورعاية الجوار، وتشديده في أمر الزنا، بينما هنا لا يوجد أي شيء يمكن للآخرين أن يسألوا عنه من أخبار قريش ووثنيتها، فدين قريش قاحل تمامًا، ولا يوجد فيه ورع إلا هذا القدر الذي يكون عند الناس بطبيعتهم وينسبونه إلى هذا الدين بغير دليل، أما هناك، فهناك شيء ينمو في المدينة قبل أُحُد، يجعلهم قادرين على أشياء كثيرة منها الثبات في الحرب رغم اختلال الميزان، وقادرين على التأدب بآداب جديدة، وعلى إبداء الندم، ويبدو أنه سيظل ينمو بعد أحد، برعاية هذا الرجل الذي ظل مشهورًا طيلة سنوات بالأمين محمد ﷺ، الذي لم يكن له غدرة، ولم يكن عليه تهمة، ولم يعايره أحد بنزوة. وقد كان يميل للعزلة، ومع ذلك فإنه قدر على أخذ الناس إليه على اختلافهم أخذًا لم يكن لأي رجل من العرب محبب للناس فارسًا كان أو شاعرًا أو سيدًا. وهو لم يفكر قبل هذه الدعوة في جذب الأنظار بالخطابة، ومع ذلك فإن ما جاء به بعد الأربعين كان كلامًا يفوق كلام العرب، ولا يقدر على أن يضاهيه أحد. وهو

يحث أتباعه على قيام الليل في الصلوات، ولم يقل لهم إنه معفى من القيام ليلًا، بل يفوقهم فيما يحضهم عليه من قيام الليل حتى تتورم قدماه.

كان هؤلاء الشباب القرشيون يعلمون أن بعض أتباع محمد ﷺ قد توقفوا عن شرب الخمر بسبب القرآن، وكانوا يؤمنون بغيظ بأن أتباع محمد ﷺ سيتوقفون كلهم عن شرب الخمر لو حرمها عليهم قرآنهم ونبيهم. وكان أبو بكر سعيدًا بامتثال الناس بحب وورع لتعاليم الدين، وبتأدبهم بآدابه، أما ما كان يحير القرشيين من أمر إقلاع بعض المسلمين عن شرب الخمر، فقد كان يفرح أبا بكر كثيرًا، كان يفرح كلما انضم إلى الذين أقلعوا عن الخمر واحد من الصحابة، إذ لا يزال على قناعته بعد الإسلام بأن اجتنابها فيه صيانة للعرض وحفظ للمروءة، فكل من اعتاد على شربها من أحبابه جرَّب أن يتخطى طور الطواويس. وكانت الخمر واسعة الانتشار في المدينة كما كان الحال في مكة، وأهم ثلاثة لا يقربونها هم محمد ﷺ وأبو بكر وعثمان، ولم يكن هذا الإقلاع يتم غالبًا إلا بسبب القرآن نفسه وتعاليم محمد ﷺ. وأول جماعة من المقلعين كانت بعد نزول الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ لكن ظل عدد من المؤمنين على عهدهم مع الخمر التي يحبونها حبًا شديدًا، ورأوا أنهم سيأخذون ما ينفع فيها ويتركون ما بها من آثام. ثم سعد أبو بكر بالجماعة الثانية من المقلعين التي تأثرت بالآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، ولكن ظل جماعة من المؤمنين متشبثين بها وقالوا: حسنًا؛ نحتسيها في غير أوقات الصلاة. ثم سعد أبو بكر سعادة بالغة في ذلك الوقت من بعد غزوة أحد عندما وصل التدرج بعد التنفير والتضييق إلى التحريم الشديد بالآيتين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ

بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وسيصل هذا الخبر الذي يتفق مع توقعات القرشيين إليهم، ليزيدهم حيرة في هذا الشيء الذي يفعل فعله في أنفس أعدائهم.

ورغم أن أبا بكر لم يشرب الخمر، إلا أن الأمر يعنيه أيضًا؛ لأنه يعني المسلمين، لذا كان يحب أن يطمئن بشأنهم، فقال لمحمد ﷺ: يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وقد شربوا وفعلوا القمار وكيف بالغائبين عنا في البلدان لا يقرؤون أن الله حرم الخمر وهم يطعمونها؟ فنزلت هذه الآية ردًا على سؤاله ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾.

وكان النبي جالسًا في المسجد، ضامًا فخذيه على بطنه، واضعًا يديه على ساقيه، ثم حل يديه وقال للمجتمعين عنده: من كان عنده من هذه الخمر أي شيء فليأتِ بها. فبدأ كل منهم يقول ما عنده، هذا يقول عندي راوية وذلك يقول عندي زقّ. وأمرهم محمد ﷺ بجمع كل ما لديهم من خمر والذهاب به عند أرض خالية حددها لهم، ثم يأتونه يعلمونه. كان عبد الله بن عمر شابًا صغيرًا حاضرًا في تلك الجلسة، وكان يحب ملازمة النبي جدًا، وانتظر قدوم الناس مع محمد ﷺ.

لما جاء المسلمون لمحمد ﷺ وأخبروه أنهم جهزوا كل شيء، قام ومشى ليتلف الخمر التي جمعوها، فمشى عبد الله بن عمر عن يمينه، سعيدًا باتكاء النبي عليه. ولما لحق بهم أبو بكر، جعل محمد ﷺ الشاب الصغير عبد الله بن عمر عن شماله ليخلي يمينه لأبي بكر. ثم لحق بهم عمر بن الخطاب، فأخَّر النبي عبد الله ليجعل أباه عمر عن يساره. ليمضي الناس وهم يرون أبا بكر وعمر عن يمينه ويساره وهو ذاهب بهما في أمر من أمور الحكم بما أنزل الله، وهم قد اعتادوا على هذه المكانة لهما في جماعة المؤمنين التي يقودها محمد ﷺ، وهي مكانة لا تغيب عن أبي سفيان الخصم نفسه وهو في بلده مكة.

قبة سعد

كانت المدينة ونبيها ورجالها قد مروا بأحداث كبيرة منذ غزوة أحد وإلى هذا اليوم من أوائل ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة، عندما كانت عائشة تسمع من حجرتها بكاء أبيها وبكاء عمر بن الخطاب، وهي قادرة على أن تميز صوت بكاء عمر العريض عن صوت أبي بكر، ولكن القلبين تشابها. كانا يبكيان على سعد بن معاذ الذي انفجر جرحه مرة أخرى في القبة التي ضربها النبي عليه في المسجد، وكان النبي مع أبي بكر وعمر ومعاذ الممدد تحت القبة، يمسح لحيته بكل أسى وهو ينظر إلى هذا السيد الأوسي الطويل الجسيم الأبيض، الذي مات عن سبع وثلاثين سنة، وقالت عائشة من الداخل وهي دامعة العينين: رحماء بينهم.

في آخر هذا اليوم الشاق والحزين انفرد أبو بكر بنفسه في غرفته وأخذ يتذكَّر أحداثًا شديدة مرت بهم منذ أن عادوا من غزوة أحد، بعد أن طمع فيهم الجميع، وتمرَّد عليهم من كان يحسب لهم حسابًا، تذكَّر عندما تحركت أطماع بني أسد لمهاجمة المدينة، فبعث لهم محمد ﷺ سرية من مائة وخمسين مقاتلًا في مطلع محرم من السنة الرابعة للهجرة جعلتهم يعدلون عن أحلامهم، وتذكَّر الأخبار المقلقة التي وصلتهم عن خالد بن سفيان الهذلي الذي يحشد الناس للإغارة على المدينة، فأرسل النبي في الخامس من نفس شهر محرم رجلًا لقتله، ونجح في أن يغتاله فانتهى بقتله الزخم الذي كان حوله، واستمرت المتاعب في تواليها، وزادت شدتها، ففي شهر صفر من نفس السنة جاء رجال من عضل وقارة وطلبوا من محمد ﷺ أن يرسل معهم من يعلمهم الدين،

فأرسل معهم عشرة من أصحابه، فتعرضوا للغدر وقتلوا جميعًا. وبعدها بأيام من إرسال هؤلاء الستة كان أبو براء بن عامر عند النبي في زيارة ودية، ولم ينشرح صدره للإسلام، ولكن بدا عليه أنه يفكِّر في الأمر. واقترح أبو براء على النبي أن يبعث أصحابه إلى أهل نجد من أجل الدعوة، على أن يجيرهم هو ويحميهم، فبعث معه سبعين رجلًا، وعندما كانوا عند بئر معونة وهي أرض بين بني عامر وبني سليم، استعدى عليهم رجل يدعى عامر بن الطفيل بني عامر، لكن بني عامر احترموا جوار أبي براء، فاستعدى بني سليم عليهم فجاوبته منهم ثلاث قبائل ذبحت هؤلاء الصحابة، وهي خسارة فظيعة صادمة وفي حجم خسارته في أُحد. هذا هو العالم الذي عاش فيه محمد ﷺ وأصحابه، العالم الذي يؤدي بالأعمى من شدة الحقد إلى أن يرمي التراب على جيش يمر من عنده. في هذا العالم، لا يمكن لأحد أن يحظى بجيران مهذبين، إلا إذا أبدى قدرًا واضحًا من الحزم فيما يخص أمن جماعته وكرامتها في هذا العالم الذي يحيا على خليط من التوحش والقيم النبيلة.

وفي تلك الأيام الصعبة كان يصل إلى يهود بني النضير الذين يعيشون على بعد ميلين جنوب المدينة رسائل تهديدية من قريش، وكان يصل مثلها إلى الوثنيين من أهل المدينة. فقد كانت قريش تهدف إلى أن يجاهر الوثنيون واليهود النبي بالعداوة، وألا يكتفوا بمراقبة الموقف بهذه الطريقة التي يبدو فيها حياد دنيء، إما أنكم معنا، أو أنتم ضدنا.

ففكَّر يهود بني النضير في التخلص من هذا الضغط عن طريق مكيدة متقنة، معتمدين على أن هناك معاهدة قائمة بينهم وبين محمد ﷺ لم يظهر منهم أي خرق لها، فقد كان الغالب عليهم وبخاصة بعد انتصار المسلمين الباهر في بدر الاعتقاد بأن محمدًا ﷺ هو النبي المظفَّر الذي لا ترد له راية كما هو

وصفه، ولما انهزم المسلمون تغيرت نظرتهم إليه، رغم أن الأنبياء التوراتيين المظفرين جربوا طعم الهزائم في مسيراتهم.

لم يشك النبي محمد ﷺ في عرض بني النضير الذي عرضوه عليه بلطف وجدية مصطنعيْن بأن يخرج في ثلاثين منتقين من أصحابه، ويخرجوا هم من عندهم ثلاثين حبرًا، ليلتقوا في هدوء في الخلاء في منتصف المسافة بين بيوت المدينة وبيوتهم وحصونهم، ليسمع منه أحبارهم كل ما عنده وما يؤكد به نبوته، بدون أن يحيط بالجلسة جمهور متعصِّب من الفريقين، فإن صدَّقه العلماء والأحبار وآمنوا به دخل بنو النضير كلهم في دينه.

وقبل أن يتم هذا اللقاء تراجع اليهود بحجة ضخامة العدد الذي قد يعلو فيه الصوت ويقل الفهم والاستيعاب، وأن الكثرة يكون معها الاختلاف. وما دفعهم إلى ذلك هو أنهم كانوا ينوون قتله وقتل من معه بخناجر يخفيها الثلاثون في ثيابهم، ولكنهم تذكروا أن الثلاثين مسلمًا لا بد أن يكون من بينهم من يحتاط بالسلاح، وحتى لو لم يأتوا بأي سلاح، فسيدافعون عن نبيهم ولو بالحجارة والعظام وفروع الأشجار حتى يعود به من بقي على قيد الحياة منهم إلى المدينة.

بعثوا إليه رجلًا وديع القسمات قال له: كيف نتفق ونحن ستون رجلًا؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك آمنا بك كلنا وصدقناك. فخرج النبي ومعه صاحبه أبو بكر، وعمر بن الخطاب الذي كان اليهود يقدِّرون فيه أنه يأتيهم ويجلس في مجالسهم، وعلي بن أبي طالب، في طريقهم إلى نقطة اللقاء. وقبل أن يصل محمد ﷺ ومن معه إلى مطعنهم، أتاه خبر الخطة المدبرة التي كانت ستنتهي بقتله وقتل ثلاثة من أعظم

الصحابة، ذلك بعد أن خرج من حصن من حصون بني النضير ثلاثة من اليهود الأشداء في هيئة علماء وأحبار ومعهم خناجرهم المخفية، أي عندما كان أعداؤه قد مضوا بغير أي تردد ووصلوا إلى الذروة في مرحلة سبق الإصرار والترصد، وبينهم وبين التنفيذ دقائق معدودة.

بعد حصار لهم دام ست ليال من جراء الخطة الغادرة، خرجوا في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، وهم يحملون ممتلكاتهم على ستمائة بعير، وقد اختار أغلبهم الذهاب مع الزعيم حيي بن أخطب إلى خيبر التي تبعد مائة وخمسة عشر ميلًا، وكان حيي يكاد يحترق غيظًا وهو خارج من المدينة، وأقسم أن يدبر خطة تقتلع محمدًا ﷺ وأتباعه.

وبعد ذلك خرج النبي بجولات سريعة مثمرة على البوادي المتربصة التي يغلب عليها شعوران فقط، الطمع والخوف، فهي إن لم تخف طمعت. وفي شعبان من السنة الرابعة خرج إلى بدر بألف وخمسمائة لملاقاة قريش على الموعد السنوي، ولكن جيش قريش المكون من ألفي مقاتل رجع بعد أن اختار عدم المواجهة في هذه السنة. ثم خرج محمد ﷺ بجيش باتجاه دومة الجندل القريبة من الشام في أواخر ربيع الأول للسنة الخامسة من الهجرة لردع القبائل التي تقطع الطريق، فهرب أهل دومة الجندل في كل الطرق.

حقق محمد ﷺ إذن نجاحًا جيدًا في التخلص من آثار غزوة أحد، بعد أن تخلص من يهود بني النضير، وأحرج منافقي المدينة أمام أنفسهم وأمام حلفائهم اليهود فصاروا جماعة لا تملك إلا المشاعر السلبية ضد المسلمين، وهذا لا يثير الكثير من الأسى، وجعل قريشاً لا تستهتر بالملاقاة، ويبقى لديها شعور ما بالتشاؤم تجاه أي مواجهة قادمة.

لم يكن أحد يشك في أن غزوة بني النضير انتهت وبسهولة، ولكن زعيم بني النضير حيي بن أخطب لم يكن يرى ذلك، فخلال سنة وستة أشهر استطاع الرجل النشيط الحاقد الذي لم تشغله بساتين خيبر عن ذكريات الشرف والعز في المدينة، أن يقنع الزعامات الوثنية في قريش وغير قريش، الناقمة من هذا الدين الناشئ، بأهمية التوحد والزحف تجاه المدينة بجيش لم يحسب محمد ﷺ حسابه، حتى يتم قطع دابر المسلمين والقضاء عليهم للأبد. وفي ذات الوقت استطاع أن يقنع يهود بني قريظة بجنوب المدينة بأن يكون لهم دور مع الجيش الوثني العظيم الذي سيأتي للقضاء على المسلمين تمامًا، ثم عاد لزعماء الوثنيين وبشَّرهم بأن بني قريظة معهم وينتظرون غزوتهم على أحرِّ من الجمر، وأخذ العهد الغليظ عليهم عند الكعبة بأن يتكتموا عن عامة الناس عندهم بل وعن أبنائهم ونسائهم أن بني قريظة معهم إلى أن يأتوا فيظهر بنو قريظة العداوة وقتها، لأنهم يعيشون مع محمد ﷺ في بلد واحد ولو فشا هذا السر ووصل إلى محمد ﷺ طردهم شر طردة.

ولكن الرجل الذكي المقنع أخطأ ذلك الخطأ الذي يقع فيه غالبًا من يتوسَّط بين فريقين من أجل صفقة لا غنى له عن أن تتم، فبالغ لدى الوثنيين في وصف ما سيبذله بنو قريظة، وبالغ لدى يهود بني قريظة في وصف ما سيبذله الوثنيون، بجشع واستماتة سمسار في صفقة وحيدة كبرى.

وجاء جيش الوثنيين بتعداده المخيف، عشرة آلاف مقاتل من قريش وقبائل أخرى أقنعها حيي، ووقف خارج المدينة؛ لأن النبي فاجأهم بحفر خندق طوله ٢٧٢٥ مترًا، في شمال المدينة، حيث المدخل الواسع الوحيد الذي يسمح بدخول جيش كبير بغير اضطراب وتشتت، وهذا الخندق يصل

بين حقلين وعرين من الصخور السوداء، وعرضه يقارب الخمسة أمتار، ومن الناحية الثانية يقف محمد ﷺ بجيش منتبه تعداده ثلاثة آلاف مقاتل معهم السهام لمقاومة أي محاولة لتجاوز الخندق. هذا بعد أن جمع محمد ﷺ نساء المدينة وأطفالها في حصنين داخل المدينة، حصن فارع وحصن بني حارثة.

وارتفعت معنويات بني قريظة لما رأوا الحشد الكبير، ولما راجعوا وعود حيي الطيبة، فأظهروا السلاح عند بيوتهم، وأرسلوا الأطعمة للجيش الضخم، وأرسلوا عيونًا لهم لتنظر في أحوال أهل المدينة الذين لم يخرجوا للحرب من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى. وأثارت جولاتهم والثقة التي يمشون بها الخوف في نفوس الماكثين في بيوت المدينة.

وعندما أرسل النبي أربعة رجال منهم سعد بن معاذ زعيم الأوس وسعد بن عبادة زعيم الخزرج لحض بني قريظة على المحافظة على العهد، بعد أن وصلته أخبار تصرفاتهم المريبة، والطعام الذي يُرسَل إلى الوثنيين، ودخل الأربعة حصن بني قريظة، تعرضوا للشتم هم والنبي الذي أرسلهم، وقال لهم كبار بني قريظة لا عهد ولاعقد، وطردوهم شر طردة.

وعاد سعد بن معاذ حزينًا ومصدومًا وأخبر النبي. وعلى قلة موتى ومصابي هذه الحرب عن طريق الرشق، إلا أنه كان من نصيبه سهم من جيش قريش قطع وريد ذراعه، فكان من دعائه الذي قاله وهو يتألم (لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة).

دور الوشوشة في الأذن الذي قام به السمسار حيي بن أخطب كان قد انتهى، وكل فريق قد رسم صورة خيالية لرغبة الفريق الآخر في البذل، فبالنسبة

للوثنيين يوجد مدخل غير رائع ولكنه أفضل من الوقوف هكذا عند الخندق، وهو المدخل من عند ديار بني قريظة والبساتين التي حولهم؛ ولكننا لن ندخل منه إلا بعد أن يتحرك أحبابنا بنو قريظة تجاه جيش المسلمين الذي لا يحجزه عنهم أي شيء. وعندما بلع حيي ريقه وهو يسمع هذا الكلام الذي تسبب فيه هذا الخندق المفاجئ، الذي عليه أن يذهب به لبني قريظة، الذين كانوا يعتقدون من ناحية أخرى أن إرسال الأطعمة هو أكبر دليل على الإخلاص، وأن العشرة آلاف مقاتل سيأكلون المسلمين وحدهم، سأله بنو قريظة أول ما وصل إليهم: لماذا لم يمر إخواننا الصناديد إلى الآن من عندنا فننزل من ورائهم؟ وعندما حاول أن يقنعهم بالبدء، فقط عليهم أن يصلوا إلى جيش محمد ﷺ فيدخل الوثنيون ويلحقون بهم، تغيَّرت وجوههم وشعروا بالورطة، فقد سبوا رجال محمد ﷺ ومحمداً ﷺ نفسه على أساس أن هذا الجيش الكبير جدًا سيحسم الأمر. وغضبوا على حيي وذكَّروه بأنه طريد خرج من هنا منذ سنة ونصف ولن يورطوا أنفسهم معه أكثر من ذلك، ولابد أن يقتحم الوثنيون المدينة أولًا. ولم يتوقفوا عند هذا الشرط، بل اشترطوا أيضًا أن يأتي إليهم رهائن من قريش ومن غطفان حتى يضمنوا أن لا يتخلى عنهم الوثنيون ويتركوهم لغضب محمد ﷺ والمسلمين. هنا شعر حيي بأن حبكته التي حبكها تتفكك بعناد الآخرين وتصلُّبهم وسوء ظنهم في التفاوض، وتتفكك بسبب هذا الخندق الذي غيَّر شكل الهجوم وتكلفته، وأيقن أنه لن يستطيع أن يقدم أي شيء لإثبات إخلاصه العميق لفكرة استئصال محمد ﷺ غير أن يضع نفسه مع بني قريظة في حصونهم، ولكنه لا يجرؤ على التفاوض مع قريش وغطفان على تسليم الرهائن بعد أن وعدهم بأريحية كاملة من بني قريظة، فدخل حيي الحصن وقال لهم إنه ماكث

معهم ومصيرهم مصيره. ولما أرسلت قريش وغطفان بعض الرجال ليحثوا بني قريظة على التحرك، ليدخل العشرة آلاف مقاتل من ورائهم على الفور، قابلهم كعب بن أسد زعيم بني قريظة بوجه قاس بارد وهو يصر على أن يقتحم الوثنيون المدينة من عند ديارهم ثم ينزل بنو قريظة وينضمون إليهم من ورائهم؛ فلما عاد الرجال بهذا الكلام خاف الوثنيون من الدخول بهذا العدد من المقاتلين من بين حصون وبساتين، وخافوا من أن لايكون الخندق البدعة الأخيرة، فأي كمين سيؤدي إلى مذبحة مروعة. وأرسلوا رجالهم بالعرض الثاني والأخير، وهو أن يخرج مقاتلو بني قريظة من الحصون وينضموا إلى الوثنيين، ثم يهجموا معًا، فوافق كعب بن أسد على الخروج والانضمام للقوات، ولكن صدمهم صدمة أشد من الأولى بشرطه العجيب المتبجِّح، وهو أن يحتجز عنده رهائن من قريش وغطفان يجلسون معززين مكرمين ثم ينزل رجاله من بعدها وينضموا إلى الوثنيين وتتوحَّد المصائر. كان حيي يسمع ذلك وهو متوار من الخجل عند كعب، فزعيم بني قريظة الذي بالغ حيي بن أخطب في التعبير للوثنيين عن تعاونه وحسن نواياه، يريد أن يضع سكين أهله في ذبيحة وقعت، وهكذا كان الخلاف على من يقترب أولًا بسكينه من الفحل الغاضب اليقظ.

وفي ليلة باردة جدًا، شديدة الظلمة شديدة الريح، تضرب خيام الوثنيين وتقلب طعامهم، ويجد فيها الإنسان صعوبة في أن يتكلم مع غيره، وصعوبة في أن يسمع غيره، غلب على الوثنيين شعور عارم بالإحباط والتشاؤم والانزعاج، والنفور من هذا العراء، والشك في كل من حولهم، حتى سيطرت عليهم الأوهام كما تسيطر الكوابيس على النائمين، فاختاروا الرحيل بهذه الأعين التي ملأتها الدموع وهذه الحناجر التي علق بها الغبار، بدون أي ألم بخصوص بني قريظة،

أو بخصوص حيي بن أخطب الذي اختار أن يموت مع رجالهم.

وقد روَّج يهود بني قريظة الذين ينتظرون أن يطحنهم الغضب، لمن يمكن أن يشفع لهم من الأصدقاء من حلفائهم من الأوس، قصة مفادها أنهم ما كانوا على علم بقدوم جيش، وأن حيي بن أخطب لم يكلم زعيمهم ويلحّ عليه إلا بعد وصول جيش الوثنيين، فأخذ يغريه ويحرضه على معاونتهم، وأن زعيمهم رده بشدة ومدح في محمد ﷺ وفاءه بالعهد وصدقه في القول، ولكن حييًّا أغواه بالنهاية. وهي قصة وافق عليها حيي بن أخطب الذي كان يشعر بالخجل منهم بسبب الورطة السوداء التي ورَّطهم بها.

ومات سعد في القبة في المسجد في حضور محمد ﷺ وأبي بكر وعمر، وسمعت عائشة من حجرتها صوت بكاء الرجلين، بعد أن شفي غليل سعد من بني قريظة كما رغب في دعائه.

الرجل الذي يمسك بكل شيء في المدينة

في تلك الليلة شديدة البرودة شديدة الظلمة والريح، التي كانت الخيام تتطاير فيها، والقدور تنقلب، كان ثمة فارس مهيب يشعر بأن الوجع الذي فيه يضاهي أوجاع كل هؤلاء الذين قرروا الارتحال في جو العاصفة، وقد كان راضيًا وهو يقوم بجمله بذلك الظلام الذي يخفيهم جميعًا في جوفه، ويستر تعاسة روحه.

بعد أن ودع رفاق الغزوة العقيمة بعضهم بعضًا، وانفض الجيش الكبير من عند خندق المسلمين، وتفكك وذهب كل إلى حال سبيله محملًا بسوء شديد في المزاج، أخذ يمضي هو ومن معه على ظهر الإبل في الطريق المنبسط باتجاه ديارهم بنجد، والقمر كل ليلة آخذ في الازدياد، وكان وجهه فخمًا صارمًا مهيبًا، وملفتًا، لدرجة أن ضوء القمر صار كافيًا وحده كي يلحظ كثير من الجنود المحيطين به حجم الضيق الذي يشعر به وارتسم على وجهه، إن وجهه لا يزال يصيح في ليل الكون بحجم المفاجأة المذهلة، لقد عدنا جميعًا بغير أي شيء، عشرة آلاف فارس عربي زحفنا إلى مدينة محمد كي ندمرها على محمد ﷺ ومن معه وننهبها، وها نحن في طريق العودة لا نجد ما نقوله لكل هؤلاء الذين ينتظرون ضجيج عودتنا بالمال والسبايا.

إنه طليحة بن خويلد، أسد قبيلة بني أسد المتعدد المواهب، الشجاع العنيف، الخطيب الناري، الشديد الفخر بنفسه وبقبيلته، والكاهن أيضًا، الذي ينتمي إلى تلك النوعية من الكهنة التي لا تعيش بمنأى عن الناس، ولا يذهلها

عالم الغيب، وتحتفظ بشهية معلنة لكل ما يشتهيه الآخرون من مال ونساء ورئاسة.

يلتفت خلفه كل مدة في ليل الصحراء الواسعة، مع الصوت المهموم الضعيف للرياح، وينظر بألم إلى جيشه الصامت الكئيب المكون من أربعة آلاف وخمسمائة جندي، ثم ينظر متعبًا إلى مواقع النجوم والكواكب، متحسرًا على الآمال العظيمة التي تبددت عند ذلك الخندق الذي فوجئوا به، ويتذكر بكل ألم جلسات السمر الطيبة حول نيران الحطب، التي كان شباب القبائل من قريش وأسد وغطفان وسليم يتعارفون فيها ويعظمون فيها أجدادهم وأيامهم وحروبهم، حينما كان شباب بني أسد المتحمسون يتحدثون إلى نظرائهم من الجنود بكل فخر عن فارسهم الرهيب طليحة بن خويلد، رعد العرب الذي تنفلق قلوب الناس لو سمعوا صوته في الحرب، الفارس الذي بألف فارس. وعندما كان شباب قريش يحيون أوجاع ثاراتهم في تلك الجلسات في الدفء الذي بعثه الجمر في أجسامهم، ويتمنون التمثيل بجثة محمد ﷺ وجثث أكابر المسلمين مثل أبي بكر وعمر وعلي بن أبي طالب، بأصوات أسكرها الحقد، كان شباب بني أسد يطمئنونهم ويؤكدون لهم أن طليحة يكفي العرب هذا الأمر وما هو أدهى من ذلك، وأنهم سيرون بأحداقهم الأفاعيل التي سيفعلها الفارس الخارق في المسلمين، ويعدونهم بأن يروا عن قرب معالم الخزي والصدمة على وجوه المسلمين المضطربين وهم يرون ابن خويلد وهو ينفذ إلى محمد ﷺ ولو أحاط به مائة رجل يحملون الرماح؛ حتى صار هؤلاء الشباب من كثرة ما سمعوا من الوعود المدهشة يتعجلون الوصول، لا لكي يحاربوا بل لكي يشاهدوا خوارق طليحة في الحرب الضروس؛ أما طليحة الذي يصل إلى سمعه هذا الكلام الذي يشجيه ويطربه في هذا الجمع العربي الضخم، ويقبل

المبالغات بصدر رحب وهو يبتسم ويهز رأسه، فكان يمني نفسه بأعمال بطولة يريهم إياها فيرتفع اسمه فوق أسماء أشجع العرب جميعًا، بما فيهم عنترة بن شداد، وعمرو بن معد يكرب، لأنه لن توجد فرصة أفضل لصناعة الأمجاد الخالدة أكثر من اجتماع عشرة آلاف مقاتل عربي في ميدان واحد. وكان يشعر بسعادة غامرة يتكتمها أثناء تجواله في المعسكر في وقار ورصانة رجلٍ يعرف أنه محط الأنظار، عندما يقترب منه مجموعة من شباب العرب صغار السن خفيفي الشوارب بنظرات الإعجاب، ويصافحونه وهم ينطقون اسمه بنبرة غلب عليها الانبهار، كأنهم أمام أسطورة عربية، أسطورة تحيا بين خيامهم وتشاركهم الهم، همَّ القضاء على محمد ﷺ.

لقد ثمل طليحة من المديح بين هذا العدد الكبير من الحضر والأعراب، في ليالي الجيش الزاحف إلى المدينة، وتغذت روحه على هذا المديح، حتى أصابه ما يصيب من اعتادوا على ذلك من شعور بالاستياء والحزن والخيانة إن ذكر الناس مع اسمه اسم أحد غيره، لقد تضخمت ذاته، ولم يعد يطيق أن يقرنوه بأحد مهما كان، حتى عمرو بن عبد ود بطل قريش المرعب، الموجود بالجيش الكبير أيضًا، الذي يفتخر به شباب قريش في الأسمار، ويذكرون للشباب المشدوهين مآثره العظيمة ومنها أن أصحابه تركوه في مواجهة عشرة من قطاع الطرق، فأشهر سيفه وقتلهم جميعًا.

وبعد أن ثمل طليحة من المديح على مشارف المدينة، ها هو قد عاد بغير أمجاد، وبدون أن يحقق أمنيته وأمنية بني أسد بأن يجوسوا خلال ديار المدينة، على سبيل الثأر من الإهانة السريعة المباغتة التي حدثت لهم منذ عام، عندما هرع إليهم الرعاة وأخبروهم أن هناك سرية أرسلها محمد ﷺ قد نزلت بالقرب منهم، ليردع بني أسد الذين كان فارسهم طليحة يعدهم بغزو المدينة، وسيغيرون

عليهم عند هذا الماء في أي ساعة؛ لقد اضطربوا ليلتها، وأسرعوا في مغادرة أرضهم ومائهم، وتوزعوا في كل ناحية وهم يقنعون أنفسهم بأنهم ذاهبون بنسائهم وأبنائهم وأموالهم إلى المآمن، وسيعودون بسيوفهم المشهرة لمواجهة هؤلاء؛ ولما عادوا إلى حيث كانوا، بعد أن اطمأنوا تمامًا إلى أن المغيرين قد ذهبوا، ونصبوا خيامهم مرة أخرى، كان شيء قد انكسر فيهم يرغبون في أن تصلحه الأيام، ولكن غزوة الأحزاب لم تصلح في نفوسهم ما انكسر.

طليحة الذي اشتاق أن يُذكَر وحده إن رجع الناس من القتال، عاد في الطريق مهمومًا، عاد من دون أي مأثرة، فلم يكن قد فعل أي شيء على الإطلاق، وعاد أيضًا من دون منافسه القرشي الذي قُتل، عاد وهو يشعر بتلك المشاعر الملتبسة التي يشعر بها الإنسان إذا ما فقد منافسه فجأة، ذلك الشعور المضطرب من الإشفاق والتشفي؛ لقد وقف يشاهد المبارزة بين علي بن أبي طالب وعمرو بن عبد ود وهو غائب بين أكتاف المشاهدين، حتى صرع الشاب الشجاع عريض الذراعين ذلك البطل القرشي الشهير، وتمدد البطل المهيب مضرجًا في دمائه، بعد أن خلَّصه الشاب الذي يقف أمام جثمانه من كل آثار الحياة والمكابرة؛ ذلك الشاب الواقف عند قتيله وقفة صارمة، بدا في تلك اللحظات في عيني طليحة المأخوذ من الدهشة، كأنه العدالة قد أتت بكل ما فيها من سخط.

عندما شارف طليحة على ديار بني أسد، كان قلبه قد طاب من كل سوء ناحية فرسان العرب المرموقين الحي منهم والميت، بما فيهم عمرو بن عبد ود، ولم يعد يشغل باله من الرجال في جزيرة العرب غير رجل واحد يستحق ذلك، رجل كان يتابعه بنظره وبينهما الناس والخندق، محمد ﷺ، ذلك الرجل الذي يمسك بكل شيء في المدينة.

الهدايا التي لم تصل لأصحابها

دخل مسجد المدينة شاب في السادسة والعشرين من عمره، طويل عريض المنكبين، له ذراعان كبيرتان، توحي هيئته ومشيته بالقوة والشجاعة والاعتداد بالنفس، وتوجه ناحية النبي وصاحبه أبي بكر بثياب السفر المتربة، فعرفه أبو بكر الذي كان لا يزال محيطاً بأحوال وجوه العرب وأحداثهم، ومال على النبي وعرَّفه أن هذا المغيرة بن شعبة بن أخي عروة بن مسعود عظيم الطائف وثقيف، وفيهم سدانة اللات، وذكر له ما كان يقول عن نفسه إنه لو بدَّل قومه جميعاً دينهم ما بدَّل دينه، وعرَّفه أنه من أذكياء العرب ودهاتهم، لا يقع في أمر إلا وجد له مخرجاً.

وجلس أمام النبي وصاحبه وأعلن لهما رغبته في دخول الإسلام، فقال له النبي وهو يبتسم في وجهه: الحمد لله الذي هداك للإسلام.

فسأله أبو بكر الذي كان يعرف خبر سفره إلى مصر، وهو يريد أن يعرف أخبار من سافروا معه من بني مالك

قائلاً: أمن مصر أقبلتم؟

قال المغيرة: نعم.

قال أبو بكر: ما فعل المالكيون؟

فقال بهدوء وهو يشير إلى رقبته: قتلتهم، وأخذت أسلابهم، وجئت بها إلى رسول الله ليخمسها.

فقال له النبي: أما إسلامك فنقبله، ولا آخذ من أموالهم شيئًا؛ لأن هذا غدر، ولا خير في الغدر.

فقال المغيرة وهو يرجو أن يجد الأمان من المدينة من فعلته الشنيعة، وأن يبدأ صفحة جديدة مع هذا الدين الجديد: إنما قتلتهم وأنا على دين قومي، ثم أسلمت الساعة.

فقال له النبي: فإن الإسلام يجبُّ [يلغي] ما قبله.

وشرد أبو بكر في عروة بن مسعود الذي سرَّ به منذ سنوات عندما أعانه بعشر من الإبل الشابة في دية رجل واحد، وتذكَّر كيف تنفس عروة الصعداء عندما أتم جمع الدية كما يتنفس الصعداء حاملو الديات، فهو شعور يعرفه أبو بكر جيدًا، فهي كانت نفس مهمته قبل الإسلام؛ وها هو ذا شقاء طويل ينتظر عروة من جراء فعلة ابن أخيه المغيرة الذي لم يعد للطائف ومال على المدينة، تاركًا عمه عروة وحده يدبِّر أمره، ويتكفل بجمع دية ثلاثة عشر رجلًا مالكيًا صاحبهم المغيرة إلى مصر، مقدارها ألف وثلثمائة رأس من الإبل.

اتفق المالكيون على الوفود على المقوقس حاكم مصر وإهدائه هدايا، وأحب المغيرة أن يصاحبهم، فنهاه عمه عروة بن مسعود لأنه ليس معه أحد من عشيرته الأحلاف، لكن المغيرة أبى وذهب معهم.

ولما دخلوا الإسكندرية، رأى المغيرة المقوقس في مجلس يطل على البحر، فأراد أن يلفت انتباهه ليصل إليه عبر طريق آخر غير الطريق الرسمي الذي تصل به الوفود للرؤساء، محملًا بإحساس العربي بأنه جدير بلفت الانتباه، وخصوصًا أنه من أصل عريق، وذكي، وله تكوين مهيب. ركب زورقًا حتى حاذى مجلس المقوقس، فتعجب المقوقس من فضول صاحب الزورق

واستهتاره، وأمر أن يذهب إليه رجل ويسأله، فأخبره المغيرة الذي لم يستعد لزيارة الحاكم كما استعد غيره بكل ثقة بقدومهم في زيارة ودية ومعهم هدايا تعبيرًا عن حبهم وإعجابهم، فأمر المقوقس الرجل بأن يأخذه وأصحابه الذين نزلوا الإسكندرية، وينزلهم في الكنيسة ويجري عليهم ضيافة، وقد كان المغيرة معجبًا بنفسه وهو يسير مع أصحابه خلف الرجل إلى الكنيسة؛ كونه اختصر الطريق إلى المقوقس عبر أسلوبه الفردي الملفِت.

وبعد أن نزلوا وتم استضافتهم بما يليق بوفد مرموق، أمر المقوقس بإدخالهم عليه، ونظر إلى رأس بني مالك فيهم وقرَّبه منه، ثم سأله: أكلكم من بني مالك؟ فرد عليه: نعم، سوى رجل واحد. وتقدم المالكيون بهداياهم التي تلائم مقام الحكَّام وسعد بها المقوقس، وأعطاهم هدايا نفيسة بالمقابل، وتقدم المغيرة الذي أشار إليه رأس بني مالك وقال إنه الذي ليس منا، تقدم بيدين فارغتين وابتسامة، فأعطاه المقوقس هدية تافهة، حملها الرجل الطويل وهو يشعر بالعار.

وخرج المغيرة مع بني مالك وهم يتسوقون الهدايا لأهلهم من الإسكندرية، ولم يشعر واحد من هؤلاء السائحين المنفرجي الأسارير بالشحنة الخطرة التي في صاحبهم، ولم يقدم له أي رجل منهم أي نوع من المواساة. واشتروا الخمر، وكان المغيرة قد عزم على قتلهم بعد أن تملَّك منه الحقد على أن وضع نفسه في وضع إهانة، مشحونًا بما يكون عند أغلب أصحاب الأجساد العظيمة من اعتزاز بالذات يجعلهم غير قادرين على التسامح فيما يخص الكرامة. ربط رأسه مدعيًا الصداع، لكي يبرر امتناعه عن الشرب، وسقاهم حتى ناموا من شدة السكر، فقتلهم جميعًا وأخذ ما معهم، وترك في الإسكندرية ثلاث عشرة جثة غارقة في الدماء لرجال لن يرسلوا الهدايا لأهلهم أبدًا، وهرب وهو يعرف أنه لا يمكن له أن يعود للطائف مرة أخرى.

أوجاع الكاهن

مسيلمة بن حبيب، الذي أطلق على نفسه منذ سنوات رحمان اليمامة، فانتشر هذا الاسم في مجتمع اليمامة الريفي في نجد، وذاع بين العرب في ربوع الجزيرة؛ يجلس ليلًا على ربوة أمام حديقته التي يسمونها حديقة الرحمان، في شهر صفر من السنة السادسة للهجرة، وحوله جماعة من محبيه من أهل اليمامة، يتمتعون من حوله بالأجواء المنعشة التي تخيم على ليل اليمامة كثيرة الأشجار والمياه، ويطربون للأصوات الجميلة المنبعثة من الطيور البعيدة؛ أما مسيلمة، الشارد في خيالات الأشجار المنعكسة على مجاري المياه، فلم يكن يشاركهم تلك الهناءة في جلسة الخلاء، كان مهمومًا ومصدومًا، وكل الأصوات تأتيه كئيبة، كأنها أصوات تأنيب، صوت لهو الصبيان بعيدًا، والصوت المتقطع لطيور الحبارى، والأصوات الواهنة للأفرخ، التي تنبعث من مئات الأعشاش المتوارية في الأشجار في كل ناحية.

ورغم ما يعتمل به من حزن وصدمة، إلا أنه ظل حفيًا بضيوفه وأهله الملتفين حوله، كما كان دائمًا، وإن ترك الشقاء أثرًا في نبرته. أخذ ينظر في وجوههم وهو يشعر بالكثير من الامتنان والاعتزاز بأهل بلده، أهل بلده المزارعين الذين أحبوا بلادهم اليمامة، النعمة التي أنعم الله بها على بني حنيفة كما يرددون، أهل بلده الذين أجمعوا رأيهم عنده في تلك الليلة على أن اليمامة يكفيها اليمامة، وهي في غنى عما يدور حولها في بلاد العرب، وفي غنى حتى عن مجرد التفكير في محمد ﷺ هذا الذي ذاع أمره، وأن ابن اليمامة، مسيلمة بن حبيب، لا يزال هو كاهن العرب الأعظم، وظل وسيظل أحسنهم صلة بعالم

النجوم والأرواح.

رغم آلام مسيلمة التي سيطرت عليه منذ يومين، إلا أن أهله الجالسين عنده كانوا عزاء نفسه، كما كانوا دائمًا، وهو لم يعد يخشى شيئًا بقدر ما يخشى أن يأتي يوم على اليمامة وينفضُّ عنه أهلها مسرعين إلى محمد ﷺ هذا الذي رجعت الأحزاب عن مدينته، ليقضي بقية عمره وحيدًا مثل نخلة ميتة، لذا انتعشت روحه من حمى الحزن عندما تكلموا عنده بمثل هذا الكلام الذي صار يحتاج إلى أن يسمع مثله كل يوم. ولقد اعتاد مسيلمة على هذا الإجلال الذي يحفه به الناس في بلاده، حينما يكلمهم عن الغيب، وحينما يخرج للبسطاء منهم والأعراب وفي يده قارورة ضيقة العنق وقد وضع في قعرها بيضة، وهم لا يعرفون أنه ليس في الأمر أي معجزة تستحق نظراتهم المندهشة، فهو نقعها في الخل والشبِّ حتى لانت فأدخلها في القارورة، ثم سكب عليها الماء حتى استعادت شكلها في الداخل؛ وكذلك عندما يعيد الريش كما كان إلى جناح الحمام المقصوص فيطير كما كان يطير قبل انتزاع ريشه، وسط دهشة الناس الذين لا يعلمون شيئًا عن حيلة تغريز الحمام؛ واعتاد على هذا الإجلال الذي يحفه الناس به حينما يرهف السمع في أعماقه، لتلك الكلمات التي تريد أن تنبعث فيه، والتي يشتهي كل مرة أن تمضي، قدر المستطاع، جنبًا إلى جنب في ركْب كلمات محمد ﷺ، ذلك القرآن الذي لا مثيل له، الذي يملأ به محمد ﷺ فمه ثم يسري بين العرب ولا يأفل ولا يفقد بريقه ولا يُملّ، ذلك القرآن الذي سمعه عبيد خاملون فجابهوا أسيادهم، وتحملوا الظمأ والكي بالنار، وأصغى إليه سادة فخسروا أهلهم ومالهم وديارهم ولم يندموا. وقد اعتاد مسيلمة على كرمهم وترحيبهم، وتواطئهم على أن يتقبلوا بقبول حسن ما يأتي به من آيات، فيتحيزون لها، ويفتشون فيها، ويقنعون أنفسهم بنفاستها

وسماويتها، وهي في النهاية، وفي ضمير الرجال، عندما يختلون بأنفسهم، كلمات هزيلة ومتواضعة لا ترزقهم شيئًا من التقوى، وترتعش وتتخبط بجانب بيان محمد ﷺ السامق العجيب. ومما يزيد الأمر وجعًا مكبوتًا عندهم هو أن أحوال محمد ﷺ تشهد على ما نزل عليه شهادة حق، وكذلك تشهد أحوال صاحبهم على ما نزل عليه شهادة حق، فقد سمعوا أن محمدًا ﷺ يُرى أثناء قيامه في الصلاة ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء من أثر ما يتلو من القرآن، بينما لم يرَ منهم أحد مسيلمة وهو يبكي ولو مرة مما يقول.

الأذكياء منهم وأصحاب الذوق والشعور بالجمال، كانوا يغشون إحساسهم من أجل الوطن، ويبتلعون الغصة ويعبرون عن إعجابهم الشديد، ويتبعون أمنياتهم، كما يخدع الأذكياء أنفسهم دائمًا فلا يحتاجون إلى أن يخدعهم أحد: فثمة أشياء رائعة في الطريق، والإبهار قادم في أوانه لا محالة، وأجمل الآيات هي التي لم يقلها مسيلمة بعد؛ أما الجهلة والأغبياء وفاسدو الذوق، فكانوا يفعلون ما يتيسَّر للدهماء دائمًا: وهو أن يضموا أصواتهم بالجملة إلى أصوات الأذكياء والمتحذلقين.

أغلق عينيه قليلًا وهو يقبض على بساطه، وكان يقبض بعصبية حقيقية لا ادعاء فيها، معتقدًا أنه قد يحدث له نوع من الفتح، إن اعتصرته الأمنية واستبسل في الطلب؛ إنه يريد أن يقفز من وضعه ككاهن عظيم، أو شبه نبي كما يحاول البعض أن يعرِّفه ويمدحه، تلك القفزة المعجزة، التي لا يعرف كيف تكون.

فتح عينيه، ونظر مشدوهًا أعلى الهضبة البعيدة التي يكاد الليل يطمس رسمها، كأنه يرى ما لا يرونه، وكان يريد أن يرى ما لايرونه، فتبادلوا النظرات فيما بينهم وسكتوا، وهم ينظرون إلى شفتيه المختلجتين، وإلى شيب شعره

الطويل الذي يعطيه لمحة من الوقار، وملامحه المتزمتة المشدودة التي تعطيه هيئة رجل جاد وجدير بالثقة، وتركوه وقتًا في صمته الذي يبدو لهم عميقًا، عله يعود ظافرًا من هذه الحالة التي تشبه حالة الغياب، بآيات جديدة يفتخرون بها على أصحابهم ويقولون إنها والله نزلت على رحمان اليمامة ونحن عنده.

وفتح عينيه بعد قليل وهز رأسه هزة لا معنى لها، بعد أن فشل في أن يجد في نفسه آية واحدة جديدة يقولها، فأغمض عينيه مرة أخرى قليلًا، وفتحهما ولم يجد أي إلهام، حتى عن هذا الوزغ العجوز الذي رآه في ضوء الجمر المشتعل، وهو يزحف ببطء تحت جريدة نخلة ملقاة بالقرب منه، وتبادل النظرات معه.. والوزغ... والوزغ... والوز.. سحقًا؛ لا يوجد الكثير من الكلمات التي تنتهي بحرف الغين، ولا يوجد معنى. فمن أين يأتي ذلك النظْم الذي يبدو عليه أنه ليس من هذا العالم؟!

تمنى وهو في ضيقه أن يقطع أحدهم هذا الصمت، ويصرفهم عن الوحي الذي لا يزالون في انتظاره. وبالفعل، خرق رجل عفوي منهم الصمت، بصوته العقور الفظ، ولم يجد شيئًا يتكلم عنه إلا الأمر الذي يعرف كل الجالسين أنه هو الذي أصاب مسيلمة بالحزن والإحباط، لقد أوجع مسيلمة بالكلام عن ثمامة بن أثال، أحد سادة بني حنيفة، الذي عاد منذ يومين وفاجأ أهل اليمامة كلهم بأنه دخل في دين محمد ﷺ. وأخذ الرجل يتكلم على السجية بدون أن يتفكر في أثر ما يقول على الكاهن العظيم، الكاهن الذي كان يحاول أن يكبت أنفاس الغيظ وهو يسمع، ويحاول أن يبدو كأنه لا يحفل كثيرًا بالخبر السيئ. والرجل العفوي لا يزال يذيقه المر وهو لا يدري: ياللعجب، ذلك السيد من سادتنا، الطويل الوسيم، المعتد بذاته، الراجح العقل، يأسره جنود محمد ﷺ ويربطونه في سارية من سواري مسجدهم، ثم يطلقه محمد ﷺ من بعد ذلك؛

وبدلًا من أن يمضي ولا ينظر خلفه ويعض على طرف عمامته من الغيظ، يصير وجه محمد ﷺ أحب وجوه البشر إليه، بعد أن كان أبغضها جميعًا، ويصير دينه أحب الأديان إليه، وقد كان والله لا يطيق سماع كلمة الإسلام، فيغتسل ويعود إليه على الفور ويشهد بأنه عبد الله ورسوله. ولم يكتف صاحبنا الأسير الذي نطق بالشهادتين ووجهه مبلل بالماء، بل ذهب إلى مكة معتمرًا واجترأ على أن يشهد بين أهلها بنبوة محمد ﷺ، ثم لم يهدأ فيه اغتباطه، بل قد عاد إلينا وهو يزمع على منع حنطة اليمامة عن أهل مكة إلا أن يأذن رسوله، فماذا يفعل محمد ﷺ هذا بقلوب الناس وألبابهم!

وإني أخاف يا سادة، أن تصدق فينا وفي نجد كلها وفي غير نجد نبوءةُ محمد ﷺ التي سمعنا أنه تنبأها بأن يبلغ أمره ما بلغ الليل والنهار.

عند هذا الحد انفعل الرجَّال بن عنفوة، الجالس عن يمين مسيلمة، بملامحه المتزمتة، ومشاعره المتطرفة، وقد اعترت وجهه غيرة شديدة. سخط على الرجل العفوي، ولامه على أنه يخشى على اليمامة من كلمات ربما قالها محمد ﷺ في المدينة، ولامه على أنه خشي عليها وهو في مجلس كاهن بني حنيفة، بل وكاهن العرب كلهم. وكان يتكلم وهو ينظر إلى مسيلمة نظرة تكشف عن حبه الخطير له، نظرة بان فيها كيف يتحول بعض الرجال في نظر الرجل العاطفي المندفع إلى رموز خالصة، رموز خالصة لا يستطيع بسهولة أن يتخلص من هلاوس تأثيرها.

تغلب الخزي على الرجل العفوي ووضع وجهه في الأرض، وشعر مسيلمة أن واجبه يحتم عليه أن يحفظ قلوب أهل اليمامة من الاستسلام لما أخذ يشيع بين العرب من أن ذلك القرشي صادق ومؤيد من السماء، فكابد

حتى يمتلئ وجهه بابتسامة وضاءة تبعث على الشعور بالثقة، ولما تمكن منها ومن نبرة صوته، أشار براحة يده كي يصغوا إليه، وكان الهواء يلعب بأطراف شعره الرمادي، وضوء اللهب يجعله يبدو مثل روح قديس جاءت من الموت لتلتقي بأتباعه على ربوة، وقال لهم بصوته المهيب الدافئ إن محمداً ومن معه مردودون عن اليمامة، ماذا تقول؟! أقول الذي سمعتموه، إنهم مردودون عن اليمامة، طالما أنني فيها، حتى لو دخل الحرم على أهله أنَّى له اليمامة وفيها رحمانها! ومحمد ﷺ يعلم ذلك، يعلم ذلك جيداً.

شعر الجالسون بالفخر بالكاهن حارس اليمامة العظيم، وبالفخر بوطنهم المحرَّم على محمد ﷺ، الذي يعلم ذلك جيداً. واعترت الحماسة صاحبه الرجَّال بن عنفوة، وتسارعت نبضات قلبه، ونزل العرق على إبطيه من الحمية، وأخذ يعيد ذلك الكلام بحماس شديد وهو يرتعش من شدة الانفعال، يعيده ببعض الزيادات من عنده، كأنه يعلم هذا من قبل، ثم أخذ ينصحهم وقد علا فمه بعض الزبد بأن لا يجلسوا إلى ثمامة هذا أبداً، ولا يسمعوا منه، ولا ينظروا إلى صلاته وسجوده.

وبعد وقت أخذ الجالسون ينسحبون، واحداً تلو الآخر، من عند الكاهن المهموم، حتى لم يبق معه إلا اثنان، صاحبه الرجَّال بن عنفوة، الذي جفف الهواء عرقه، واعتراه الهدوء، أما الثاني فهو القلق، القلق من الأيام القادمة، في تلك الجزيرة العربية التي أثار إعجاب الناس فيها قائد لم يخضع هو ومدينته لعشرة آلاف مقاتل حاصروهم.

وكان الرجَّال يحدق في وجه صاحبه المهموم، يحاول أن يقرأ أفكاره، وقد مرت به بعد أن جف عرق الحماس والغيرة نوبة من نوبات الرشد والتفكير

التي يتخلص فيها مؤقتًا من الأثر العارم للعاطفة، فيما كان مسيلمة يسأل في أعماقه، بكل ما عنده من احتجاج، وهو يرمي كل قليل نظرة لوم تجاه السماء، لماذا يهبط هذا القول الجليل على محمد، ولم يهبط عليَّ أنا وقد طالت خلواتي ونظري في السماء، وطال طلبي للأسرار والكهانة، وطال وقوفي على مقابر عظماء المجوسية وشهداء النصرانية والأنبياء المجهولين؟ لماذا اجتازني ذلك القرآن وأنا السيد المشهور إلى رجل يتيم يحب العزلة وشديد الحياء؟

انتبه مسيلمة من أفكاره، وتذكر أن صاحبه الرجَّال بجانبه، وربَّت على ركبيته، وقال له: خيرًا قلت لهم.

فابتسم له الرجَّال وقال: هذا لهم يا صاحبي... أما أنا، فلا أحب أن تستر عني شيئًا، بحق ما بيني وبينك من وفاء، وبحق ما تهمس به إليك الأرواح الهائلة، وبحق ما تحدثك به طوارق الليل، ألا تعجب مثل ذلك الرجل الذي مضى من إيمان ثمامة بمحمد؟.... أنت تعلم أن ثمامة ليس رجلًا تافهًا إمعة يدهشه الرجال، تعلم أنه صريح وشجاع وذكي، أفلا تظن أنه عندما أبصره عن قرب واستمع إليه قد أدرك فيه نبوة من عند الله، نبوة لا يتصنَّعها، وسيؤمن بها العرب إن عاجلًا أو آجلًا كما يقول محمد، فاختار لنفسه أن يبكِّر إليها؟ قل، فوالله سأجعلها بيني وبينك، مهما كان ما ستقول.

كان مسيلمة قد ثبت نظره على الرجَّال بن عنفوة من الصدمة، كأن الرجَّال يلطمه بتلك الكلمات، التي خرجت من رجل حبيب ذكي قوي العاطفة تجاهه وتجاه قومه.

وتماسك مسيلمة، ونظر إليه نظرة صديق إلى صديقه، ليس فيها تكلف

كاهن يتخذ مسافة من الناس، وتكلم بالعقل، كما يتكلم رجل يقرأ الأحداث وينظر في مواضع الخطر، لا كرجل يتكهن وينظر في النجوم، وأوحى إلى صاحبه، بصوت خفيض، وعينين تلمعان، بأن العيب هنا في اليمامة، العيب في اليمامة؟! نعم، في القصر، عند هوذة الذي لا يعرف ما يمكن لليمامة أن تكون، وكذلك فإنه لا يعرف ما يمكن لها أن تكون مدينة محمد ﷺ.

ذلك السيد من أهل اليمامة، ثمامة بن أثال، الصريح، الشجاع، الذكي، الذي يعيش مثل عيش الأعراب هو وعشيرته وعشائر أخرى من بني حنيفة حول حقول اليمامة وبساتينها، كان في قرارة نفسه يستنكف ما يستنكف منه أحرار العرب، وهو أن تخضع بلادهم للأغراب، ونحن هنا في اليمامة ندين بالولاء لفارس التي تحمي هوذة حاكمنا، وجعلت له كتيبة فارسية عظيمة تحيط به ولا يستغنى عنها ولا يثق بغيرها، وهذا يوجع رجال من بني حنيفة ولا يستسيغونه، رغم طول العهد. ثمامة يا صاحبي، لم يسلم ويتبع ذلك القرشي إلا لأنه فضل أن يتبع رجلًا عربيًا على دينه على أن يدين بالولاء لحاكم تتجول خيول الفرس حول أسوار قصره، حاكم منهم، من بني حنيفة، ولكنه يوم أن يأتيه أركون دمشق في عيد الفصح، ويستقبله بالتبجيل اللازم، ويتواضع له وهو يمشي عن يساره بغير التاج، وقد أفسح له الطريق ليزور ويهنئ رعيته النصارى، سراة اليمامة وكبراءها، والنور يضيء وجهه من الفرح والارتياح، يراه بنو حنيفة يومها فقط سيدًا نصرانيًا يمشي إلى أهله وخاصته.

إن أصحاب الحقول، قد يأتي عليهم يوم هم أيضًا يا ابن عنفوة ويعرفون أن اليمامة يمكن أن تكون أحسن من ذلك، ويضيقون ذرعًا بالكتيبة ورجالها الغلاظ المدججين بالسلاح، وينتقمون من وطأة هذا الوجود الثقيل، ويعوضون

ما فاتهم ؛ عندئذ يلقون الفؤوس ، ويتركون ثيران الحراثة ، ويحملون سيوفًا على ظهور الخيل ، ويصنعون من أنفسهم جيشًا عظيمًا .

لم يقتنع الرجَّال بأن إيمان ثمامة بمحمد ﷺ نابع من شوقه إلى رئيس عربي لا يخضع إلا لله ، لم يقتنع بأن هذا كل ما في الأمر ، ولكنه لم يرد على مسيلمة ، تلطفًا منه مع الكاهن المحزون ، غير أن الرجَّال أعجبته صورة جيش بني حنيفة العظيم الذي ترك الثيران في الحقول وغطى السهول والأودية ؛ لقد شعر أن صاحبه الكاهن قال شيئًا بعيدًا ولكنه شديد العمق والذكاء ، ويمكن أن تدفع إليه الأحداث العظيمة في جزيرة العرب خطوة وراء أخرى ، عندما يلتهب حماس الناس وهم يرون بسالة محمد ﷺ ومن معه ، وصموده في وجه المخاطر الكبيرة ، فتدب في قلوبهم الغيرة ، وتلك النزعة العربية لإثبات الوجود والرد على الصيحة بصيحات ، ويرفضون كل ما كانوا يتقبلونه على مضض ؛ إن الرجَّال لم يفكر في هذا من قبل ، لم يفكر في جيش بني حنيفة ، ولكن لما قاله ذلك الكاهن وعيناه تلمعان ، شعر وكأنه أمنية قديمة في نفسه .

الهودج الفارغ

مع الفجر، قام من نومه الثقيل الذي طال في الليلة الشتوية الفائتة، نظر أمامه في غبش الفجر، لم يجد أي أثر للجيش الذي كان ينام في آخره، تمطَّأ ولملم فراشه، وأيقظ ناقته ووضع الفراش في الخرج على جانبها ومضى بها ليلحق بالجيش.

كلما تحرك بالناقة زاد الضياء قليلًا في هذا الوادي الهادئ، لكن الليل لم يكن قد غاب كله عندما رأى صفوان بن المعطل إنسانًا مسربلاً بالسواد، يستند بظهره ورأسه إلى صخرة غائبًا في النوم. ابتسم لنفسه وسار تجاهه وهو يقول ها هو ذا من غلبه النوم مثلي. ولما اقترب فوجئ بأنها عائشة زوجة النبي، عرفها لأنه رآها قبل أن يُفرَض الحجاب، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأفاقت من نومها المضطرب المحزون، والخفيف، الذي غشيها بعد أن افتقدت الجيش. وغطَّت وجهها، وأكمل كلامه: أظعينة [زوجة] رسول الله، ما خلَّفك رحمك الله؟

أناخ الناقة جيدًا، وركبتها عائشة، وانطلق صفوان بناقته مسرعًا وهو يسير على قدميه ليلحق بالجيش.

الزوجة الشابة الصغيرة النحيفة، كان نصيبها أن تكون مع النبي في هذه الغزوة، غزوة بني المصطلق. لها هودجها الذي تُحمَل فيه كلما تحركوا، وكلما نزلوا واستراحوا في أي ناحية وأناخوا بعيرها نزلت من هودجها. وذلك الوادي

الذي تركوها فيها بغير قصد كان في طريق الرجوع بالقرب من المدينة. كان النبي قد نبه الناس ليلًا للرحيل، حتى يستعدوا. فذهبت عائشة بعيدًا لتقضي حاجتها قبل أن يتحرك الجيش، وعندما رجعت للبعير، والهودج بجانبه على الأرض، لاحظت أن عقدها اليماني المحبب إليها، الذي يتكون من حبات خرز فيها اللون الأبيض واللون الأسود مثل العيون، لا يحيط بعنقها، فشعرت بالضيق. ترددت قليلًا، هل ترضى بفقده، أم تحاول العثور عليه؟ ثم غلبتها غريزة الاقتناء عند النساء، ومعرفتها بأن النبي زوج عطوف صبور يدللها ولن يبكِّتها إذا أخَّرت الرحيل بعض الوقت، فعادت تبحث عن عقدها.

كل الناس قد تجهزوا، فاجتمع بعض الرجال وحملوا هودجها؛ ولأنها شابة صغيرة خفيفة الوزن، لم يستنكروا خفَّته، ووضعوه على ظهر البعير، وشدوه بالحبال، وتحرك البعير بهودج فارغ.

ولما عادت بعقدها اليماني العزيز بعد أن وجدته، أطلَّت على الخواء والواقع الصعب، لا أحد هناك في المكان الذي نزل به الجيش. شعرت ببعض الاضطراب، واختارت أن تقعد في نفس المكان الذي كانت فيه وهي تأمل في أنهم سيفتقدونها ويرجعون إليها، ولأنه لم يكن أمامها شيء تفعله لتساعد نفسها للتخلص من هذا الموقف الصعب في الليلة الباردة غلبها النوم.

لقد مضى صفوان وهو متخوف من أذى بعض مرضى النفوس عندما يلحقان بالجيش في أي منزل ينزل فيه في الطريق، بينما هي في هودجها، ورغم ذكائها، لم تحسب حساب شيء كذلك، فهي تربت في بيت غير متهم، في أسرة كريمة ليس لها في القيل والقال، وانتقلت من هذا البيت إلى بيت نبي أكثر كلامه ذكر الله، وليس في بيته أي نميمة. وفي هذا الجيش الذي تريد

اللحاق به أبوها أبو بكر، وزوجها النبي، وكانت تشعر أن هذين الاسمين حصانة كافية لها.

ولما لحق صفوان بالجيش وهو نازل بالطريق في وقت الظهيرة، اندهش الناس من أن عائشة قادمة معه على ناقته. الرجل الذي كان يقود بعيرها، ووضع الهودج على الأرض مع الآخرين، نظر في الهودج كأنه يتأكد من الخطأ الذي وقع فيه هو وأصحابه بحمل الهودج فارغًا. أناخ صفوان ناقته، فنزلت عائشة تطمئن النبي، وتطمئن أباها. وأمسك أبوها نفسه من الغيظ منها كونها من أجل عقد كادت تبقى وحدها في الصحراء.

كان عبد الله بن أبي بن سلول، الذي لم يخرج من الغبار بعد، ولم يتقبل الوضع الجديد لمحمد ﷺ في المدينة، حتى بعد أن أخرج ثلاثة قبائل لليهود من ديارهم، كان يبتسم ابتسامة رقيعة لا تناسب سنوات عمره ومكانته، وهو يرى انطلاق عائشة الشابة الصغيرة بعودها النحيف، باتجاه محمد ﷺ، ثم باتجاه أبيها. مال على أحد الرجال من المسلمين يقف بالقرب منه وقال له ليرى أثر التهمة: صفوان وعائشة قادمان معًا؟ فنظر له نظرة استنكار وقال له: حمل الرجال هودجها فارغًا ومضوا، فهل كان على صفوان أن يتركها ويأتي إلينا ينبهنا فيعود إليها بعض الناس ويحملونها؟

ولم ييأس عبد الله بن أبي بن سلول، وأخذ يبحث بعينيه عن آخرين يتوسَّم فيهم قبول مثل هذا الطعن والتجريح، لأن المشهد لا بد أن يُستثمر في وقته، وكأنه نسي من كان هو قبل الإسلام، حيث كان سيدًا لا يمكن أن يتكلم الناس في أمور كهذه في مجلسه، فمسخه الحقد رجلًا خفيفًا تافهًا يمكن أن يتحرك بنفسه ويروِّج مثل هذا. ووجد جماعة من أحبابه، فوضع يديه على كتفي

رجلين منهما وقال بصوت خفيض وهو يبتسم: هل رأيتم عودة عائشة مع صفوان؟ فابتسموا وخاضوا معه بتعليقات غير مهذبة، وفهموا أنه يريد منهم أن يثرثروا حول هذا الأمر.

ولما رجعوا جميعًا إلى المدينة، استمرت الثرثرة، وعائشة في غفلة عن الأمر تمامًا. والطفل الذي كان يجلس في البستان، مسطح بن أثاثة، الذي كان يختلس النظرات إلى أبي بكر الذي ينفق عليه وعلى أمه، بحسد الروح المحرومة، جاءت هفوته بعد أن كان يكتم ما يعتمل به صدره، فوجد شفاء نفسه في هذا الطعن ليذل أسرة أبي بكر التي أتعبه إحسانها إليه، وأخذ يردد الكلام مع من يرددونه، ويضحك معهم منفرج الأسارير وكأنه لا توجد رحم تربطه بهما، ولا توجد نفقة يضعها أبو بكر في كفه.

ووصلت التهمة إلى النبي، وإلى أبي بكر وأم رومان زوجته، وإلى صفوان، فأصابتهم بالغم جميعًا، وكان صفوان ميالًا للعدوانية كلما أثير هذا الأمر، غاضبًا من أجل النبي وزوجته، ومن أجل عرضه هو. وظلت عائشة لا تعرف شيئًا، ولا يؤلمها إلا المرض الذي ألَمَّ بها فور رجوعها إلى المدينة، والذي استمر معها فترة. لم يكن يحيرها خلال هذا الفترة إلا أن النبي لم يكن على نفس اللطف الذي اعتادته منه في فترات مرضها.

ولما بدأت تتعافى خرجت مع أم مسطح ليلًا لقضاء الحاجة بعيدًا، وأثناء عودتهما باتجاه بيت عائشة، داست أم مسطح على طرف ثوبها فوقعت وقالت: تعس مسطح.

فقالت لها عائشة: بئس ما قلت، أتسبين رجلا شهد بدرًا؟

فتعجبت أم مسطح من غفلتها وبراءتها وقالت لها: أو لم تسمعي ما قال

يا بنت أبي بكر؟

قالت: وما قال؟

فأخبرتها المرأة بما هو مخفي عنها منذ شهر، فرجعت بيتها مريضة ذابلة محطمة بعد أن كانت على وشك الشفاء.

ولما دخل النبي وسأل عليها بأدبه المعهود من غير لطفه، استأذنت منه في الذهاب إلى أبويها، وهي تريد أن تتأكد منهما، فأذن لها النبي. وأول ما وصلت بيت أبويها جرت على أمها باكية كما تجري أي امرأة على أمها في المصائب، وقالت لها: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟

فربتت أمها عليها مشفقة وقالت لها: يا بنية، هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا أكثرن عليها.

واستمرت عائشة تبكي طيلة الليل في بيت أبيها الذي لم يكن قادرًا على أن يفعل شيئًا، وهو رجل عاش طيلة عمره يحفظ عرضه ومروءته، فهي كامرأة كان يحزنها أثر القصة الكاذبة على زوجها، فقد كان بالنسبة لها زوجًا، وهذا طبيعي تمامًا، أما بالنسبة لأبي بكر فهو النبي، النبي الذي لا يخالفه، والذي اختار أن يلزم أفعاله وأقواله وعواطفه، وهو عنده أغلى من عائشة. وكان أبو بكر يقول بكل ألم: والله ما رمينا بهذا في الجاهلية أفنرضى به في الإسلام!

وكما ظلت تبكي طول الليل أصبحت تبكي أيضًا، ولا شيء يمكنه أن يخرجها من هذه الكآبة إلا النبي نفسه الذي اعتادت على حبه وحنانه واحتوائه.

أما محمد ﷺ، فقد كان نبيًا اعتاد على أن يغيثه الوحي في الملمات وكل

الحوادث الهامة التي مر بها طيلة السنين الفائتة، فلما لم يغثه الوحي وهو في حاجة شديدة إليه، لم يستغن عنه وظل ينتظره، ولكن لجأ إلى ما يلجأ إليه العقلاء وهو سؤال المقربين، من داخل بيته، فسأل أسامة بن زيد، وهو ابن زيد بن حارثة الذي رباه محمد ﷺ، وكان في الثالثة عشر من عمره، فقال: أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا. وسأل علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. فسأل الجارية بريرة فقالت: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمرًا قط أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله. وسأل النبي زوجته زينب بنت جحش، وهي التي تنافس عائشة في المنزلة عن النبي، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

وارتاح النبي لشهادة أسامة وشهادة الجارية، وشهادة زينب، فشهادتهم تطابق ما يعرفه عن عائشة، وأسامة كان طفلًا ذكيًا في بيته، وتلك خادمة من داخل البيت، وتلك زوجة أخرى بالجوار لن يغيب عنها أي عيب، وهم أقرب الناس منها ومن حياتها بعد النبي. ارتفعت معنوياته إلى حد ما، وإن كان هذا أقل كثيرًا من اليقين الذي اعتاد عليه من الرؤى والوحي. وخطب في الناس وهو على المنبر يشتكي بدون أن يذكر الاسم، من عبد الله بن أبي بن سلول وما أشاعه، وقال مبرئًا زوجته ومبرئًا صفوان:

والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا وما يدخل على أهلي إلا معي.

قام سيد من الأوس هو أسيد بن حضير وعرض أن يضرب عنق من آذى الرسول في أهله إن كان من قبيلته الأوس أو حتى كان من الخزرج، فغلبت الحمية سعد بن عبادة سيد الخزرج وهو يعرف أن المذنب من عندهم، ولا

يرضى أن يعاقبه كبير الأوس: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل.

فرد عليه أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

وانتهى الأمر بمشاجرة بين الأوس والخزرج، استطاع النبي أن يفضها ويأمر الجميع بالسكوت. هذا فيما كانت عائشة ما زالت في بكائها اللجوج، وهي تظن أن البكاء سيقضي عليها. وجاء إليها أبواها والتصقا بها من اليمين واليسار مشفقيْن عليها، وجاءت إليها امرأة من الأنصار تشاركها البكاء لشعورها بحجم الألم الذي تشعر به هذه البريئة.

وحدث أن دخل النبي وسلم على الحاضرين، وجلس عندها، وهذه أول مرة يجلس عندها منذ سمع ما سمع. لقد مر عليه الشهر وهو لا يوحى إليه بشأن هذا الأمر الشديد الحساسية الذي انتشر فيه الكلام في المدينة بين من شعروا بالغم وبين من أعجبهم الحديث، وهو يريد الوحي ولا شيء غير الوحي. قال لها وهو يتكلم بصعوبة من حساسية الأمر، ممارسًا عندها عملًا نبويًا خالصًا ليس فيه نبرة الزوج: أما بعد، ياعائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه.

لقد شعرت البريئة بالوجع وهي تسمع للنبي وهو يتكلم بحكمة ولا يتكلم بالحب الذي عرفته. فجف الدمع في عينيها من الصدمة، وقالت لأبيها: أجب رسول الله عني فيما قال.

فقال أبوها: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

فقالت لأمها: أجيبي رسول الله فيما قال.

فقالت أمها: والله ما أدري ما أقول لرسول الله.

فقالت الشابة الصغيرة محتجة عليهم: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وأدارت وجهها ورقدت، وهي مؤمنة بأن الله سيبرئها في رؤيا يراها النبي. وكانت تتعجل ذلك من أجل نفسها، ومن أجل النبي، ومن أجل أبويها اللذين تشعر أنهما على وشك الموت من وطأة الحادثة. هذا حتى ظهر على النبي أن الوحي ينزل إليه، وانحدر منه العرق مثل اللؤلؤ رغم الشتاء، ثم ضحك النبي بعد قليل وقال: أبشري يا عائشة، فقد برأك الله.

فعادت علامات الحياة على وجه أبي بكر ووجه زوجته، فقد نزل قرآن ببرائتها، فجاءت براءتها من الله ذاته، وقد كان هذا فوق ما تتمنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد دعا أبو بكر مسطح بن أثاثة إلى بيته، فجاء بوجه كالح لا يعرف ماذا يقول، فقال له أبو بكر وهو يمسك نفسه بصعوبة: أخبرني عنك وأنت ابن بنت خالتي، ما حملك على ما قلت في عائشة؟ أما حسان فرجل من الأنصار ليس من قومي، وأما حمنة فامرأة ضعيفة لا عقل لها، وأما عبد الله بن أبي فمنافق،

وأنت في عيالي منذ مات أبوك وأنت ابن أربع حجج، وأنا أنفق عليك وأكسوك حتى بلغت، ما قطعت عنك نفقة إلى يومي هذا، والله إنك لرجل لا وصلتك بدراهم أبدًا ولا عطفت عليك بخير أبدًا. فأصاب الذعر مسطح الفقير، ونظر إلى عياله المترقبين من خلفه ثم نظر إلى أبي بكر وقال: أنشدك الله والإسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا إلى أحد، فما كان لنا في أول الأمر من ذنب.

وطرده أبو بكر من بيته، فخرج مسطح نادمًا محرجًا، يكاد يقع على الأرض من هول الصدمة وهو لا يعرف كيف يعيش وكيف ينفق على من معه. فنزل القرآن ينهى أبا بكر عن قطع معونته لمسطح ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: والله إني أحب أن يغفر الله لي. وأرسل إلى مسطح ومن معه من أهله، وقال له: قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم ما فعلت إذ سخط الله عليك، أما إذ عفا عنك فمرحبًا بكم. وعاد إلى النفقة على مسطح وحلف أن لا ينزعها منه أبدًا.

إمام ومأموم

ظل أبو بكر مواظبًا مع الرسول في كل أمر من أمور الدعوة أو الجهاد، لا يتخلف عن أي شيء، ولم يكن ضمن الذين تعرضوا لأي مؤاخذة قرآنية أو نبوية في أي موقف، حتى عندما كان النبي محمد ﷺ يخطب خطبة الجمعة، وقد كانت الخطبة بعد صلاة الجمعة نفسها، ويعتقد المسلمون أنه يمكنهم الانصراف عنها للضرورة، وحدث أن قدمت المدينة تجارة كبيرة محملة ببضاعة من الشام على ظهور الإبل، وأخذ أصحاب التجارة يضربون الطبول ليعلنوا عن وصولهم، فانتبهت آذان المسلمين الذين يستمعون إلى الخطبة إلى طبول التجارة، وما عادوا يسمعون شيئًا، وأخذوا يشتمون الروائح الحقيقية للطعام التي يحملها الهواء، والروائح الخيالية التي يحملها الهوى، وغلبتهم شهوة التبضُّع، فيقوم الرجل منهم في هدوء، ويضع قدميه في حذائه وينطلق، فيلحق به آخر وهو يتخيل الأشياء التي سيعود بها إلى بيته، ويختبئ بينهما منافق كانت الصلاة والخطبة ثقيلتين عليه، وهكذا، خاف كل من سبقه الآخرون من أن لا يبقي أصحابه شيئًا جيدًا من خيرات الشام، فقام المزيد من الناس متتابعين من كل ناحية من المسجد. وبعد قليل، وبعد أن كان المسجد مكتظًا بالناس، لم يبق مع الرسول الذي ظل قائمًا كما هو يخطب على المنبر غير اثني عشر رجلًا بعد خروج المتسوقين والمنافقين ومحبي الجلبة والتجمهر، الذين يرون أن الانصراف من الخطبة ليس شيئًا عظيمًا طالما أن هناك من سيستمعون إليها للنهاية. وكان أبو بكر وعمر بن الخطاب من ضمن هؤلاء الذين لم يشموا تلك الروائح، ولم يتحرك فيهم شيء لنداءات الدنيا الصاخبة. فنزل القرآن يعاتب

هؤلاء المنفضين ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وقد قال النبي: والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي نارًا. هؤلاء الذين بقوا مع الرسول إلى نهاية الخطبة وهم مؤمنون بأن ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة لم يتوقف نفعهم على أنفسهم، بل نفعوا جماعة المسلمين كلها بما فيها من تعرضوا للعتاب، كانوا ببقائهم ووفائهم للدين في هذا المشهد مثل محبس يحبس العذاب، ولو قاموا لانفتح هذا المحبس وهلك الجميع.

وفي جمعة ثانية، وبعد أن سمع المسلمون بعتاب الله على من يتركون الرسول في الخطبة من أجل التجارة، كان أبو بكر متوجهًا لصلاة الجمعة مبكرًا كعادته، حتى ينال ثواب التبكير، فسمع وهو يمر بجوار عليَّة ابنه عبد الله غزله الرقيق لزوجته الحسناء عاتكة بنت زيد، وتدليله الشديد لها كما لو كان أمًا تدلل طفلتها الوحيدة، ففكَّر في أن يناديه ليخرج إلى الصلاة، ولكنه تمالك نفسه، وأقنعها بأن الابن لا يزال شابًا صغيرًا، وهو فوق ذلك شديد العاطفة بطبيعته، وهي حلاله في النهاية، ومضى في طريقه للصلاة. وعندما عاد في طريق الرجوع وهو يتدبر الخطبة، ويفكّر في الآخرة والحساب وإلهاء الدنيا للعبيد، سمع ابنه مستمرًا في جلسة الغزل الطويلة، يعبر لزوجته الحبيبة أنها أغلى شيء في حياته، وأنه لا يستطيع العيش ساعة بدونها، فجزع أبو بكر من اختطاف هذا الحب لابنه الشاب الشاعري بعيدًا حتى جعله غافلًا عن حياته كرجل في مجتمع يعيش على دين جديد يحتاج إلى عزم الرجال، فقال له: يا عبد الله أجمعت؟

فرد الابن من الداخل: أو صلَّى الناس؟

وانفرد أبو بكر بابنه في ذات اليوم بعد أن كبر فيه خوفه على ابنه، فلم

تكن الشابة سيئة بأي حال، بل كانت فوق جمالها ذكية تقية تحرص على الصلاة، ولكنه فهم أن ابنه انبهر بها، وانشغل بها عن كل شيء حوله، بينما هي بادلته الحب ولكن لم ينسها نفسها كما أنسته نفسه، وفهمت الشابة بإفراط زوجها الشاب المرهف الأحاسيس في التعبير عن غرامه وافتتانه أنها ضمنته هذا الضمان الذي يجعل المرأة تسترخي وتطمئن وتشعر بأنها أقوى من زوجها، فرأى أنها مضرة له في دينه ودنياه، بينما قد تكون نافعة لرجل آخر يتسم بالقوة والرشد ولن تجرفه بدوامة شبابها وجمالها وذكائها في التعامل مع الزوج.

قال له أبو بكر: قد شغلتك عاتكة عن المعاش والتجارة وقد ألهتك عن فرائض الصلاة، طلقها.

صُدم عبد الله وبلع ريقه، ورفض أن يطلقها، واستأذن من أبيه وانصرف وهو يشعر بأن أباه يظلمه ويظلم زوجته عندما يأمره بأن يطلقها ولا ذنب له ولها إلا الحب. وعندما لم يتدارك عبد الله الموقف بأن يجعل أباه يرى منه تغيرًا طيبًا يثير فيه الطمأنينة، وظل غائبًا بقلبه في أدغال العاطفة وهو يعيش بجسده في مجتمع دعوة يعيش في حالة حرب، بدأ يشتد في أمره لابنه بأن يطلقها ويفيق إلى نفسه، فتجرَّع عبد الله هذا الحنظل وطلَّقها.

وقد حدث اقتتال بين بني عمرو بن عوف الأوسيين عند مساكنهم بقباء، وأخذوا يتبادلون رمي الحجارة، فأخذ النبي بعض الصحابة بعد صلاة الظهر وذهب ليصلح بينهم، واحتاط لكونه قد يتأخر وينتظره المسلمون لصلاة العصر، فقال لبلال: إن حضرت صلاة العصر ولم آتك فمر أبا بكر فليصل بالناس. ولما حضرت صلاة العصر قال بلال لأبي بكر: أتصلي بالناس فأقيم الصلاة؟ فقال لبلال: نعم، أقم الصلاة؛ ولم يكن يدفعه إلى ذلك حب أن ينوب عن

النبي في إمامة الناس، بل لأنه يعلم أن النبي يحب التبكير حتى لا يشق على المسلمين بالانتظار.

وبعد أن بدأت الصلاة وأبو بكر يؤم المسلمين حضر النبي ودخل برفق في الصف الأول، وهو ينوي أن يكملها بين المأمومين مثلهم، ولم يطق المسلمون أن يكون الرسول خلف أبي بكر في الصلاة، فأخذوا يصفقون، بينما أبو بكر الذي يخشع في صلاته لا يلتفت ليعرف السبب، ولما كثر التصفيق التفت، فرأى النبي، فأشار له النبي بيده لكي يبقى في إمامته، لكن أبا بكر استحى من ذلك ورفع يديه وشكر الله على أن أكرمه النبي بأن يؤم الصلاة في وجوده، وتراجع بظهره ليتقدم النبي مكانه.

وبعد الصلاة التفت محمد ﷺ إلى أبي بكر وسأله: يا أبا بكر، ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟

فقال أبو بكر بكل أدب واضعًا ذاته أمام ذات النبي: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي النبي ﷺ، لقد تكلم عن نفسه بصيغة الغائب وبنسبة نفسه إلى أبيه، تواضعًا منه للنبي وتوقيرًا له.

ولم ينل من الناس شرف أن يؤم النبي أحد قبل تلك الصلاة، ونالها من بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف وحده، غير أن أبا بكر فاق عبد الرحمن بأن النبي كان قد اختاره ليؤم الناس بدلًا منه. وقد كان المسلمون في زمن النبي لا يعدلون بأبي بكر أحدًا من الصحابة، مثلما لم يعدل به النبي أحداً، ثم من بعده يفضل الصحابة عندهم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، وقد كان يصل إلى النبي هذا الرأي الراجح عند المسلمين عن أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر وعمر وعثمان، باعتبارهم أفضل شيوخ المسلمين حول النبي ممن

وصلوا إلى العمر الذي يجعلهم أهلًا للمشورة وأهلًا للقيادة، ولم يكن النبي يستاء من رأيهم أو يتحفَّظ عليه. أما علي بن أبي طالب فكان إذا حدثه رجل من أصحاب النبي بحديث عن النبي استحلفه، فإذا حلف له صدَّقه، وإذا حدثه أبو بكر صدَّقه بغير حلف وهو مطمئن تمامًا لما يأخذ عنه من الدين.

البعير ذو الحلقة الفضية

كان النبي على بعد ستة أميال من المدينة، ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين المنشرحين، في غرة ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وشق صفحة سنام البدنة شقًا يسيرًا من الجانب الأيمن، ووضع في عنقها قلادة، حتى يكون الشق والقلادة علامتين لها كهدي للعمرة فلا يتعرض لها أحد، ثم أحرم بالعمرة، وقد كان معه بعير لأبي جهل في أنفه حلقة من الفضة؛ جاء البعير مع أبي جهل منذ أربع سنوات من مكة إلى المدينة، وها هو عائد إلى مكة مرة أخرى منقاداً مع عدو صاحبه اللدود.

كان النبي والمسلمون معه في غاية الاغتباط، وهم في سبيلهم إلى هذه العمرة المفاجئة التي سيدخل فيها بلده التي خرج منها منذ ست سنوات وبرفقته أبو بكر، وقد اتخذ قرار العمرة بناءً على رؤيا رأى فيها أنه دخل هو وأصحابه الحرم وطافوا واعتمروا. فتجهَّز أصحابه ليعتمروا معه. كان الذهاب للعمرة مع النبي قرارًا إيمانيًا شجاعًا تهرب منه أهل البوادي المحيطة بالمدينة الذين دعاهم محمد ﷺ للذهاب معه؛ فبعد الحرب والخصومة الطويلة سيذهب هؤلاء، وهم معتمدون على الرؤيا وحدها، بسلاح خفيف إلى عقر دار قريش التي جمعت لهم جيشًا يتكون من عشرة آلاف مقاتل منذ سنة ولم يحجز هؤلاء المقاتلين وقتها عن دخول المدينة إلا الخندق والبلبلة التي حدثت.

وسار المسلمون مع محمد ﷺ في سلام وقد قلدوا الهدي مثله وأشعروه وأحرموا، يقطعون الطريق إلى الجنوب باتجاه مكة، وكل منهم متشوق لهذه

الساعة التي يرى فيها البيت، ويرى بلده، ويرى أحبابه الذين انقطع اتصاله بهم منذ سنوات، والأطفال الذين كبروا أثناء هذا الغياب، ويلمح الوجوه التي عرفته ونظرت إليه مستترة بالأبواب المواربة. وكان أبو بكر مشتاقًا لأن يحتضن أباه الضرير ويقبله بين عينيه ويسمع نبرة صوته، لعله يستشف منها أن الشيخ المسن فقد شيئًا من يقينه القديم وذهب رهان العينين مع ذهاب النظر، ولم يقعده عن خطى الإيمان إلا متاعب الشيخوخة التي تضر بالعزيمة.

وبالقرب من عسفان التي تبعد اثنين وخمسين ميلًا من مكة، جاء إلى محمد ﷺ رجل من حلفائه خزاعة يخبره أن القرشيين استفزهم كثيرًا خبر توجهه إليهم من أجل العمرة، واستعدوا لصده عن البيت، وأن الأمور لن تكون يسيرة كما يرجو هو ومن معه، فاستشار النبي من معه لأنه لم يأته وحي يفصل في الأمر، فالتجربة الدعوية لا تقوم على الامتثال للوحي فقط، بل تقوم أيضًا على حث الناس على التفكير الإيجابي في ضوء الظروف،. كان قد قام من الرؤيا السلمية الأجواء وهو يأمل أن تتم الأمور على نحو طيب كبادرة إيجابية من قريش، فأشار عليه أبو بكر بأن يتوجه إلى البيت، كما نوى، من غير أن يبدأ بالقتال، فمن صدهم عنه قاتلوه. وأخذ النبي برأي أبي بكر، الذي يميل إليه كما يميل لكل آرائه.

وعندما نزل محمد ﷺ مع المسلمين بأقصى قرية الحديبية على بعد ثلاثة عشر ميلًا من مكة، جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي يؤكد له جدية الأمر وأن القرشيين بلغوا الغاية في التعبئة، فأبلغه النبي أنه ما جاء للحرب بل للعمرة، وأن القرشيين لهم أن يختاروا بين مدة من الهدنة، لا يحجزون الناس فيها عن دعوته، أو يدخلوا في الدين، وإن أبوا إلا القتال فسيقاتلهم على هذا الأمر. وعاد بديل بهذا الكلام لقريش، التي كانت لا تفكر في أي شيء غير عودة

محمد ﷺ ومن معه، ولم تستطع أن ترتب أفكارها بعد، لأن أثر هذه العمرة الشجاعة التي فاجأهم بها محمد ﷺ سيكون عاصفًا على الوثنية في خريفها الذي بدأت علاماته الأولى في الظهور. اتضح للمسلمين من كثرة رسل قريش حالة الارتباك الشديد التي تسيطر على القبيلة، فبعد بديل أرسلوا مكرز بن حفص الذي لم يأت بجديد ولم يعد كذلك بجديد، ثم الحليس بن علقمة من كنانة الذي ثارت القشعريرة في جسده من رؤية البُدن المقلدة والمشعرة التي أرسلها المسلمون أمامهم في مشهد مهيب وهم يلبون، تلك البُدن التي سمع أصوات حنينها، فشعر كأنها تحنُّ إلى تمام الشعيرة عند المنحر، وهذا من حكمة محمد ﷺ الذي عرف كيف يجعل من الصورة رسالة يرسلها للرجل، فرجع الرجل وقال لقريش إنه لا يحب أن يُصد هؤلاء عن بيت الله الذي اشتاقوا إليه، فناله منهم التوبيخ والتقريع.

وقد كان عروة بن مسعود زعيم قبيلة ثقيف عند القرشيين أخواله، يحمل مع خلّانه الوثنيين همَّ هذا الأمر الذي يشغلهم، ويشعر بارتباكهم، وهو مثلهم يشعر بالقلق من بوادر خريف الوثنية والذي تمثل عزيمة هؤلاء المسلمين العجيبة أوضح معالمه. ونصحهم بأن يقبلوا بالهدنة التي بعث بها النبي مع بديل بن ورقاء، وخصوصًا وهو يلحظ الإنهاك الذي حل بقريش، فهو يخاف عليهم من أن يجدوا أنفسهم فيما هو أصعب عليهم من الهدنة، ثم اقترح عليهم عندما رآهم غير قادرين على الخروج من حالة البلبلة أن يذهب لعله يستطيع أن يفعل شيئًا أو يكسر عزيمة محمد ﷺ ومن معه، فمضى من عندهم وقد نال موافقتهم وأكدوا على ثقتهم به، مضى وقد شحنه حال قريش وخوفها بالغيظ الشديد من محمد ﷺ الذي مشى مستترًا من هنا منذ ست سنوات، يبحث عنه الطامعون في الجائزة في الشعاب والوديان الصامتة، ليعود بعد هذه المدة القصيرة التي

استطاع فيها أيضًا التخلص من ثلاثة قبائل يهودية قوية في المدينة وحولها تسكن الحصون وتملك السلاح، ليجبرهم على إفساح الطريق له ولأصحابه في وضح النهار إلى الحرم.

أناخ عروة راحلته قريبًا من محمد ﷺ، ونزل هذا السيد المعظَّم في الطائف وسائر جزيرة العرب، وسار إليه وهو ينظر بضيق تجاه المسلمين الجديين الذين جاؤوا إلى العمرة، الذين يتصرفون على السجية ويصعب التمييز بين أثريائهم وفقرائهم، وبين سادتهم وعامتهم، وقد تركت التربية على التواضع، والخوف من الله، والاحترام المتبادل، وكذلك العمل المشترك في بناء المسجد وبناء الخندق والجهاد، علامات لم تعجبه على قسمات تلك الوجوه التقية، بالإضافة إلى الآثار الجلية للسفر، واستكثر عليهم أن يسببوا كل هذا الغضب والقلق عند أصدقائه السادة الأثرياء من القرشيين، واستكثر عليهم النجاحات التي حققوها في تلك الفترة الوجيزة، ورأى أنه كان يجب سحق هؤلاء بهزيمة منكرة من العرب حتى لايشعروا بالرضا عن النفس، ولا تكون فيهم تلك العزة التي تسمح لهم بالتوجه إلى الحرم وهم لايبالون بقريش أهل الحرم.

لما رأى المسلمون هذا السيد يقترب من محمد ﷺ اقترب بعضهم من نبيهم، لأنه كان يبدو عليه ما يبدو على السادة من غطرسة هادئة عندما يشعرون بالغضب، ففهموا أنه لن يكون مجرد رسول عليه أن يتحلى باللطف، بل زعيمًا يتحلى بالصراحة وربما التهجُّم، وقد قام رجل طويل عظيم الجسم أثناء توجه عروة بخطواته البطيئة إلى محمد ﷺ بارتداء خوذة تغطي وجهه ولا يظهر منها إلا عيناه، ووقف وهو يحمل سيفه على يمين النبي في غمده، بينما وقف أبو بكر خلف النبي. ولما عرض النبي على عروة مثل ما عرض على بديل بن ورقاء، قال له عروة: يا محمد، أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك

لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل [النياق الأمهات ذوات اللبن، فمعهم ما يتغذون عليه من ألبانها، أي خرجت وهي متجهزة لحرب طويلة لو لزم الأمر، ولا مشكلة عندها في الوقت مثلما يمكن أن يكون لدى جيش مسافر قليل الزاد]، قد لبسوا جلود النمور [أي تجهزوا للحرب بأخلاق النمور من ضراوة وحقد لا جبن معهما ولا رأفة، راضين بما ترضى به النمور في نزاعاتها: فإما قاتلة أو مقتولة]، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة، وايم الله لكأني بهؤلاء [وأشار بيده إلى المسلمين الذي يحيطون بمحمد ﷺ] قد انكشفوا عنك.

فغضب أبو بكر على أنه أهان إيمانهم بمحمد ﷺ وقد تصوَّرهم بهيئة مضحكة حقيرة يتركونه في الحرب، فأهان عروة بالصنم الذي تعبده ثقيف التي ينتمي إليها إهانة بالغة مصوراً إياه وصنمه بهيئة مضحكة غاية في الحقارة.

واغتاظ عروة المعتز بذاته غيظ سيد متماسك الأعصاب، وسأل عمن هذا الذي أهانه، فالسيد مثله لا يرد على مجهول، وهو يعرف أنه أبو بكر، لكن كان يريد أن يقول إنه لم يعد له وجه السيد القديم المحبوب، وغاب في زحمة الرجال حول محمد ﷺ، فلما أخبروه أنه أبو بكر قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. فلم يكن يليق بسيد أصيل مثله أن يستخف بالمعروف القديم مثلما يستخف الغوغاء، فهو يقول إنه لم ينس هذا الفضل القديم عندما أعانه أبو بكر على دية بعشر من الإبل الشابة.

وأخذ عروة يكلم النبي بلهجة رصينة ودودة يحرك بها عواطفه، ومن باب التلطف بين سيدين في مقام واحد، ولتحريك مشاعر الرجولة والكرم التي في فحول القبائل، مد يده ومسك لحية النبي وأخذ يكلمه ويحاول إثناءه عن دخول

الحرم بمن معه. فضرب الرجل الذي لا يظهر منه إلا عيناه يد عروة بالحديدة البارزة التي في قاعدة غمد السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله. ولم يكن يلبس الخوذة التي تغطي وجهه في هذه الأجواء غير الحربية إلا لكونه المغيرة قاتل الإسكندرية الذي وضع على ظهره منذ عام حملًا ثقيلًا بجمع دية مقدارها ألف وثلثمائة رأس من الإبل.

فذهل عروة وجفل وسحب يده وقال: ما أفظك وما أغلظك. ونظر إلى النبي مستاء وقال من ذا؟ فتبسَّم النبي وقال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. فشعر عروة بالغيظ والاحتجاج وهو ينظر لأعلى محاولًا أن ينفذ بعينيه إلى عيني ابن أخيه الذي ضرب يده بكعب الغمد، بينما المغيرة سعيد بالخوذة التي تخفي شعوره ببعض الحرج من عمه الذي تسبب له في ورطة قبلية، وقال الرجل: يا غدر، ما غسلت عنك غدرتك إلا بالأمس. [فلم يكن قد نجح في الانتهاء من جمع كامل الدية إلا قبل هذا اللقاء غير الودي بيوم].

وقد رجع عروة وقد انخفضت معنوياته من صرامة أبي بكر، دون أن يرد على إهانة إلهه، ومن فظاظة ابن أخيه الذي ضرب يده، وآمن بأن هؤلاء الذين يحيطون بمحمد ﷺ لن يتخلوا عنه أبدًا. وكان منبهرًا بهيبة محمد ﷺ عند أصحابه التي لا تشبه هيبة أي قائد قبلي عند أهله، وقد وقر في قلبه وهو في طريق الرجوع إلى القرشيين شيء ما يقول له إن ما رآه من أمر محمد ﷺ وأصحابه عن قرب قد لايكون من فراغ، فكيف استطاع محمد ﷺ أن يضم إليه رجلًا سيدًا حصيفًا عاقلًا مثل أبي بكر يساهم في دفع الديات عن غيره بلا شهوة للفخر، وفي ذات الوقت يضم إليه شابًا مندفعًا مثل المغيرة بن شعبة يدفع الآخرون الديات عنه بلا شعور بالأسف؟

وأرسل النبي عثمان بن عفان إلى قريش ليحرك الموقف في اتجاه سلمي ولا يصير عندهم أي ريبة، وحجزته قريش وقتًا حتى تفكر في رد مناسب يعود به، ولما تأخر استنتج المسلمون أنه تعرض للقتل، وانتشر بينهم هذا الهاجس، فجمعهم النبي وبايعوه تحت شجرة في الحديبية على الموت، ونتج عن هذا هدية عظيمة لهم، وهي غاية ما يريدون جميعًا: رضا الله. وستنزل في تلك البيعة هذه الآية بعد قليل في طريق العودة ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وهي تعني أن الله الذي يعلم مستقبل هؤلاء جميعًا ويعلم ما تكن قلوبهم وصدق نيتهم، ويعلم أنه ليس من بينهم مخاتل طويل النفَس، يخطط لما بعد محمد ﷺ، ويرغب في أن يرث القرار والمدينة وجماعة المسلمين بعد رحيله، قد أعطاهم رضا أبديًا يوجب لهم به الجنة في الآخرة، وينفي عنهم أي اتهام لاحق بخيانة الدين عمدًا عن قلب منافق.

وحتى ذلك الوقت كان قطاع من الوثنيين والمنافقين يحز في نفوسهم أن أبا لهب وزوجته ماتا بعد اثني عشر عامًا من نزول سورة المسد التي تعلن عن مصير جهنمي محسوم لأبي لهب وزوجته المحاربيْن للدين الذي جهر به محمد ﷺ، وهذا شيء ليس من المناسب أن يجزم به إنسان على أية حال، فقد آمن من بعد السورة رجال ونساء على مستوى مقارب لهما من الإيذاء والعدوانية تجاه الدعوة، إلا أن الزوجين ماتا على موقفهما الموحَّد الذي تنبأت به السورة منذ اثني عشر عامًا. وكما أن سخط الله تخلَّد بالسورة القصيرة، فإن رضاه تخلَّد بالآية، وبشأن عدد كبير من الناس، في آية معلنة لمن هو مؤمن ولمن هو في شك ولمن هو كافر متربص ينتظر نبوءة فاشلة، وسيصل خبرها إلى المدينة،

ويصل إلى قريش، فلن يكتب الله رضاه على جمع من الناس كمنحة منه في آية باقية وفيهم رجل واحد فقط ستتغير أحواله الإيمانية من بعد ذلك إلى الفساد الظاهر الذي يجعله كافرًا عند الله مستحقًا للعذاب، ويتفق الناس على اعتباره خارجًا من الدين، وهو ما لايستطيع أن يجازف به أي إنسان وهو يحكم بالجملة على ألف وأربعمائة رجل حكمًا يظللهم إلى أن يموتوا جميعًا، ولا حتى يستطيع أن يجازف به بشأن المشاهير منهم المقربين إليه، مهما ملأ يديه منهم، والذين لن يختلف الناس بسبب شهرتهم ومكانتهم على حضورهم البيعة من بعد ذلك، لذا فهذه الآية مدح لمن بايعوا جميعًا وتبشير لهم، وهي غير ذلك بشأن المشاهير من أصحاب محمد ﷺ وقاية مسبَّقة لسمعتهم من أي محاولة للنيل من وفاء أي واحد منهم للنبي وللرسالة وتكذيب لمن يدعي ذلك، وهي غير ذلك رحمة وتنبيه للبسطاء من المسلمين في كل العصور الذين يمكن أن يسمعون ويتأثروا بما يسمعوا من طعن في دين المشاهير من أصحاب محمد ﷺ حتى لا تحبط أعمالهم إن استبسطوا الآراء الساخطة التي تطعن في هذا أو ذاك من المشاهير الذين أعلن الله رضاه عنهم قبل أن تقوم فتنة.

وقد عاد عثمان إلى المسلمين سالمًا، أما قريش التي يئست من أن يعود محمد ﷺ إلى بلده بغير أي اتفاق بسبب محاولات التخويف، وشعرت بالاضطراب من أخبار البيعة التي وصلتها، فأرسلت سهيل بن عمرو المفاوض البارع ليتفق معه، وهو رجل متمرس ليس فيه خشونة وليس فيه في ذات الوقت غفلة، وأكدت عليه أن أهم شيء هو أن يعود محمد ﷺ هذا العام حتى لا يقال إنه دخل عليهم عنوة.

وقد كان النبي يحب أن يصطلح مع قريش على إيقاف الحرب، راجيًا في

أن تدخل في دينه قريبًا بغير دماء. وقد كان المسلمون، الذين لم تنزل الآية برضا الله عنهم حتى وقته وتبشرهم بفتح قريب، وهي آية تكفيهم وحدها، كانوا مستفزين من قدرة سهيل على أخذ ما يستطيع أخذه لقريش من النبي، بما في ذلك من رجوعٍ هذا العام بغير عمرة، باستثناء أبي بكر الذي استراح فؤاده إلى فؤاد الرسول منذ زمن فكان يقبل كل ما كان يقبل به النبي بدون دهشة أو صدمة أو وخزة. وقد أخذ الحزن قلوب الجميع، الذين خرجوا مع النبي بناء على الرؤيا وقلدوا الهدي وأشعروها كما فعل، وأحرموا مثله، أخذ الحزن قلوبهم عندما قبل النبي بأن يعود هذا العام ولا يدخل مكة، ثم يدخلها هو ومن معه العام القابل في سلام لا يتعرض لهم أحد.

لقد دخل المسلمون المجهدون من السفر، الذين يعسكرون في الطريق بغير دعة واسترخاء، في حالة من الصدمة، لأنه قد أخبرهم أنهم سيأتون البيت ويطوفون به، وها هم سيعودون بعد هذه المسافة الطويلة التي كانوا يتخيلون فيها مشاهد اللقاء والطواف بدون أي ذرة من شك، من غير أن يزوروا البيت أو يروا حتى مكة من بعيد، وبدا لهم ما اتفق عليه مع سهيل ورضي به متناقضًا مع ما رأى في الرؤيا.

حتى أن عمر بن الخطاب لم يطق الأسئلة التي تضج برأسه، فأتى بها النبي وسأله علام نعطَى الدنية في ديننا ونحن مسلمون وهم مشركون [أي لماذا نرضى بما يبدو مثل حظ الضعيف من الاتفاق]، وكان عمر الصلب المحتقر للكفر كارهًا على وجه الخصوص لشرط رد المسلم بعد الاتفاق إلى وليه من المشركين إن كان له ولي.

فرد عليه النبي: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري.

فقال له عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت فنطوف به؟

فرد عليه النبي: بلى، فأخبرتك أنَّا نأتيه هذا العام؟

قال عمر: لا.

قال النبي ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به.

وهرع عمر بن الخطاب بما ضاق به صدره إلى أبي بكر، ليروِّض عنده قلقه، فهو عنده أقرب الناس لمحمد ﷺ، وأكثر الناس طمأنينة إلى وعوده، وهو أكمل الناس يقينًا بالله؛ فلا أحد يسند سلَّمه الثقيل في هذه اللحظات الصعبة ليصعد عليه ليطلَّ ويطمئن، إلا على جدار راسخ. قال له أبو بكر: أيها الرجل، إنه لرسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فو الله إنه على الحق.

قال عمر: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال أبو بكر: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟

قال عمر: لا.

قال أبو بكر: فإنك آتيه ومطوف به.

لقد كان ما عند أبي بكر في هذا الموقف شديد الخصوصية، هو نفس ما عند محمد ﷺ، نفس الجواب، رغم أن أبا بكر لم يسمع ما دار بينهما، لأن الفؤاد كان قد استراح للفؤاد تمامًا منذ زمن.

ومضى النبي في طريق العودة، بعد أن كان بعير أبي جهل ذو الحلقة الفضية في أنفه ضمن ما نحر الرسول، كأنه رمز لنهاية عصر التجبر الوثني الذي

كان يعبر عنه صاحب هذا البعير، البطل المأساوي الذي فقد ساقه ثم قُتِل ثم ألقي في البئر، ليتسلم قيادة العالم الوثني رجال أقل غرورًا. وأثناء العودة، ثقلت بالنبي ناقته عند كراع الغميم على بعد أربعين ميلًا من مكة، وتقدمه المسلمون الذين يعرفون علامات نزول الوحي عليه، ثم أدركهم وهو في غاية السرور، وكان غاية في سلامة القلب تجاه أصحابه، محتويًا لهم ملتمسًا الأعذار، فلم يستهل كلامه بالتبكيت على ما بدا منهم من عدم ارتياح وتثاقل، ولا لام عمر بن الخطاب على ما بدر منه من قلق، فبشره وبشَّرهم بودٍ صادق ورحمة، بسورة الفتح التي تبدأ بهذه البشرى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فطابت نفس عمر بن الخطاب تمامًا وندم على حيرته الإنسانية العابرة التي نبعت من عنفوانه، ورضي برضا الله وبشراه وهو يسمع من النبي الذي يؤكد له بوجه يضيئه الفرح أن هذا فتح من الله.

وقد غمرت المسلمين سعادة فائقة وشعور بالحظ أثناء الرجوع في الطرق الصحراوية بكونهم نخبة الناس وأن رب السموات رضي عنهم في سورة سيتلوها المسلمون إلى الأبد، وقد كان أبو بكر سعيدًا بسعادة النبي، وسعيدًا مثل أصحابه الذين رضي الله عنهم، نخبةً في تلك النخبة، صدِّيقًا قد ميَّزه قلبه من بين هؤلاء المميزين. وقد كانت السورة التي تبشر المسلمين نبوءة إعجازية معلنة من ناحية أخرى تتحدى الوثنيين والمنافقين، فهي تبشر بأن هذا الصلح استهلال لعهد أفضل للدعوة بغير شك، وهذا شيء لا يمكن لبشر أن يجسر على التنبؤ به بهذا اليقين بينما ما زالت كل الاحتمالات واردة بوجود يهود ووثنيين ومنافقين؛ وكذلك في السورة تأكيد على أن القرشيين سيلتزمون بالاتفاق إلى العام القادم فيدخل المسلمون المسجد الحرام آمنين، وهذا أيضًا شيء لا يمكن لإنسان أن يجسر على التنبؤ به بدليل أن القرشيين قد خرقوا

الهدنة من بعد ذلك.

وسيأتي يوم بعد صلح الحديبية يدخل فيه عروة بن مسعود بقلب منشرح في دين محمد ﷺ، بعد ثلاث سنوات، وسيأتي يوم ويعقِّب فيه أبو بكر على فتح الحديبية ويقول: ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصُر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد. لقد نظرتُ إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يقرِّب إلى رسول الله بُدنه، ورسول الله ينحرها بيده، ودعا الحلاق، فحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينيه! وأذكر إباءه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم وإباءه أن يكتب أن محمداً ﷺ رسول الله، فحمدت الله الذي هداه للإسلام.

على ركبة الصنم

في ظلام العمى، كان أبو قحافة وللمرة الثانية، يتقدم ببطء ويده في يد حفيده عبد الكعبة في الشهر الأخير من السنة السادسة للهجرة، بعد رجوع المسلمين إلى المدينة بعد صلح الحديبية، ووضع يديه على ركبة الصنم الحجري القريب من الحرم، وتشبث بالركبة هذه المرة من فرط شعوره بالامتنان والإعجاب تجاه إلهه وليس بسبب التضرع. وكذلك تراجع حفيده ليتيح له أن يشكر إلهه على انفراد، ولكن كان يتراجع هذه المرة وقد بدأ يفيق ويشعر أن هذا الإله وأمثاله من الآلهة المتناثرة في الحرم ربما تكون مجرد حجارة لم تشعر بالأسى والخوف اللذين شعر بهما من يعبدونها عندما وصل محمد ﷺ إلى الحديبية مصرًا على زيارة الحرم، ولم تشعر بالخجل من عبَّادها الذين يدعونها ويذبحون لها عندما اضطروا للاعتماد على أنفسهم ووقعوا الصلح مع محمد ﷺ، هذا الصلح الذي سيعود بموجبه هو والمسلمون لزيارة الحرم في السنة المقبلة، وهو الآن لا يتوقع منها خيرًا ولا يظن أنها ستفعل أي شيء إلهي عجيب يمنع هذه الزيارة. وهذه الأفكار، أفكار ما بعد صلح الحديبية كانت تضج بقلوب كثير من شباب قريش الأذكياء الذين بدؤوا يتيقنون من الحيادية المزرية للآلهة بينهم وبين محمد ﷺ، وشعروا بأن محمد بن عبد الله ﷺ ومن معه في صعود واضح، وأن الآلهة جميعها مشلولة، وهذا الشلل ليس عطبًا مرعبًا مفاجئًا نزل بها وأفقدها قوى الألوهية، وليس حكمة سرمدية تستخف بها من محدثات الأمور وتفاهة ما يشغل به الناس أنفسهم، بل يبدو هذا الشلل عيبًا أصيلًا لم يغادرها لحظة واحدة.

لقد كان عبد الكعبة على وشك الضحك وعلى وشك البكاء وهو يسمع جده يشكر إلهه الذي كان معه في كل مرة لجأ إليه فيها وها هو ذا قد فعل الأعاجيب حتى انتصر الروم على الفرس، وهو يشعر بالحياء من كرم إلهه الفياض الذي استجاب لدعائه من أجل ابنه الصابئ أبي بكر حتى لا يخسر الرهان ويدفع مائة رأس لورثة أبي بن خلف.

وعندما أخذه حفيده ليعود به إلى البيت، ربت حفيده على ساعده بيده الأخرى كما فعل من قبل، ولكن تربيت هذه المرة كان تربيت شفقة، وقال في نفسه وهو يشعر بالمرارة وفوضى الأفكار: هذه التي سميتها وأنا أسير بجانبك منذ سبع سنوات أمنيات محمد ﷺ، قد تحققت، وهذه أمته التي يتوهَّمها تصالحنا معها، وأنت جئت تجر قدميك لتشكر إللاهك!

كانت هذه الزيارة للصنم بعد قرابة الأربعة أشهر من انتصار الروم على الفرس الساحق، حينما قاد هرقل بنفسه الحملة التي انتصرت في معركة نينوى في يوم ١٢ ديسمبر من سنة ٦٢٧ ميلادية، وهي المعركة التي حطمت الساسانيين، وقد قتل فيها الإمبراطور البيزنطي قائد الفرس راهزاد في مبارزة فردية.

خبر هزيمة الفرس هزيمة منكرة على يد الروم كان مزعجًا جدًا للوثنيين والمنافقين من المتابعين للوعود القرآنية والوعود النبوية من الذين كانوا يعرفون أمر الرهان بين أبي بكر وأبي بن خلف، وكانوا يتمنون لتلك النبوءة القرآنية التي تتعلق بأمر عالمي أن تخفق في التحقق في النهاية، وكانوا يحبسون أنفاسهم من الغيظ بسبب الهزائم المتتالية التي مني بها الفرس منذ أن اختار هرقل مهاجمة الفرس في أراضيهم بدلًا من أراضيه، فاستولى على أذربيجان سنة

٦٢٤ وقام بتدمير معبد النار الكبير بها ثأرًا من تخريب كنيسة القيامة، ثم فاز بعد ذلك في عدة جولات شديدة.

ولقد وصلت أخبار الهزيمة المدوية في نينوى بتفاصيلها إلى قريش وسائر العرب، وباستثناء والد أبي بكر، أصيب الجميع بالإحباط، ولم يعد أحد منهم يعتقد أن الأشهر القادمة تحمل أخبارًا طيبة بشأن هذا الصراع الدولي الهائل، فالفرس صاروا شبه فريسة ضخمة وقعت ونهشتها الأنياب، لذا بدؤوا يدعون أن هذا الأمر لا يعنيهم كثيرًا.

واضطر ورثة أبيّ بن خلف في النهاية وهم مغمومون وفي حالة يأس تام، إلى دفع الرهان بغير لجاجة إلى أبي بكر، والذي كانت تدخره الأيام في الحقيقة للفرس هو المزيد من الضياع، ينتظرهم اغتيال الملك كسرى الثاني، وزحفُ هرقل خلال العراق، حتى يوشك على أن يدخل المدائن، مما سيصيب شيرويه بالهلع ويتلهف بخضوع للصلح مع هرقل، فتسترد بيزنطة كل البلاد التي كانت لها.

أما هذه الثروة الكبيرة التي وصلت إلى أبي بكر، فانتهى أمرها بأن تحولت كلها إلى صدقة تصدَّق بها كما أمره النبي، ليبقى له من نفع هذا الرهان الذي استمر إلى سبع سنين أن يكون صدِّيقًا، صدِّيقًا آمن في أيام الاستضعاف في مكة، وأعلن إيمانه غير عابئ بتهكم الوثنيين وتطاولهم، بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، رغم الحالة المزرية التي وصلت إليها الإمبراطورية في ذلك الوقت.

وبينما كان عبد الكعبة قد أخذ مفتاح بيت أبيه من جده، وتجول في جنباته وغرفه وهو يسمع أصوات الأهل العالقة في وجدانه، ويتمنى أن تتبين له الأمور

أكثر، ثم صعد إلى السطح وتمدد وعيناه إلى السماء، وارتبك من صوت مشروخ ومزعج انبعث مرة واحدة لرجل قال: أستطيع الآن أن أذكر أسماء حثالة توسلوا إلى تلك الآلهة واستجابت لهم، ولم تستجب لي قط. فتنحنح عبد الكعبة واقترب من ناحية الرجل وضخَّم صوته وقال: اخرس يا سكِّير يا ملعون.

فسكت الرجل قليلًا من الرد، ثم استجمع شجاعته وقال بخوف وبلادة: سأخرس، ولكن، ولكن استجيبوا.

قال عبد الكعبة: أزعجتنا بالشكوى.. اخرس، ويصير خيرًا.

وتمدد عبد الكعبة وابتسم، وشرد في وجه أبيه الرجل الطيب المستقيم، حتى لعب به الهواء وأغفى إغفاءة خفيفة، ونام وهو يتمنى أن يراه ويرى أمه.

وبينما أبو بكر يصلي على سطح بيته ليلًا، في مناخ طيب، سمع صوت ابنه عبد الله ينادي طليقته في خياله بشعر ينزف الحنين.

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق ... وما ناح قمري الحمام المطوق
أعاتك قلبي كل يوم وليلة ... إليك بما تخفي النفوس معلق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ... ولا مثلها في غير جرم تطلق
لها خلق جزل ورأي ومنصب ... وخلق سوى في الحياء ومصدق

دمعت عينا أبي بكر شفقةً على ابنه المحب، وشعر بأنه ازداد بالفراق توغلًا في غابة العاطفة الحزينة، وأنه سيتجول بهذا السهم طيلة حياته، فأراد أن ينتزعه منه، فناداه من تلك الناحية الداخلية للسطح التي انبعث منها صوت آلامه الصريح، بصوت واضح حنون: يا عبد الله، راجع عاتكة.

شهق عبد الله، واندلعت معالم الحياة فجأة في روحه التعسة وأخذ الكلمة من فم أبيه وقال له: أشهدك أني راجعتها. وابتسم أبو بكر من فوق السطح متعجبًا من هذا الحب الشديد، وابتسم وهو يسمع ابنه ينادي على غلامه أيمن ويعتقه من شدة الفرح. وتذكَّر أبو بكر كيف كان عبد الكعبة ابنه المرح يتوقَّع لأخيه عبد الله عندما كان عبد الله طفلًا صغيرًا، أن يصير عاشقًا من طراز نادر عندما يشب، لما كان يتمتع به عبد الله منذ نعومة أظافره من رقة أحاسيس وميل للوداعة والشجن. وتمنى في هذه النسمات الطيبة التي تحمل أشواقه المباغتة إلى عبد الكعبة، وأشواق عبد الكعبة المباغتة إليه، أن تجتمع الأسرة كما كانت تجتمع، وأن يضحكوا من مزاح عبد الكعبة، وتخيَّر له في خياله اسمه الجديد وهو يبتسم: عبد الرحمن.

خذ الكبيرة يا جدي

في بدايات السنة السابعة من الهجرة وصل إلى القرشيين مع القادمين إلى مكة أخبارٌ جديدة شديدة الغرابة، فمحمد ﷺ عاد إلى المدينة من الحديبية وبدأ يرسل الرسائل إلى ملوك العالم وأمراء العرب يدعوهم إلى الدخول في الدين، كانت الأخبار مؤكدة من عدة رجال ثقات؛ وبمراجعة أقوال الزائرين، كان جملة من سمعوا بأنه سيرسل إليهم أو أرسل إليهم بالفعل هم النجاشي ملك الحبشة، وملك مصر، وكسرى ملك فارس، وقيصر ملك الروم، والمنذر بن ساوى حاكم البحرين، وهوذة بن علي صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمر صاحب دمشق، وملك عمان. وفي المنتديات التي عند الحرم أطلق بعض كبار السن المتشبثين بعقيدتهم الوثنية أحلامهم المتفائلة، ونسبوا بكل سذاجة وغياب عن الواقع إلى آلهتهم تدابير شديدة الذكاء، فهي التي دفعت محمد بن عبد الله ﷺ إلى هذا الطموح الجريء ليلقى عقابه الشديد على يد ملك أو أكثر من هؤلاء الملوك، إذن اقتربت النهاية بعد أن وصل محمد ﷺ إلى الذروة في مشاغبته في الحياة، حيث سيذهب إليه بالتأكيد جيش جرار ينكِّل به على أنه تعدى حدوده، لينتهي أمر محمد ﷺ بدون أن تدفع قريش أي ثمن لمواجهة جديدة.

هذا كان رأى الكثير من الرجال التقليديين الجامدين، تبعتهم عليه العجائز في البيوت، منتظرين نجاح الخطة الفريدة للآلهة، وقد كان هذا الرأي مثيرًا للضحك لبعض الشباب والكهول الأذكياء الذين أشفقوا على أهلهم الغارقين

في قصص اللطف الخفي للآلهة، فبإرسال محمد ﷺ للرسائل الصريحة، إلى حكام يعيشون في قصور فارهة اعتادوا على أن يدخل الناس عليهم وهم منحنون، بهذا الإرسال سطعت الحقيقة التي حاول شباب الوثنية التهرب منها؛ فقريش تنفست الصعداء بصلح الحديبية الذي مدته عشرة أعوام، وقد كان هذا طبيعياً جدًا، أما ما لم يكن طبيعيًا على الإطلاق فهو أن نبي المسلمين لم يعد بأصحابه من الحديبية لكي يستجم ويراجع في جو هادئ كفاح الفترة الماضية مع أصحابه بشيء من الاعتزاز والسرور، ويقضي وقتًا طيبًا في انتظار عمرة السنة القادمة، لقد هالهم وأبهرهم أنه رجع إلى المدينة آمنًا من ناحية القرشيين ليبعث رسائل إلى ملوك العالم وأمراء العرب، يدعوهم جميعًا إلى الإسلام، بأسلوب واضح مقتصد لا تزلف فيه، غير خائف من تبعات هذه الرسائل الخطيرة التي قد تفتح عليه أي منها حربًا جديدة شرسة، رجل عربي قريش منا، كان السادة من أعمامنا وأخوالنا يسخرون منه منذ سنوات ويستخفون بتوقعاته المثالية لانتشار دعوته، ووقف عند الكعبة، هنا بالضبط، منذ تسع سنوات، بجوار المطعم بن عدي، حزينًا بقدمين جريحتين لكي يجيره الرجل المسنُّ، يراسل الآن الملوك غير عابئ بغطرستهم وانفلات أعصابهم، غير خائف من أن يرسل إليه كسرى جريح الكبرياء جيشًا عنيفًا يكتسح يثرب اكتساح الأعاصير فيقال كان هنا بلدة عامرة ضيَّعها نبي برسالة مختومة.

ومن وراء هذه الأخبار عن الرسائل، جاءت أخبار أخرى زادت معها الحقيقة سطوعًا، ففي هذا الوقت الذي يقضيه الرجل المنطقي الذي يعتمد على ذكائه في الاستعداد لردة فعل الرسائل التي يرسلها، ويؤجل فتح أي جبهة جديدة، هذا إذا كان يمكن لرجل عادي معه جيش لايمكن وصفه أبدًا بالضخامة وعظمة التجهيز أن يدعو الملوك والأمراء إلى دينه بهذه البساطة، إذ به يتوجه

في بداية السنة السابعة إلى يهود خيبر ويفتح حصونهم المنيعة ويتخلص من آخر معاقل اليهود المخيفة التي لجأ إليها بنو النضير واستعدوا فيها لجولة ثانية لاقتحام المدينة، بالاستعانة وللمرة الثانية بقبيلة غطفان الأعرابية.

لقد بدا محمد ﷺ لهؤلاء الشباب والكهول القرشيين رجلًا مكلفًا مخلصًا للتكليف، نشيطًا فيه إلى أبعد حد، ومن غير المعقول أن يكون كل هذا الدأب بسبب طموح شخصي عارم لا غير، ولا يمكن أن تكون قدرته على التأثير على رجال أذكياء أقوياء الشخصية ليجازفوا بأنفسهم في تحركاته شديدة الجسارة سحرًا يمكن أن يبطل بطريقة ما، ولا يمكن أن يكون التوفيق الذي يحالفه في مجمل المسيرة حظًا يمكن أن يخونه فجأة؛ تلك السنوات من تعب رجل جاد مثل محمد ﷺ لا يمكن أن يكون من ورائها حيلة رخيصة، أو وهم قد استبد به. أخذوا ينبشون، بشيء من الوعي النظيف والجزع في كل المواقف القديمة، حتى الإنسانية منها، فيمسكون فيها رغمًا عنهم بعلامات صدقه الواضح، حتى الرجاء الحار الذي بذله عند عمه الثمانيني أبي طالب وهو يحتضر لكي يسلم، فعاطفة محمد ﷺ الصادقة هي التي جعلته يتكلم بكل هذا الحرص والإشفاق، وإنه من غير المعقول أن يكون مخادعًا وقاسيًا يريد أن يغوي عمه الذي رباه، بل والذي وفَّر له حمايةً كلفته الكثير، للخروج من دين أبيه عبد المطلب والدخول في دينه الكاذب قبل موته بدقائق، هذا ليس محمد بن عبد الله، فهو لم يتلاعب باللئام حتى يمكن أن يتلاعب بالمحتضرين من أهله، أخذوا ينبشون في مواقف كثيرة كانت تبدو عابرة، وكانت كلها معًا، عندما جمعوها، تقول إنه في كفاح صادق عظيم.

وهذه النوعية من الرجال التي أخذت تفكر في الأمر، وبخاصة الشباب

منهم، بدأت تتداول فيما بينها تعبيرات الطعن في الآلهة التي يتداولها الناس في أيام اليأس والهزائم، هذه الآلهة لا تفعل أي شيء، وهذا قادهم في النهاية، وبانسيابية، وبغير أن يعلنوا إسلامهم، إلى أن يقولوا، وبكل أسى، ما كان يقول به محمد ﷺ منذ أن جهر بدعوته، هذه الآلهة لا تضر ولا تنفع.

في هذه الفترة كان أبو قحافة يكرر لعبد الكعبة الكلام عن الأخبار الطيبة التي ستأتي قريبًا، وأن كسرى، في الغالب، هو من اختارته عناية الآلهة لإنهاء هذا الأمر الذي طال كثيرًا وأرهق العباد، فهي الآلهة التي استدرجت نبي المسلمين وجعلته يطمئن لكتابة الرسائل لتكون نهايته المرعبة على يد العجم. وكان يزعج أبو قحافة قلة حماس حفيده، ونبرته التي تراخت وفقدت ثقتها الأولى بالآلهة، وزفرات الضجر التي يزفرها وهو يسمع، واستمر الرجل المسنُّ في إرهاق نفسه تحت وطأة تأثير شعور مجهِد بأنه مسئول عن حماية معنويات حفيده.

وفي تلك الفترة المضطربة، بدأ عبد الكعبة يقارن بين فريق العائلة الذي فارقهم، فريق أبي بكر المتفوق الذي يضم عائشة وأسماء وعبد الله وأمه الحنون، وفريقه الضعيف الذي يضمه هو والجد الطيب الأعمى، وبدأ يشعر بالضجر والغيظ الذي يشعر به من يظن أن حظه قد ورَّطه في صحبة زميل ضعيف الكفاءة. وقد بدأ يتلذذ تلك اللذة الغريبة التي يشعر بها الناس في حالات الغم عندما يعذبون من يشاركونهم الأفكار عن طريق الاستهزاء بالأشياء التي كانت تبدو راسخة، وقد بدأ الشاب في ضميره يتهم الجد بالمسؤولية عن بقائه على الوثنية المنهزمة وعدم اللحاق بالأسرة المهاجرة، وهو اتهام مبالغ فيه كثيرًا، لكن هكذا الإنسان: مهما كان شجاعًا صادقًا يحب أن يجد متهمًا عن سوء اختياراته.

وفي جلسة جمعت الجد والحفيد على سطح البيت الكبير، كان الجد يشعر رغم عماه بأن حفيده ينظر له بعين الاستياء، ومن أجل البحث عن حديث لطيف ينسيان فيه معًا آلام الواقع السيئ، سأل حفيده عن سر توقف الجار السكير عن احتجاجه هو وكلابه، فقال له عبد الكعبة هازئًا إن الآلهة نطقت أخيرًا وأمرته صراحةً أن يتوقف عن إزعاجها حتى تستجيب لشكواه من العقر والبرص، فأثبت السكير إيمانه وسكت، فغمر الجد شعور قوي بالخزي والخيبة، إذ لم يكن يصدق أنها نطقت، ولم يكن لديه قوة نفسية لكي يسأل حفيده إن كان يقول هذا من باب السخرية أم جادًا؟

ومن أجل المزيد من التلذذ، بشَّر جده بأن لديه أخبارًا جديدة بشأن رسائل محمد ﷺ للملوك، فابتسم الجد ابتسامة حذرة، فهو لا يزال يشعر بأن حفيده ليس صافيًا له.

قال الحفيد له إن الرسالة عندما وصلت إلى كسرى مزَّقها وقال: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي! فهزَّ الشيخ رأسه معجبًا برد فعل كسرى الشرس. ثم قال له عبد الكعبة إن محمدًا لما بلغه ذلك دعا عليه وقال: مزَّق الله ملكه. فهزَّ الشيخ رأسه مستهينًا بدعاء محمد ﷺ.

ثم أكمل عبد الكعبة وهو يدعي سرورًا شديدًا، وأخبر جده أن كسرى أرسل لعامله على اليمن باذان كي يبعث رجلين شديدين يأتيان له بمحمد ﷺ. فانتبه الشيخ واستنار وجهه، فقال له عبد الكعبة خذ هذه الكبيرة يا جدي، ستعجبك كثيرًا: فقد وصل إليه رجلان شديدان من عند باذان ليذهب معهما إلى كسرى، وفي العاشر من جمادى الأولى أخبرهما محمد ﷺ بأن ربه قتل ربهما كسرى البارحة، قالها بهدوء وابتسام وثقة، وعندما أكد لهما جديته كتبا

ذلك عنه وذهبا به إلى باذان، [وبدأ عبد الكعبة يتكلم ببطء شديد لكي يغيظ جده ويزعجه] وعندما وصلا إلى باذان، وانفردا به، وعرَّفاه كلام محمد ﷺ المكتوب، شعر باذان بالقلق، لكن لم يطل الوقت يا جدي، حتى عرف باذان الحقيقة، أتدري يا جدي ما هي الحقيقة التي عرفها عامل كسرى؟

قال أبو قحافة: ما هي يا عبد الكعبة؟

قال عبد الكعبة: لقد جاءه كتاب من شيرويه ابن كسرى، لقد قتل والده، ومتى فعل ذلك يا جدي؟ في ليلة الثلاثاء كما قال محمد ﷺ، ويبدو أنه عرف ما حدث وهو في يثرب قبل سكان القصور المجاورة للقصر الذي قتل فيه الابن أباه. لم يتحمل باذان ومن معه من أهل فارس باليمن، وهم يتحدثون بصدق محمد ﷺ بين أهلهم وأصحابهم وجنودهم، ويرتبون شؤونهم كي يعلنوا إسلامهم وهم ممسكون بزمام الأمور في اليمن.

لقد نزل الشيخ الضرير وهو يستند على حفيده يغلبه الحرج والشعور بالبؤس، وحفيده يقول له وهو يضحك: قوية والله قصة كسرى هذه. كان عبد الكعبة ينزل معه سعيدًا متمتعًا بالآثار المدمرة للخبر على الشيخ الذي لم يعد لديه قوة على مراجعة أفكاره القديمة، ناسيًا أنه نفسه، ورغم شبابه، وصدقه مع نفسه، وسلامة بصره، ونقاشه مع الأصدقاء، غير قادر رغم كل هذا على اتخاذ القرار.

العقد والتيمم

كان هذا هو التوتر اللطيف الذي نشأ في فريق عبد الكعبة، بين عبد الكعبة وجده، وقد كان هناك توتر لطيف على أي حال في فريق أبي بكر نشأ منذ زواج محمد ﷺ من ابنة صاحبه، توتر بين أبي بكر وعائشة؛ توتر في حب محمد ﷺ.

وأثناء عودة جيش للمسلمين يقوده محمد ﷺ إلى المدينة، ومعه عائشة، وفي الجيش أبو بكر، وذلك بعد سنة من سقوط عقدها، نادى المنادون بالليل بأن الجيش سيبيت في الغالب في تلك البقعة التى استراحوا فيها قليلاً قبل أن يصلوا إلى ديارهم.

لم يكن أبو بكر يعرف سر اختيار النبي لتلك البقعة المكشوفة التي لا يعرفون فيها مصدرًا للمياه من أجل البيات، كذلك لم يفهم ما يحدث عندما نظر بعد قليل إلى عدد من الرجال بعيدًا عنه يحملون مشاعل وينظرون إلى الأرض.

وأبو بكر الذي لم يزعج النبي أبدًا، والذي لا يعرف ما يحدث بالمعسكر، ولا يزال ينظر بجانب وجهه ناحية المشاعل البعيدة، تسلل إليه بعض الرجال، وجاؤوه بالخبر وهو جالس مكانه، واشتكوا إليه ابنته: ما صنعت عائشة! أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. لقد سقط عقد عائشة مرة ثانية، ولا ندري متى نرتاح من متاعب هذا العقد. نظروا إلى وجه أبي بكر الذي تغيَّر، وعرفوا أنه ستعتريه حدته التي تعتريه في بعض المواقف، فتركوه.

قام أبو بكر من جلسته منحنيًا قليلًا، وكأنه يحمل الكلمتين اللتين تعب منهما على ظهره، وها هو ذا يتوجَّه إلى عائشة، يتمنى لو لم يجد النبي عندها حتى ينفجر فيها، فهو يحب النبي ذلك الحب الذي لا يعتمد فيه على العشم ولا يعتمد على مكانته ولا يعتمد على عطائه للدعوة، بل يفتش عن رضا النبي بكل حرص، ويتجنب ما يسوءه بكل انتباه، بينما عائشة تحبه حب الزوجة لزوجها الذي تنعم بسعة صدره وحلمه وتستمع بمكانتها عنده؛ وقد كان النبي وهو يحيا حياة الكفاح المستمرة، بحاجة إلى بشر ينتفع بقربهم منه ولا يحتاج معهم لالتماس الأعذار، ولا يعطله عن عمله ورسالته هنَّاتهم الطبيعية المتتالية، وهذا بسبب كمالهم وفضلهم، وكان النموذجان لهذا النوع من البشر خديجة وأبا بكر؛ وفي ذلك الوقت فهو في حاجة في حياة الكفاح المستمرة التي يحياها، إلى شخصية لها بهاؤها وحيويتها وعاطفتها القوية بالقرب منه كإنسان، يتمتع بعدم تكلفها وتلقائية شبابها ويأنس بها أنس الحكماء بشخص ذكي محدود الخبرة.

لمَّا سقط عقدها في هذه البيداء، بعد سنة من سقوطه المشهور، فكَّرت عائشة في مشكلة المرة السابقة، وتذكرت أيامها الصعبة التي أصابتها بالحزن، وأصابت عامة المسلمين، وأصابت أسرتها حتى كادت روحا أبيها وأمها تخرجان من الهم، ولم يكن ما استفادته الشابة البريئة أن تنسى العقد ولا تتكلم في هذا الأمر، بل كان ما استفادته هو أن تخبر النبي بأنها فقدته ولا تبحث عنه بمفردها. وعبرت له عن حزنها الشديد عليه، وأنها تأمل في أن تجده، فاستمع لها باهتمام وحب، وصدر منشرح، وبكل ود وصبر جعل محمد ﷺ جيش المسلمين يعسكر في المنطقة إلى أن يتم العثور على العقد، إذ كان محمد ﷺ من هذه الفئة النادرة من الناس التي لا يجعلها تكريسها لنفسها لشئون عظيمة تفقد التلقائية وتستخف باهتمامات الآخرين البسيطة وشغفهم البريء، فلم يكن

ثمن العقد أكثر من اثني عشر درهمًا، ولكن عائشة البريئة تحبه.

وما تم ملاحظته بسرعة في هذه البقعة القريبة من المدينة نوعًا ما، هو أنه لا يوجد بها عين ماء، كذلك اكتشفوا ما هو أسوأ، وهو أن الماء الذي معهم كان قليلًا يكفي فقط حاجتهم للشرب، لكن لا يكفي للوضوء، وهذا ما جعل بعض الرجال يتفقون على الشكوى لأبي بكر، على سبيل البوح لا أكثر.

وفي تلك الخطوات التي مشاها أبو بكر في ليل البيداء باتجاه ابنته، بين همهمة أفراد الجيش وأصوات الإبل الباركة، مر على خياله فجأة، وكما تمر طيور رشيقة في ليل الصحراء تباعًا، وجوه أبنائه، حتى وجه ابنه عبد الكعبة الذي اختار أن يكون عدوًا للمسلمين، تلاطمت في خياله صور سريعة من حيواتهم كتلاطم الأجنحة، منفعلًا انفعال الآباء الرحماء باختلاف حظوظ أبنائه من السعادة، فرأى الهيام الذي على الوجه الأبيض لابنه عبد الله الشاب الدمث الرقيق، هيامه بزوجته عاتكة التي انشغل بها عن الوجود، ويعيش بجانبها لا يطيق البعد عنها، ورأى الفتوة والعافية التي تضيء وجه عبد الكعبة، الذي ملك قلب زوجته الجميلة الطيبة، ويعاملها بظرف لا يخلو من غرور رجل يشعر بذاته، ورأى الأسى الذي كان على وجه أسماء وهي تشكو له في آخر مرة حدة الزبير بن العوام، وغيرته المبالغ فيها، أسماء الحبيبة التي يخشى عليها أبوها من أن ينتهي أمرها بعد كفاحها في الحياة بأن تعيش مطلقة مثل أمها، أسماء التي لها أم على قيد الحياة ولكنها محرومة من وجودها بجانبها بسبب الهجرة، والتي جاءتها أمها لزيارتها بعد صلح الحديبية ومعها أطباق من الحلوى، فانتفض قلب الطيبة لرؤيتها، ودمعت أعينهما من الفرح باللقاء، وأخذت كل واحدة منهما تتحسس وجه الأخرى، ولكن أسماء خافت من أن يكون استقبالها

لأمها الوثنية من الود الحرام، فأسرعت تستأذن من النبي فعرفها أنه لا شيء في هذه الصلة، فرجعت وهي تحمد الله، فهرعت تبكي في حضن أمها، وانسكبت في قلبها قارورة الحنان المكتوم.

ووصل أبو بكر إلى الهودج الموضوع على الأرض، وهو يفكر في أن أم عائشة الحنون بجوارها دائمًا، وأنها تنعم مع النبي الذي لا يدخل عليها من الباب إلا بالكلام الطيب ولا يودعها إلا بالكلام الطيب، حتى نضر وجهها نضرة المرأة التي يعاملها زوجها خير معاملة.

ودخل عليها فوجد محمداً ﷺ ذاهبًا في النوم ورأسه على فخذها. محمد ﷺ نائم، وعنده في الهودج خير من يمثلان نوعي الحب اللذين يحتاج إليهما، الحب الذي لا يتعب أبدًا، والحب الذي يجعل في الحياة بهجة ويستخرج من النبي قدراته العظيمة على الاحتواء والصبر والتفهُّم، وهي أشياء ترتاح أرواح أصحاب الأخلاق العظيمة ببذلها، لأنها من مؤهلاتهم الطبيعية.

أخذ ينخسها بيده في خصرها وعلى وجهه ملامح الغيظ، وهو يقول لها: حبست النبي والناس وليس معهم ماء في قلادة، وفي كل مرة تكونين عناء وبلاء على الناس.

وقد كانت عائشة مضطرة للتحمل وعدم الشكوى وعدم الحركة حتى لا يستيقظ النبي، وأبوها من ناحية ثانية يريد أن يفعل أكثر من ذلك ويريد أن يرفع صوته، ولكن يمنعه خوفه من أن يتسبب في إيقاظ النبي.

ونام النبي إلى الصبح، واستيقظ ولم يكن هناك من الماء ما يسد حاجة المسلمين إلى الوضوء، وبينما كان بعض الناس ما زالوا يتهامسون فيما بينهم

وفي حدود الأدب عن القيمة المتواضعة للعقد الذي تسبب في نزولهم في مكان كهذا فلا يتوضؤون ولا يصلون، جاء أبو بكر إليه وهو لا يزال يشعر بالغيظ والحرج من ابنته، ولكنه لمَّا وجد النبي بشوشًا راضيًا، ترك ما يشعر به من فرط حبه له، ورضي بما على وجهه من الرضا والبشاشة، أما هي فكانت تتمتع بحصانة حب محمد ﷺ لها، وكذلك حصانة البراءة التي نزلت من السماء. بينما كانت هذه أحوال الوجوه حول النبي، نزلت آية التيمم، التي تجيز للمسلم الضرب بكفيه على الأرض الطاهرة ضربة واحدة، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه. وسعد المسلمون جميعًا بالآية، لأن قلة المياه شيء قابلهم كثيرًا وسيقابلهم في الأسفار؛ حتى قال أسيد بن حضير بصوت مسموع: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. فهز المسلمون رؤوسهم معترفين بهذا الفضل، وشعروا بقيمة أخرى لهذا العقد.

وتيمم الناس وصلُّوا؛ وكان أول ما تم التفكير فيه بعد الصلاة للبحث عن العقد في نور الصبح، هو تحريك البعير الذي كانت عائشة تركبه، وما إن قام البعير حتى سعدت عائشة وسعد النبي بسعادتها، إذ ظهر العقد تحته. وقد تفكَّر بعض المسلمين وهم عائدون إلى المدينة ومع عائشة عقدها ومعهم التيمم، تفكَّروا في أن الله يجعل البركة تحل بالمسلمين من ناحية آل أبي بكر، حتى يحفظ لهم المسلمون الود والمكانة، فيكون حب أبي بكر وعائشة من الدين.

ولم تكن المدينة التي عاد المسلمون إليها بالعقد والتيمم، لم تكن حتى ذلك الوقت قد خلت تمامًا من الذين أسلموا جريًا مع الريح، فلا يزال بها قلة لديهم عاطفة وثنية سرية لم تفارقهم، يغذيها شعورهم كسكان أصليين للمدينة بالرغبة في عودة البلدة التي كانت خالصة لأهلها، والتخلص من الغرباء الذين

زاحموهم. وقد كان في هذه الأسر القاصية المنغلقة على الذات والذكريات، التي تقاوم الذوبان وحركة التاريخ، توترات بين أفرادها الذين يشعرون بالتنغيص من تغيرات الحياة، كالتي بين عبد الكعبة وجده أبي قحافة، فكما هو الحال في مكة، وربما بشكل أكثر حدة، كان هناك في المدينة أشخاص يعبر الواحد منهم عن وجعه من خلال إزعاج شخص مقرب إليه يتسم بأنه شديد التمسك بالتراث الوثني القديم؛ وعلى سلالم بيت في المدينة، كان رجل ينزل مستندًا على ذراع ابنه الذي حكى له خبر العقد والتيمم، وأبدى له الابن الذي لم يعد قادرًا على مقاومة أطوار الصعود والسطوع للدعوة الإسلامية دهشته مما حدث، فهو ذاته عقد عائشة في المرتين، وهذه المرة عانى المسلمون من عدم توفر ماء الوضوء، فتلا عليهم محمد ﷺ آية التيمم بعد ساعات قليلة من بداية الأزمة، وكان يمكن لهم أن يعوضوا الصلوات في وقت آخر في المدينة أو عند أي عين ماء بين البيداء القاحلة والمدينة، بينما تلا البراءة في السنة الماضية بعد شهر من الضيق والغم، ولو كان هذا القرآن من عنده يا أبي، لأسرع به في تبرئة زوجته، وتمهَّل به في تعليم الناس التيمم، وكان أبوه ينزل مثل أبي قحافة، مضطربًا لا يجد جوابًا.

المناكب اليمنى

في شهر ذي القعدة من العام السابع للهجرة، كان أبو قحافة الذي بلغ التسعين سنة، يقف بشعره الأبيض الغزير مع القرشيين من حوله على جبل قعيقعان شمال الكعبة، وهم يراقبون من أعلاه المسلمين الذين جاؤوا للعمرة حسب الاتفاق، وهذا بعد أن أصر على حفيده عبد الكعبة من أجل أن يصعد الجبل، فجعل خادمين يحملانه على محفة. وكان عبد الكعبة قلقًا على جده الضرير فوق الجبل، يخشى أن يتعثَّر ويتقلَّب على أحد منحدراته الصخرية، فقد كان الشيخ ينصت للآراء التي تمر من حوله بشأن محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، بلهفة رجل كبير السن يعاني من ضعف التواصل مع الآخرين عندما ينتعش إحساسه بوجوده بين جمهور يجمعه همٌّ واحد، فيلتفت بحماس كلما سمع رأيًا أعجبه ليؤيد من قاله، أو ليرد مقالة رجل يظن أنه لم يعد ثمة أمل في القضاء على تلك الديانة الجديدة. وقد سمع في وقفته شابًا مرتفع الصوت يتعجب من خلفه من أن يأتي محمد ﷺ بكل هؤلاء المسلمين وليس معهم إلا السيوف في أغمادها، كأنه لا يخاف من أن يفتك بهم الناس، فالتفت أبو قحافة وترك حفيده ومضى وهو يخمِّن مكان الشاب، خصيصًا من أجل أن يقول له إن محمداً وضع الأسلحة في وادي يأجج القريب وترك هناك مائتي فارس على أهبة الاستعداد؛ هذا رغم أن معلومته التي يحملها كأنه هو مرجعها الأول قد استقاها من حفيده منذ قليل أثناء وقوفهما، ويمكن للشاب أن يعرفها من غيره، ولكنها رغبة كبار السن في تأكيد الفاعلية. وأفاق عبد الكعبة من شروده ونظر

ولم يجد جده بجواره، فأخذ يلتفت إلى كل ناحية مرتبكًا ويفتش بعينيه، حتى وجده يحاول وحده الرجوع إلى حفيده، وعاد بجده، الذي قدَّم معلومته على أية حال لرجل آخر قبلها منه وعبَّر عن إعجابه بها على سبيل تطييب خاطر الشيخ.

وقد كان الجمهور العريض من المتجمعين فوق الجبل يشعر بالطبع بالحقد الشديد على هؤلاء المسلمين الذين أُخليَت لهم البلدة كي يعتمروا ويعودوا بأمان من دون أن يتعرض لهم أحد من أصحاب الثأر. وقد أصيبوا بخيبة الأمل، إذ كانوا يواسون بعضهم البعض في الأيام الماضية قبل أن يأتي محمد ﷺ ومعه ألفا معتمر، بما قاله أحبابهم المجاملون الذين زاروا المدينة قريبًا، وادعوا لهم أن المسلمين سيأتون وقد أضعفتهم موجة جديدة من حمى يثرب، وسيمشون أمامهم في الحرم بكسل وفتور، يستندون على بعضهم البعض مثل المرضى؛ ولكن هذا الاختلاق الذي فشا في الأيام الماضية في حكايات القبيلة التي ضعفت عزيمة الحرب عندها، والذي ترغب من خلاله في النيل من أعدائها بالأمنيات، لم يصمد أمام العرض الحي لرجال في قمة النشاط والفتوة، قد أمرهم محمد ﷺ بالإسراع في ثلاثة أشواط من أشواط الطواف، وأن يكشفوا المناكب اليمنى، مستخدمًا الصورة للدعوة والتأثير والإضرار بمعنويات الخصم، على وجه رائع، مثلما استخدم الصورة من قبل في السنة الماضية، عندما جعل المسلمين يرسلون البدن المقلدة والمشعرة أمام الحليس بن علقمة الذي يعظم الشعيرة، فعاد إلى قريش متعاطفًا مع المسلمين ومعترضًا على صدهم عن البيت، وحتى هذا الشيخ الأعمى وصلته رسالة محمد ﷺ التي لم يرها إلا من خلال وصف حفيده.

وبخلاف هذه الجماعة الكبيرة من الذين لا يشعرون إلا بالحقد وحده، كان هناك جماعة صغيرة موزعة بين الناس ينظر أفرادها للمسلمين وهم يشعرون بشعور مختلط من الحقد والحنين، تجاه هؤلاء الأقارب الذين اتبعوا دينًا جديدًا، غيَّر فيهم الكثير، وقد عادوا اليوم إلى بلدهم في زيارة بعد غياب سبع سنين، لكي يروا البيت وحده.

وكان عبد الكعبة واحدًا من هؤلاء الذين يتكتمون المشاعر المتباينة، واحدًا من هؤلاء الذين بدؤوا يظنون أن هذه الآلهة الغائبة في جمودها التي لم تدبر أي شيء خلال سنة لمنع محمد ﷺ من القدوم من أجل العمرة، لن تدبر أي شيء أبدًا، وهي غالبًا دخيلة على البيت الذي بناه إبراهيم كما يؤمن المسلمون، وأن همهمة هؤلاء المسلمين التي تصعد من الحرم إلى قعيقعان هي حضور جليل لنبوة حقيقية تصل الحاضر بالماضي البعيد، ولن يصمد لها شيء، لا قسم يقسمه زعيم، ولا هجاء يهجوه شاعر، ولا الأغاني التي تسب محمدًا ﷺ التي تغنيها المغنيات أمام السادة وهم يشربون الخمر. كان عبد الكعبة وأمثاله من المتبلبلين المتفرقين بين الناس فوق جبل قعيقعان، يشعرون رغم المسافة بينهم وبين خصومهم، بالفارق الذي يصنعه إيمان هؤلاء بجنة ونار حقيقيتين وأبديتين، يشعرون بأن هذا الدين الصاعد يذهب بعيدًا جدًا في صنع مغزى للحياة، أما الإنسان العربي الوثني، الذي يطل عليهم من فوق جبل قعيقعان، فجنته وناره هما ما يقوله الناس عنه في حياته، ولسنواتٍ أخرى من بعد مماته، إلى أن يأكل النسيان اسمه بعد أن أكلت الأرض جسمه، وشتان بين الجنتين والنارين.

أصر عليه الجد أن يوجه وجهه ناحية أبي بكر كلما رآه، وأطاعه الحفيد

قدر المستطاع، وأخذ يحاول أن لايسمح لجسد أبيه أن يهرب من عينيه في الزحام. وحاول الحفيد مرتين أن يجوِّد من عنده ويحكي عن مشاهدته لهذا أوذاك من المسلمين القرشيين، أو أي مشهد مؤثر فيه عبرة، فقال له جده في كل مرة: فقط، كلمني عن أبي بكر. فتأثر الشاب، وأخذ يبدل أنظاره بين أبيه البعيد المنشغل في العمرة، وجده المشتاق ذي الشعر الأبيض، وازداد إيمانًا بأن ما عند جده الذي يتبعه على دينه، ليس يقينًا بأن هذه الأحجار آلهة، بقدر ما هو عجز رجل مسن عن تجاوز سخطه الأول على العقيدة التي أخذت منه ابنه الوحيد، رجل تغيرت الدنيا من حوله خلال عشرين سنة من الدعوة وإسلام أبي بكر، ولا يزال أسيرًا لرغبة غير عقلانية في استرداده.

والجد الذي كان يعتمد على توجيه حفيده له فوق الجبل ناحية أبي بكر، وعلى وصفه لما يفعل، كان يعيد ابنه أبا بكر في بحبوحة العمى رجلًا في أول الأربعين من عمره، وأحيانًا يجعله دون هذا العمر؛ وليس هذا فقط، بل كان أيضًا يجعله قريبًا، أقرب كثيرًا من المسافة الحقيقية بين سطح الجبل والحرم.

وفي لحظة من لحظات متابعته لأبي بكر وهو لا يرى أبا بكر ولا يرى شيئًا، وكان عبد الكعبة متوقفًا عن الوصف، بعد أن شعر بالملل من وصف أفعال أبي بكر الطبيعية التي يفعل مثلها كل من حوله، ضغط الشيخ بكفه الواهنة على ساعد حفيده فجأة، واستمر على هذا الضغط قليلًا، كأنه يستنجد به، فاستفسر منه عبد الكعبة، إن كان قد أصابه وجع ما، فقال إنه قد هيئ له في لحظة في ظلام الحياة الكثيف أن عتبة بن ربيعة قد أوقع ابنه الآن أرضًا، وأخذ يضربه ضربًا شديدًا؛ وهو يعرف أن عتبة قد قُتل في بدر، ولكنه سها عن كل ما كان وفوجئ في لحظة واحدة بهذه الصورة البشعة وقد كاد قلبه الضعيف يتوقف. وتنهد الشيخ وأتبع ذلك بأن قال: متى تعود يا أبا بكر؟

باب الرضا

وفي يوم ربيعي جميل، جلس أبو قحافة في الصباح على المصطبة عند دار صديقه الذي عند بيت الصفا، يروِّح عن نفسه بتخيُّل الزهور الرقيقة بألوانها الخلابة التي تنبت على الجبال القاتمة التي تحيط به، ولم يكن يجد شيئًا يقوله وهو يمتع نفسه بالطقس اللطيف في شهر صفر من السنة الثامنة من الهجرة، ليس لأن صاحبه كعادته مثله لا يحب الكلام، بل لأن صاحبه مات منذ مدة لا يعلمها على وجه التحديد، ولم يعد يجلس على فروة الخروف الثانية التي تفتقده، والتي يتحسسها الشيخ بكف يده في كل مرة. وهو الآن يتمنى لو كان موجودًا بجواره؛ ليتبادلا إبداء الشعور بأن هناك أملًا ما سيأتي، من جهة غير متوقعة، وأن مغانم محمد ﷺ التي يجمعها على بعضها البعض هي مغانم مؤقتة، وسيكون مضحكًا جدًا أن تأتي خسارة ضخمة لا يحسب محمد ﷺ حسابها، وتأتي عليها جميعًا.

وكان الحدس الذي نشط فيه جدًا من بعد عماه، قد جعله يقلق مما يعتمل بصدر حفيده، آخر ما تبقى له من العائلة. وحفاظًا على كبريائه كرجل مسن، تراجع قليلًا وأخذ مسافة ما من حفيده، وتوقف عن تذكيره بما تم الاتفاق عليه منذ مدة، عندما هاجرت الأسرة بعد أبي بكر: إذا ما خطر للواحد منهما أي خاطرة، مهما كانت عابرة، فعليه أن يتكلم مع الآخر. أخذ يروِّض نفسه على أن لا يعتمد كثيرًا على وجود عبد الكعبة بجواره مثلما كان يعتمد في البدء، وهذا خوفًا من أن يختل ويقع إذا ما فاجأه عبد الكعبة بدخوله في الإسلام. كان يحمل في نفسه على حفيده بسبب تغيره معه، ومع هذا فهو لا يزال متعلقًا به

بشدة، ويتمنى رغم شيخوخته وعماه وقلة خروجه من البيت واختلاطه بالناس، يتمنى أن يظفر بخبر مبهج يعود به إلى حفيده ليعيد إليه رباطة جأشه في مواجهة الإسلام؛ كان يظن أن ضربة حظ مثل هذه ممكنة لرجل قليل الحيلة مثله.

وفي مجلسه هذا، وبينما كان يعيش في حالة من الهدوء، ويتنعَّم بأصوات الطيور الذاهبة في النواحي، سمع أخبارًا بالفعل لم تكن قد وصلت لحفيده بعد، ولكنها أخبار سيئة، بل شديدة السوء، سمعها من شباب صغار يمرون من أمامه، جاءته أصواتهم في مجلسه كأنها نداءات خبيثة تتردد في حلم شيطاني، فانقبض منها قلبه، وناداهم بجزع عدة مرات، بصوت يشبه صوت مريض ينادي على أهله الغافلين؛ ليتأكد منهم مما سمع، فالتفتوا إليه أخيرًا، واقتربوا وأعادوا له ما قالوا، ومضوا وهم لا يبالون برأي هذا الرجل الهرم وتعقيبه على ما سمع، كانت نبرة شبيبة وعوا الدنيا وفيها محمد ﷺ والإسلام، نبرة شبيبة إذن لا يستبعدون أي شيء: لقد أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

أصاب أبو قحافة الغم الشديد، فخالد وعمرو بطلان من أبطال قريش، ورجلان ألمعيان من أبنائها، وعثمان بن طلحة من أحسن الناس خلقًا ومروءة، وهو لا يعرف كيف يعود ويحكي لحفيده هذا الخبر الأليم، وكيف يبرر له هذه الفاجعة، وكيف سيتحمل أسلوب حفيده اللاذع في التعقيب على الأخبار السيئة؟

كان خالد بن الوليد واحدًا ممن أخذوا يراقبون المسلمين من فوق الجبل أثناء عمرة القضاء، حاملين معهم في البدء خليط الحقد والحنين، لكن سرعان ما انسكبت قارورة حقده التي كانت ممتلئة في ساحات الحروب، وهو يراهم في غير صفوف الحرب، وعمل عقله على التفكير في محمد ﷺ وما وصل إليه محمد ﷺ، وما جاء به محمد ﷺ، وشعر، وهو الرجل المعتز بذكائه

وعقله وقدراته، بأن مثله خسارة في هذا الفريق الآفل الذي يطل من فوق جبل قعيقعان، وأن حجمه الحقيقي، وعمله الحقيقي، هناك بين رجالات محمد ﷺ. وبعد أن ذهب النبي ومن معه، بعد ثلاثة أيام، قال كلمته المزلزلة بين أصحابه المقربين ومنهم عكرمة بن أبي جهل: لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين.

وبعد هذا رأى في النوم كأنه في بلاد ضيقة مجدبة، وخرج في بلاد خضراء واسعة، فأخذ حلمه وعزيمته وهاجر؛ وما إن وصل إلى المدينة حتى أصر على أن يذكر ما رأى لأبي بكر، وبالفعل انفرد به وحكى له حلمه القصير الواضح، واستراح واستبشر لما نظر إليه أبو بكر مبتسمًا وقال له: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك.

عاد أبو قحافة في طريقه إلى البيت موجوعًا مستندًا على خادمه، يتخوف من أثر الخبر، فعبد الكعبة الفارس الشاب معجب بهذين القائدين المخضرمين خالد وعمرو، ويشهد لهما برجاحة العقل، وقد يختل ما بقي به من دين بهذا الخبر. وما إن دخل أبو قحافة مطأطأ الرأس هاربًا بوجهه ناحية غرفته كأنه فعل فِعلة، ورآه حفيده وتلبَّسته النشوة من سرد انتصارات الإسلام على دينهما، وأراد أن ينال من جده بنبرته التبكيتية التي يتمتع بها، كأن جده هو الذي يعطله عن حسم أمره، فقال له بظرف ذابح: أتأخذ الآن خبرًا جديدًا يطير النوم من العينين؟ أم نؤجله إلى ما بعد القيلولة؟ فبادره الجد الذي يشعر بالرغبة في إعلان احتجاجه الصريح على تمتع حفيده بتعذيبه، وهو يشيح بيده، متجهًا كما هو إلى الغرفة: أعرف خبر هؤلاء الثلاثة الذين أسلموا.

وبالفعل كانت الأمور قد اتضحت كثيرًا في عقل عبد الكعبة، فهو يشهد

لهؤلاء الثلاثة بالذكاء وحسن النظر في الأمور الملتبسة، وبعدم الاندفاع في طريق لا يثقون به. وقد كان من قبل أن يسمع الخبر يؤمن بأن الهجرة والإسلام قرار، وأي قرار يدعو إلى شيء ما من القلق، لكن لما سمع خبر إسلامهم وتأكد منه، شعر بأن الخطوة التي خطاها الثلاثة تمنحه الشجاعة الكافية، وتحرمه من أي ذريعة للتأجيل؛ واكتشف شيئًا بسيطًا وواضحًا كان غائبًا عن ذهنه، وهو أن البقاء بمكة على الوثنية هو قرار أيضًا، وقد يكون أكثر إثارة للقلق.

وأخذ يردد يومًا بعد يوم لجده، أثناء جلوسهما شبيه الودي معًا، وفي فواصل الصمت المرير، وبدون أي رحمة، وبصوتٍ متعمَّدٍ يتسم بالبطء والصفاء: اشتقت إلى أبي، ثم في اليوم الذي يليه: اشتقت إلى أمي، ثم: اشتقت إلى عائشة، ثم: اشتقت إلى جدتي؛ وهكذا أيضًا عبر عن اشتياقه بذات الصوت لعبد الله بن الزبير، ابن أخته أسماء، فقال له الجد وهو يشرب الحساء ويشعر بالضيق من هذا التهديد اليومي: لو كان عامر بن فهيرة حيًا لاشتقتَ إليه!

وهكذا استمر جو الإيذان بالرحيل المرعب البطيء، حتى لم يعد هناك مزيد من الأسماء الجديدة التي يعبر عبد الكعبة عن اشتياقه لها، ولم يكن أبو قحافة يعرف إن كان حفيده سيقلب الساعة الرملية المخيفة ويعيد نطق الأسماء من جديد، أم سيرحل بعد أن انتهى؟

وأخيرًا؛ رأى الشيخ بشكل قاطع أن الوحدة خير من جليس السوء، هذا الحفيد الذي يثير قلقه بأسلوبه الهادئ المروع، هذا الحفيد الذي أقنعه بأنه يستحق اللوم على جميع إخفاقات الوثنية، فأصرَّ على أن يأخذ مفتاح داره، وخادمه، ويذهب هناك ليعيش بصحبة الذكريات الجميلة، قال ذلك بصوت رجل مجروح مخاصِم، ولم يقبل بتلك الكلمات الفاترة التي حاول حفيده أن

يطمئنه بها ويرده عن الاستقلال بمعيشته، فلم يعد لدى الحفيد أي قدرة على إنكار أنه حتمًا سيهاجر.

وبعد أيام قليلة من ذهاب أبي قحافة إلى داره، كان عبد الكعبة ينهب الطريق بعد أن خرج بغير أن يودع أحدًا، تاركًا جده وحيدًا يعاند للنهاية وهو يستند على جدران الدار الفسيحة، ومعه خادمه الذي لا يقدم المساعدة إلا إن طلبها سيده، هذا وللخادم مهمة عظيمة وليست صعبة، يلزمه بها سيده: وهي أن يبدي كل يوم شعورًا بأن هناك أملًا ما سيأتي.

وفيما كان عبد الكعبة في الطريق يتخيل فرحة الأهل عندما يرونه أمامهم فجأة، ومناظر اللقاء الحار والدموع، والتأنيب الحنون، وفيما كان أبو قحافة وخادمه يجلسان في صحن الدار على فروتين متجاورتين على المصطبة الداخلية، بعد أن دفعت العزلة والهموم أبا قحافة لرفع الكلفة، وتتسلل إليهما أشعة الشمس اللطيفة، ووجهاهما ناحية الباب الثقيل الذي أوصى الشيخ خادمه بأن يفتحه قيد أنملة، ويضع خلفه حجر، ينتظران إلى أجل غير محدد طرقات أي رجل يحمل الرضا والبشريات الرائعة؛ كانت أصابع يد أبي بكر النحيلة تدفع الباب ببطء، ذلك الباب المصنوع من الجريد، هناك عند حصن عتيق مبني بالأحجار، مقابل مسجد قباء من ناحية الغرب، وكان محمد ﷺ بالداخل يجلس على مصطبة صغيرة منخفضة عند بئر أريس، في منتصف هذه المصطبة التي لا تتسع إلا لجلوس ثلاثة رجال، ويدلي ساقيه في تلك البئر التي يضمها سور الحصن الصغير العتيق.

وأبو موسى الأشعري الذي تطوع في هذا النهار بأن يكون بوابًا للنبي، وجلس من أجل ذلك عند الباب، قال لأبي بكر الذي يريد الدخول: على

رسلك. ثم ذهب إلى محمد ﷺ وقال له: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن. فقال له: ائذن له وبشره بالجنة. فعاد أبو موسى إلى الباب وقال لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة. فدخل أبو بكر راضيًا مستبشرًا، وجلس عن يمين محمد ﷺ ودلى رجليه في البئر مثله.

ومن بعد ذلك كان إنسان يحرك الباب، فقال أبو موسى: من هذا؟ فجاءه الرد: عمر بن الخطاب. فقال له أبو موسى: على رسلك. ثم جاء إلى النبي وقال له: هذا عمر بن الخطاب يستأذن. فقال النبي: ائذن له وبشره بالجنة. فعاد أبو موسى إلى الباب وقال لعمر: ادخل، وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة. فدخل عمر راضيًا مستبشرًا وجلس على المصطبة عن يسار النبي ودلى رجليه أيضًا في البئر.

ثم حرك الباب إنسان آخر، وكان عثمان بن عفان، الذي عاد إليه أبو موسى بالإذن، وبشرى بالجنة، على بلوى تصيبه. ولما دخل عثمان لم يجد لنفسه مكانًا يجلس فيه على نفس المصطبة، فجلس قبالة الثلاثة.

وقد كانت الخلافة من بعد محمد ﷺ للثلاثة بنفس ترتيب الدخول؛ وقد تجاور الثلاثة فقط محمد ﷺ وأبو بكر وعمر في القبر كما تجاوروا جلوسًا عند البئر، أما عثمان فقد ابتلي وقُتِل بعد ما يزيد قليلًا عن ربع قرن من جلوسه أمام أصحابه عند البئر. وقد كان بإمكان محمد ﷺ أن يصبر قليلًا جدًا ويبشر كل واحد منهم بالجنة بعد أن يدخل ويجلس عنده، ولكن كان للثلاثة أن يكون رضا الله عنهم معلنًا بين المسلمين ممثلين في بواب ذلك اليوم الذي سيروي ماحدث.

الإمارة

عاد عمرو بن العاص داهية قريش وأحد فرسانها الكبار بعد أن ارتدى رداء الحرب واتخذ سلاحه، كما أمره النبي، ووقف عنده وهو يتوضأ، فرفع النبي بصره فيه، ثم قال له: إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك رغبة صالحة من المال.

وكان عمرو قد أحب النبي بعد أن أسلم كأنه يحبه منذ مدة، وهو يرغب في أن يؤكد أنه الآن مؤمن حقًا حتى ولو كان إسلامه جاء متأخرًا عن الكثيرين من أكابر المهاجرين المقربين للنبي، ويطمح في أن يحبه النبي كما يحب هؤلاء السابقين من المسلمين، الذين جاهدوا وتعرضوا للبلاءات الشديدة في عدة مواقف، ويرغب في أن لا يكون تقدير النبي له نابع من الكفاءة وحدها، فقال: يارسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، ولأن أكون مع رسول الله. فقال له النبي: ياعمرو؛ نعمًّا المال الصالح للرجل الصالح.

وقف عمرو بن العاص بعوده القصير وشعره المخضوب بالسواد، يراجع الذكريات وهو ممسك برمحه الذي انعقد له فيه راية سوداء منسدلة في ذلك الخريف في شهر جمادى الآخرة في السنة الثامنة من الهجرة، فأفاق من شروده عندما اقترب النبي منه وأمال رمحه، وعقد له في طرفه لواءً أبيض، بعد أن جعله أميرًا على ثلاثمائة من المسلمين، لرد جمع من قبيلة قضاعة وعشائر أخرى يرغبون في الزحف باتجاه المدينة. كان هذا الشرود نسمة من الحبور مرت بقلب رجل مر على إسلامه قرابة المائة يوم فقط، وها هو ذا النبي يجعله

أميرًا، مستفيدًا من خبرته ودهائه، معطيًا فرصة للكفاءة أن تعبر عن نفسها، وتنخرط في بيئتها الجديدة بكل مواهبها وتنفع الإسلام.

مضى النبي من أمامه، فسمع صخب الذين رحلوا مهزومين، وأشعار الرثاء والوعيد التي ذهبت سدى، وتراءت له مرة أخرى صور من أيامه الطويلة في محاربة الإسلام تحت راية قريش، وتذكر كيف كان حاله عندما انصرفوا يوم الأحزاب عن الخندق، عندما أيقن في قرارة نفسه أن أمر محمد ﷺ يعلو علوًا منكرًا، لا يستبعد معه أي شيء؛ وتذكر كذلك كيف اعتمد على دهائه، وعلاقته بحاكم الحبشة ومن حوله، وهداياه إليه التي يفرح بها من الجلد المدبوغ، من أجل الإضرار بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وكيف فشل في ذلك تمامًا، فازداد بعدها إيمانه بدين الآباء اهتزازًا، وتقوَّى عنده الشعور بصدق رسالة محمد ﷺ، وبأنه سيظهر في جزيرة العرب ويطوي صفحة الوثنية للأبد. تذكَّر كل هذا وقد كان كل طموح الدنيا، وقتها، وفي مسرَّة الحضور النبوي منذ قليل، والسعادة التي يشعر بها المؤمن في حداثة إيمانه، كان كل طموح الدنيا تحت حافر حصانه. ولم يكن يطمح بعد أن ضمن أن الإسلام يمحو ما قبله، إلا في أن يكون محبوبًا عند محمد ﷺ وليس فقط مقدَّرًا.

أفاق عمرو من صور الذكريات المتداعية، وفكَّر في أن يترك رايته في يد رجل، ويذهب إلى النبي ويودِّعه مرة ثانية، لكنه وجد نفسه غير قادر على أن يفرِّط فيها ويتركها لدى أحد ولو قليلًا من الوقت، وذهب إلى النبي حاملًا الراية والاستفسار، فنظر النبي نظرة ودودة صافية إلى هذا القائد الإسلامي الجديد، ابن السابعة والخمسين، الذي جاء يودعه مرة أخرى. وسأله عمرو وعلى وجهه انفعالات رجل يخفي في صدره طلبًا يستحي أن يطلبه.

قال عمرو: أي الناس أحب إليك؟

قال النبي: عائشة.

قال عمرو: إنما أعني من الرجال.

قال النبي: أبوها.

قال عمرو: ثم من؟

قال النبي: عمر بن الخطاب.

وظل عمرو محدقًا في النبي عن قرب يطلب المزيد، فعدَّد له بعض الرجال الذين يحبهم، وفيهم عثمان، وعلي، وأبو عبيدة، فهز عمرو الطموح إلى محبة النبي رأسه وقام متأهبًا لعمله القيادي، مكتفيًا بالأسماء التي سمعها، والتي لا يعتبر حب النبي لها بحاجة إلى أي تبرير. وقف بطموحه العاطفي الموجوع وقد خاف أن يكون هناك بعيدًا، في ذيل قائمة من يحبهم، ومضى من عنده وهو يذكِّر نفسه بأن النبي جعله أميرًا على سادات من المهاجرين والأنصار فقط بعد قرابة المائة يوم من إسلامه، وهذا جيد وكاف جدًا اليوم.

مضى عمرو بجيشه يتحرك بالليل ويستتر بالليل، حتى قطع مسافة طويلة بدون أن يلحظ مسيرته أحد، ولما راجع خبراته وخبرات من معه بنواحي بلاد الأعداء، أيقن أنه بحاجة إلى رجل بدوي داس هذه النواحي، ليس كما يعبر المطمئنون المسالمون في الطرق المشهودة فلا يحفظون شيئًا تقريبًا من المعالم المتشابهة التي تحيط بهم، ولكن كما يدوس الماكر غير المطمئن؛ أيقن أنه بحاجة إلى رجل يعلم خبايا الطريق، والمسالك التي يمكن أن يفاجئ منها أعداءه، والمواضع التي قد تكون خطرة عليه وعلى جيشه، فأشاروا عليه بأن

يستعين برافع بن عمرو الطائي عندما يصلون إليه، وكان رجلًا يقطع الطريق على الناس بمفرده قبل إسلامه، وكان هذا المنفرد بنفسه في الكهوف والفلوات، يؤمِّن حاجته إلى الماء عن طريق جمع الماء في بيض النعام أثناء توفره في مواسم الأمطار، ويدسه في أماكن يعرفها إلى وقت الحاجة، ويحفظ هذه الخريطة الواسعة في رأسه.

وعندما وصل عمرو بن العاص إلى مشارف مناطق الأعداء، وجد أنه لا يستطيع بهذا العدد القليل من الجنود شن مطاردات تأديبية على السكان حول وادي السلسلة الممتد الذي تستفيد من مياهه الموسمية قبائل مختلفة، حيث يسكن بأوله قبائل بلي وقضاعة، ويمضي شرقًا حيث تسكنه عذرة، ثم شمالًا حيث تسكنه جذام. وعمل حسابه على أنهم قد يفرون منه في الصدمة الأولى في كل ناحية، ليكون قد صنع من أعدائه دائرة واسعة بعد أن طاردهم في كل الاتجاهات وقد أتعبته المطاردة، ثم يفكرون بعد البغتة الأولى في الرجوع عليه من هنا ومن هناك، ويعتصرونه بينهم، ويحولون حتى بينه وبين الحد الأدنى من الغنيمة وهو الإياب إلى المدينة؛ لذلك أرسل عمرو إلى النبي يطلب مددًا، هذا وهو لم يباغت عشائر قضاعة بعد. واجتمع إلى عمرو ما يريد: رافع بن عمرو الطائي خبير الطرق، ومائتان من الصحابة أرسلهم النبي يقودهم أبو عبيدة بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب.

ولم يفسح عمرو بن العاص لأحد من كبار الصحابة ليؤم المسلمين الخمسمائة في الصلاة، بل تقدَّمهم رغم حداثة عهده بالوضوء والصلاة وهو يشعر بأنه لا يحق لأحد غيره هو الأمير أن يؤم تلك الصفوف التي تراصت خلفه.

وقد أخذ بعض الجند من عامة المسلمين يختلسون النظرات إلى وجه أبي بكر الذي جاء في المدد، الذي لا خلاف بينهم على فضله ولا على أنه المقدم بين الصحابة كلهم بما فيهم عمر، أخذوا يختلسون النظرات لعلهم يجدون شيئًا من ذلك الأسى العفوي، الذي يكون حتى عند التقاة، عندما يشعرون بأن غيرهم قد أخذ منهم شيئًا يظنون أنهم أولى به، ولكنهم وجدوا وجه الصدِّيق صفوًا بريئًا لا شيء فيه، لاشيء فيه على الإطلاق، فازدادوا إيمانًا بأن ما يميز هذا الرجل عن غيره هو قلبه؛ الصدِّيق الذي لم يناضل منذ سنوات في أعماقه لثانية واحدة من أجل تصديق حادثة الإسراء والمعراج، هو ذاته الصدِّيق الذي لا يناضل الآن في أعماقه لثانية واحدة لكي يكبت حظ النفس ويتقبَّل ما ناله الآخرون، فهو صدِّيق كذلك في أخوته ومحبته وسلامة القلب.

وقام عمرو بن العاص، وبالاستفادة من خبرة رافع بن عمرو، بمطاردات رائعة في غاية الشجاعة، شعرت معها تلك القبائل بأنها تواجه جيشًا كبيرًا منقسمًا إلى سرايا عديدة تمشط الصحراء وتظهر من كل فج.

وفي أثناء بيات الجيش في بقعة منبسطة بين جماعات من القبائل الهاربة، في أقصى ما وصل إليه الجيش في الشمال، أخذ المناخ يسيء استقبال هؤلاء الجنود الخمسمائة، وصاروا يعانون من شدة البرد ليلًا، ومن الآلام التي يجدونها في عظامهم من أثر الرقاد في العراء على رمال كأنها الجليد. وأراد الجنود أن يحلوا مشكلتهم بالطريقة التقليدية كأنهم في بيئة آمنة، فجمعوا بعض الحطب الجاف من الوادي، وصنعوا منه تلة لا بأس بها، وقبل أن يوقدوا النيران، نهاهم عمرو بن العاص عن ذلك بشدة.

بعد قليل، توجه بعض الجنود إلى أبي بكر وهم يرتعشون وأسنانهم

تصطك، ويوحوحون من شدة البرد، وجلسوا إليه وهو متكوِّم على نفسه بعوده النحيل في عباءته الفدكية، وأخذوا يستعطفونه بالقليل من الكلام المتقطع غير الواضح، وهو لم يكن بحاجة إلى أن يعبروا عما يريدون بشكل أفضل، فقد حكوا له كل شيء بارتعاشهم واصطكاك أسنانهم ووحوحتهم، هذا حتى يتوسط للجيش عند عمرو من أجل الدفء، الدفء الذي صار نعمة جليلة.

وعندما كان أبو بكر متوجهًا إلى عمرو وهو يلف جسده جيدًا بالعباءة، وتبدو عليه آثار البرد مثل غيره، كان عمرو ينظر إليه بضيق وهو يعرف ما الذي سيتكلم فيه أبو بكر، وما إن طلب منه أبو بكر برفق أن يترك الناس يوقدون النار، رد عليه عمرو بن العاص الذي يعتز بذاته، ويأخذ القيادة على محمل الجد، ولا يربكه أن من يكلمه هو أبو بكر أحب الرجال إلى النبي، رد عليه ردًا مخيفًا: لا يوقد أحد منهم نارًا، إلا قذفته فيها. وقد فوجئ أبو بكر بقسوة الرد، ومضى تاركًا الأمر للأمير، وقد كان يتمنى أن يسمع منه ما هو أفضل من ذلك، لكنه مضى وهو لا يشك في رجاحة عقله.

وقد هب عمر بن الخطاب بعد قليل غاضبًا وهو ينظر للناس ورذاذ الثلج على أفواههم وعلى عيونهم نعاس كنعاس الطيور المريضة، ولم يتحمل أن يتعسف عمرو بن العاص في استخدام حقه في القيادة ويتعنت مع المسلمين كل هذا التعنت، وتحرك ناحية عمرو وغضبه على وشك الانفجار، فمسكه أبو بكر بشدة، وأخذ يهدئه، ويتبسم في وجهه، ويربت على ساعده، وقال له: لم يستعمله الرسول عليك إلا لعلمه بالحرب. وهدأ عمر بن الخطاب وهو ينظر إلى وجه أبي بكر وتقبَّل الأمر، وقد كان رضا أبي بكر بشيء يكفيه للاقتناع والطمأنينة.

لم يكن أبو بكر مجرد رجل على درجة عالية من الاستقامة، فلو كان كذلك فقط لهبَّت فيه فرحة مفاجئة وهو يرى عمر بن الخطاب يتجه لتوبيخ عمرو بن العاص الذي رد عليه بغلظة، ثم لا بأس بعد ذلك بأن يقوم من ورائه بسرعة ليفصل بينهما بعد أن يكون عمر قد جرح إحساس عمرو بالإمارة ولو بكلمة واحدة علا فيها صوته عليه، وهذا أضعف التآمر، الذي لا تكاد نفس تخلو من الاستعداد له، لكن أبا بكر كان من هذا النوع النادر صادق العاطفة تمامًا، نقي الإخلاص، الذي لا يتآمر حتى ولو بالفرحة المفاجئة التي تقتحم القلب كما تقتحم الريح زجاجة المصباح.

وقد كان عمرو محقًا، فالقضاعيون ومن معهم يفرون منهم في كل ناحية، تحت تأثير الصيت، وأوهام المفازات بوجود جيوش خلف الكثبان؛ وكان ما يخشاه هو أن يرسلوا رجالًا يتسللون باتجاه المسلمين في هدأة الليل، ويكتشفوا قلة عددهم، وهم مجتمعون في البرد والليل حول النيران الضعيفة؛ ووقتها ستجتمع تلك العشائر وتهاجمهم بضراوة الذئاب، وتعمل فيهم قتلًا، وتترك جثامينهم تفرِّقها السيول.

وفي أثناء العودة مظفرين، وقد كانوا يودعون خبير الصحراء رافع بن عمرو الطائي بعد أن وصلوا إلى المكان الذي أخذوه منه، كان هذا الرجل البدوي يفتش بعينيه عن أبي بكر الذي أعجبه، شاعرًا بأنه يمكن لهذا التقي الطيب اللين، واسع الصدر، أن يعلِّمه ويفيده بكلمات بسيطة، ولما وصل إليه وانفرد به قال له: ائتني بشيء إذا حفظته كنت مثلكم ولا تطول عليَّ فأنسى.

قال أبو بكر: تحفظ أصابعك الخمس؟

قال رافع: نعم.

قال أبو بكر: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي زكاة مالك إن كان لك مال، وتحج البيت، وتصوم رمضان: هل حفظت؟

قال رافع: نعم.

قال أبو بكر: وأخرى: لا تؤمَّرنَّ على اثنين.

قال رافع: وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر؟ [الحضر سكان البيوت المبنية]

قال أبو بكر: يوشك أن تفشو حتى تبلغك ومن هو دونك، إن الله لما بعث نبيه دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل لله فهداه الله، ومنهم من أكرهه السيف، فكلهم عُوَّاذ الله وجيران الله وخَفَارةُ الله [عهد الله]؛ وإن الرجل إذا كان أميرًا فتظالم الناس بينهم فلم يأخذ لبعضهم من بعض انتقم الله منه، إن الرجل منكم لتؤخذ شاة جاره فيظل ناتئ عضلته غضبًا لجاره، والله من وراء جاره.

هكذا كان رأي أبي بكر في الإمارة، في حديث جانبي عفوي لم يعدّ له، مع رجل بدوي بسيط من الأمة، في السنة الثامنة من الهجرة، إنها مسئولية مخيفة، من تصدى لها ولم يبذل كل ما عنده لرد المظالم، ينتقم الله منه.

طعام أبي بكر

لم يستمر الشيخ أبو قحافة طويلًا في انتظار طارق يطرق الباب ببشرى طيبة، فبعد أيام من هجرة حفيده، جعل خادمه يتوقف عن مهمة ادعاء وجود أمل، ولم يعد يأمره بأن يترك الباب بالنهار مواربًا. واستسلم الرجل للهمس الطيب للشيخوخة والعمى، ومضى إليه وديعًا لا يفتش بيديه ولا بأذنيه في الظلام عن هدف أو مجد، فقط صار رجلًا شيخًا يهتم بصحته وحسن طعامه، وبحق عظامه في التعرض لقسط مناسب من أشعة الشمس، وبأن يقضي يومه على نحو مريح بغير الأكدار التي يخلفها في النفس متابعة الهموم العامة، وأن يجد عند وسادته في آخر اليوم عودًا طريًا لنبات عطري يشم فيه طويلًا حتى ينام بسلام وليس فيه أي حرص على فعل أي شيء محدد في الغد. قد ألمَّت به هذه الوداعة، وهو قد سلَّم نفسه إليها، متخليًا عن الكثير مما كان يكافح فيه، باستثناء ما علق به من الأشواق الأولى للأسرة المهاجرة، كما يعلق العطر بالعمامة، وإن لم تعد تلك الأشواق حرِّيفة مثلما كانت فيما مضى. وصار بموحب هذا الهمس الوديع لا يعبد شيئًا تقريبًا، ولا يتوقع شيئًا، ولا يندم أيضًا على شيء، ولا حتى على الوقت الطويل الذي أنفقه في عبادة الآلهة.

أما الذي كان عبد الكعبة، الذي فرح باسمه الجديد واعتاد عليه بسرعة، مثلما اعتاد على الدين والمدينة، وعلى أحوال أبيه العبادية التي كان يطلع عليها أحيانًا فيتسمَّر مكانه، وعلى صوت نحيبه في الصلاة الذي يدهشه إن أرهف السمع إليه، فيزداد قلبه تسليمًا وهو يشعر بالحظ بكونه من صلب عابد الليل

المبارك النحيل، من صلب ذلك الرجل الذي لم يتح له أن يتأمل في أسرار ولايته إلا بعد أن تبعه على دينه؛ أما هذا العبد، عبد الرحمن، فصار يتعجب من نفسه كيف تأخر كل ذلك الوقت وتشبَّث بالأوهام بجوار جده، هناك في الجنوب، عند الحرم!

وقد كان عبد الرحمن جالسًا مع أمه، يضحك معها وهو يحكي لها كيف كان يقول لجده في الأيام الأخيرة بصوت هادئ ومخيف: اشتقت إلى أبي، اشتقت إلى أمي. ثم أكمل كلامه وقال لها وهو يبتسم مطمئنًا: لعل جدي يأكل عشاءه الآن وحده؛ ولو كان ها هنا لربما ارتضى ضيوفنا الثلاثة هؤلاء الذين ينتظرون عودة أبي بأن يأكلوا معه بدلًا من هذا الانتظار الطويل. فضحكت أمه متعجبة من ابنها البطل الذي يتمنى أن يأتي جده من مكة ليعزم على الضيوف عندهم بتناول الطعام، كأنه لا يستطيع هو أن يفعل ذلك، وقد كان ابتسام أم رومان في وجه ابنها، وضحكها معه، خلال كل تلك الأيام، لايزال يحمل أثرًا من سعادتها عندما وجدته عند بابها قادمًا من مكة معلنًا إسلامه.

وكان أبو قحافة يأكل من صحنه وقتها في مكة في داره في خط بني جمح، يأكل على مهل، بلقيمات صغيرة متباعدة، حتى يملأ وقت فراغه، وقد قال لنفسه، بغير ضعف: ماذا لو دخلوا جميعًا وأكلوا معي ثم مضوا بدون أن يقولوا شيئًا!

أما الضيوف الثلاثة الموجودون في بيت أبي بكر، فهم من أهل الصفَّة الذين يجلسون في مؤخرة المسجد في الركن الشمالي الشرقي منه، من الغرباء العزاب من المهاجرين والوافدين الذين لا أهل لهم ولا دار، ويعتمدون في طعامهم على ما يقدمه إخوانهم. دعا أبو بكر الثلاثة إلى الطعام في بيته القريب،

ومضى بهم وأدخلهم بيته، واستأذن منهم وتركهم لابنه عبد الرحمن كي يحل محله في العناية بالضيوف، وعاد إلى النبي وتعشى معه، ومكث معه يكلمه وقتًا غير قليل، ثم عاد ليلًا إلى بيته، وهو لايشك في أنهم أكلوا وعادوا إلى محلهم بالمسجد، فاستقبلته زوجته البشوش بصوت فيه حرج وتأنيب

قائلة: ما حبسك عن ضيفك؟

فانزعج أبو بكر الذي طال مكثه عند النبي: أوما عشيتهم؟

قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا عليهم فغلبوهم.

وشعر أبو بكر بالغضب من كون ابنه قد عرض على هؤلاء المساكين الطعام مرة واحدة، فلما قالوا له إنهم سينتظرون أباه ليأكل معهم وافقهم ولم يلح عليهم. أما عبد الرحمن الذي سمع هذا الحوار وهو يضع يده على صدره، فخاف من أبيه وتوارى في غرفة نائية مظلمة، وعيناه تبرقان، وبدأت تصله شتائم أبيه المرسلة المتقطعة، التي تصفه بالبرود والبلادة، فيرفع كتفيه إلى رأسه كلما سمع مسبة. ولم يكن غضب أبي بكر على ابنه وحده الذي لم يصر على ضيوفه بأن يأكلوا بغير انتظار، واكتفى بعرض الطعام مرة واحدة وتركهم وحدهم، بل كان غضبه على الضيوف أيضًا الذين أرهقوا أنفسهم وهم جوعى ولم يرضوا بأن يأكلوا بحضور ابنه، ويلزمونه بأن يأكل معهم، فغلبته حدته ونادى لكي يتم إحضار الطعام، وحلف على أن لا يأكل معهم، فما كان منهم إلا أن حلفوا أن لا يأكلوا إلا إن أكل معهم. فتأثر أبو بكر من كون هؤلاء الطيبين يحبون أن يأكل معهم، وأعجبه فيهم كرم الفقراء الذي لا ادعاء فيه، وتأسف على أنه قد حلف، وقال: هذه من الشيطان.

وجلس أبو بكر معهم، يأكل معهم ويكلمهم ويتلطف بهم، فلما أدرك عبد

الرحمن في مخبئه أن أباه قد ذهب غضبه تمامًا، خرج على أطراف قدميه ووجد أمه تبتسم في وجهه، تلك الابتسامة التي ما زالت ترحب بها بإسلامه، فاستشارها في الدخول على أبيه والضيوف، وأضحكها وهو يلتمس لنفسه العذر بأنه لا يزال جديدًا. ودخل عبد الرحمن والتصق بأبيه بكل حماسة، وأخذ يلح على الثلاثة بطريقة مبالغ فيها ليأكلوا جيدًا، ويمعن في الترحيب بهم وهو ينظر لأبيه متوددًا.

ولقد صفا أبو بكر لابنه أثناء تناول العشاء، بعد أن أكد الضيوف أنه لم يقصر في دعوتهم للطعام، وأنهم هم المدينون له بالاعتذار لأنه كان يجب عليهم أن يرضوا به مضيفًا محل أبيه، ومثل الأم ابتسم الأب وهو ينظر إليه وهو يمد يده في الطعام بجانبه بعد أن مر من عمرهما أعوام طويلة لم يتجاورا فيها على طعام، شاكرًا لله في أعماقه نعمة أن جاء به من مكة مسلمًا.

ولقد شاهد عبد الرحمن، الذي لا يزال جديدًا، كل البركة بعينيه ليلتها، فما كان أحدهم يرفع لقمة إلا ظهر في الصحن أكثر منها، وامتلأ وجهه بالنور من هذه الأعجوبة، الطعام لا يقل، بل يزيد، وهو لايحلم، بل هذه حقيقة في حضرة الأب المبارك الذي خاصمه طويلًا. ولقد رفعوا أيديهم عن الطعام بعد أن شبعوا جميعًا، وهم ينظرون بسرور إلى الصحن الذي صار أكثر امتلاءً مما كان، وودعت عيونهم هذا الطعام المبارك والخادم يحمله إلى النبي ليطعم منه النبي عددًا كبيرًا من الناس، بالبركة التي حلت في بيت الصدِّيق.

وقد وضعت أم رومان رأسها على المخدة سعيدة تلك السعادة التي لم تخفت منذ أن دق عبد الرحمن بابها، ومنذ أن غاب في حضنها وبكيا، فالابن

قد عاد، والبيت حلَّت فيه بركة؛ وقد وضع عبد الرحمن رأسه على المخدة مطمئنًا، وسالت عيناه بالدمع طويلًا وهو يشعر بفيض من السلام والرحمات يغمره، وقد كان الجد هناك في مكة، آخر ما تبقى من العائلة، رأسه على المخدة، ولايفكر في أي شيء وهو يشم في عود الريحان.

الفتح

ظل أبو قحافة منسجمًا مع التقاليد اللطيفة للشيخوخة، حريصًا على نصيبه من الطعام السلس والشمس الدافئة، نائيًا عن الهموم، وناسيًا الصراع بكل مافيه وكل من فيه، هذا إلى أن اندلعت بالليل فجأة صرخات هول وفزع، ونداءات حمية، ودبدبة رجال يركضون، وقرشة حوافر خيل، فاستيقظ مفزوعًا، وبدون أن يعتدل تحسس فراشه على الفور، لأنه كان يرجو أن تكون تلك الأصوات منبعثة من حلم يحلمه، ولكن لما وجد ملمس فراشه الذي يعرفه، أيقن أن كل الأصوات التي يسمعها، والتي ازدادت قربًا، كأن الخيول تجري بجوار سريره، هي كلها أصوات من عالم الحقيقة المظلم حوله، وليس من عالم الأحلام الذي لا يزال مضاءً وملونًا بما ينبعث من ذخائر الذاكرة.

واعتدل في سريره لما ذهبت الخيول بعيدًا عن سريره، ونادى بخادمه يسأله بجزع عما يحدث، فجاءه مسرعًا ووقف بعيدًا عنه ولم يزد على أن قال له بصوت مرتفع يناسب خطورة الأمر: خزاعة تهرب من بني بكر لاجئة إلى الحرم، وبنو بكر من ورائهم بالسيوف والرماح، واللعنة يا سيدي أن رجالًا من قريش كانوا قد لثموا وجوههم ودخلوا بين بني بكر، يدهم على خزاعة معهم، وقد ميزت بعضهم من أصواتهم وخيولهم وأجسامهم.. سأذهب وأرى كيف تدور الدائرة.

مر الوقت بطيئًا على الشيخ في انتظار الأخبار، وهو يتمنى لو يخرج ويحتج على هؤلاء الذين ورطوا قريشًا معهم، فتلك هي المصيبة التي كان يجب

على قريش أن تتجنبها، ولكن الناس يقعون بالنهاية فيما كان يجب أن يحذروا منه للأبد، كما لو كان يرهقهم جدًا أن يتجنبوا شيئًا إلى وقت طويل، فيختارون في النهاية وقوع البلاء؛ فخزاعة في عهد محمد ﷺ بموجب صلح الحديبية، وبنو بكر في عهد قريش، ومحمد ﷺ لن يسكت.

وجلس وحده يتمنى أن يكون ما أصاب بنو بكر من دماء خزاعة قليلًا حتى يمكن للعقلاء أن يجنبوا الطرفين حربًا، ولكن حتى هذه المرة قد خابت فيها توقعاته، فها هي ذي الأخبار أتته: بنو بكر أغارت ليلًا على منازل خزاعة بأسفل مكة عند ماء الوتير، يحيون الثأر القديم الذي كان بينهم من قبل الإسلام، والذي توقف لانشغال الناس بأمر هذا الدين الجديد. لقد هاجت مشاعر الضغينة عند بني بكر ولم يبالوا بصلح الحديبية، بل واستغلوا حالة الطمأنينة التي بثها الصلح في نفوس الخزاعيين الذين يدركون هيبة محمد ﷺ وجيشه في نفوس القرشيين وبني بكر، فهاجموهم وقتلوا منهم عشرين رجلًا. والتهمة التي ستصل إلى محمد ﷺ تطال قبيلة قريش، فقد هاجت مشاعر الضغينة عند بعض رجالها من وراء هياج ضغينة بني بكر، وأخرجتهم مشاعر يأس الفترة الماضية التي أوصلهم إليها كون محمد ﷺ صار أقوى منهم بعد زيادة عدد من دخلوا في الدين وانتصاره على اليهود، فانضموا إلى حلفائهم وشاركوهم في القتال وأمدوهم بالسلاح، كأنهم لا يدرون ما يفعلون.

ولما هرع الخزاعيون إلى الحرم، تخوف بنو بكر من اقتحامه خلفهم، وقالوا لقائدهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال لهم: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم؛ فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ وهكذا فزع الحمام في الحرم، وهو يرى من تحته بالليل هلع الخزاعيين وهم يلصقون ظهورهم بجدران الكعبة أو يفرون هنا وهناك بحثًا

عن بيت من بيوت السادة يفتح بابه لهم، ولهم من الخوف أصوات مشئومة مثل زقاء الطواويس.

لم يعد أبو قحافة قادرًا كما مضى على أن يتوقع ما يتمنى حدوثه، كان هذه المرة متأكدًا أن الخزاعيين سيستغيثون بمحمد ﷺ، وأنه سيهب لنصرتهم لا محالة، وحاول أن يكون متفائلًا، ولكن هذا أجهده كثيرًا، ولم يناسب صحته. وبالفعل أوصل الخزاعيون نكبتهم إلى حليفهم محمد ﷺ في المدينة، فغضب غضبًا شديدًا، وأرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة، أو البراءة من الحلف مع البيت الذي غدر بالخزاعيين من بني بكر، أو يتحلل الفريقان من العهد وينتهي صلح الحديبية. وما إن سمع قرظة بن عمرو ما يقوله رسول محمد ﷺ بثبات يليق برجل ينتمي للطرف الأقوى، حتى تعجل ودفعه البغض والكبرياء للنظر إلى الاستجابة لواحد من خياري محمد ﷺ الأولين، وهما طبيعيان تمامًا، على أنه من الانصياع والضعف، وردَّ على رسول محمد ﷺ بأنه لا دية ولا براءة، واستدار الرسول على الفور، تاركًا قرظة وهو يشعر بوخزة في قلبه من انسحابه المتعجل.

ودبَّ الرعب في قلوب القرشيين بعد أن فاقوا من سكرة الغل والانتقام وأجواء التهاني المحلية التي تبادلوها فيما بينهم على هزيمة الخزاعيين، فاختاروا أبا سفيان بن حرب لأنه سيد من بني عبد مناف مثل محمد ﷺ، ليذهب إلى المدينة كي يصلح العقد ويؤكد عليه.

وصل أبو سفيان إلى المدينة وهو مهزوز جدًا ومشوش التفكير. ومن أجل طي تلك الصفحة السوداء الأخيرة التي تسبب فيها حلفاؤهم بنو بكر، تحدث مع محمد ﷺ نفسه، ثم أبي بكر، ثم عمر، ثم علي، ثم فاطمة بنت محمد ﷺ

التي طلب منها أن تجعل صغيرها الحسن بن علي مجيرًا، وقد كان علي بن أبي طالب هو الأكثر تعاطفًا معه، لكن في العموم لم يعد أبو سفيان بشيء يهدئ من روعه وروع أهله الذين ينتظرونه.

وبعد أن غادر أبو سفيان المدينة خائب الرجاء، خرج محمد ﷺ من حجرة من حجراته وجلس عند بابها يفكر وحده، وكان الناس قد تأدبوا على أنهم إن وجدوه منفردًا بنفسه مستغرقًا في التفكير في أمر هام، وهم تشبعوا من شدة حبهم له وإجلالهم له بتعبيرات وجهه في الحالات المختلفة، أعطوه فرصة الاختلاء. وبعد قليل أمر بأن يأتي إليه أبو بكر، وسرعان ما جاءه أبو بكر ملبيًا.

وانفرجت أساريره عندما ناجاه النبي بصوت خفيض وهما جالسان وجهًا لوجه، فالنبي الآن يسأله عن رأيه في غزو مكة، وقد كان يشعر أن النبي قد غضب غضبًا لا يستطيع أحد معه أن يتوسط عنده لقريش، أما إذا كان هناك متسع لسماع الرأي، فالأمر تغيَّر. وظلا يتناجيان بنفس الصوت الخفيض، والفضول يغلب المسلمين الذين يريدون أن يعرفوا على أي شيء سيعزم النبي في أمر قريش. وأشار محمد ﷺ إلى أبي بكر كي يجلس عن يمينه فجلس، ثم أمر بإحضار عمر كي يتكلم معه هو أيضًا.

إذن لم يقرِّب النبي إليه في ذلك اليوم غيرهما من المسلمين من غير المكيين وهو ينوي أن يدخل مكة على أهلها، وهو أمر أكبر كثيرًا من معركة محدودة من معارك الحرب التي بدأت منذ بدر، مكة بلدهما وبلده، وأهلهما وأهله؛ وفي الاثنين، أبي بكر وعمر، من يعلم النبي أن رحمته ولينه سيجعلانه يفكر في الرحم التي بينهم وبين القرشيين، وفيهما من يعرف النبي أن شدته وحميته ستجعلانه يفكر في الإساءات والمحاربة الطويلة للدعوة؛ وكون النبي

لم يستبدلهما في ذلك اليوم بغيرهما من الأنصار ليسمع منهما عن غزو مكة، يعتبر شهادة منه أنهما عدلان تمامًا حتى في القرابة والوطن، تختلف مشاعر كل منهما تجاه الأهل والبلدة، ولكن كل منهما ينشد الحق، فإن عرفه اتبعه ولو على حساب الأب والابن.

وجاء عمر وجلس بجوار أبي بكر، وأخذ النبي يناجيه طويلًا، والمسلمون يتابعون، ثم علا صوت عمر قليلًا وهو يخرج ما في جوفه من أثر التاريخ الأسود للقبيلة في الطعن في دين الله واضطهاد المؤمنين، وتكلم باسترسال وقال للنبي: يا رسول الله هم رأس الكفر، هم الذين زعموا أنك ساحر، وأنك كاهن، وأنك كذاب، وأنك مفتر. وأخذ يذكر كل تهمة اتهمه بها القرشيون، ويذكر التنكيل بالضعفاء في الخلاء تحت الشمس، ويذكر العذاب الطويل للناس في شعب أبي طالب. فأمره النبي أن يجلس عن شماله، فصار النبي بينهما كما في كل موقف يحتاج إلى الفصل، راضيًا عن كليهما رغم اختلاف الطبيعتين. ونادى الناس، ليخبرهم بما عزم عليه، ولا يزال الاثنان عن يمينه وشماله بعد أن سمع منهما، إنه يزكيهما إذن أمام الناس، ويظهرهما أمام المسلمين، وهو النبي شديد الفصاحة في صنع الصورة المؤثرة، يظهرهما شيخين مؤهلين للولاية العظمى، جديرين بها، وهي الولاية التي تشترط فيمن يتحمَّل عبئها أن يكون مبتغيًا للحق حريصًا على كافة الرعية، ومشاعر الود والبغضاء عنده مهما اشتدت لا تفسد رأيه ولا تنأى به عن العدل، فهو يسألهما أمام الناس، وبشأن بلدهما وأهلهما، وهذا رحيم ولين، وهذا شديد صارم، كأنه يقول إن أبا بكر هذا لين حقًا، إلا أن اللين لن يقوده إلى المحاباة، وعمر هذا شديد فعلًا، إلا أن الشدة لن تذهب به إلى الظلم والتعنت.

نادى الناس فهرعوا إليه وهم يريدون أن يسمعوا على أي شيء كان عزمه

بعد أن تكلم مع صاحبيه، فقال لهم النبي: ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين؟

: نعم يا رسول الله.

فنظر إلى أبي بكر عن يمينه معتزًا به راضيًا عنه وقال: إن إبراهيم كان ألين في الله تعالى من الدهن اللين. ثم نظر إلى عمر عن يساره كذلك معتزًا به راضيًا عنه وقال: إن نوحًا كان أشد في الله من الحجر. وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونوا.

ولأن الناس يحبون التفاصيل، ولأن أبا بكر أكثر لينًا، ذهبوا خلفه وسألوه: يا أبا بكر، إنا كرهنا أن نسال عمر عما ناجاك به رسول الله.

فرد عليهم: قال لي: كيف تأمرني في غزو مكة؟ قلت يا رسول الله! هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعني، ثم دعا عمر فقال عمر: هم رأس الكفر، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه، وايم الله وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة، وقد أمركم بالجهاز ليغزو مكة.

وفي العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، تحرك محمد ﷺ بجيش من عشرة آلاف مقاتل باتجاه مكة، وعند الجحفة، على بعد ١١٥ ميلًا من مكة لقيه عمه العباس الذي خرج هو وأسرته مهاجرًا مسلمًا، فكان هذا اللقاء بشرى مكية طيبة حقًا، فكما أن الفترة المكية الصعبة أبت أن تنتهي بسهولة وظلت تلاحقه في الطريق إلى المدينة منذ ثماني سنوات، ها هي مكة تغير أسلوبها وتأبي أن تنتظر دخوله، وأسرعت إليه مستقبلة، في هيئة العم الذي أسلم.

وفي وقت عشاء، كان عدد متوزع من أهل الحجاز في شمال مكة في بقاع عدة شاردين في المناخ الشتوي في سواد الليل، ينظرون إلى لا شيء، حيث

لا يوجد على الجبال الداكنة والرمال النائمة إلا نور البدر الخيالي المهيب، الذي بالكاد يجعلهم يفرقون بين ظلمة الجو وظلمة الأرض؛ وفجأة، وكأنهم تعرضوا لقوة سحرية هائلة، شاهدوا التماعات كثيفة ظهرت مرة واحدة، في بقعة واحدة، لولا البدر لحاروا إن كانت في السماء أم في الأرض، إنها في وادي مر الظهران الواسع، وقد كان هذا جيش المسلمين الضخم، قد أوقد عشرة آلاف شعلة بأمر محمد ﷺ.

وأخذ العباس عم محمد ﷺ الذي هاله جيش محمد ﷺ، يتخيل جثث أهل مكة ملقاة في الطرقات، وبكاء الأطفال اليتامى، وجدائل النساء التي جزَّتها السيوف، فشعر بالشفقة على أهله مما ينتظرهم إذا اختاروا المواجهة وغرَّهم بعض الحمقى منهم، وكذلك المجاملون من أهل مكة الذين قد يطمئنونهم بأنهم معهم، فامتطى بغلة النبي، وأخذ يتجول بعيدًا لعله يجد أحدًا حطابًا كان أو راعيًا للإبل في البر يخبر القرشيين بالجيش الزاحف، لعلهم يخرجون إليه يطلبون منه الأمان قبل أن يدخل عليهم.

وقد كان صديقه أبو سفيان واحدًا من ضمن هؤلاء المتوزعين هنا وهناك الذين هالتهم المشاعل التي تلألأت فجأة، فزادته رعبًا على رعبه. ووجده العباس أثناء تجواله، ففرح به كأنه وجد كنزًا، وأخبره أن هذا محمد ﷺ ومعه جيشه، وقد كان أبو سفيان كما هو، حائرًا بحاجة إلى من يعطيه حلًا تخرج به قريش من هذه المواجهة الرهيبة، وزاده الخوف بردًا على برد الشتاء. لقد صار أبو سفيان رجلًا ضعيفًا في ذلك الخلاء المعتم، يمكن أن يتعرض للقتل لو اكتشفه جندي خامل الذكر وصغير من جند محمد ﷺ، وهو الآن لا يتوقع شيئًا البتة من هبل. أبو سفيان الذي كان منتشيًا بالمجد الوهمي لهبل عند أحد

منذ خمس سنوات، صار كئيبًا ومذعورًا، يرتجف من الخوف والصدمة العميقة أمام صاحبه الوجيه، وهو يسب البرد حتى يظن صاحبه أنه يرتجف منه. إنه يقف بمواجهة هذه النيران البعيدة فارغًا من المجد والكبرياء، حتى أن العباس الذي يعرف وجه صاحبه جيدًا، ولا يصدق سبابه عن البرد الشديد، أمره بجدية أن يركب وراءه على البغلة ليدخل به على النبي ويطلب له الأمان، فامتثل أبو سفيان وركب وراءه بغير أي عنجهية.

وقد أفسح الرجال للعباس عم النبي الذي يعرفونه، واحدًا وراء الآخر، وعينا أبي سفيان منبهرتان بأنوار الشعلات التي صارت تحيط به بعد أن كان يراها من بعيد، وفي أعماقه كان يشكر صاحبه، بل وكان سعيدًا بأن صاحبه عم النبي ترك أهله ودينه وصار من هؤلاء ويستطيع أن يحميه. غير أن أبا سفيان مر بلحظات من الرعب الكابوسي عندما عرفه عمر بن الخطاب وهدده، وجرى ناحية النبي ليأذن له في قتله، وقد كان سباقًا مريرًا بطيئًا نوعًا ما، بين بغلة ثقلت بالرجلين، وعمر بن الخطاب الذي في دخل في الخمسينات من عمره، إلا أن البغلة كانت أسرع. وتنازع العباس مع عمر بشأن مصير أبي سفيان عند النبي، حتى أمر النبي العباس بأن يذهب به إلى مبيته ويأتي به صباحًا، فذهب سيد قريش معه مستسلمًا.

في الصبح أسلم أبو سفيان بقدرة الواقع القوية على الإقناع، واستخدم معه النبي قدرته البديعة على جعل المشهد يؤثر ويعظ، ويزجر إن لزم الأمر؛ فجعل العباس يوقفه لتمر من أمامه الكتائب المنظمة، واحدة وراء الأخرى، حقائق الصبح غير المكذوبة، ليساعده على التخلص من رواسب الماضي التي تعمل فيه. كان الأمر كتناول غصن وتقليمه ونزع الورق الذي عليه وغرسه في

التربة، يبدو الآن خشبة ميتة لا حياة فيها، لكن تدب فيه الحياة من بعد ذلك من أثر التربة عليه شيئًا فشيئًا، وهكذا يمكن أن يدخل البعض في دين جديد، يدخل بلا حياة، ثم تدب في دينه الحياة من بعد ذلك.

ومن ضمن الكتائب التي مرت به وأدهشته كتيبة الأنصار، والراية مع سعد بن عبادة سيدهم، الذي قال لأبي سفيان:

يا أبا سفيان؛ اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. وأوجعت أبو سفيان تلك الكلمات، وأحزنه ما يحزن الذبيحة من إشهار السلاح أمامها، وتهديدها، وهذا قد يكون أسوأ من الذبح نفسه. ولما مر النبي من أمام أبي سفيان، وخلفه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، اشتكى له، وهو يعرف ما فيه من رحمة تغلب عليه ووصله للأرحام، يعرف هذا جيدًا عنه منذ سنوات قبل جهره بالدين، قال له شاكيًا: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ وأعاد عليه ما قاله سعد بن عبادة. فتأثر عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وقالا: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال النبي: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا. لم يشبهه النبي بنوح إذن في الشدة في الله، وسحب الراية منه، وهذا يعني من ضمن ما يعني شهادة غير مباشرة من النبي عليه أمام المسلمين بعدم أهليته للولاية العظمى، رغم مكانته وفضله وجهاده وإخلاصه للنبي والدين، تلك الولاية التي تشترط فيمن يتحمَّل عبئها أن يكون مبتغيًا للحق حريصًا على كافة الرعية، ومشاعر الود والبغضاء عنده مهما اشتدت لا تفسد رأيه ولا تنأى به عن العدل.

وتم إطلاق أبي سفيان، وهو لايزال في إسلامه غصنًا تم غرسه يشبه الخشبة الميتة، ليحض أهله على تجنب مواجهة جيش محمد ﷺ، فكان أول

ما ناله هذا السيد في إسلامه سباب زوجته وتحريضها على قتله وهي تمسك شاربه، ثم كان ثاني ما ناله ما كان من القرشيين عندما قال لهم إن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهو أول الخيارات الثلاث التي وفرها محمد ﷺ وأرسله بها ليبلغ الناس، حيث ردوا على هذا العرض الذي يرضي حبه للفخر بأن قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ ولم يتوجه أي واحد منهم إلى دار أبي سفيان، وتفرقوا إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام، وهما الخياران الآخران.

وظل القرشيون في انتظار مشهد النهاية الضخم، لدخول محمد ﷺ، حتى دخل في ذلك النهار وادي طوى القريب على ناقته وهو خافض رأسه تمامًا تواضعًا لله. ثم وزع جيشه إلى ثلاثة أقسام، قسم يقوده خالد بن الوليد يدخل بمن معه من كدى بأسفل مكة، وقسم يقوده الزبير بن العوام يدخل بمن معه من كداء بأعلى مكة، وقسم يقوده أبو عبيدة بن الجراح ومعه المشاة، يدخل مكة متخذًا بطن الوادي من الحجون إلى المسعى بين الصفا والمروة.

وكان أبو قحافة قد جعل ابنته الصغيرة رقيبة تشرف به على جبل أبي قبيس، ثم قال لها: يا بنية ماذا ترين؟

فوضعت كفها على جبهتها اتقاء للشمس، ولعبت في طوقها الفضي الثقيل الذي يحيط بعنقها، وقالت له: أرى سوادًا مجتمعًا مقبلًا كثيرًا.

قال أبو قحافة: يا بنية تلك الخيل، فانظري ماذا ترين.

قالت: أرى رجلًا يسعى بين ذلك السواد مقبلا ومدبرًا.

قال: ذاك الوازع فانظري ماذا ترين؟

قالت: قد تفرق السواد.

فانزعج الشيخ وقال: قد تفرق الجيش.. البيت البيت.

ونزلت المسكينة وطوقها يرتجُّ معها، نزلت وهي مرتبكة بين رغبتها في الانطلاق وحرصها في ذات الوقت على أبيها الشيخ غير القادر على مجاراتها؛ حتى صارا على الأرض المستوية، وأخذت تبكي وترتجف وهي تهرول به قدر جهدها باتجاه البيت، بدون أن تعاتب أباها على أنه جعلهما عرضة للخطر من أجل أن يقف على الأخبار، وقد كان يمكن له أن يمكث في بيته وينتظر الأخبار فيه، وهي تظن أن الأحصنة ستظهر أمامهم من كل ناحية قبل أن تصل به إلى الباب. أشفق الشيخ على صغيرته، وهو يسمع بكاءها، وترتجف يده مع ارتجاف يدها، وقال لها: يا بنية، لا تخافي؛ فوالله إن أخاك عتيقًا لآثر أصحاب محمد عند محمد [وعتيق هو لقب أبي بكر الذي كان يناديه به أبوه منذ صغره].

لقد تحرك الجيش المهيب بأفرعه الثلاثة، زاحفًا إلى أهل مكة بالذهول، ولم يجد هذا الجيش إلا مقاومة بائسة ومحدودة من رجال غير واقعيين يشعرون بالمهانة. وقد ألقى هؤلاء المنهزمون أسلحتهم في الطرقات وركضوا وهم في حالة من الجنون باتجاه بيوتهم، يغلقونها عليهم، وكل منهم ينظر إلى باب بيته، خائفًا من أن يسمع طرقات الجنود العنيفة، وبعضهم لاذ بالجبال وأعينهم جحظت من الذعر وهم يصعدون على الأحجار لاهثين مضطربين، فكل شيء على وشك الانتهاء، فلا داعي لأن يموت قلة من الشجعان بلا معنى، ليبقى الجبناء من بعدهم أحياءً ينعتونهم بالتغفيل والسذاجة.

مضى محمد ﷺ وأبو بكر كان عن يساره، وبعض النسوة من قريش قليلات الحيلة يحاولن رد خيل المسلمين المتقدمة في الطرقات القديمة، بضربها بأغطية شعورهن، بلا أي فائدة، فتبسم إلى أبي بكر وسأله عن الشعر

الذي قاله حسان بن ثابت وتوقع فيه هذا المشهد في دخول مكة، وقد كان يجد صعوبة في حفظ الشعر، فذكَّره أبو بكر

عَـــدِمْنَا خَيْلَنـــا، إنْ لـــم تَرَوْهَـــا تُثِيـــرُ النَّقْـــعَ، مَوْعِـــدُها كَـــدَاءُ
يُبَـــارِينَ الأســـنّة مُصْـــعِدَاتٍ عَلَـــى أكْتافِهَـــا الأسَـــلُ الظِّمَـــاءُ
تَظَـــلُّ جِيَادُنَـــا مُتَمَطِّـــرَاتٍ تلطمهـــنّ بـــالخمرِ النســـاءُ

وقد كان مشهدًا تاريخيًا نادرًا للمسلمين والوثنيين على حد سواء، وهم يرون النبي يطوف بالبيت على ناقته، ويضرب الصنم تلو الصنم، تلك الضربة الخفيفة بقوسه، أو بمجرد الإشارة إليه من بعد، فينكب الصنم على وجهه رغم أنه راسخ في الأرض بصبة من الرصاص، حتى صارت الأصنام الكثيرة الممددة، كأنها قطيع من الإبل اجتاحها الوباء في مرعى فقتلها كلها.

سمع الوثنيون المتجمعون على نواحي الجبال أصواتًا هائلة لسقوط الأصنام الأولى، بتلك الطريقة العجيبة، مجرد لمسة أو إشارة؛ ومن شدة الصدمة من مشهد الآلهة المنبطحة، ومن الانكسار، ما عادوا يسمعون صوت ارتطام بقية الأصنام. في تلك اللحظات الأولى التي اضطرب فيها وجدانهم، كانوا يكرهون الخدعة، وهي الأصنام، ويكرهون من كشفها لهم، وهو محمد ﷺ، كعادة الناس عندما تزلزلهم الحقائق الثقيلة فيشعرون شعورًا مضللًا بقسوة من أحرجهم وواجههم بالتغفيل العتيق المقدس، لكن لن يمر الكثير من الوقت حتى تجف الدموع التي يذرفها الناس على أباطيل عالمهم القديم، ويشعرون بخليط من الإرهاق والرضا، كالذي يشعر به المكبل بعد أن تحطم قيده الذي اعتاد عليه.

وبخلاف الكثرة من المفجوعين، كان كثير من الغلمان والشباب صغار السن، الذين تعرفوا على ما يدور حولهم من حقائق الحياة ومحمد ﷺ بالنسبة لهم هو الرجل الغائب في المدينة، الذي لم يروه هنا، يثبتون نظرهم على ابن البلدة الذي يرونه للمرة الثانية بعد أن رأوه من بعيد أيضًا في العمرة في السنة الماضية، ويتابعون باهتمام شديد كل حركاته، ولا يتركون وجهه يغيب عن أبصارهم. كان لديهم تجاهه إعجاب لم يتمكنوا من مقاومته، كذلك الإعجاب والزهو الذي يشعر به الشباب في أي بلدة عندما يعود ابن البلدة المغترب إلى مسقط رأسه بعد أن جابت شهرته الآفاق وتكلم عنه العرب في كل قرية وبادية وتكلم العجم، إنه بالنسبة إليهم الناجح المعروف الذي تخطى المحلية وضغائن الأقارب وانطباعات الأهل السطحية الذين كانوا لايصدقون أن يكون النبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق مثلهم.

وعلى النقيض من هذا، كان بعض الشباب الذين ازدادت كراهيتهم له وهم يرون المشهد المريع لتساقط الآلهة، يضمر كل منهم في تلك اللحظات، وبغير أي اتفاق أو تشاور، أن يكون مخلِّصًا ويقتل محمدًا ﷺ، ويخلد اسمه في أهله باعتباره الرجل الذي انتقم مما أصابهم من هوان. كانت الفكرة تبدو رائعة ونبيلة جدًا أول ما خطرت على ذهن كل شاب منهم، لكن سرعان ما ظهرت كفكرة طفولية ساذجة، وسبب طفوليتها الذي بدا لهم وهم يضحكون ويبكون من الخجل لا ينبع من استحالة الوصول إليه وطعنه بخنجر، ولكن سبب طفوليتها يرجع إلى أن قتله لن يتسبب في قيام الأصنام الثلثمائة وستين التي أوقعها مرة أخرى، هي لن تعود آلهة مرة ثانية.

وقد أخذ صوت محمد ﷺ الكل بعد قليل، فأرهف الوثنيون السمع له،

وأخذوا يقتربون إليه شيئًا فشيئًا، مثل القطط الضالة الجائعة عندما يتم التلويح لها بالطعام، فتنظر لمن يناديها ثم تنظر أمامها معرضة، ثم تتقدم بعد تردد وخوف. شعروا بالإعجاب والطمأنينة وهم يستمعون إليه وهو يقول: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة [مفخرة] أو دم أو مال فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلَّظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء؛ الناس من آدم، وآدم من تراب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقد قال محمد ﷺ موجهًا كلامه للقرشيين: ما تقولون وما تظنون؟ فردوا عليه: نقول: ابن أخ، وابن عم، حليم، رحيم.

فأجابهم: أقول كما قال يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وعندما حان وقت الصلاة، أمر النبي بلالًا أن يصعد على الكعبة ويؤذن، وكان بفناء الكعبة أبو سفيان بن حرب، وعتَّاب بن أسيد، والحارث بن هشام. فقال عتَّاب بن أسيد: لقد أكرم الله أَسيدًا [والده] ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه؛ إذ شعر بالاستنكاف من صعود رجل أسود ليؤذن على الكعبة.

فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتَّبعته.

فقال أبو سفيان وهو يهز رأسه هزة المجرِّب: لا أقول شيئًا؛ لو تكلَّمت لأخبرت عني هذه الحصى.

فخرج عليهم النبي وقال: قد علِمْتُ الذي قلتُمْ. وذكر لكل واحد منهم ما قاله.

فاندهش الحارث وعتَّاب، وانتهت مقاومتهما، وشهدا بأنه رسول الله، لأنه لم يطلع على ما كانوا يتحدثون به أحد حتى يخبره، وابتسم أبو سفيان وهو يشعر بالتوفيق والغبطة والتفوق على صاحبيه، لكونه لم يندفع ومسك لسانه، وقد دبت بالحادثة نسمة حياة في الغصن الذي كان يبدو مثل خشبة.

ومكث محمد ﷺ في مكة أيامًا، وبدأ الناس يفيقون من أوهامهم، ويتحدثون فيما بينهم عن حسن خلقه وكرمه، وجمال ما يدعو إليه، ويدخلون في الدين.

وأبو قحافة كان أسرع حسمًا هذه المرة، فقد انتهت علاقته بالوثنية في أول يوم، وبدون تفكير عميق، لقد سمع الأخبار الهائلة التي تقع خارج الدار وهو جالس على الفراء على المصطبة الداخلية، من خادمه الذي يجلس بجانبه على الفروة الأخرى، كان وجهه ناحية الباب الثقيل الذي أوصى خادمه بسرور بأن يفتحه قيد أنملة، ويضع خلفه الحجر؛ لأن أبا بكر سيستأذن من محمد ﷺ، ويهرع في الطريق إليه، ويدخل في أي لحظة؛ ولم يطل انتظاره لأصابع ابنه النحيلة وهي تدفع الباب ببطء. لقد بكيا أكثر مما تكلما، ومضى الشيخ وهو متشبث بيد ابنه، ابنه الذي رفع عنه أي حرج ولم يلمه على العناد الطويل، ولم يداعبه بشأن إصراره على أن هذا الدين ستذهب به الريح، وأن أبا بكر إن

أصر على صحبته بالنبي سينتهي نادمًا أو قتيلًا. ومضى الشيخ بخطواته البطيئة وهو من ناحيته أيضًا لا يلوم نفسه على طول تكذيبه، هذا لأن لوم النفس مثل التفاؤل الذي في غير محله، كلاهما يضران بصحة كبار السن. مضى مستسلمًا تمامًا لحرارة إيمان ابنه، الذي دعاه للإسلام بعطف يده وهو يمضي به، وهي نفس الطريقة الوحيدة التي كانت لدى أم أبي بكر وهي ترجو إسلام زوجها. ذهب به إلى النبي محمد ﷺ عند المسجد الحرام، فنظر إليه النبي وقال متلطفًا بالرجل الذي سترت تجاعيد وجهه معالم الإحراج: هلَّا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه؟

فقال أبو بكر: هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه.

ومسح النبي على صدر الشيخ في ساحة الحرم التي خلت من الأصنام، والتي عاش الشيخ عمره كله ولم يرها خالية منها، وهو الآن لا يرى ذلك ولكنه يشعر به جيدًا، فأسلم الشيخ على الفور.

هنأ النبي صاحبه بإسلام أبيه، وكان أبو بكر يشعر بالظفر حقًا وهو يبدل نظره بين وجه أبيه ووجه محمد ﷺ، فقد كان رفض أبيه للدين وجعه المزمن، منذ أن شعر بالأسى وهو يحدق في وجهي أبيه وأمه وهما يتسامران على ضوء الحطب في سطح الدار، ويتذكران الأمور البعيدة، بذلك الصوت الذي يغالبه النعاس، عندما خاف من أن يغيب هذان الوجهان عنه في الموت قبل أن يستطيع أن ينجدهما من الشرك، ويصيران ذكرى مؤلمة.

ورغم أن إيمان أبيه كان أمنيته الخاصة العظيمة، إلا أن حبه الشديد لمحمد ﷺ، ولسعادة محمد ﷺ وراحة نفسه، أنبت في قلبه في سنين إسلامه الأولى

أمنية أعظم، لطالما انتظر صباحًا تتحقق فيه حتى يرى الفرح الغامر على وجه النبي، لطالما انتظر هذا الصباح الذي لم يأت قط، حتى ماتت الأمنية، وقد كان هذا منذ سنوات، وتركت وجعًا في قلب أبي بكر، مماثلًا للوجع الذي في قلب النبي. ولمَّا مد الشيخ يده الواهنة المرتعشة ليبايع النبي، تحرَّك الوجع المطمور في قلب ابن الشيخ فبكى، ولما سأله النبي عن بكائه، في لحظة سعيدة مثل هذه، قال: وددت لو تكون هذه اليد يد عمك، ويقر الله عينيك بإسلامه.

الجيل الأخير

جيش المسلمين الذي خرج من المدينة واتجه جنوبًا وفتح مكة، ها هو ذا يخرج من مكة وقد زاد عدده بألفين آخرين من أهل مكة، ويتجه جنوبًا لملاقاة جيش الطائف. كانت قبائل الطائف وما حولها، وعلى رأسها هوازن وثقيف قد سمعت بانتصار محمد ﷺ السلس على المكيين وسيطرته على الحرم وتحطيمه للأصنام التي فيه، وبإرساله سرايا نجحت أيضًا وبسهولة مريرة في تحطيم آلهة العرب العظمى: العزى وسواع ومناة.

وقد استبد الغضب بأهل العاصمة الثانية للوثنية في الجزيرة العربية من الإهانة التي لحقت بالدين الموروث، وأخذوا يتهمون فيما بينهم أهل مكة بالضعف وعدم القدرة على تحمل المسئولية، تمامًا كما يرى دائمًا أهل العواصم الثانية أهل العواصم الأولى بعين السخط. ودفعتهم الطبيعة البدوية الحارة التي تأبى انتظار الخطر إلى الزحف تجاه مكة بجيش كبير، وكانوا لا يستطيعون تحمل خيالاتهم ومعاول أصحاب محمد ﷺ في أيديهم يهدمون بها اللات صنم الطائف الأعظم. إنه سيأتي لا محالة، وهو قريب، على بعد ستين ميلًا، الرجل الذي جاء إلينا مشيًا على القدمين منذ أحد عشر عامًا، ومضى من هنا محزونًا دامي القدمين، يطارده الرعاع ويسبونه، لم تعد قرى العرب قادرة على أن تحمي آلهتها منه.

ومضوا باتجاه مكة ومعهم كل شيء، مضوا غاضبين وهم يفكرون في أنهم هم وحدهم من يقع على عاتقهم دون العرب التصدي لمحمد ﷺ بعد أن أهينت

أنوف المكيين وذلوا، عندما أخلوا بين محمد ﷺ والآلهة حتى حطمها أمامهم وهم يشاهدون، وقد كان هذا أشد ما يكون عند الأعراب منهم. وقد أرجعوا هزيمة القرشيين ذلك لكونهم تجارًا حضريين مسالمين فيهم شيء من الرخاوة وقلة الصبر، وهم مثل كل الحضر لا يحرصون على شيء قدر حرصهم على العيش لأطول فترة ممكنة. ذلك ولم يفكروا طوال المسير ولو قليلًا في أن الآلهة هي التي يجب عليها حماية من يعبدها. مضوا ومعهم نساؤهم وأولادهم وثرواتهم، فقائدهم قد اتخذ قرارًا حماسيًا أجوف وشديد الغباء، وهو أن يسوق الناس معهم كل ما يعتزون به، حتى يكون الفرار تاركين الأهل والقطعان والمعادن النفيسة أشد سوءًا من الموت نفسه، فيستبسلون من أجل النصر ولا يتراجعون أبدًا.

وصل المسلمون عند مدخل وادي حنين ليلًا في العاشر من شوال، الذي يبعد عن مكة ستة عشر ميلًا، وكان يغلب عليهم الإحساس بالإعجاب بالنفس بسبب الكثرة، وقد سمع النبي وأصحابه المقربون شابًا يقول للشباب من حوله بصوت مليء بالفخر: لن نهزم اليوم من قلة. واغتم النبي، ليس من قول الشاب فقط، ولكن لأنه سمع في أصوات الكثيرين من حوله تلك الدعة التي تؤكد على أن الناس توكلوا على العدد، ورأى في عيونهم نفس الشيء. وحتى قدامى الصحابة لم يكن حالهم وهم متوجهون إلى هذه الحرب كحالهم من التضرع وهم متوجهون إلى بدر في عدد قليل وجهاز متواضع، لم يضعف إيمانهم بالله، ولكن كانوا كمن كان كل شيء من أمر الدنيا ضده فاستمات في الدعاء والافتقار إلى الله والتعلق به، ثم تحسنت الأمور وانضبطت فارتاحت أعصابه، ولم يعرف كيف يحفظ لقلبه في الأيام التي أنجز الله له فيها وعده نفس الفقر إليه، ونفس

الحرارة الطيبة للرجاء.

وفي غبش الفجر، أخذ جيش المسلمين ينزل في الوادي، بكل طمأنينة، وهم لا يدرون أن جيش هوازن قد سبقهم إلى الوادي، وترك لهم أوائل الوادي حتى ينزلوا فيه مطمئنين، ثم كمنوا لهم من بعد ذلك في كل جانب من جوانبه، واتخذوا لأنفسهم منصات إطلاق عالية وغير مكشوفة بين الصخور، كمنوا في صمت تام، يتنفسون غيظًا، وعيونهم على أفواج النازلين إليهم من فم الوادي.

وعندما كانت مقدمة الجيش قد نزلت كثيرًا في الوادي المنحدر، وهم واثقون تمامًا من أنه لا يحيط بهم إلا الصخور والأشجار، وأنه لا أعين ترقبهم هنا إلا أعين الطيور البرية والزواحف، خرجت عليهم الكتائب في لمح البصر، من كل ناحية مثل وحوش ليلية ضارية وانقضت على المسلمين، وأمطروهم بالسهام وهم أمهر العرب في رمي السهام. كانت كثيفة تلك السهام المنطلقة كأنها سرب ضخم من الجراد، والمسلمون يسمعون خوارها يحيط بهم من كل جانب. وارتفع الغبار في غبش الفجر حتى لم يعد أحد يرى سيفه ولا كفه التي تحمل السيف، فتخبط المسلمون تخبطًا شديدًا وتراجعوا، ولم يكن الصعود للخروج من الوادي سهلًا مثل النزول فيه، ووقع الرجال على الرجال، وركبت الجمال على الجمال، وضاقت الأنفاس من شدة الزحام، وهذا يبحث عن هواء وهو تحت الأرجل، وذاك يبحث عن هواء وأضلعه تكاد تتحطم بين جملين.

وفيما كان النبي يتقدم ببغلته البيضاء للأمام بشجاعة نادرة وهو لا يهاب شيئًا ويقول: هلموا إليَّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، كان جبلة بن الجنيد الذي أسلم مع الفتح، على النقيض من ذلك، يتراجع للوراء ويشق طريقه للنجاة بعيدًا عن السهام وهو يقول: ألا بطل السحر اليوم، معتقدًا

أن محمدًا ﷺ يمتلك طاقة سحرية عظيمة نفعته كثيرًا وها هي ذي قد نفدت أخيرًا، وسيلقى مصرعه لا محالة، وكان أبو سفيان بن حرب يقول: لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، فرغم كل الرعاية التي تعهده بها النبي، ورغم أنه لم يؤنبه قط على أي شيء فعله في محاربة الدين، إلا أن الصدمة التي تعرض لها من كمين كتائب الطائف كشفت عن أنه لم يملك بعد في نفسه أسباب التشبث بالتربة.

وكان بعض الفرسان الشجعان والأذكياء من هوازن وثقيف الذين اشتعلوا حماسًا، ينظرون بإعجاب إلى ثبات محمد ﷺ، ومناداته، وكانوا حريصين رغم هذا الإعجاب على قتله لأن الحرب حرب. لقد رأوا في هذا الثبات دليلًا آخر بجانب الشذرات التي وصلت إليهم عن صدق نبوته، فعندهم أنه لو كان يكذب في أمر النبوة، لجف حلقه بفعل هذه المفاجأة غير السارة وما خرج صوته من فمه، ولظنَّ كما يظن الكذَبَة دائمًا عندما تأتي ساعة نحس يتفكك فيها ما يحيط بهم، لظنَّ أن ساعة الحقيقة الوخيمة قد جاءت.

واستمر محمد ﷺ رغم الخطر الشديد يتقدم للأمام مؤمنًا بأنه سينتصر على هؤلاء، رغم أن المشهد المفزع لا يوحي بذلك، حتى صار هروبه أحبَّ إلى أعدائه من قتله، لكنه لم يهرب ولم يجف حلقه، ومضى وهو يقول

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وكان معه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه يمسك بلجام البغلة، وعمه العباس يمسك بركابها، حتى لا تركض بالنبي ركضًا عنيفًا من شدة إلحاحه عليها. ثم نزل النبي وطلب النصر من الله؛ وكان حوله في الغبش أيضًا أبو بكر وعمر، وعلي، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد،

وأسامة بن زيد، كل منهم أعلن عن نفسه بصوته لأن الوجوه لا يزال من الصعب تمييزها في الضوء القليل.

وكان يتقدم هوازن بطل على جمل أحمر يتبعه الناس ويثير فيهم الحماسة، في يده رمح طويل تعلوه راية سوداء، ولا يكف عن الطعن به، يصنع الفرجات في صفوف المسلمين المزدحمة كأنه تنين يخيف ولم يجرب أن يخاف، ويتوجه بثقة إلى أعدادهم المتجمعة وهو لايبالي بهم فيتراجعون من أمامه. فخرج علي بن أبي طالب وشاب من الأنصار له، وغافل علي بن أبي طالب الرجل الفخور وأتاه من خلفه وضرب عرقوبي الجمل فنزل على مقعدته، ونزل معه صاحبه مرة واحدة وهو لا يزال متمسكًا بمقعده عليه، وإن كانت المفاجأة قد كسرت غروره، فقفز عليه الأنصاري وضربه ضربة قطع بها نصف ساقه فوقع الرجل على الأرض.

وفي تلك اللحظات كان النبي قد أمر عمه العباس صاحب الصوت الجهوري بأن ينادي: أين أصحاب السمرة؟ [وهي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان]، فوصل صوته لبعض من كانوا في بيعة الرضوان وتذكروا مقام رضا الله عنهم المثبت في القرآن، وهم ما كانوا قد ذهبوا بعيدًا، وكانت المسافة بينهم وبين النبي قد صنعتها عند الكثير منهم ملابسات الفجأة، وتشبه أن يضرب الموج الشديد أشياء متجمعة فيفرقها، وهم ما كانوا خائفين على النبي من الموت في ذلك اليوم قبل أن تبدأ المعركة، ولم يكن همهم الأكبر الإحاطة به، وذلك لأنه بشرهم بأن أموال هوازن ستكون غنيمة، وكذلك لكونه اختار أن يذهب للحرب على البغلة وليس الفرس، وهو ما يعني أنه قد بُشِّر بالنجاة، فالبغلة ركوبة المطمئن الذي لن يحتاج للتراجع السريع. وبينما كانت المسافة بين الصحابة الأولين وبين النبي صنعتها ملابسات الفجأة والتوزع في صفوف

مختلفة في الجيش، كان الذعر الحقيقي هو الذي صنع المسافة بين النبي وبين جماعة من حديثي الإسلام من أهل مكة وكذلك جماعة من أهل البادية الذين انضموا إليه لفتح مكة ثم جاؤوا معه إلى حنين تحركهم الرغبة في غنائم أهل الطائف الأثرياء.

لما وصل صوت العباس لمن وصل إليهم من أهل بيعة الرضوان، وهم قرابة المائة، غلى الدم في عروقهم وقالوا: يا لبيك، يا لبيك. وحاولوا إجبار بعرانهم الخائفة على الالتفاف والعودة، لكن البعران الحريصة على الحياة كحرص الآدميين أبت من الذعر أن تعود، فخلع الرجال الدروع التي يلبسونها، وتركوا البعران وركضوا ومعهم السيوف والتروس، متجهين ناحية صوت العباس، وتجمعوا عند النبي الذي لم يتراجع خطوة واحدة.

واستمر العباس في النداء، على الأنصار، نداءً خلف نداء، وكلما نادى كانت الشمس كأنها تستحث نفسها من جهارة صوته الذاهب في البرية، فتصعد مع صداه المتردد، حتى تجمعت الكتائب الفارة، وكان عبد الله بن أبي بكر ضمن من عادوا وتجمعوا عند النبي، وشاهد والنور يعلو شيئًا فشيئًا، ابتسامة مثل هذا النور على وجه النبي، وهو ينظر إلى أم سليم بنت ملحان، أم أنس بن مالك، المرأة الحبلى التي تحمل خنجرًا لتدافع به عن نفسها لو اقترب منها أحد من المشركين، وسمعه وهو يتلطَّف معها ويسألها وهو راض عنها عن الخنجر الذي معها، وزوجها المحب بجانبها يبتسم أيضًا فخورًا بها. وامتلأ الوادي بنور الصباح، ودار بين الجيشين قتال شديد.

وانبلج الصبح في الوادي، واحتدم القتال، ومال محمد ﷺ إلى الأرض وأخذ حفنة من التراب، ونظر إلى جيش أعدائه، ورماها ناحيتهم وقال: شاهت

الوجوه. بعد أن رمى محمد ﷺ حفنة الرمال، على مرأى من أصحابه، كأنهم يتعلمون منه في هذا الظرف الصعب، بعد أن كانوا يحسبون حساباتهم الأرضية رغمًا عنهم منذ قليل ويؤمنون بالنصر اعتمادًا عليها، يتعلمون أن الله قد يدير الدائرة لهم بحفنة قليلة من الرمل، حفنة أكثر ما لها في حسابات أهل الأرض الذكية أن تنصر طفلًا على آخر إن رمى بها وجهه. بعد أن رمى الرمل وقال ما قال، أخذت قدرة جيش أهل الطائف تتضاءل شيئًا فشيئًا ويغلب عليهم الارتباك وقلة الصبر والضيق وفقدان الهمة والتفكك، حتى انهزموا بعد ساعات قليلة رغم عددهم الكبير؛ ورغم أنهم أحضروا معهم أهلهم وثروتهم الضخمة من الفضة والإبل والغنم ليجعلوا الفرار أسوأ من الموت، إلا أنهم فروا تاركين القلائد ولابسات القلائد.

فر قائد الوثنيين مالك بن عوف سيد هوازن مخزيًا بمن معه من الرجال من هوازن وثقيف إلى الطائف وحصونها القوية، والأبواب الضخمة، وأغلقوا الأبواب بعد أن خزنوا من الطعام كمية تكفيهم مدة طويلة.

وقد سمع الوثنيون أصواتاً تحملها الريح في العشرين من شوال، فنظروا من النوافذ العالية فرؤوا جيش المسلمين تحتهم، فدب فيهم الذعر مرة ثانية على ما هم فيه من حزن على من تركوهم من ورائهم. وقد ارتضى النبي بحالة الدفاع والفزع التي صاروا فيها، وجاء يحاصرهم ويناوشهم ليؤكد لهم الواقع الجديد، فلا يحلموا بالسير إلى مكة أو المدينة، بعد أن كانوا على بعد ستة عشر ميلًا من الحرم، ويتخلوا للأبد عن فكرة الجماعة المنقذة للوثنية؛ وهو يحب أكثر من هذا أن يؤدي بهم كسر الغرور إلى أن يأتوه مسلمين.

وقد طالت هذه المناوشات التي تم فيها تبادل الرمي بالسهام، ثم فك

النبي الحصار وارتحل بالجيش، متأكدًا من أن رسالته وصلت إلى أعدائه، الذين لن يستطيعوا أن يعيشوا في هذا القلق كثيرًا.

وقد عاد هذا الجيش وفيه عبد الله بن أبي بكر مصابًا إصابة بالغة بسهم، وقد اندمل جرحه بصعوبة، بعد أن فشلت فيه المراهم والأعشاب، واضطروا إلى كيه بالنار، بعد أن نزف كثيرًا. وقد كان أبو بكر الذي يقول عنه محمد ﷺ (أرحم أمتي بأمتي) يتفقد المصابين جميعًا بمن فيهم ابنه، ويقويهم ويدعو لهم بالشفاء كما يدعو له. وقد كان عبد الله ابنه يحاول وهو المصاب أن يطمئن أباه على حالته، ويسعد بمرور أصابعه النحيفة على وجهه تمسح العرق عنه، كان يطمئن أباه وهو يظن أن الجرح سيميته في النهاية، وهو لا يكره أن يموت شابًا شهيدًا، هو فقط يحب أن يصل إلى المدينة، ويموت عندها، عند زوجته حبيبته، لعل هذه الآلام تفتح عليه في الوداع بشيء من الغزل لم يقله أبدًا، وقد تمنى أثناء المسير شيئًا آخر يواسي به نفسه: لو كان معه منديل من مناديلها البيضاء يضمد به جرحه.

وعاد محمد ﷺ إلى الجعرانة حيث جعل الغنائم والأسرى هناك، وهو يرغب في أن يأتي إليه هؤلاء الهاربون ويعلنوا إسلامهم ويسألوه أن يعيد لهم أسراهم. وبدأ عبد الله بن أبي بكر يوحي بأنه على وشك الشفاء، ويستجيب ويهتم بما يقوله له والده عما يدور حوله، وكان أبوه ينقل له ارتفاع أصوات النهمين من حديثي الإسلام وممن جاؤوا مع النبي بحثًا عن الانتفاع، راغبين في الثروات، هؤلاء الذين هربوا على الفور من ساحة القتال في وادي حنين عندما حدثت الصدمة، وها هم اليوم أول من يطلب اقتسام الغنائم عندما انتهت الحرب بانتصار المسلمين.

كان أبو بكر يتجهَّز، ومن دون أن يدري أنه يتجهز، للتعامل مع هذه النوعية من البشر مستقبلًا، وهو الخبير بالعرب ومعادنهم وبطبائع الناس، إن جاءت صدمة أخرى قوية تكشف من لم يكن للإسلام جذور في صدورهم. حدق أبو بكر بعينيه في المشاهد المؤسفة لإلحاح الطامعين على النبي في التقسيم كأنه قد كانت لهم بطولات فريدة في المعركة، ورأى ازدحامهم حوله، ورأى جذب الأعراب له من يديه، حتى ألجؤوه إلى شجرة، فتعلق بها رداؤه، وكانت هذه المشاهد تغذيه وتعلمه وتجعله على أهبة الاستعداد، لشيء في الغيب لا يعلمه، وقد تذكر صورة أخته الصغيرة الباكية رقيبة، التي كانت تبكي وهي تشتكي إليه، بعد أن دخلوا مكة، فأثناء هرولتها بأبيها الشيخ تجاه بيته، اقترب منها رجل غريب فظ عندما رأى طوقها الفضي وأدرك عمى والدها، فاختلس منها الطوق وأخفاه في ثيابه ومضى. ووقتها عرف أبو بكر أن الذي فعلها لا بد أن يكون واحدًا من أهل البادية ممن جاؤوا معهم وليس واحدًا من مسلمي المدينة الذين تشبعوا بآداب الإسلام واستقر الإيمان في قلوبهم، ووقف أمام الجموع وأنشد الناس بالله طوق أخته الصغيرة التي رقَّ لها كثيرًا، ولم يستخف في اليوم الفتح العظيم بتعلقها بشيء تملكه ويحزنها أن يسلبها إياه أحدهم؛ ثلاث مرات يناشد الناس بالله ولا فائدة.

لم يعاتبهم النبي، ووسعهم بحلمه وصبره، فقد كان يعلم تمامًا أن صفحة الوثنية ستطوى للأبد عما قريب، وهو حريص على أن يستخلص أكبر قدر من الأسماء المدونة في السطر الأخير في تلك الصفحة قبل أن تطوى، بترغيبها في الإسلام، وبغض الطرف عن عيوبها، تاركًا لها من بعد ذلك فرصة التأدب، والاخضرار.

لقد فتح النبي البوابة، ولم ينظر بعين الريبة ولا بعين الزهد لأحد ممن

يرغب في الدخول في الإسلام، بل وسعى لأن يأخذ بأيدي بعضهم وهم مترددون عند البوابة، فهذا من صميم عمله النبوي الذي أداه بكل الحب والرحمة. أما مشاهد اليوم فترسبت في نفس أبي بكر الذكي المنتبه، لذا لن يسمح في المستقبل للعصاة والهمج باقتلاع تلك البوابة وهم يرغبون في الخروج منها تدفعهم صدمة كبرى.

ولم يكتف أبو بكر يومها بالمشاهدة والأسف، فقد كان جالسًا مع النبي عندما قال النبي: من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سلبه.

فقام أبو قتادة الأنصاري وقال: من يشهد لي؟

ولم يقم أحد ليشهد له، وكان قد شاهد أحد الوثنيين يعلو رجلًا من المسلمين فضرب الوثني بالسيف لينقذ أخاه المسلم، فجاءت الضربة قوية على العصب الذي بين العنق والمنكب، واخترقت درع الرجل، فقام مجروحًا وضمَّ أبا قتادة ضمة شديدة جدًا، ثم سقط ميتًا.

ولما أعاد النبي الكلام قام أبو قتادة مرة أخرى وطلب شاهدًا مرة أخرى بلا فائدة، ولما قام للمرة الثالثة بعد أن كرر النبي نداءه، فسأله النبي: مالك يا أبا قتادة؟

فأخبر النبي بما حدث في القتال، وهنا، أخيرًا، استحى الآخر الذي نجا من القتل بفضل أبي قتادة، وقاوم بخله، وتكلم أخيرًا: صدق وسلبه عندي فأرضه مني.

فقال أبو بكر: لاها الله إذًا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ فيعطيك سلبه.

فقال النبي: صدق.

وقد كان هذا المشهد لأبي بكر وهو جالس بجوار النبي، ويحلف أمام الناس على ما سيحكم به النبي في سلب بين رجلين، ويتبع ذلك تصديق النبي له، منسجمًا مع مكانه في الحرب في حنين الذي يعرفه النبي وقد يغيب عن غيره، ممن قد يختلفون في أسماء من ثبتوا ولم يتولوا مدبرين، فهذه الكلمات وهذه الحمية، وقد تبعهما تصديق النبي، لا يخرجان من رجل غلبته نفسه على الفرار. وقد كان هذا المشهد أيضًا منسجمًا مع مكانة أبي بكر عند النبي التي لا يختلف عليها أحد أصلًا من شهود المعركة.

وقد حدث أن أعطى النبي لعباس بن مرداس أربعة من الإبل، وهو فارس بدوي شجاع وشاعر، وسيد في أهله، فعاتب النبي بأبيات من الشعر ذكر فيها كيف أنه فضل عليه غيره في العطاء رغم شجاعته وصموده، فذكر أبو بكر أبيات الشعر للنبي، غيرةً منه على النبي، راجيًا أن يزيده النبي في العطاء، نظرًا لشجاعته، فأعطاه النبي عطاءً كبيرًا يرضيه ويشعر معه بالتقدير.

ولما ذهب عباس بن مرداس إلى النبي، أراد النبي أن يعاتبه بالمقابل، فقال له، وبحضور صاحبه أبي بكر: أرأيت قولك: أصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ [والأقرع وعيينة هما الرجلان اللذان رأى عباس أن النبي ميزهما عنه في العطاء].

فقال أبو بكر ليصحح البيت للنبي: بأبي وأمي يارسول الله ليس هكذا.

قال النبي: كيف قال؟

: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فرد عليه النبي: هما واحد، لا يضرك بأيهما بدأت: بالأقرع أم بعيينة.

فرد عليه أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

وبعد أن عانى النبي من أطماع البعض وعتاب البعض على شيء من الدنيا يراه هو بعين النبوة تافهًا زائلًا، جاءه ما يفرحه، جاءه وفد من هوازن يدخل من بوابة الإسلام المفتوحة على مصراعيها، جاؤوا تائبين معتذرين، وطلبوا منه أن ينعم عليهم بأسراهم، فأرضاهم وأعطاهم الأسرى.

كان النبي بشجاعته، وكرمه وبسطه ليده، وصموده وقت الهزيمة، وتواضعه وقت النصر، يخلخل للأبد المثل الجاهلي الراسخ في أذهان الناس، فهو يركض ببغلته في وجه صفوف أعدائه، بينما الجيل الأخير من فرسان الجاهلية يركضون بالأحصنة هاربين منه باتجاه الحصون تاركين أمهاتهم، وهو يعطي الناس بلا خوف من الفقر، بينما الجيل الأخير من سادات الجاهلية يتزاحمون عليه مادين أيديهم؛ وقد كان هذا هو انتصاره الأكبر، ونزيفًا حقيقيًا للوثنية والجاهلية؛ وحتى عدم إجادته لحفظ الشعر كان أساسًا في وضع حالة المغايرة والاختلاف، حتى ينتبه هؤلاء الناس في جزيرة العرب جيدًا إلى ما معه من قرآن، وحتى ينتبهوا إلى أن ذلك الإنسان القرشي الشجاع الكريم الفصيح، مميز عن النماذج العربية التي يطربون لها، بالقوة الفريدة للنبوة.

الراقد في الكتان

يسير مسيلمة ليلًا وبجواره الرجَّال بن عنفوة الذي صار أقرب الناس إليه، كل منهما على بغلته، وأمامهما غلام خادم يحمل مصباحًا، يجتازان في هذا الصمت الجليل الذي لا يقطعه إلا وقع حوافر البغلتين، في روضة قد غطتها زهور الخزامى البنفسجية، سائرين باتجاه الدير الصغير.

بعد قليل، كانا يلقيان النظرة الأخيرة على هوذة حاكم اليمامة، وهو راقد في ثوب من الكتان الأبيض، وقد ألبسوه جوربًا أبيض، وتفوح منه رائحة العطر، وصليبه بين يديه، ومن ورائه صورة مرسومة بالحجم الطبيعي على حائط حجري، لعبد يشوع السائح الذي عمَّد أقدم جماعة من بني حنيفة في أواخر القرن الرابع. فيما كان الراهب الذي ينتمي إلى قبيلة طيء قد أفسح لهما بكل تقدير، وأخذ ينظر لأثر تلك النظرات الأخيرة الطويلة على الرجلين اللذين لا يتبعان دينه.

وعلى ضوء الشمعتين البيضاوين الطويلتين المضاءتين خلف رأسه، اللتين يهتز لهبهما هزات خفيفة مع النسمات التي تنفذ من الكوات الصغيرة التي تتخذ شكل الصليب في تلك الليلة الباردة؛ يتذكر مسيلمة ذلك النهار الذي أخذه فيه هوذة من يده وهو عنده في القصر، وقد كان في عينيه طمع القادة المفضوح، وتنحى به في زاوية قليلة الضوء، بعيدًا عن أقاربه وكبار عشائر بني حنيفة. كان رسول محمد ﷺ سيدخل عليه بعد قليل، حاملًا إليه رسالة منه كتلك الرسائل

التي يرسلها إلى الحكام والأمراء. لقد همس إليه هوذة وقتها بنبرة خفيتة وفرحة، تلك النبرة التي تكون عند الرجل عندما يكون لديه أمل عظيم يريد أن يبثه لأحد المقربين، فابتدأ هوذة بالكلام عن مكانته التي يعرفها مسيلمة، فهو ممن تهابهم العرب ولا تجرؤ على الاقتراب من حماهم، وهو رجل خطيب مفوَّه وشاعر فحل، ويعرفه الملوك والأكاسرة، وكان له الفضل في حماية أهله من سيوف بني تميم، وهو يرى أنه لو قدِّر له أن يتولى أمر دولة فيسكون قادرًا على أن يوفر لها الحماية ويعقد لها المعاهدات، ويرى أنه لو صار عن يمين أي عظيم فسيكون ربحًا له بما هو معهود فيه من وفاء وحكمة وحسن رأي.

وبعد هذا التمهيد الذي وافق مسيلمة عليه، نظر هوذة للرجال المتجمعين في قصره، وأغلبهم من المسيحيين، ثم مال على مسيلمة، وقال له إن أمر محمد ﷺ لا يستهان به، وأظن أن دعوته لن تكون عارضة، ونحن لا نعرف ما تخفي لنا الأيام، فقد تنصَّر أجدادنا على يد راهب نسطوري، فصرنا نساطرة، وعشنا في حماية الفرس، وقد نُكب الفرس نكبة كبرى، وأظن أنه لن تقوم لهم قومة ولو بعد سنة اليوبيل من هزيمتهم، اليوبيل؟ نعم يا مسيلمة، أي ولو بعد خمسين سنة، لذا فنحن الآن كما كان النساطرة دائمًا: منبوذون ومعادون من الكنائس الأخرى، ولكن بغير حماية وعطف هذه المرة.

وقد نظرت في أحوالنا نحن أهل اليمامة من ناحية، اليمامة التي لم يعد يحميها أحد، والتي قد يتجدد عليها غيظ بني تميم، ونظرت في أحوالنا نحن النساطرة من ناحية أخرى، ونظرت فيما جاء به محمد عن المسيح والعذراء، فهو عنده رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فخطر لي أن أتفق مع محمد، فأنا أرى أننا لا نناى كثيرًا عما عنده؛ فقد آمن رئيس مذهبنا نسطور

بأنه لايصح أن يقال عن العذراء المباركة إنها والدة الإله، بل والدة المسيح، فما يولد من الجسد ليس إلا جسداً، والمخلوق لا يلد الخالق، وإنما جاء اللاهوت للمسيح بعد ولادته؛ وكان هذا اتحاداً مجازياً بالمحبة والنعمة، فلا امتزاج قد حدث ولا تلبُّس، إنما هو أثر إلهي انطبع فيه، مثل النقش في الشمع بواسطة خاتم. فماذا لو عرضت عليه أن نعلو بما عنده على نجد كلها ونكون أمراءه فيها على كل من فيها، أو يخلفه بنو حنيفة في الأمر كله بعد موته، على أن نشد أزره ونذهب معه بسيوفنا حيث شاء؟ هذه فرصة ثمينة يا مسيلمة، عليه أن لا يضيعها ذلك الرجل.

ارتبك قلب مسيلمة بالمشاعر المتضاربة، بين الفرح بفرصة بني حنيفة التي يحلم بها، وبين الحزن على مجده الشخصي الذي سيذهب به نساطرة اليمامة، ويتبعهم بنو حنيفة على الإسلام، فيعيش منزوياً في عصر تموت فيه الكهانة، ثم استولت الغيرة البشعة على قلبه تماماً ولم يعد ثمة فرح، فنهاية حلمه قد تأتي على يد حاكم بلده، إن وافقه محمد ﷺ على ما يريد.

وقد كانت قلة الضوء في تلك الزاوية من حسن حظ مسيلمة، فهوذة يحكي للكاهن العظيم وعلى عجالة، ما يريد عرضه، ولم يلحظ بسبب ضعف الإضاءة اندلاع الغيرة على وجه الرجل بطريقة من الصعب عليه أن يخفيها رغم دهائه، ومن حسن حظه أيضاً أن الخبر الذي أثار غيرته يأتيه من حاكم، فيه ما في أغلب الحكام من استخفاف بالرعية يجعلهم لا يهتمون بقراءة الوجوه، بينما يشعر العامة بخطورة أي أحد، لذا لا تخفى عليهم مشاعر الغيرة عند من يتحدثون إليهم.

تماسك مسيلمة، وبالغ في إظهار موافقته وتأييده للحاكم على الرد الذي

يفكر فيه على رسالة محمد ﷺ، وكان صوته عصبيًا وعاليًا وفوضويًا، وهو يردد أنه من الظلم والعتو أن لا يوافق، لا بد أن يوافق، حتمًا يوافق؛ كان يحاول أن يبدو سعيدًا ومتلهفًا وقاطعًا في تأييد الفكرة المباغتة.

تنفس الصعداء عندما انشغل عنه هوذة بغيره وتركه وتحرك أمامه بنشاط وهو يفرك يديه وعلى وجهه علامات السعادة، وقد وكان على وشك أن يسمح لرسول محمد ﷺ بأن يدخل عليه، ومضى مسيلمة وهو يشعر بالغيظ الشديد من هذا الحاكم الذي سيطلب بهدوء ما أنفق هو عمره وأعصابه في طلبه. إن ما عاش من أجله وكرَّس نفسه له، وأرهق نفسه وهو يتخبط في السجع وحيل الحواة كي يظفر به، هبط فجأة كفكرة على رأس الحاكم، وقد ينال ما يريد بكل بساطة بغير أن يجرب قسوة الانتظار.

ومضى مسيلمة من القصر ساخطًا لا أحد يلحظ سخطه، وتخيل أهل اليمامة قد دخلوا في الإسلام بالجملة، وتحولت اليمامة إلى أكبر مزرعة من مزارع الدين الجديد؛ وبدلًا من أن يأتي سادة العرب وأثرياؤهم إلى اليمامة وينتجعوا فيها، سيأكل الجوعى في الجزيرة مجانًا تمورها وحنطتها، وستتحول خيرات مناجمها فورًا إلى المدينة للإنفاق على جيوش محمد ﷺ التي يعد محمد ﷺ أصحابه بأنه سيفتح بها البلاد البعيدة.

ابتسم الراهب وهو يحدق في وجه مسيلمة، مستجيبًا بطيبة ووداعة للابتسامة التي ظهرت على وجه مسيلمة الصارم في ضوء الشمعتين وهو ينظر لوجه الحاكم الذي عاش إلى أن سمع بفتح مكة وتحطيم الأصنام. لقد تذكر مسيلمة أن محمدًا ﷺ لم يبد أي اهتمام بعرض هوذة الذي ظل فترة ينتظر أي مفاهمة، لذا لم تكن تلك الابتسامة التي أعجبت الراهب أكثر من ابتسامة شماتة.

كف طليحة

في جلسة طيبة من جلسات أهل المدينة في الهواء الطلق، عند بئر من آبارها يحف بها النخيل، في شهر محرم من السنة التاسعة، كان يجلس وفد بدوي مكون من عشرة رجال ملتصقين ببعضهم بعضًا، يسمعون ما يقوله أهل المدينة المرحبين بهؤلاء الضيوف من إخوة الدين الجدد الذين قدموا على المدينة منذ أيام قليلة وأسلموا، وسيعودون إلى ديارهم في صباح الغد. وقد بانت على هؤلاء العشرة علامات الانبهار الشديد عندما انعطف حديث المسلمين إلى معجزات الرسول في تكثير المياه القليلة فتكفي الجيش كله، وعن نبع المياه من بين أصابعه في أوقات العطش، وعن نزول المطر بدعائه من سماوات لم تكن بها أي سحابة.

استرسل أهل المدينة في الحديث عن ذلك الري الذي ينصر الله به محمداً ﷺ في ساعات الظمأ، أمام الضيوف القادمين من بيئة قاحلة قاسية، هؤلاء الذين لا شيء أفظع عندهم من نفاد الماء، فكان هذا الحديث الذي انتبهوا إليه هو النبوة نفسها في أسمى حضورها، وليس علامة من علاماتها. لقد انتشوا بما سمعوا، وأخذوا يبتسمون في وجه كل رجل يرفع صوته ويقول إنه حضر هذه الواقعة أو تلك، وأخذوا يربتون على سيقان بعضهم بعضًا الممدودة، مهنئين أنفسهم بالدين الجديد؛ إنهم وفد بني أسد الذين لم يجدوا في أنفسهم مانعًا من الدخول في ذلك الدين وخاصة بعد أن فتح النبي مكة بلده، وبدأ العرب يتكلمون عن أن عبادة الأصنام إلى زوال.

قدموا منذ أيام على محمد ﷺ ووقفوا أمامه، وتقدم خطيبهم الحضرمي بن عامر وتكلم وراعى ما يراعيه خطيب القبيلة الأعرابية مع من يتحدث معه من التأكيد على الندية، فهذا هو الخطاب الذي اعتاده، والأمر برمَّته جديد عليه، لذا لم يفطن رغم فصاحته إلى أن من يقدم على نبي عليه أن يتمسك به لا أن يتماسك أمامه. قال خطيبهم والآخرون حوله يوافقونه ويمنُّون معه على محمد ﷺ بمجيئهم وإسلامهم: يا رسول الله أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثًا. ولم نقاتلك كما قاتلك محارب خصفة وهوازن وغطفان.

ورغم أن مجتمع المدينة قد بدا في أعين هذا الوفد الذي نزل بها متماسكًا ومتعافيًا، ومهذبًا كذلك، إلا أنه قد غلب على ذلك الوفد ما يغلب على كثير من الأعراب المنقطعة ديارهم عن المدن من مقاومة فطرية للانخراط وحنين للعودة. ورغم أنهم جاؤوا وهم متحمسون في الطريق للوصول، إلا أنهم احتفظوا بعد أن وصلوا وإلى تلك الليلة الأخيرة بقدر من الشعور بالرهبة؛ فقد عاشوا حياة تميل إلى الفوضى والسيولة وعدم المساءلة، ووجدوا أنفسهم على مشارف حياة نظامية وهادفة.

وكان معهم بطلهم طليحة بن خويلد، الفارس والكاهن، الذي عاش عاطلًا عن المجد مثل كثير من الأبطال العرب منذ أن عاد مهمومًا من عند الخندق، عندما شعر بالحنق والإعجاب بمحمد ﷺ هذا الذي يمسك بكل شيء في المدينة؛ وقد توصل بأسف خلال الفترة الماضية، بضغط مؤلم من التفكير الواقعي، إلى أنه لا يوجد أي أمل يُذكَر في تحقيق ما فشل فيه عشرة آلاف فارس، وازداد إيمانًا بذلك عندما فاجأته أخبار فتح مكة، لهذا وافق قومه

عندما رأوا أن يرسلوا وفدًا إلى محمد ﷺ، وإن كان قد شعر بوخزة من الألم في أعماقه قبل أن يوافق. وكان لديه دوافعه للسفر إلى المدينة؛ فقد أحب أن يرى هذا النبي المنتصر عن قرب، لا يفصل بينهما خندق، ورغب في أن يعرف ما عنده من قدرات، إذ لم يكن قادرًا على أن يفهم النبوة على العموم إلا باعتبارها موهبة بشرية نادرة.

كان شديد الاندهاش في تلك الجلسة وهو يسمع ما يقوله أهل المدينة عن معجزات النبي في السقيا، وهز رأسه وشعر بالعجز والإعجاب، واعترفت عيناه ببريقهما، بأنه لا يستطيع أن يجعل الماء ينساب من بين أصابعه مثلما يفعل محمد ﷺ؛ كانت تلك ذروة ما شعر به من إيمان وهو يستند برأسه إلى جذع نخلة مستسلمًا لما سمع.

انعطف الحديث من بعد ذلك عن الجنة والنار، وتغيرت نبرة الرجال المسلمين، وتغيرت وجوههم، أما هو فغلبه الشرود، وحاول عدة مرات أن ينتبه، وأن يشعر بما يشعر به المسلمون من حوله من شفقة وشوق، ولكن الفارس العربي ذا الطبيعة الخشنة، تأكّد له أنه عاجز عن أن يشعر بما يشعرون به؛ في كل جلسات الليالي الفائتة كان يسمع من الأتقياء حديث الجنة والنار، وكان يعاني من أنه عاجز عن أن يبالي به.

عندما اتخذوا مراقدهم في تلك الليلة الأخيرة في المدينة، وقد تقاربوا من بعضهم بعضًا ككل ليلة، كان طليحة بن خويلد يختلس النظرات إلى وجوه أصحابه يفتش عما فعله فيها هذا الدين الذي سيعودون به إلى ديارهم، ولما علا شخيرهم، وعبست مناظرهم، صرف نظره عن وجوههم وصار فريسة نفسه، يتقلب على الجانبين، متخبطًا بين الواقع والخيال، والأفكار الخلابة؛ تارة ينظر

إلى كفه ويقبضها وقد تخيل أن النبي قد سلمه الراية بعد أن جعله قائدًا عظيمًا للجيوش التي ستفتح فارس والشام والعراق، كما يصرُّ المسلمون، وتارة ينظر إلى تلك الكف ويبسطها ويتخيل الماء وقد سال من بين أصابعها واجتمع عليه بنو أسد وأخذوا يشربون.

قمقم النبوءة

جاء التجار النبطيون إلى المدينة بما يحملون معهم من الزيت، وبخبر يثير القلق، هرقل جعل نواقيس الكنائس تدق استعداداً لحرب المسلمين، فالشام بستان عزيز من بساتين الإمبراطورية، وهو، على حسب هذه الأخبار، اختار أن يخرج للنبي ومعه مناصرون من غسان وغيرهم، في أربعين ألف مقاتل، قد وصل بهم إلى البلقاء، حتى يرده للأبد عن تلك الأراضي الخصبة الواسعة، التي استقرت القبائل العربية فيها على المسيحية دين الإمبراطورية، وتدين بالولاء لقيصر، واستقرت أمورها على التبعية، وهذه الأراضي، أو ولاية العربية كما يسميها الرومان، هي مناطق حدودية شديدة الأهمية لحماية أطراف الإمبراطورية لايمكن للإمبراطور أن يجعلها مباحة للدين الجديد.

لم يكن من الواضح في المدينة إن كانت هذه الأخبار دقيقة تماماً، أم هي نوع من التهويل، أم مختلقة بكل ما فيها، ولكن بغض النظر عن تلك الأخبار التي صرفها هؤلاء التجار مع بضائعهم كنوع من التودد لأهل السوق، إلا أن هؤلاء التجار صدقوا ولو جاءوا بكذب تناهى إلى أسماعهم، فميلاد أمة صاعدة متفائلة تعلن التزامها بمحاربة الكفر في جميع الأرض، بالقرب من كيان ضخم يشعر بالرضا والإجهاد بعد انتصاره على الفرس الكفار، يجعل الارتطام مسألة وقت. وقد كان هناك حك بالقرون أريد به التهديد وإثبات الوجود يؤكد ذلك، مثل قتل سفير محمد ﷺ الذي خرج برسالة إلى عظيم بصرى، وملاحقة بعض الرجال الذين أسلموا في ولاية العربية كما يسميها الروم، ثم معركة مؤتة التي

وقعت في جمادى الأول من السنة الفائتة، وخرج منها الروم وهم لا يستهينون بهؤلاء الضامرين الشجعان المندفعين من غياهب الصحراء محملين بشعور عجيب بالواجب.

وقد اختار النبي أن يؤكد هيمنة الإسلام على العرب، وأن ينتفع من إجهاد الروم بسبب الحرب الطويلة مع الفرس، ولم تدخل عليه علامات الهيبة الواضحة للدولة سيدة العالم التي تدخل على كل الناس في مشارق الأرض ومغاربها، مثلما أنها لا تدخل على هرقل نفسه، فقبيل أن ينهار العملاق على ركبتيه، يتخذ أكثر الوقفات شممًا وانتفاخًا، ومحمد ﷺ كان على يقين من ذلك، لذا شعر بأن وقت العمل على رفع قبضتهم عن العرب التابعين لهم قد بدأ.

وبينما كان المناخ لا يزال حارًا جدًا، والناس يتمتعون بالجلوس في ظلال البساتين وهم سعداء بطيب الثمار على أشجارهم، وببهجة تغريد الطيور، منتظرين اعتدال المناخ، استنفر النبي المسلمين للخروج من ظلال الشجر، لحرب الروم؛ وما إن ذهب نداؤه، حتى تقاطرت العشائر متتالية تلبيه، وأخذ المسلمون يملؤون أعينهم بمناظر الحشود التي تترى على المدينة ويحمدون الله على أنه أعز دينه وجعل له دولة لم يكن للعرب مثلها، حتى تجمع عند محمد ﷺ بالمدينة جيش كبير قوامه ثلاثون ألف مقاتل.

وقد كان أبو بكر، ومثل غيره من الصحابة، يصل إليه ما يقوله المنافقون داخل المدينة، الذين استبشروا بهذا الاصطدام القادم، وأخذوا يتنبؤون للمسلمين من معارفهم بهزيمة ثقيلة من أكبر دولة على الأرض، ويقولون لهم إن محاربة العرب لبعضهم البعض شيء فكاهي إذا ما قورن بحرب يكون الروم

فيها، وإنهم عن قريب سيتوزعون في أسواق العبيد البعيدة في الشمال، يبكون ويرثون أحوالهم، ويتذكرون نسائم البساتين وقنوات المياه التي أخرجهم منها محمد إلى الموت والتشريد.

وقد اجتمع لمحمد ﷺ جيش ضخم، ونزلت آيات رجت مجتمع المدينة رجًا، تتهم المتخاذلين والمتهربين. وقد كان تجهيز هذا العدد الضخم يحتاج إلى بذل أصحاب السعة من المسلمين، فتصدَّق عثمان بن عفان وحده بتسعمائة بعير ومائة فرس غير النقود التي زادت عن الألف دينار، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وجاءت النساء وألقين الخلاخيل والخواتم عند النبي لتجهيز الجيش.

أما عمر بن الخطاب، وهو لم يكن من الأثرياء، ولم يكن كذلك من البسطاء الذين يمكن أن يتقدموا بزنبيل من التمور وكفى، كانت عيناه على حبيبه وقدوته، أبي بكر، الذي كان مثله، فهو لم ينشغل بالتجارة والبساتين عن الدعوة، وجعل اهتمامه بها في الحدود التي تصلح حال أهله، ولم يعد تاجرًا ثريًا، ولم يشعر لحظة واحدة بالأسف من أجل ذلك، فقال لنفسه عندما جاء أمر النبي بالتصدق، وهو يشعر بأن الحظ يحالفه هذه المرة، فعنده مال، قال لنفسه وهو يبتسم: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا؛ يغامره في ذلك الرغبة في التجريب، تجريب الفوز مرة، وهو شعور لطيف خال من أي عدوانية.

جلس عمر وقدَّم صدقته، فشعر النبي الذي يعرف حال أصحابه المالية جيدًا وبخاصة هذا الصحابي المقرب منه، وكذلك يعرف عنه إخلاصه الشديد لله ورسوله، شعر أن ما قدمه قد يكون كثيرًا، فمثله يسأل عما أبقى معه، وهو سؤال يعتبر شهادة لمن يوجه إليه، فقال له: ما أبقيت لأهلك؟

فقال عمر: مثله.

ثم جاء أبو بكر واقترب وجلس بهدوء، وعمر يملأ عينيه منه حبًا واعتذارًا، إذ ظن أن إنفاق نصف الثروة شيء يصعب جدًا تخطيه، وبخاصة من رجل يغفل عن المنافسة، وقدم أبو بكر صدقته. ولأن ما قدمه كثير، ولأن النبي يعرف حالته المالية ويعرف إخلاصه أيضًا، سأله أيضًا ذلك السؤال الشهادة: ما أبقيت لأهلك؟

فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله.

لقد قدم أبو بكر كل ما كان يدخره عنده، ولم يبق عملة ذهبية أو فضية، وهذه المرة لن تضع أسماء بنته شقفًا من الحجارة تحت ثوب، لأن جدها الذي قادته منذ تسع سنين هناك في مكة ليتحسس أموال ابنه الوهمية، قد آمن وعلم أن ابنه أفلح كل الفلاح في اتباع النبي، وآمن بأن ما وصل إليه ابنه بصحبة النبي ذهب به بعيدًا جدًا، عما وصل إليه ابن جدعان وكأسه الذهبية. هز عمر بن الخطاب رأسه عندما سمع رد أبي بكر، وقال له: لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

وقد كانت هذه الغزوة، آخر غزوات النبي، غزوة طريق، غزوة سفر، حيث يكون الطريق الذي يزيد عن أربعمائة ميل فارزًا ومعلمًا، فكما اشتد القرآن مع المنافقين والمتقاعسين الذين لم يخرجوا للحرب ونحَّاهم، تشتد الظروف من بعد ذلك على المؤمنين الذين أطاعوا وخرجوا؛ لتعلمهم وترقيهم، وهذا في آخر غزوات محمد ﷺ، كأنه يهيئ جيشًا صفَّاه الإيمان والشدائد، يمكن الاعتماد عليه فيما بعد. لقد عانى المقاتلون المسلمون من الحر، ومن قلة المطايا ومن قلة الزاد، بل ومن العطش الشديد أيضًا في بعض المناطق خلال المسافة الطويلة.

وقد نزلوا في بقعة خالية مقفرة في الطريق لا ماء فيها ولا حتى سراب، حتى جفت حلوق هذا العدد الكبير من المقاتلين، وأوشكت خيولهم على مضغ الحجارة، وكانوا يؤمنون بأنهم في اختبار لإيمانهم يصرون على النجاح فيه على أفضل وجه للنجاح يمكن لأتباع الأنبياء أن يحرزوه، ثم طلب التخفيف عن الناس نيابة عن الناس واحد من أكثرهم طاعة وإخلاصًا، وهكذا غالبًا يكون طلب التخفيف مقبولًا من واحد من المرضي عنهم، لقد تقدم أبو بكر بلطفه ونقائه ورحمته إلى النبي وقال له: يارسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادع الله.

قال النبي: أتحب ذلك؟

قال أبو بكر: نعم.

فرفع النبي يديه ولم ينزلهما حتى أظلت الجيش سحابة مثقلة، أنزلت مطرًا خفيفًا، فاستعد كل أفراد الجيش ووضعوا الأوعية والقرب أمامهم، ورفعت الخيول والجمال رؤوسها وفتحت أفواهها للقطرات اللذيذة وامتلأت أعينها بالحبور، ثم هطل المطر مرة واحدة وغمر الوجوه التي تنظر إلى السحابة، فرفع الرجال له الكفوف ولم ينتظروا امتلاء الأوعية، وغسل الماء المنهمر ثيابهم وأبدانهم، وارتعشوا من السعادة وهم يتخلصون من حر أبدانهم وإجهادهم، تحت السماء التي كانت صقيلة مثل الزجاج فوق الحجاز، ثلاثون ألف رجل يرون معًا معجزة نزول الماء فقط على الأرض التي عسكروا فيها.

ولما وصل النبي محمد ﷺ بجيشه إلى تبوك لم يخرج له جيش روماني يتصدى له، فمكث هناك بجيشه وقتًا، لكن لا جديد، الروم إذًا تركوا عرب الشمال للفراغ، وظل محمد ﷺ هناك وقتًا وهو يعلم جيدًا أن هذا المكوث

سيكون له صدى عال في شمال الجزيرة، ويصنع واقعًا جديدًا، مثل حصاره للطائف.

ونتيجةً لهذا الإخلاء خضعت لدولة الإسلام على الفور كل من إيلة وجرباء وأذرح ودومة الجندل، وترك محمد ﷺ المناطق الأخرى التي لم تخضع له للصدى القوي جدًا لما حدث. كان البعض من أهل الشمال شاردين في الحاضر ويتكلمون عن النبي العربي الذي تجنب هرقل العظيم مواجهته، وكان بعضهم شاردين في الماضي يقولون: لماذا لم يخرج إليه هرقل؟

لم يخرج هرقل بجيشه لملاقاة هذا الجيش لا لأنه استصغر شأن هؤلاء الإسماعيليين الذين انتظموا خلف محمد ﷺ، لم يكن الأمر كما تمناه البعض وهم يشعرون بالحسرة، كانت الخلافات العصبية الثرثارة التي لا نهاية لها بين القائلين بأن للمسيح طبيعتين متحدتين في شخص واحد، وبين السريان والأرمن والأقباط والأحباش القائلين بأن شخص المسيح ذو طبيعة واحدة من جوهرين مختلفين، كانت تلك الخلافات التي يتشاجر العامة بسببها أمام الدكاكين والمخابز وحظائر الماشية وهم لا يمتلكون الموهبة للتعبير عنها والجدل بشأنها ويقلدون فقط رؤساءهم، قد أصابته بالضجر والإحباط، ووجد نفسه، وللحفاظ على كيان الإمبراطورية يطرح عقيدةً أخرى يحاول أن يجمع عليها الناس، وهي أن الطبعين البشري والإلهي في المسيح قد اتحدا فيه فصار له مشيئة واحدة، وتحمس لنشر هذه العقيدة وجعلها عقيدة رسمية للدولة، وكان يأمل في أن يبلع الخلقيديون هذه العقيدة، ويتقبَّلها أهل سوريا ومصر، فيتوحَّد الناس، ولكنه في النهاية، ورغم ما اتخذه من إجراءات، وما قام به من جولات، وجد نفسه قد أضاف قولًا جديدًا لا أكثر أثار عليه الكثير من التحفظات والغيظ من المتمسكين في الطرفين، ولم يستطع إنجاز أكبر تحد

للمسيحيين، وهو الاتفاق على قول واحد في المسيح؛ وظل الناس من حوله يتبادلون الاحتقار والاتهام بالكفر، وقد سبب هذا نوعًا من الإزعاج والسأم له كملك، وكمؤمن أيضًا.

لقد تهامس الناس، الأرثوذكس، وغيرهم، بقرب وقوع غضب الرب على هرقل بسبب هرطقته، وكان اليهود يتلذذون بالتفوه بأن زمن مصائب الإمبراطورية قد اقترب، يغيظون بهذا الكلام أعداءهم من المسيحيين، ويؤكدون لهم أنهم أدرى بما في أسفار الأنبياء منهم، وأنهم وإن كانوا سعداء جدًا بالدولة، وعودة الصليب الأعظم، ويشعرون بأن الله معهم، إلا أنهم في الحقيقة ضائعون ومتوهمون، ومتخبطون في متاهة لاهوتية آخذة في التمدد. وأفشى اليهود بإلحاح جريح يريد أن يغيظ من يجهز عليه، نبوءة بين الناس جميعًا بأنه قد اقترب العهد الذي سيخضع فيه المختونون العالم، معتمدين في ذلك على الكتاب، وعلى التقاليد الشفاهية التي توارثوها وحفظوها بقوة الشعور بالهوان، ومعتمدين على تفسير النبي دانيال لحلم نبوخذ نصر، فالمملكة الرابعة في الحلم هي الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن هناك أي لبس حتى عند المسيحيين أنفسهم ولا عند هرقل في أنها هي الرابعة، لذا كان اليهود ينتظرون المملكة الخامسة، مملكة الله، التي ستدمر الإمبراطورية التي لم تكن عند اليهود أكثر من مملكة وثنية ضخمة.

كل هذا كان يتناهى إلى سمع الإمبراطور المؤمن بملكه إيمانًا عظيمًا، والمتدين المؤمن في ذات الوقت بالنبوءات، وقد عرف من السريان وغيرهم أن هذه الأمة الناشئة في الجزيرة العربية من نسل إسماعيل تمارس الختان، وإن كانت لا تتقيد بالشريعة الموسوية التي تقضي بأن يكون في اليوم الثامن، وعندما انفرد بنفسه وفكَّر في الأمر طويلًا، عجز عن خداع نفسه بإيجاد تفسير

آخر للمملكة الرابعة، وعجز عن صرف وجهه عن التأمل في كون الصراع القاسي الطويل مع الفرس الذي سعد بنتيجته النهائية، يبدو الآن أمامه كعمل إلهي لإفساح الأرض لقوة ناشئة، ولم يرجِّح الإمبراطور أن تقع النبوءة عن المملكة الخامسة بصحوة يهودية، بل وقع في قلبه أنه من الجائز جدًا أن تكون تلك النهاية، ببشائرها التي تهل من جهة تبوك، ستكون على يد محمد ﷺ ومن معه الذين يؤمنون بإله واحد خالق الكل، الذي ليس له شريك، لا يتنازعون في طبيعته ومشيئته، لذا اختار الإمبراطور أن لا يذهب، فقد سيطر عليه الشعور بأنه إن ذهب ليواجه المسلمين، سيكون قد أخرج المارد من قمقم النبوءة.

أعلال

طليحة بن خويلد ومعه جماعة من أهله بني أسد، يخيمون في واد كئيب مليء بالحصى أثناء سفرهم في صحراء نجد مجتازين إلى الشرق، والليل يائس وشديد الظلمة، والريح مذعورة وعنيفة، ولها أصوات كأنها صراخ أرواح مهزومة، قد أهرقت ماء قدورهم، وأخذت تلقي على أثوابهم العقارب، وظلت تملأ مناخرهم بالغبار حتى بعد أن تلثموا.

لم يعد لديهم إلا القليل من الماء المدخر في قربة واحدة، كل منهم يتمنى لو كانت له الجرعة الأخيرة فيها، فقد جفت حلوقهم من العطش، وغلب عليهم الوهن والكسل، وتشتت أذهانهم. أخذ البعض من الرجال المنهكين يتجولون حول المخيم، يقطعون المسافات بأرجل مهتزة بحثًا عن الماء في أي شيء، في شقوق الصحراء وجحورها، وتحت الصخور، ولا فائدة.

ظلوا في هذا العذاب والضياع حتى سخنت حدقاتهم تمامًا من العطش، ومن الريح التي لا تزال في صراخها اللعين، وكانوا يشعرون في متاهة الليل تلك بأن الصحراء خانتهم، وبدت لهم قاسية ومتهكمة، ومضلَّة، كأنها بلا نهاية. وكانوا يقاومون شعورهم بأنهم على مشارف مأساتهم النهائية، على مشارف السقوط متفرقين، رجلًا وراء آخر، هنا في الصحراء المنبسطة، لا يرفرف فيهم إلا ثيابهم، كما كانوا يسمعون في الحكايات عن المسافرين الذين هلكوا في المفاوز.

كان طليحة بن خويلد صامتًا وحده فوق صخرة بيضاء، وسط هذا الجزع

الذي يحيط به من أصحاب الأمعاء الجافة الذين يتمنون حتى أن يعرقوا فيلعقوا العرق المالح، غير أنه لا عرق، وكانت روحه سارحة في السماء ونجومها، وهو يشعر أن هذا الظمأ يرقِّيه، ويفتح له المدارج، وأن في هذا العذاب شيئًا عذْبًا، وأنه سيُهمَس إليه وحده.

أخذ يرهف سمعه مستعدًا بالوهن والرجاء، للخواطر الرحيمة التي يؤمن بأنها ستخطر له في أي لحظة. كان يصرف نفسه من أثر العيون من حوله التي تتعلق به وتؤمن بأنه الكاهن الذي يستطيع أن يفعلها، لأن رجاء بعض الناس في أوقات الشدة أشد إرباكًا من تجاهلهم، ويصرف نفسه أيضًا بكل عزم ويصفيها من أي كدر وهو يسمع بعض أهله المتذمرين من حوله يغبطون أهل المدينة على أنهم يسافرون مع محمد ﷺ صاحب الحظوة العظيمة الذي يستجيب له ربه فيرزقهم الماء في القفار، رب محمد ﷺ الذي أنزل المطر على الجموع في الطريق إلى تبوك.

كان أغلب بني أسد بعد أن رجع وفدهم من المدينة قد قنعوا لأنفسهم بأبسط معنى لإسلامهم، وهو أنهم على العموم في صف المسلمين، وكل من مع طليحة في السفر كانوا من أصحاب هذا الإيمان البسيط القابل للنمو في الظروف الطيبة، والقابل للتلاشي كالدخان في أي تجربة.

بعد ساعة أخرى بائسة من تجوال بعضهم في كل ناحية حول المخيم بحثًا عن ماء، عادوا من كل ناحية إلى أصحابهم ببطء وبخيبة الرجاء، فقد خاف كل منهم من قسوةِ وخبثِ أن يموت بعيدًا عن الآخرين؛ وفي لحظة، قام طليحة بعوده المديد فوق الصخرة، وقد دبت فيه عافية فجائية، ونظر في السماء قليلًا، ثم دار برأسه يجيل بصره في الظلام المحيط، فنبه الناس بعضهم بعضًا بكسل

إلى وقوفه، فنظروا جميعًا إليه وهم في حالة من الخشوع والانتظار، ورأوا بفعل هلاوس العطش والأمل ذبذبات من الضوء من حوله تعطيه هيئة خرافية، مثل التي تبعثها الحشرات الطائرة ليلًا، ثم أشار طليحة بيده بقوة تجاه فرسه أعلال التي كانت تمضغ في لجامها، بدون أن ينطق بكلمة، فأخذوا الفرس من لجامها وقربوها إلى الصخرة، ظانين أنه يريد أن يركبها إلى جهة ماء قد أُلهِمها بالكهانة، ثم أشار بيده إلى ناحية الغرب، وقال لهم: اركبوا أعلالًا، واضربوا أميالًا، تجدوا بَلالًا [ماء].

رقد طليحة فوق الصخرة منتظرًا عودة الفرسان الشبان الذين جعلوا فرسه (أعلال) في المقدمة ومضوا إلى حيث أشار، بعد أن كوفئوا باعتصار قطنة في فم كل منهم بعد غمسها في ماء القربة القليل، وسرعان ما نام، وناموا هم أيضًا مثله، نوم عطشى آملين، يخافون الموت في البيداء كالغنم الضائعة.

أغلق عينيه وهو يعلم أنه إما سيستيقظ وهم يصيحون من حوله أسفل الصخرة ويمسكون بثيابه ويوبخونه على الأمل الذي عذبهم به بأصواتهم المرهقة التعسة التي تشوش عليها الريح المشئومة، عندما يعود الرجال ولم يجدوا شيئًا على بعد أميال، أو يوقظونه بإكرام ولطف ويعلنونه نبيًا في بني أسد، قد أوحي إليه من فوق صخرة.

لقد نام طليحة نومًا عميقًا من شدة القلق، نومًا خاليًا من أية خواطر، وناموا تحت الصخرة نومًا عميقًا من سطوة الأمل. ووجد نفسه بعد مدة لا يعلمها ينظر في السماء وهو يسمع بنشوة، كأنه يحلم، صوت فرسه أعلال، وصوت الرجال يهرعون ويتضاحكون، ويتزاحمون على قِرَب المياه التي عاد الرجال بها.

اللات

عبد ياليل بن عمرو، زعيم ثقيف، ساهر بعد منتصف الليل في مقصورته يحاول أن يجلب النوم إلى عينيه ولا يجده، وهو يشعر بالاستفزاز أثناء انهماكه في الهواجس الشديدة، من أصوات المرح والطرب العفوية المتقطعة التي تنبعث من بيوت العائلات ويحملها الهواء. إنه يتخيل، وبأسى شديد، ليلة مخفية بين الليالي السود يدوس فيها محمد ﷺ بالخيل والرجال الشجعان بلده، ويحطمون اللات. وكان متبلبلًا فيما إذا كانت الربة ستمنع عن نفسها أم تتحطم مثل آلهة العرب الأخرى، وكانت خيالات تهشمها تبدو له نابية جدًا ولا تصح من رجل مؤمن مثله.

لا يستطيع عبد ياليل أن يفكر في أن يعطي ظهره لمحمد ﷺ ويتجنبه مثلما فعل هرقل البعيد، فمحمد ﷺ ليس بعيدًا، فهو في المدينة، بجيش لا مثيل له، وهو ماثل أيضًا في كل عشيرة في الجوار اتبعته على الإسلام، كل عشيرة هائمة ظهرت على أعين أهلها علامات الجرأة والاستقواء بعد أن أسلموا، رغم أننا لم نأت بجديد، فكل ما فعلناه أننا بقينا على ما نحن عليه. وهنا، يا عبد ياليل، في جزيرة العرب، لا يتقي شيوخ القبائل الغارات التي يدسها الغد إلا بلمعة السيف في الضحى، أو بلمعة الدينار الذي يدفع في أمسية طيبة، غير أنه لا هذا ولا ذاك يصلح مع ذلك الرجل الذي يصر على تحطيم الآلهة.

الذكريات التي تحرض هواجسه صعبة، فمنذ اثنى عشر عامًا، كان عبد ياليل يجلس بين أخويه متكئًا وهو لا يبالي بمحمد ﷺ الذي أتعبه صدود أهل

مكة وجاء إلى الطائف وطلب منه أن يعطيه فرصة ليبلغ الناس رسالة الله، فعامله هو وأخواه بجفاء شديد واستخفاف، وسخروا منه ولم يسمحوا له أن يبين لهم ما عنده، وما إن ابتعد عنهم حزينًا موجوعًا، سلطوا عليه الغلمان والسفهاء ليسبوه ويطاردوه بالحجارة؛ وهم لايدرون أن هكذا سيكون شأنه في يوم ما. هذا أول الهموم التي سقوه، ثم كان منهم أن زحفوا بجيش تجاهه بمكة عندما فتحها، وهم عازمون على أن يدخلوها عليه هو ومقاتلوه، ويفاجئوهم ويروِّعوهم، ويجمعوهم، ويُرقدوهم على حطام الآلهة المتفرق، ويذبحونهم على ذلك الحطام. أما آخر ما أوجعوه به فهو قتلهم لعروة بن مسعود، سيدهم وحبيبهم، الذي ظلوا يذكرون بكل رضا غيرته على أهل مكة وصراحته الشديدة مع محمد ﷺ عندما وقف وحده وكلمه ليصده عن دخول مكة للعمرة، واتهم معدن أتباعه الذين يحيطون به ولم يتخوف منهم، فناله ما ناله من قريبه المغيرة ومن أبي بكر الصديق، ثم فوجئوا به وهم يحسبون أن هذا الكريم حامل الديات أشد العرب ثباتًا في الدين، يعود إليهم في يوم ما ويعلن إسلامه ويدعوهم إليه، فباتوا مملوئين بالغضب، وصبَّحوه بالسهام عندما وقف في عليَّته يتنسم نسائم الفجر.

كان قد ذهب بعد حصار الطائف وراء محمد ﷺ، وهو يخفي عن أهله ما في قلبه من نية الإسلام، وفرح به محمد ﷺ وصاحبه أبو بكر والمغيرة بن شعبة فرحًا كبيرًا. ولو مكث هناك ما تعرض للقتل، ولكنه اختار أن يعود إلى الطائف وينغص على أهله بأن يجهر بإسلامه، ويحط من شأن اللات، ظانًا أن حب أهله الشديد له سيحرضهم على اتباعه.

بعد أن فك محمد ﷺ الحصار عنهم لم يهددهم البتة بأي بشيء، ولكنه يغير العالم الذي يحيط بهم بطريقة مهددة؛ وهم، وتحت ضغط الكبرياء، تباطؤوا في التعبير عن اضطرابهم من هذا التغيير، لكن قد حان وقت الاعتراف بالخطر.

كانوا مثل جماعة من الأشراف يجلسون متكئين في خيمة متماسكة يتمتعون بأثاثها ووسائدها ويشعرون بالستر والمنعة والطمأنينة، تناهى إليهم صوت الريح فتجاهلوه، ثم صعد هذا الصوت شيئًا فتجاهلوه، ثم لم يعد بإمكانهم الاستمرار على ذلك الإحساس بالثقة والانتفاخ وقد صعد الصوت كثيرًا كعواء الذئاب، وها هي ذي أطراف الخيمة ترفرف كأنها على وشك أن تطير. ولو أصروا على ما هم فيه من رصانة فارغة سيكونون بعد قليل في العراء، يملأ الرمل أفواههم وحدقاتهم.

هكذا تغير العالم من حولهم بشكل لا يمكن تجاهله: حجَّ بالناس عتاب بن أسيد الذي اختاره محمد ﷺ أميرًا لمكة، أمير مسلم يسيِّر أمور الحج، ورجاله يوبخون الحجيج العراة، ويسخرون من الآلهة التي يحملها المسنون معهم في خيامهم ويوارونها عن الأعين خوفًا عليها من التلف، أما كعب بن زهير الشاعر الفحل المشهور الذي كان يهجو النبي، ويطرب الوثنيون بأبيات هجائه وطعنه في محمد ﷺ والمسلمين والمسلمات، فقد ذهب إلى النبي بعد أن ضاقت به الدنيا وأسلم، ومدحه بقصيدة جميلة، فرضي عنه النبي ولم يعتب عليه بكلمة، بل وخلع عليه بردته إكرامًا له على أبياته. وقد أسلم ملكا عمان جيفر وعبد ابنا الجلند، وكذلك وفدت على محمد ﷺ وفود من ثعلبة وسليم وصداء وثمالة وعبد القيس من ربيعة، ثم وفد عليه وفد عذرة، ومن بعده وفد بلي. ثم إنه أرسل سرية هشَّمت الفُلْس معبود طيء، ومن بعد هذا زحف بجيش مرهب إلى تبوك، محمد ﷺ خرج ليلقى الروم وجيوشهم العظيمة!

أخذت هذه الأفكار تموج برأس الرجل القلق، وهو يشعر أنه نسي شيئًا محبطًا، فأخذ يعصر رأسه وهو يفتش في إحباطاته عن شيء نسيه، لأنه لا يصح للشيخ إن دعا أوجاعه للضيافة أن يترك منها وجعًا، حتى تذكر أن مالك بن

عوف الذي قاد قبائل هوازن وثقيف في حرب ثقيف، السيد الذي أوقد نار الحرب، وصاحب الخطة البائسة التي فرضها عليهم فذهبوا بالمال والنساء والأبناء، والذي أصر بحماسة أن يتم العمل بها وإلا قتل نفسه أمامهم، قد تسلل بهدوء في النهاية من بعد أن فك محمد ﷺ حصاره، تسلل من بين الثقفيين الذين هربوا معه من جيش محمد ﷺ، بدون أن يبوح لأحد بما ينوي عليه، ورضي بأن يحل مشكلته وحده، وتركه للسهر، وأصوات الرياح بالليل، والأفكار المسمومة؛ ذهب إلى محمد ﷺ بدون أي غصة وأسلم بين يديه، فردَّ عليه محمد ﷺ ماله وأهله، وأكرمه كذلك بمائة من الإبل، وعاد إلى مضارب قبيلته مبتسمًا وهو يضع يديه على أولاده، ويهنئ زوجته بسلامة العودة. وبقية الليل الطويل الذي يبدو كأنه لا صبح له، اكتفى الشيخ بأن يحسد القائد الشاب صاحب الخطة الخائبة الذي أسلم، يحسده على شيء واحد فقط: على روحه الحلوة التي أخذتْ ما لابد منه بكل بساطة.

بعد أيام قليلة، كان عبد ياليل يمضي ومعه خمسة رجال من الأهل في وادي حُرض الذي يبعد ميلين عن المدينة، يمضون فوق العشب المنتشر وبين نباتات الأشنان، وكان يبدو صلبًا ومتماسكًا، كأنه رجل وعر وشحيح ذاهب إلى السوق، وهو يتأهب كي يغلب الباعة ويعود بما يريد، بأقل ثمن، أو يلهيهم ويأخذ بغير أي ثمن. ووجدوا إبلًا نشطة منتشرة في الوادي، فأرسل أصغرهم كي يسأل الحارس عن هذه الإبل وعن أصحابها، ثم يستفسر منه عن أخبار محمد ﷺ، حتى يدخلوا عليه وقد عرفوا أحواله. انطلق عثمان بن أبي العاص، وهو أصغر الستة رجال سنًا، باتجاه الحارس الطويل الذي يقف في نوبة الحراسة، وما إن وصل إليه حتى ضحكا، وتبادلا الأحضان، فمن الجميل في لحظة مثل هذه أن يجد الرجل قريبًا له ييسر الأمر، ولا يجد رجلًا قد قُتل أحد

أحبابه بسهم من أسهم أهل الطائف في الحصار، إنه المغيرة، ابن البلد، الذي قتل الرجال في الإسكندرية وعاد منها إلى المدينة ولم يرجع إلى الطائف أبدًا. وأسرع المغيرة وهو مبتسم إلى الرجال فرحًا بقدومهم من أجل أن يسلموا، وتبادلوا التحية، ولم يلمه أحد بالطبع على الحادثة القديمة. وطلب منهم أن ينتبهوا للإبل لأنه سيذهب ليبشر الرسول. وانطلق المغيرة أمامهم، انطلق وهم مستبشرون بأنه كان أول من رأوا، ومعجبون من شدة حب المغيرة لمحمد ﷺ، ذلك الحب الذي جعله ينطلق بتلك السرعة وذلك الحماس من أجل أن يسعد نبيه بقدومهم كما قال. وقد رضيت نفس الشيخ بأن يكون قدوم وفد الطائف يسعد محمدًا ﷺ، فتنحنح، وأخذ يجول بنظره في مشاهد الوادي بخيلاء ظريفة وقال بصوت فيه فخر: إنه يريد أهل الطائف.

وما إن وصل المغيرة إلى المسجد لقي أبا بكر أمامه خارج المسجد، فبشَّر صاحب النبي بكل حماسة، فأضاء السرور وجه أبي بكر، لأنه يعرف أن النبي ينتظر إسلام ثقيف، ولم يكن هناك شيء في الدنيا يرضي قلب أبي بكر ويبعث الشعور بالسعادة في جوانحه مثل سرور النبي، وكان أزهد وأغنى نفسًا من أن يطلب من أحد أن يتفضل عليه بشيء له، إلا إذا تعلَّق الأمر بسرور محمد ﷺ، فيتغلب وقتها حبه لمحمد ﷺ على طبعه، لذا قال للمغيرة: أقسمت عليك باللّه لا تسبقني إلى رسول اللّه حتى أكون أنا أحدثه. كان أبو بكر الذي أسرع الخطى وهو فرح كل هذا الفرح بوفد الطائف، لا يزال يحتفظ عنده بسهم الطائف الذي أصاب ابنه عبد الله، عبد الله الذي لم يعد كما كان من قبل الإصابة، وظل مكانها يومض بالألم، واكتسى وجهه بصفرة لم تبرحه، كأنه على موعد قريب مع الموت.

ضرب عليهم النبي قبة من جريد النخل في المسجد، حتى ترق قلوبهم

وهم يرون تهجد الصحابة في رمضان ويسمعون قراءة القرآن. وكان أصغرهم عثمان بن أبي العاص أكثرهم حماسة للتعلم، وكان حريصًا على أن يعود إلى بلده وقد حفظ شيئًا من القرآن، ولم يكن يكف عن سؤال النبي عن العلم وطلب القرآن منه، وإذا لم يجده متهيئًا له ذهب إلى أبي بكر، فلاحظ النبي وصاحبه ذكاءه وقوة إيمانه وسرعة استيعابه، وتعلق قلبه بالقرآن، فأحباه حبًا شديدًا.

قاد عبد ياليل تفاوضًا ساذجًا وصريحًا بدا فيه أنه يرغب في أن يعود بالأمن الذي يريد بدون أن يدفع أي ثمن، كأن هذا وارد بفعل الالتهاء، لكن النبي كان منتبهًا وحليمًا وواسع الصدر، حتى وهو يستمع إلى الرجل وهو يتشفَّع بضراوة من أجل اللات لكي تبقى قائمة، ثلاث سنوات، حتى لا ينفجر السفهاء هناك بالغضب، دعها ثلاثًا، حسنًا دعها اثنتين، إذًا سنة واحدة، ماذا عن شهر واحد؟

وفي النهاية، أسلم الوفد، وكتب لهم النبي كتابهم، واستعدوا للعودة ولما سيقولونه للأهل. واقترب أبو بكر من النبي، وقال له وهو يشير إلى عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله، إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن؛ فوافقه النبي على رأيه، وجعله النبي أميرًا عليهم.

وبعد أن عاد الرجال، أرسل النبي من ورائهم سرية ليعفيهم من هدم اللات بأنفسهم، لأن هذا كان يبدو لهم صعبًا ومريعًا، وعلى رأس هذه السرية كان الغائب، المغيرة بن شعبة. وهكذا وجد أبناء عاصمة الوثنية الثانية، المفتخرون بأنفسهم، الناقمون من خذلان أهل مكة للآلهة، وجدوا أنفسهم في وضع شبيه بوضع أبناء مكة أثناء فتحها، ولكن من خلال اتفاق مع الكبار،

وبحضور سرية صغيرة لاتقارن بجيش محمد ﷺ في فتح مكة، على أن أغلب أهل الطائف الذين تجمهروا جميعًا، كانوا يظنون أن الربة ستفعل الأعاجيب بمن يقترب منها بفأسه.

ووسط دهشة الكثير من الرجال الذين جرحتهم السهولة جرحًا عميقًا، وولولوة النسوة وبكاء العجائز، نزل المغيرة بن شعبة على اللات بفأسه، ضربة إثر ضربة، ولم يترك اللات حتى استأصلها، تاركًا أهلها لحسرة العبادات الطويلة.

الأحلام الموحشة

الأسود العنسي في داره الواسعة المبنية بالطين التي يعيش فيها وحده، في قرية كهف خبان بنجران، بعد أن عاد بوجهه الصارم من خلوته الطويلة التي كان يناجي فيها الأرواح في كهف خفي مخيف، يطل في أعلى الجبل على بحيرة صغيرة من مياه الأمطار يعلوها الضباب، والشجيرات نبتت في الصخور حول ضفافها.

يقف في الضحى على مصطبة داخل بيته، عند جدار البيت الجنوبي الذي لا يعلوه سقف عند تلك الناحية، ويطل برأسه من نافذة ضيقة وطويلة، على حقول البُر الخضراء الجميلة التي تهزها الريح وتهز سعف النخيل المتفرق تحت الجبل البعيد.

أخذ يبدل نظره بين جنبات الحقول الواسعة، حتى نظر إلى أسفل، فوقعت عيناه على الشابة العنسية الجميلة خمرية اللون ذات الشعر الأسود الناعم الطويل، التي يقع بيتها في منخفض صغير في ظهر بيته يحتوي على بعض البيوت، تنخفض أرضه قليلًا عن الأرض التي ينتصب عليها بيته. لقد ظهرت في فناء بيتها كما كانت تظهر دائمًا في صدف الصباح الجميلة، مثل ظبية بريئة تتريض بعد اليقظة. وهو يسعد كثيرًا إذا بدأ يومه بالتلصص عليها وهي على سجيتها غافلة عن أشواقه التي لا تعرف حق الجار. انخفضت ومسحت برقة على ظهر غزال صغير يعيش بين المعيز التي تربيها، حتى لامس شعرها الأرض، ثم قبلت غزالها الرقيق في فمه، فغاب العنسي في نشوة النظر إليها وقد ارتمى ببدنه على الحائط وعلت أنفاسه، وغرق في خيالات الصبح لرجل متوحد بات

ليلته يعاقر الخمر. فتحت الريح منخريه، وحملت إليه نفحات فاتنة من رائحة دبس التمر المنبعثة من بيوت العائلات المجاورة، وأججت غرائزه وهي تشاغب وتلعب بشعر الشابة الطويل، وتلصق ثوبها الأحمر بها، وصوتها، تلك الريح، كان مثل صوت قط بري في الخلاء المخيف، مهموم بالعثور على أنثى.

وفجأة؛ وفيما كان الشوق إليها قد صلب العنسي على جدار بيته، قامت الشابة وأسدلت ثوبها عليها بيديها وأخذت تتوارى مسرعة بخلخالها الفضي بعيدًا عن الريح المعربدة، فضرب الأسود العنسي الجدار بيده محتجًا على انسحابها. ذلك المشهد لها وهي تهرب، وتبسط عليها ثوبها الأحمر الذي تنفضه الريح، كان الأخير. إذ ما هي إلا أيام قليلة حتى زفها الأهل إلى صنعاء، بعد أن تزوجها شاب من أبناء الفرس حكام البلاد، ولم يعد الأسود يراها أو يرى غزالها الذي أخذته معها، إلا في الأحلام الموحشة.

في هذه الأيام الأولى لآلام الفقد، حيث لم يعرف قدر ولعه بها إلا بعد غيابها للأبد، صارت كل شيء يمكن أن يذهب ولا يعود، صارت القبيلة التي قد تنزوي كانزواء الشابة وهي تهرب من الريح، بفعل ذلك النبي القرشي الذي يقول الناس إنه يريد أن يجمع الناس في أمة واحدة، صارت اليمن العريق صاحب الحضارة الذي يستحق شعبه العربي أن يحكم نفسه بنفسه لا أن يسوده الفرس بعد الأحباش، صارت اليمن الذي يستحق أهله أن ينعموا بخيراته بدلًا من أن يقدموها جباية للمحتل الفارسي، صارت اليمن الذي يجب أن يتخلص من الأديان الدخيلة كلها التي أججت الحقد والجدل بين أهله البائسين، صارت اليمن الذي يجب أن لا يذهب مع محمد ﷺ الذي صعد نجمه كثيرًا حتى اعتنق هؤلاء الحكام الفرس دينه ودانوا له بالولاء.

كان الغيظ يكاد يقتل هذا العائد من كهفه وهو يسمع حديث الناس في

مجالس نجران من حوله عن محمد ﷺ، وكان يلوذ بالشرود كأن ما يقولونه موجه إليه وحده، ليجرحوا به كبرياءه. اليمن الذي يأسف عليه العنسي ويريد أن يسترده، يتكلم أهله عن نفس ما يتكلم عنه العرب كلهم في هذه الأيام التي ما عاشوا مثلها من قبل، النبي محمد فتح مكة، وحطم الأصنام الشهيرة، ويستقبل وفود العشائر العربية التي تأتي إليه للمبايعة، بل ويبدي استعدادًا لمواجهة الروم. إن له الآن سطوة مدهشة على النفوس غاب بسببها نجباء القبائل تمامًا في الظل، ولم يعد هناك من يمكن أن يظهر ويهتم به الناس كثيرًا في وجود محمد ﷺ. يتوجع العنسي وهو يسمع أخبار النبي القادمة من الشمال، مثلما يتوجَّع الكثير من النجباء، ذلك الوجع الذي يشعر به الرجل إذا تخبَّط الناس في كتفيه وهم يهرعون إلى رجل غيره، وقد كان يغمره إحساس عميق وقديم بأنه رئيس، وقادر على الصعاب، وأنه أمنية اليمن الذي طال حزنه.

انتشر بين العرب مؤمنهم وغير مؤمنهم أن النبي القرشي يبشر بكل طمأنينة بانتشار دينه بين أهل الحضر وأهل البادية، ولن يمنع انتشاره أي سلطان من سلاطين الأرض، ويبشر بكل طمأنينة بفتح العراق والشام ومصر؛ وقد صدَّق العرب مؤمنهم وكافرهم أن هذا سيحدث لا محالة، ذلك لأنه صار عندهم الرجل الذي يمتلئ فمه بالحقيقة؛ وفي مجالسهم التي ينعشونها بالحديث عن الأعاجيب، استحوذت عليهم سيرته، فكانوا يتسامرون بذكر وقائع نجاته الغريبة، القديم منها والحديث، لقد نجا من سراقة في الطريق للهجرة، ونجا كذلك من كل تدبير لاغتياله في المدينة على يد اليهود؛ أما أنا فأعجب يا إخواني من وقوع البلايا على أكابر المناوئين له، وأعجب من سهام دعائه التي لم تخطئ جبابرة مكة، وماذا تقول في نبوءاته العجيبة يا صاحبي؟! لقد أخبر أصحابه في غمار معركة بدر بالنصر، وقد كانوا قلة، بل وعيَّن مواضع قتل

أكابر من قريش، فلانًا يقتل هنا، وفلانًا يقتل هنا، فرقدت جثة كل رجل حيث أشار محمد ﷺ، ثم إنه في معركة أحد رأى رؤيا ففسرها بما أصابه في أصحابه فيها، نعم، وبشَّر أصحابه بالعمرة فاعتمروا في سلام بعدها بعام ولم يصدهم أحد، حتى خيبر أخبرهم بفتحها على ما هي فيه من منعة وتحصين، ففتحوها كما أخبرهم.

لكل هذا كان أغلب هؤلاء العرب المتسامرين في كل ناحية، في اليمن من حول الأسود العنسي، أو في غير اليمن، يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن ما لم يقع بعد سيقع، وأنه ليس من العقل الوقوف في طريق مسيرة محمد ﷺ؛ كان يقر بذلك حتى من كان يحز في نفوسهم انتصاراته وثباته والجلاء واليقين الذي يتكلم به، ويحز في نفوسهم أن يتبعوا رجلًا ليس من قبائلهم، إلا أن العنسي كان واحدًا من القلائل الذين لا يقرون بذلك، كان يؤمن بأنه لا يحدث غدًا إلا ما يستطيع الرجال الأشداء عمله.

آمن العرب بأن الزمن يفي بما يعد به محمد ﷺ، وأن الغيب ينطق على فمه؛ وقد كان الفارق بينهم وبين من تربوا على القرآن حوله في المدينة وجاهدوا معه، هو أن أصحاب محمد ﷺ يؤمنون بأن وعوده تقع عبر تضحيات عظيمة ومكابدات وصبر جميل منه وممن معه، أما غير المؤمنين، الناظرين للثمار، والمتعلقين بنهايات القصص كأغلب جمهور القصص، فكانوا ينظرون للتوفيق وحده، خاليًا من أي معنى عميق يربي الإنسان، لذا ارتبط عندهم ما يحدث لمحمد ﷺ كقائد من نوع خاص، بمحمد ﷺ نفسه ووجود محمد ﷺ، ذلك الرجل القوي الرحيم اللبيب شديد الجاذبية الذي يعيش في المدينة، أما ارتباط هذا في أذهانهم بالله فكان ضعيفًا، أو أضعف مما يجب.

صار العرب فريقين بعد النجاح الذي حققته دعوة محمد ﷺ وتقاطر الوفود على المدينة، فريق المؤمنين الحقيقيين، الذين عمل الإيمان فيهم، وسبغت العبادات والتلاوة أرواحهم بحزن شفيف ترك آثاره على وجوههم التقية، وفريق المشاهدين المتحلقين الذين لا شيء قد ترك أثره على وجوههم إلا عوارض الحياة، وليس في أعينهم ذلك القدر الكافي من العطف الذي يصنعه الولاء، بقدر ما فيها من اليقظة الواقعية للصيادين الذين يتعاملون مع المواقع، تقدمًا وانسحابًا، بكل سهولة، وبغير أي عاطفة.

إن هؤلاء المشاهدين يتابعون ما يجري بأبصارهم ولم يتلذذوا بالإيمان، ويتكلمون مع بعضهم بعضًا كأعضاء مرموقين في وفود كريمة، أو كأبناء قبائل ارتضوا ما رجع به الأعضاء من دين محمد ﷺ، أكثر مما يصغي الواحد فيهم إلى نفسه ويسمح للتعاليم بأن تفعل فعلها في ضميره. وهؤلاء المشاهدون، هم كأي مشاهدين، يمكن أن ينصرفوا مع أي حدث كبير يثير الفوضى في الدائرة الكبيرة التي تحيط بمحمد ﷺ ولاينظر أفرادها إلى أحد غير محمد ﷺ؛ وبسبب وجود محمد ﷺ بشخصيته الآسرة لم يدرك أي من الفريقين الخطورة، إذ ظلوا ينظرون إليه ولاينظرون إلى بعضهم بعضًا، لذا لم يكتشفوا اختلافهم المخيف، لم يدرك المؤمنون، فريق القلة، أن معهم جماعة ضخمة وشرسة ممن لا يشاركونهم ذات الأحاسيس الإيمانية الراسخة، لأنه لم تأت تلك الساعة التي ترتج فيها الحلقة الواسعة وينقسم المتجمهرون وتفرزهم قلوبهم، فيكتشف القلة فجأة أنهم حراس الحلقة، ويكتشف الكثرة أنهم مشاهدون فقط.

انتصارات محمد ﷺ وثباته، والجلاء واليقين الذي يتكلم بهما، كانت كلها تحز في نفوس الكثيرين، لكن الوجع على أشده عند القبائل الضخمة التي

تتمتع بعدد وافر وهيبة مشهودة وتثقِّف أبناءها جيلًا بعد جيل على الاستهتار بالآخرين، إنهم يئنون من الغيرة حتى أثناء اعترافهم بنبوته، يئنون من الغيرة حتى تمنت قلوب رجال هنا وهناك، أمنية واحدة، تمنوا أن يخرج من قبائلهم رجل مبارك وعجيب مثل محمد ﷺ، يتسامر الناس بشأن ما يشمله من توفيق؛ لأننا لسنا أقل أبدًا من قريش حتى يخرج منها نبي ولا يخرج منا مثله.

واشتدت تلك الأمنيات شيئًا فشيئًا في النفوس التي أصابها الجزع من الظل الذي تذهب إليه القبائل بظهور هذا الدين الجديد، يعترفون بنبوة محمد ﷺ في النهار بنبرة تسليم، وفي أحلامهم المضطرمة بالليل يُبعَث أنبياء محليون، يتبعهم الناس، ويأتون بوحي جليل تخشع له القلوب، وينتصرون في المعارك، ويفتحون العراق والشام، وهكذا كانت أمنيات تلك الأمم الصحراوية المضطرمة؛ وأمنيات الأمم المضطرمة في نهاية أمرها تضع الرجال، حتى لو تمنت أمة شيطانًا وضعته، تمامًا مثلما توضع بيضة.

في النافذة الطويلة المفتوحة التي كان يطل منها الأسود العنسي على فتاته التي غابت هي وغزالها الصغير، حطت حمامة برية حنطية، وغمر الضوء ظهرها وذيلها، وبقي وجهها وصدرها مظلليْن، وأخذت ترنو إلى الرجل الأسود المهموم، الذي كان يفكر في العودة إلى كهفه المحجوب تحت الضباب، وشعر أن هذه الحمامة هامة، وأنها ليست طائرًا تافهًا بريئًا أتى عبثًا، فلعب لعبته العجيبة، أمرها بصوته الصارم أن ترفع جناحها اليمين، فرفعته ونفشته، ثم أمرها بهدوء أن تضعه وترفع الجناح الشمال، ففعلت، فهز رأسه لها مستحسنًا طاعتها وسرعة تلبيتها، ثم أمرها بأن ترفع الجناحين معًا، فرفعتهما وأخذت تهزهما ببطء، ثم ثبتتهما مرفوعين، وقد ضمت رأسها إلى جسدها وغيَّبت

عنقها، كأنها تعبر عن خضوعها له، فأمرها بصوت ينز منه العشق والعذاب أن تذهب إلى الفناء الذي كانت تقف فيه الفتاة وتحمل أي شيء من هناك وتعود، فطارت على الفور وهو يستعذب خفقان جناحيها، ثم عادت بعد قليل وحطت في النافذة وفي فمها مثل خيط من صوف ثوبها الأحمر، ونظرت إليه كأنها تنتظر أوامره.

كان سعيدًا جدًا؛ لأن هذه كانت أفضل مرة يسيطر بقواه العجيبة على شيء، وغير هذا فهو يسمع الآن فيه صوت، كأنه ينبعث من الكواكب، يهمس إليه بأنه سيطاع، من الأشياء، والناس، وأن عليه أن يمضي بكل ما عنده من عنفوان.

ابتلع ريقه وكلم الحمامة البرية، وقال لها: من أنا؟ هل أنا...؟

وبعد لحظات من السكوت، وقد أخذ وجهه من الفرح والانتظار هيئة شبه غاضبة، قيل له بصوت طفولي رقيق: أنت النبي... أنت النبي اليمني.

حدق فيها مندهشًا، ولكنه سرعان ما أدرك أن هذا الصوت العذب يأتيه من خلفه، فالتفت ببطء، وكان بعض الصبية قد تسللوا وراقبوا بكل فضول ذلك المشهد العجيب للرجل الأسود الخارق، قريبهم صاحب الخلوات، وهو يأمر الحمامة؛ وكان الطفل الباسم الرقيق الملامح الذي نطق بالكلمات التي أذهلته، وطيَّبت روحه الساخطة، الذي يتقدم الأطفال ويغمر نور الضحى وجهه الحنطي، وتعلقت عيناه بعينيه، هو شقيق الشابة التي ذهبت إلى صنعاء، وهز العنسي رأسه وقد فعلت الكلمات فعلها فيه.

مجرى النهر

في العام التاسع للهجرة، كان أبو بكر يقف وحوله ثلاثمئة رجل من المسلمين، بينما النبي يقلد ويشعر عشرين ناقة بيده، وبعد أن فرغ من تقليدها وإشعارها بعثها معهم.

بعد أن ظهر الدين بين العرب، كان الصحابة لا يحبون للنبي، ولا هو يحب لنفسه، أن يتأذى من المظاهر الوثنية الباقية في الحج: كالعري، ونداءات الشرك، والوقوف بوادي محسِّر بمكة للتحدث بشأن مفاخر الآباء وأمجادهم. وكلها أشياء صارت تعكر مزاج العباد الموحدين كما لو كانت مخازي جديدة. وهذه المظاهر التي صارت تعكر المزاج لم تكن جديدة بالطبع، بل هي سائدة منذ أزمنة بعيدة طويلة، وكانت تحيط بالقلة من المستنكرين لها من كل جيل، لدرجة الترويض، فكانوا يعيشون في رحاب هذا الزحام الوثني ببعض الصبر، وبالكثير من الشعور بالغربة. ولما تحطمت أصنام الحرم والأصنام الكبرى في جنبات مكة، وانحسرت نوعًا ما العادات الوثنية بظهور الإسلام، صار القليل منها الذي تبقى ويزاحم من أجل البقاء، أكثر استفزازًا، وجديرًا بمعالجة نهائية.

اختار النبي أبا بكر من بين أصحابه لكي يكون أميرًا على الحج هذه السنة، ذلك الموسم الذي يعتبر أول موسم نظامي؛ كي يعلِّم الناس ويضبط حجهم على النحو السليم؛ وقد أوصاه أن يعلن في الناس ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ لم يرسله النبي أميرًا على المناسك فقط، بل نائبًا أيضًا عنه في تمثيل السلطة الإسلامية بين العرب في أكبر وأكرم تجمع لهم.

وفيما كان أبو بكر ومن معه من المسلمين صباحًا في وادي العَرْج الذي يقع على طريق الحج بين المدينة ومكة، على بعد سبعين ميلًا جنوب المدينة، وقد نُودي لصلاة الصبح، ووقف أبو بكر ليكبِّر، سمع فجأة صوت ناقة النبي قادمًا من خلف ظهره، فالتفت ونبه المصلين خلفه إلى الصوت القادم الذي عرفه، فلعل النبي قد رغب في الحج فأدركهم، فليصلوا إذن خلفه. ثم ظهرت الناقة من المنعطف ومن غبش الفجر، ولم يكن يقودها النبي، بل ابن عم النبي علي بن أبي طالب، ففهم أبو بكر وهو يراه قد لحق بهم من دون جماعة من الناس، وعلى ناقة النبي، أنه إما قد بعثه النبي كي يكون أميرًا بدلًا منه، أو بعثه برسالة، وهو لم يكن ثقيلًا عليه أن يطيع عمرو بن العاص بعد أن أسلم بمائة يوم عندما كان ضمن جيشه، ولم يكن ثقيلًا أن يصلي خلفه، وبالطبع لن يثقل عليه أن يطيع ابن عم النبي التقي النقي السريرة قديم الإيمان والثبات مثله، ولن تؤلمه الصلاة خلفه، فبادره أبو بكر بقلب سليم: أمير أم رسول؟

فرد عليه بقلب سليم أيضًا: لا، بل رسول.

وشرح له أن النبي بعثه ليقرأ (براءة) على الناس، نزلت بها آيات من القرآن، ينبذ بها النبي العهد العام بينه وبين المشركين وهو ألا يصد أحد عن البيت إن جاءه، وألا يخاف أحد في الأشهر الحرم، ويعطيهم مهلة للنظر في عواقب الأمور، وكذلك ينبذ بها العهود الخاصة ذوات الآجال المحددة التي بينه وبين بعض العشائر العربية الوثنية، وكان لابد، وكما هي عادة العرب في عهودهم، أن ينوب عن النبي في نبذ العهد الخاص رجل من أهله إن لم ينبذ بنفسه. وما إن أبلغ علي بن أبي طالب أبا بكر بما حمله معه وقرأ عليه الآيات القوية التي نزلت من بعد خروجه من المدينة بالحجيج، حتى استوى خلفه في صفوف صلاة الصبح، وكذلك في كل الصلوات التالية، في الذهاب والعودة.

وعندما وصل الحجيج مكة، وقبل يوم التروية بيوم، قام أبو بكر فخطب في الناس وحدثهم عن مناسكهم، ثم تلاه علي بن أبي طالب الذي قام فقرأ آيات (براءة) حتى ختمها، وقال للناس بعد أن تلا الآيات: (لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريانٌ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك)، وقاما بمثل ذلك في أيام أخرى من أيام الحج، ومن ناحية أخرى، أرسل أبو بكر جماعة من الصحابة في يوم النحر للنداء في الأرجاء بهذه الكلمات التي ينادي بها علي بن أبي طالب.

وقد أُخذ الوثنيون بهذه الجدية والرسمية التي شعروا بها وهم يسمعون للرجلين يتكلمان بدقة، واحدًا وراء الآخر، في كل موقف، الشيخ النحيف الأبيض خفيف اللحية، أبي بكر الذي يعرفونه، الذي تليق به الرئاسة، الذي يبهت الشيوخ بكياسته وعمقه، والشاب القوي عريض الكتفين علي بن أبي طالب، الواضح الفتوة، الذي يبهت الشباب بشجاعته وحسمه.

لقد كانا مقنعين معًا بالسيطرة، بغير غلواء وبغير عنجهية، وكانت الروح بينهما روح تعاون وإحساس بالمسئولية، فما إن كلف النبي كلاً منهما بعمل حتى انكب على تنفيذه بكل جدية وطاعة، تمامًا مثلما حدث منهما منذ سنوات، عندما كان النبي في شعب العقبة في موسم الحج ينتظر المسلمين في وفد يثرب الذين سيتسللون إليه، وجعل معه عمه العباس يتوثق له مع اليثربيين أثناء تعهدهم على السمع والطاعة والنصرة، لأن إبرام العهود أو حلها لا يحتاج إلى أكثر من قريب ثقة؛ وقد كان العم مشركًا، بينما أبو بكر وعلي، وهما من خير المسلمين، واقفان بكل الرضا لمراقبة الطريق. إن شعورهما بعظمة الأمانة، وتيقن كل واحد منهما من عبء أن يكون من زمرة الرسول، ذلك العبء الطيب الذي يورثهما شعورًا بالنعمة الإلٓهية والوجل، لم يمنحهما الفراغ

الذي يسمح للإنسان بالنظر النرجسي في مساحة الدور.

وهكذا تليت على الناس بصوت جهور آيات براءة التي تعلن بقوة أنه لا مستقبل للوثنية في جزيرة العرب، وتحضهم على الدخول من باب الإيمان المفتوح على مصراعيه بدلًا من العيش بمخاوف المطارَدين، وخاصة بعد أن تجلَّت الحقيقة، ولم يعد هناك عذر للتريث؛ فقد كان كثير من الناس يشاهدون الصراع بين محمد ﷺ وأهله بهدوء المحايدين، وكانوا يرون أن انتظار النهاية هو عين الحكمة، فإن انتصر على هؤلاء وهم أهل الحرم فهو على حق تمامًا في كل ما جاء به؛ وقد حدث هذا بشكل صارخ، ولم يستطع صنم واحد من الأصنام الكبرى المنصوبة في أنحاء جزيرة العرب أن يحصن نفسه من ضربة الفأس أو يصيب من نال منه بالبرص، ولكن بعض هؤلاء الناس كانوا قد اعتادوا على التريث والانتظار، وأحبوا أن يعيشوا به لأطول فترة ممكنة؛ وبخلاف هؤلاء المحايدين الهادئين، كان هناك جمهور من الحاقدين، ومن عشاقي العشوائية المبهجة التي يحيا فيها العربي بغير سلطة، الذين لو أتيح لهم النصر على المسلمين نكلوا بهم واضطهدوهم وشتتوهم كما جاء ضمن الآيات.

ولقد بدأ الوثنيون الحرب ولهم هدف واحد وهو القضاء على هذه الدعوة وعدم إعطائها فرصة كي تكون أمرًا واقعًا، وهم يذكرون جيدًا كيف أرهقهم العمل طيلة سنوات، وبعزيمة لا تلين، على تشتيت المسلمين، وإفقارهم، وتخويفهم، والتحريض عليهم، وعلى محاولة اغتيال نبيهم؛ لذا فهم الآن، عندما يرون معالم نصر المسلمين الواضحة على الأرض، ويسمعون هذه الآيات التي تهددهم وتحط من عقيدتهم، لا يشعرون بالظلم، بل يشعرون باليأس.

كان الوثنيون من وفود العشائر المختلفة قد تعارفوا في موسم الحج هذا، بالإيماءات التي يخترعها المهمشون ومن يعيشون في غير زمنهم ويلتقطونها

ببراعة، وشدوا على أيدي بعضهم بعضًا، وتعاهدوا على الاستمرار على ما هم عليه، بتلك النشوة المخدرة التي يقاوم بها الضعفاء والسكان الأصليون تغيرات الحياة الكبرى. وما إن سمعوا نداءات أبي بكر وعلي بن أبي طالب الحازمة، ونفذت من ثقوب أرواحهم الجريحة، أخذوا يواسون بعضهم بعضًا، تلك المواساة الارتجالية العاطفية التي لا يعوَّل عليها كثيرًا، مثل المواساة التي يتبادلها العمال الذين تم تسريحهم من أعمالهم معًا بالقرب من البوابة، وهم يحاولون إخفاء ارتعاش أيديهم، عندما يقولون إن الدنيا واسعة، والفرص كثيرة، وتبيت النار نارًا وتصبح رمادًا.

كانت جزيرة العرب، في تلك الأيام النابضة، مثل الأرض التي يجب أن تتأهب لاندفاع نهر صاخب الجريان من عندها بماء السماء، نهر يجب أن يذهب بعيدًا، إلى آخر ما يسمح به العنفوان، وهو نهر الدعوة وحمل الدين للناس في كل بقعة؛ وكانت الوثنية العربية البالية مثل بعض التلال عند المنبع من الأشجار الميتة المنطرحة والجثث المتفسخة والمخلفات الرخيصة، ولكي يجري هذا النهر من المنبع إلى النواحي بأقوى تدفق ممكن، وبأعلى درجة نقاء ممكنة، كان من الضروري رفع كل هذه المعوقات والملوثات التي إن بقيت عطلت العنفوان وفرَّقت المسار وحملت للعالم أثرًا من تلوث الوثنية عند المنبع؛ ولم يكن من الإعمار في شيء أن يتم التعايش معها حتى تتحلل وحدها ببطء.

وبعد أن عاد الوثنيون من موسم الحج، وباتوا في مخادعهم، فكَّرت أغلب هذه الوفود في الصباح فيما يفكِّر فيه العامل المسرَّح منفردًا بعد الدفعة القوية من الدعم التي تبادلها مع زملاء الوجع: أرى أن أذهب وحدي إلى رب العمل، وأستسمحه من أجل فتح صفحة جديدة.

ما لا ينكره الأعمى

على جبل أحُد بصخوره الضاربة إلى الحمرة، وتتوزع في أنحائه شجيرات العوسج والمسيكة، كان النبي يصعد بسلام ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، بعد أن انتهوا من زيارتهم لأحبابهم شهداء أحد في المقبرة الواقعة بين جبل أحد وجبل الرماة. وكان النبي هكذا، إذا أحبَّ وصَل، ولا يلهيه واجبه الضخم ولا الكفاح الذي ينتظره عمن يحب وعما يحب، فبكل الحب لا يزال يزور هؤلاء الذين ماتوا في المعركة، بنفس الود والذاكرة الحية، ووعد اللقاء في الجنة، ولم يتبدد شيء من المشاعر التي يكنها لهم بفعل فرحه بالذين آمنوا من بعد ذهابهم، في أيام شتى خلال السنوات السبع التي مرت، وكذلك هو بكل الحب يزور حتى هذا الجبل الذي لا روح فيه، ويسعد برؤيته كلما رآه وهو عائد إلى المدينة.

وبعد أن استقر عليه الأربعة، متنعمين بالسلام الذي يمنحه الوقوف على الجبال، وهم يرون المدينة على بعد ميلين ونصف منهم، وادعةً ببيوتها ونخيلها بين الصخور السوداء للحرتين، والمقبرة من أسفل منهم تحف بها السكينة، خفق بهم الجبل، خفقة حنين، فقال النبي للجبل الذي يحبه، عن أصحابه الذين يحبهم: اثبتْ أحد، فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيدان. وهكذا، ومن فوق الجبل البعيد عما هو يوميّ، الجبل الباقي بعد أن تذهب الأجيال، ومن إطلالة على الشهداء الباقين أيضًا، أعطى النبي المنزلة الباقية لأصحابه الثلاثة، فأبو بكر كان قد اشتهر بالصدِّيق بين المسلمين، ويبقى له هذا بينهم إلى الأبد، أما الشهادة لعمر وعثمان فإخبار عن الغيب، وسيكون ما قال، ستأتي

به الأيام كما أتت بكل ما أخبر به الناس من قبل.

النبي الذي إذا أحبَّ وصَل، ولا يلهيه واجبه الضخم ولا الكفاح الذي ينتظره عمن يحب وعما يحب، قد أتت عليه أمواج متلاحقة من الوفود بعد أن حج أبو بكر بالناس وقرأ عليهم علي بن أبي طالب (البراءة)، وتخلص مجرى النهر القادم من الكثير مما كان فيه من معوقات ونفايات؛ ورغم هذه الأمواج البشرية، التي كانت تحمل معها رجالاً كراماً، وشيوخاً طيبي الأخلاق، وأشباه ملوك، إلا أن حبه للأولين في الكفاح لم يفتر أبدًا، هؤلاء الذين انضموا إليه في عاصفة التكذيب العاتية التي كانت تبدو بلا نهاية، ومنهم هؤلاء الشهداء الذين زارهم، وهؤلاء الذين صعدوا معه، وغيرهم ممن حملوا همَّ هذا الدين؛ ولم ينشغل بالأخص عن صاحبه الذي هاجر معه، لقد رآهما اليهودي وهما قادمان معًا من مكة في ضوء النهار، فظلا يمضيان معًا في جنبات المدينة، وظلا يسيران جنبًا إلى جنب في طرق السفر.

وصاحب النبي في الغار، الذي كان يكنُّ في الغار وفي طريق الهجرة للنبي حبًا شديدًا، أحب النبي في سعة المدينة وفي زحام المدينة كأنه لا يوجد في المدينة غيره، وأحب كل الذي للنبي، وكل ما يسرُّ النبي أن يراه، وكل من يسرُّ النبي أن يراه؛ وها هو ذا بعد إحدى صلوات العصر، يخرج من المسجد فيرى الحسن بن علي يلعب مع الأطفال، ووجهه الأبيض الوسيم قد مال إلى الاحمرار بفعل النشاط والحماس، وعلي بن أبي طالب الشاب يرقب ابنه البكر بكل حنان. ابتسم أبو بكر والتقط الحسن من بين الأطفال وقطع عليه لعبه، وحمله على عاتقه وقال: بأبي، شبيه بالنبي لاشبيه بعليّ؛ فأخذ علي بن أبي طالب يضحك موافقًا إياه. لقد فاضت عاطفة أبي بكر تجاه النبي وفاضت، فأحب من أعلن النبي حب الله لهم وحبه لهم، أحبهم حبًا واضحًا لا يغالب

نفسه عليه، وأحب آل بيت النبي وأوصى بهم، وسيقول من بعد رحيل محمد ﷺ: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته.

لم يكن اصطحاب النبي معه لأبي بكر في الأيام الكبرى الخالدة فقط، تلك الأيام التي يبرر الصحبة فيها أن أبا بكر عاقل حكيم يستحق أن يستشار، بل كان يصطحبه معه في زياراته للمسلمين في التهنئة وعيادة المرضى وفي الإصلاح بين المتخاصمين، وفي غير ذلك؛ وحتى عندما جاءه الصحابي الأنصاري عتبان بن مالك بعد أن أصابه العمى وقال له: يا رسول الله، إني قد أنكرت بصري وأنا أصلِّي لقومي، وإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي لهم. وددت أنك يا رسول الله تأتي فتصلي في مصلى فأتخذه مصلى. فوعده النبي بأنه سيفعل.

وفي الغد، وعندما ارتفع النهار، أخذ النبي معه أبا بكر وذهبا إلى بيت الرجل كما يريد، وصلى النبي بالناس في ناحية من الدار اختارها الرجل. ومشاهد المصاحبة بين النبي وأبي بكر كانت تحدث كثيرًا، فاعتادها الناس، وعززت عندهم يومًا بعد يوم مكانة أبي بكر الصديق في مجتمع المدينة، فهذه الصحبة الدائمة بينهما علامة مشرقة على حب النبي الشديد له وعلى تآلف روحيهما، وهي كذلك، وبغير شك، تزكية طويلة ومؤثرة، على مر سنين، لا ينكرها من أهل المدينة حتى الأعمى.

لم ينخفض تقدير النبي لإيمان أصحابه القديم بسبب ما حدث من رخاء للدعوة، فظل الأنصار هم الأنصار، وظل المهاجرون هم المهاجرون، وظلت خديجة هي خديجة، وظل يسعد كلما سمع صوت هالة أخت خديجة، لأنه يذكره بصوت زوجته خديجة، وظل أبو بكر هو أبو بكر، فظل يذكر بكل إخلاص قيمة إيمان أبي بكر في الظروف التي آمن فيها أبو بكر، وما قدمه أبو

بكر، ذلك وهو يخاطب أكثر الناس إيمانًا وعطاءً، وهو يخاطب المهاجرين والأنصار، حتى أنه كان جالسًا مع بعض الصحابة، وجاءه أبو بكر وعلى وجهه علامات الضيق التي يعرفها النبي، الذي يعرف فيه بعض الحدة التي تفاجئه أحيانًا فلا يملكها، فلا يكون منه عدوان إلا بالكلمة يتكلمها ثم يحزن منها، وحكى له بأسى كيف أنه اندفع وأساء إلى عمر صاحبه بكلمة كما يحدث قليلًا بين الأصحاب الكرام، ثم ندم من بعدها وسأله أن يغفر له فأبى عمر، يقول ذلك وهو لا يجحد خطأه، أو يتنعَّم برصيده، بل بعاطفة المحب الذي كان يتوقع من حبيبه صبرًا أكثر وسعة، فقال النبي ثلاث مرات: يغفر الله لك يا أبا بكر.

في ذلك الوقت كان عمر يطرق باب بيت أبي بكر بعد أن ندم على أنه ترك صاحبه الأكبر منه سنًا محتارًا ولم يقل له غفر الله لك، وجعله يمشي حاملًا وجع الإساءة في نفسه الجميلة، ولما لم يجده توجه إلى مجلس الرسول، فما إن رأى النبي عمر حتى بان عليه الغضب، فخاف أبو بكر الذي يعرف مقدار حب النبي له، خاف على صاحبه عمر من أن يؤذى بسبب هذا الحب، فنزل أبو بكر من حبه لعمر على ركبتيه وشهد على نفسه وقال للنبي: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين.

فقال النبي وهو يوجه كلامه للحاضرين عنده: إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟

الشيخ الرازح تحت الصبغة

يجلس مسيلمة عصرًا بين بعض الناس تحت حائط مزرعة، وأثناء سهوه عن حديثهم وهو يضبط ثوبه بأطراف أصابعه عند صدره وكتفيه وينظر لخاتميه ويجدد شعوره بالكبرياء، تحولوا من الكلام عن أساطير الأمم العربية البائدة، مثل طسم وجديس، إلى أنواع الهلاك التي نزلت على القرى التي كذبت المرسلين، لقد اكتشف ذلك فجأة، وضاق به عندما أمعنوا فيه، فهو لا يريد أن يصل إلى سمعه أي شيء يدعوه للخوف والتوقف وهو يشق طريقه إلى الأقدار، فهو اختار أن يتحدى، وأن يمضي خلف نداء طموحه بكل ما فيه غضب، إلى النهاية، مهما كانت النهاية. وشعر مسيلمة وكأنه يتعرض للاختناق بعدما فوجئ بأحد الرجال يقول بصوته الجميل الذي غلب عليه الوجل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾. ولم يكد مسيلمة يستريح من تعب التلاوة، حتى اغتاظ لأن الآخرين أخذوا يتكلمون عن أشقى ثمود هذا، وهو لا يريد أن يتأمل في أمره، واختار أن لا يقوم وأن لا ينتبه، إلى أن يتلقفوا شيئًا آخر يتكلمون عنه.

وفي لحظة، شعر بدبيب خفي في جوانحه يسيطر عليه، وإذ ذاك، رمى نظرة جهة اليمين استجابة لإلهام ذلك الدبيب، فارتبك لما رأى القادم على أول الطريق، الذي سيمر حتمًا بمجلسه، واهتز قلبه وطلب ممن كانوا عن يمينه

بكل خفة لم يعهدها الناس عليه، وعلى وجهه ابتسامة خزي، أن يداروه عنه حتى لايراه عندما يمر.

إن الرجل الذي شعر بالاشمئزاز من إسلام الأسير ثمامة بن أثال في المدينة بعد فك أسره، والذي وقف على جثمان هوذة حاكم اليمامة وألقى إليه نظرة وداع وهو يتكتم في أعماقه سخرية من الحاكم الذي لم ينل شيئًا من محمد ﷺ، جاءت به الأيام إلى محمد ﷺ ومدينته رغمًا عنه، ليجلس تحت حائط مزرعة من مزارع المدينة، وحوله أصحابه من بني حنيفة وبعض أهل المدينة، فقد كان ضمن وفد بني حنيفة الذين جاؤوا ليعلنوا انضواء قبيلتهم تحت راية الإسلام، ليلحقوا بالعرب الذين دخلوا في الدين الجديد من قبلهم؛ أما القادم من جهة اليمين، الذي ارتبك مسيلمة عندما رآه، فهو محمد ﷺ نفسه.

قبل دخول وفد بني حنيفة المدينة، نزلوا في بلدة صغيرة بالقرب منها بها سوق بسيطة، وهنالك بعد أن أكل مسيلمة ونام واستراح، تنحى جانبًا قليلًا عن رفاقه وأخذ شيئًا من لحيته، وهذَّب شاربه، وخضب شعر رأسه وشعر لحيته بالسواد الحالك من نبتة الوسمة، وبعد هذا فرك وجهه بشدة بعجينة خضراء حتى نظفت بشرته والتهبت؛ وقام سعيدًا وقد تخلص لتوه من عشرين عامًا من عمره قبل أن يقف وجهًا لوجه أمام محمد ﷺ الأصغر منه سنًا، الذي يقول الناس عنه أنه لا يمتلك إلا القليل من الشعرات البيضاء، وكان يتوهَّم ما يتوهَّمه كثير ممن أفرطوا في التفكير في أحد بالحب أو الكراهية، يتوهَّم أن محمدًا ﷺ مشغول به هو أيضًا.

قام منتشيًا بعوده النحيف، الذي لم يحفظه من أن يسمن إلا الغل والمداومة على التحدي والمنافسة، وأخذ يتحرك أمام الوفد في تلك البقعة

بأقصى ما يستطيع من خفة، وكان يضغط على أعصابه وعضلاته حتى يصعد على الرمال والأحجار بدون أن يتحامل على فخذه؛ كان يفكر فيما يفكر فيه كبار السن عندما يقبلون على ميدان الصراع أمام منافسيهم الأقل عمرًا، حتى لو لم يكن ثمة علاقة بين الأمر الذي عليه التنافس والروح الشبابية، وهو إثبات أنهم ما زالوا بخير، ويتمتعون بعافية الشباب.

لم يمر وقت يُذكَر على دخول مسيلمة المدينة حتى أفاق بهدوء وحزن على تفاهة تصوراته، وعلى أن الندية لا وجود لها خارج خيالاته، واستعان بما عليه من سواد الشعر والبشرة المتوردة بفعل العجينة، وكابد حتى يكبت أحاسيس شيخوخته المنهزمة، خلف البهجة الزائفة لشبابه المصطنع. لقد تمكن في الأيام الأولى من وجوده في المدينة من أن يبدو للناس طيبًا نوعًا ما وراضيًا، ومنصرفًا أيضًا عن الظهور، ولا يريد أي شيء، مثلما ينجح الكثير من المحنكين في إخفاء أحقادهم في المواجهة الأولى التي يعرفون أن بعض الناس يراقبونها، وقد أعانه على هذا شيء آخر غير حنكته، بل أعانه هذا الشيء أكثر من حنكته، وهو ذلك الخدر الطبيعي الذي تسببه صدمة الواقع، الخدر الذي يسلِّم الحالم بعد الصدمة لشعور راسخ بالتفاهة واليأس الوادع، فظل وهو أحد أكابر الوفد، والمفترض أنه أكثرهم عناية بشؤون العقيدة، متغيبًا عن أي لقاء جاد منذ أن جاء مع الوفد، ناشطًا في زيارة الأصدقاء والأرحام من أهل المدينة مثل رجل بسيط لا يحمل أي هموم، كأنه لم يأت ليعلم أي شيء عن الدين من فم محمد ﷺ.

غير أن هذا الذي كانت تبتلعه طرقات المدينة، الباحث عن أصحابه وأقاربه، الذي يرمي عذره ثم ينطلق، كان يداري تعب رأسه بإتعاب رجليه؛

وتلك الأوجاع التي كانت خافية في الأيام الأولى انفلتت منه بالنهاية، وقدرته على الكتمان تدهورت، ورغباته الدفينة قد شقَّت طريقها إلى العلن كما تشق النبتة طريقها في التربة القاسية. لقد فضح مسيلمةَ شوقه، تحت تأثير الإيعاز السحري للأمنية القديمة التي تتجدد فيه، وتحت تأثير الوهم الذي سيطر عليه بعد مكوثه بضعة أيام في المدينة، ذلك الوهم الذي يقع ضحيته كثير من المتطلعين، وممن يميلون إلى التحدي، ومن أصحاب الذوات المتضخمة، عندما يقتربون من الشيء الصعب المبهر الذي اعترف به الناس، ويصلون إلى درجة من الإلمام السطحي ببعض جوانبه، فتحدثهم أنفسهم بأن الأمر سهل جدًا، وقابل للتقليد، وقد كان هذا تصوراً شديداً السذاجة، مثل تصوره منذ أيام أن الصبغة السوداء تحل المعضلة.

وقد طال حديث مسيلمة ذات مرة مع رجل من أهله وهما جالسان على مقربة من مسجد المدينة، حتى ارتاح تمامًا للرجل وتكلم معه كأنما يكلم نفسه، وفاجأ الرجل وقال وهو يضغط على الحروف، ويشير إلى الحجم الصغير للمسجد: إن دين محمد لن يبقى من بعده إلى سنة اليوبيل، أي إلى خمسين سنة لو كنت لا تعلم، إن ظل هؤلاء المهاجرون والأنصار أعمدة هذا الدين ولبناته، وكي يبقى دينه كما تبقى الحصون من بعد من ابتنوها قرونًا، إن كان حريصًا على بقائه، عليه أن يتخذ من بني حنيفة حجارة البناء، حجارة كثيرة، وصلبة، ومن جنس واحد، فيعتذر إلى أصحابه هؤلاء، ويعدهم بالجنة، ويقيم بني حنيفة على هذا الدين في أثره.

هذا كان أول ما فضح به شوقه وهو جالس في المدينة، بعد أن هُيئ له أن الأمر برمته سهل جدًا، وقد أعاده مرة أخرى على الرجل في جلسة ثانية، بعد

أن ختمه بمقولة جديدة صريحة ملأ بها فمه، فبعد أن أوجب على محمد ﷺ في حديثه أن يقيم بني حنيفة على هذا الدين، قال: وإني أولى الناس إذ ذاك وأنا رحمان اليمامة بأن أرث منه ميرات النبوة إن بقيت بعده.

وهذا الذي قاله مرة وطرب به بعد أن قاله، وشعر بلذة النزق، صار يقوله لكل من انفرد به وتباسط معه، حتى أصحابه المقربين من أهل المدينة، قاله لهم بشكل أكثر لطفًا لا يبدو فيه أنه يرفع قدر بني حنيفة على المهاجرين والأنصار: إن هارون كان أكبر سنًا من موسى، وأنا أكبر سنًا من محمد، وعلى محمد أن يستنَّ بموسى ويشرك معه في النبوة من هو أكبر منه سنًا. وقد نظر أصحابه من المدينة إلى كلامه باعتباره نفثة مصدور، ورأوا أن الأيام كفيلة بعلاج صدره، وقد كان لديهم خبرة في الصبر على كلام الموجوعين مثل عبد الله بن أبي بن سلول.

ما رفضه محمد ﷺ ولم يلق له بالًا من هوذة حاكم اليمامة قبل فتح مكة، صار مسيلمة يثرثر به تحت جدران المدينة مع بعض المقربين، هذا من بعد أن فتح محمد ﷺ مكة وحطَّم الأوثان وجاءه الأبطال معترفين وجاءته الوفود من كل البقاع. كان من يستمعون إلى مسيلمة يرونه رجلًا خاليًا من الخطورة، ولهذا لم يحذره أحد، ولم يذكره واحد منهم بأنه لا يجلس عند حديقته في اليمامة، وأن العالم قد تغير كثيرًا، فازداد تهورًا وبدأ يثرثر بذات الكلام مع الفقراء العابرين والمزارعين المستأجَرين والغلمان، وكل هؤلاء الذين لا يستشيرهم أحد في أي خطة. إن ما يفكر فيه ويقوله يستبعد هو نفسه تمامًا أن ينظر فيه محمد ﷺ بعين الاهتمام ولو لحظات ثم يرفضه، لم يكن رجلًا ساذجًا منحط الفكر حتى ينتظر إجابة من محمد ﷺ، بل كان شيخًا يرزح تحت الصبغة

السوداء، عاجزًا عن زجر طموحه الرهيب الذي صار يتململ فيه كما يتململ البركان.

محمد ﷺ قادم باتجاه الجالسين، وفي يده قطعة من الجريد، وبجواره خطيب المسلمين الذي يمكن أن ينوب عنه في محادثة الوفود، ثابت بن قيس بن شماس. ومسيلمة الذي لم يقدر على أن يواجهه بتلك الأفكار، كان يشعر بالحاسة القوية للمذنبين، الحاسة التي تخطرهم بلحظة الفضح والانكشاف، بأن محمدًا ﷺ قد تناهى إلى سمعه ما يقول، وأنه قد جاء ليواجهه ويهدده، وربما يهينه إهانة تضعضع بنيان ذاته.

بعد قليل، وهو ينظر في الأرض، ويرجو أن يمر محمد ﷺ سريعًا ويكتفي بإلقاء السلام ولا يتفحص الوجوه، وقلبه يدق بعنف، وهو غاضب من نفسه بسبب هذا الاضطراب الذي لا يليق، والصمت قد خيم على الجلسة، شعر بصره بالصدمة، وأحس كما لو كان قد أخذ ضربة على صدره، فقد وجد نفسه ينظر إلى نعليه المتوجهيْن إليه، إنه إذن يقف أمامه مباشرة. رفع رأسه لأعلى ببطء، وفي عينيه ينضح القلق والحسد، والاحتجاج، ولم يستطع أن يثبت عينيه في عيني محمد ﷺ، وحاول أن يبدو بريئًا مثل الأيام الأولى، وأن يبتسم، وحاول أن يخترع سؤالًا يبدي به رغبة في تعلم الدين، لكن محمدًا ﷺ أشار له بالقطعة الهينة من الجريد في يده وقال له بنبرة حازمة ومحذرة وهادئة: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيك ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني.

في اللحظات التي كان الرجال ينصرفون فيها، خوفًا من أن يُحسب عليهم جلوسهم معه بعد أن حذره النبي ومضى، كان مسيلمة يشعر بالفرح والفرَج

بسبب انصراف النبي عنه بسرعة، راضيًا بأي شيء يقوله ثابت ثم يمضي، فقد نجا بفعل هذا من مواجهة عارية قاسية مع محمد ﷺ، يكذبه فيها ويفضح له خواءه، ويهد قواه، وكان سعيدًا أيضًا لأن محمدًا ﷺ لم يسمعه الرؤيا التي رآها وتخصه، فهو يتهرب من أي شيء قد يخيفه وهو يمضي في طريقه؛ وكان محمد ﷺ قد رأى في نومه أن في يديه سوارين من الذهب، فأصابه الهم منهما، وأوحِي إليه في المنام أن انفخهما، فنفخهما فطارا، وفسَّر السوارين كذابين يخرجان يدعيان النبوة، ومصيرهما إلى العار والهزيمة، ورأى أن مسيلمة هو أحد هذين السوارين.

تكلم ثابت قليلًا مع مسيلمة الذي غلب عليه الصمت وادعاء اللامباة، ثم مضى، مضى وكأنه اصطحب معه شعور مسيلمة الجالس وحده بالفرح والفرَج، لقد تعكَّر مزاجه، فقد نظر فيما حدث منذ قليل، فوجد أن محمدًا ﷺ لم يصخب ولم يسب ولم يفحش، وظل يبدو أمامه رجلًا مهمًا وطاهرًا، ومع هذا فقد نال منه بهذا الانصراف السريع الذي ينم عن تصغير واضح للشأن؛ ووجد مسيلمة أيضًا أن هذا الانصراف السريع يدل على فطنة محمد ﷺ وحذره، فربما رما محمد ﷺ بهذا الانصراف السريع إلى حرمانه من أن يدعي من بعد ذلك أن محمدًا ﷺ اختلى به في أمر النبوة وفاوضه ومارس شيئًا من الضغوط عليه، وطلب منه أن يضحي بالنبوة التي تعتمل في جنباته، وأن يبقى في الظل وأجره على الله. ولم يكن ثمة شيء يعلن ما خيَّم على مسيلمة من شعور في تلك اللحظات بالهزيمة والإهانة، أكثر من أنه قام متثاقلًا جدًا وهو يستند بيده على فخذه.

نصف النبوة

من فوق دار بنت الحارث في المدينة حيث كان مقر ضيافته، وفي لحظات الشروق، حيث كان الضوء الفاتر يتفجَّر ببطء من السحب فوق الجبال القاتمة، وحيث كانت الدنيا تصطبغ بلون عسلي دافئ، وحيث كان الهواء يحمل أصواتًا لرجال يتلون القرآن، كلها خافتة عدا صوت رجل واحد يرتفع بينهم، كان مسيلمة الذي لم ينم إلا قليلًا، والذي لم يغسل وجهه ولا يدرك يقظته جيدًا، قد رمى بصدره على حافة السور، وأخذ يلقي بنظرات متقطعة في كل ناحية على بيوت المدينة الغافية، بعينين مجهدتين متورمتين، وكل قليل يتوجه ببصره بكل ألم إلى الناحية التي ينبعث منها صوت المقرئين مثل كل يوم، ينتظر أن ينفلق الصبح ويتبيَّنهم، ولعلهم يتبيَّنونه.

قد مرت به ليلة هي من أسوأ الليالي التي عاشها في حياته، ضجر فيها من سريره، ومن غطائه، ومن الوقت الذي شعر أنه يتمدد، ومن هواء الغرفة الذي كان يحس أنه ثقيل ومقرف ويشبه أنفاس الأغنام. لقد وضع رأسه على الوسادة وهو يرجو أن يغشاه النوم سريعًا حتى يهرب فيه من حزنه قليلًا، فهو يضمن لنفسه أنه لن يبكي؛ لأنه لا يبكي أبدًا، لكنه يخشى أن تفتك به الأحزان الشديدة قبل أن يبلغ مراده. لقد وجد نفسه في تلك الليلة القابضة يشعر من أوهام الكآبة بحشرات لا وجود لها تزحف على جسده، في كل ناحية، كلما حاول أن يقبض على واحدة لم يجد أي شيء، وأخذت تتكرر أمامه وبلا هوادة الصورة الفظيعة لوقوع بصره على نعلي محمد ﷺ الذي وقف أمامه، وتكرر في أذنيه صوت محمد ﷺ الصريح وهو يحذره من عاقبة ما يضمر، وتكرر

كذلك مشهد انصراف الناس السريع عنه بغير وداع؛ ظل فريسة هذا التكرار حتى نام في الهزيع الأخير بعد أن كره نفسه من التعب والملل.

كان يصل إليه وهو مستند على حافة سور السطح صوت صاحبه الرجَّال بن عنفوة، وهو يتلو القرآن على مقربة منه مع جماعة من المسلمين، وهو الوحيد فيهم الذي يرتفع صوته كأنه لا يشعر بذلك، وكان مسيلمة يشعر بوخزة رهيبة كلما ارتفع صوت صاحبه من جديد من بعد السكوت.

صاحبه العاطفي الحماسي، عضو الوفد، الذي يأخذ كل شيء بقوة، قد انسلَّ من جواره من بعد أن دخلوا المدينة، وانشغل كل منهما عن الآخر؛ وعندما افتقده مسيلمة بعد بضعة أيام قضاها في الزيارات، رغب في أن ينفرد به، ويبهج نفسه بأن يميل عليه ويسأله بشيء من الاستهانة والمكر عن رأيه فيما وجد هنا في المدينة، فيهمس إليه الرجَّال وهو يبتسم بأنه في الحقيقة لم يدفعه إلى الجلوس إلى محمد ﷺ وأصحابه إلا شيء من الفضول، وكذلك كي يقوم عن أهله بواجب الحضور وتعلم الفرائض، وأنه لم يؤمن بهذا الدين البتة، ولن يؤمن به مهما بقي في المدينة، فيقول له مسيلمة من جانبه: وأنا أشعر يا صاحبي أنني نبي.

كان مسيلمة مطمئنًا إلى أنهما سيتفقان عند اللقاء، وأن صاحبه سيكون أقرب الناس إليه بعد أن عزم على أن يعمل في اليمامة نفس الشيء السهل الذي وجده هنا في المدينة، بل وذهب إلى صاحبه وهو يجهز في الطريق إليه ردًا ودودًا على عتاب الرجَّال عليه لأنه لم يبدأ به وباح لغيره رغم ما بينهما من عشرة حسنة.

عندما ذهب مسيلمة إليه، وجد له وجهًا غير الذي يعرفه، حتى حفاوته به

لم تكن مثلما اعتاد منه، بل وشعر بشيء من الكلفة يحجز بينهما، لقد أخذته العبادات والتلاوة، والأذكار التي يداوم عليها المسلمون، وكان من الواضح أنه انكب بكل نهم في الأيام الماضية في طلب العلم بهذا الدين الجديد؛ لقد أدرك مسيلمة بكل حزن، وعلى مدار ساعة من النقاش، امتلاء صاحبه الموجِع، كان كلما ألقى إليه بكلمة يختبر بها مشاعره وأفكاره والعمق الذي ذهب إليه، عن محمد ﷺ، أو عن الدين، أو عن مصير هذا الدين، أو فرائض هذا الدين، انفتح الرجَّال بالفيض الذاخر الذي اكتسبه بسرعة مدهشة، بغير أي ارتباك وعسر، وبدون أي حياء من ذكريات الطرق في اليمامة، عندما أخذا يحلمان معًا بجيش اليمامة، ورجل يجمع أهل اليمامة.

الصداقة الطويلة، والجلوس معًا في حدائق اليمامة، والسير جنبًا إلى جنب في رياض اليمامة، والحب الشديد الذي يكنه الرجَّال لمسيلمة، كلها كانت توهم بشدة الشبه والاتفاق بينهما، وهذه الزيارة إلى المدينة، كشفت ما كان يخفى عليهما من اختلاف، فمسيلمة رجل إيحاء وغواية، يعتمد على قدرته على أن يجعل الآخرين يصدقونه ويتأثرون به ويمضون من خلفه، من خلال أقل ما يمكن قوله أو فعله، ويكتفي من أجل هذا بتغذية ذاته بالعناوين البراقة التي يلتقطها في طريقه بمحض الصدفة، وحتى إن سأله رجل من محبيه سؤالًا فأجاب عنه بما لا يشفي الغليل، اعتمد على العمق الوهمي الذي يوحي به صمته وتنم عنه نظرة عينيه، حتى يظن من سأله أنه عميق، ولا يقول كل ما عنده، ويحتفظ بأشياء لحكمةٍ يعلمها هو وحده. إنه مثل أي محتال: يهمه فقط أن يصدقه الآخرون، لذا انصرمت سنوات عمره بدون أن يبحث عن أشياء كي يصدقها، لذا لم يعد لديه بعد هذا العمر من الإيهام أي قدرة على أن يكوِّن أفكارًا معقدة، ولا حتى أي قدرة على أن يستوعب أفكارًا معقدة، فعاش تائهًا

في نعيم البساطة؛ أما الرجَّال بن عنفوة، فرجل نشيط ومتوهِّج، ومتطرف في مشاعره، وعنيف في إقباله على الأمور، وعنيف في إدباره أيضًا عنها، ويأخذ الأمور إلى حدها النهائي، يأكل حتى الشبع، وينام حتى الشبع، ويتمتع بمباهج الحياة في وقت البهجة حتى الشبع، وإن دخل في أمر تعمق فيه بكل ما عنده من روح التلمذة؛ وهي صفات تجعله يبحث عن أشياء يصدقها ويأخذها على محمل الجد، لهذا فهو قادر على استيعاب الأفكار المعقدة، بهذا الشكل الذي أزعج صاحبه مسيلمة.

لقد أخذت تنتاب مسيلمة مشاعر كثيفة ومتضاربة وهو جالس مع الرجَّال بن عنفوة، لأن الحب والكراهية قد تضاربا فيه، فتارة ينظر إلى صاحبه حسن الفهم والتحصيل باعتباره خائنًا كان يخفي براعته، كما يشعر الإنسان عندما يظهر على صاحبه المقرب براعة لم يكن يتوقعها، وتارة ينظر إلى ما يبدو عليه من ذكاء صادم ومتبجِّح ومفاجئ، كما لو كان لا ذنب له فيه، مثل معالم البلوغ العاتية التي تهاجم طفلًا مرة واحدة فتفسد ما كان يبدو عليه من لطف وبراءة.

وبين هذه الأمواج من المشاعر المتضاربة اكتشف مسيلمة سوأته، فانشغل بها عن فهم الرجَّال، فقد اكتشف فجأة أن هذا التحصيل العجيب يعرِّيه، ويكشف له سطحية إلمامه بالإسلام والنبوة بجانب إلمام صاحبه، وقد كان هذا الاتضاح متأخرًا، فقد توجه إلى الرجَّال بعد أن بدأ يتكلم مع الناس ويعلن بصيغ مختلفة عن رغبته في النبوة، وكان هذا بعد أن توهَّم وهو يبتسم لنفسه أنه استوعب الأمر، وأن كل ما يدور هنا يمكن عمل مثله في اليمامة، لذا كان يرغب في أن يصرخ فيه ويقول له: كفى. بسبب أن قوة معرفته خرَّبت عليه عالمه البسيط.

في النهاية، نظر مسيلمة طويلًا إلى صاحبه الذي يمثل له خسارته أمام

محمد ﷺ، ويمثل له خيبته الحية المتنفِّسة عالية الصوت، بدون أن يقول أي شيء، وكان في خواطره يعاتبه بقسوة، كان في أعماقه يذكره بأن بني حنيفة قد سافروا إلى محمد ﷺ بأقل مقدار من الحماس، وتواصوا بينهم في الطريق بالهمس والنظرات على أن يقدِّموا لمحمد ﷺ ما يرضيه عنهم وما يمنع العداوة والمخاوف، ثم يعودوا إلى اليمامة أشبه ما يكون بما كانوا، وعليه، فإنك يا صاحبي المقرب رجل نذل، وذكاؤك هذا يجعلك في غاية النذالة.

ومضى مسيلمة من عنده وقد قرر بينه وبين نفسه ما يمكن أن يقرره إنسان خيالي مفرط في خياله: قرر أن لا يرى صاحبه مرة أخرى في المدينة، حتى يحتفظ بعزيمته في طلب النبوة؛ مضى مسيلمة من عنده وقد غلبته روح التحدي، وأقنع نفسه بأنها جولة أولى، وأنه سينجح في التأثير على واحد من أهل المدينة، مثلما نجح محمد ﷺ في التأثير على واحد من بني حنيفة، واحدة بواحدة، وتلك الرغبة الثأرية في الظفر بواحد من المسلمين ليتنحى به جانبًا في ليل المدينة، فيبايعه الرجل وعيناه دامعتان في الظلام من التأثر، قد دفعته للتوسع في الكلام مع من يعرف ومن لايعرف، مما عرضه في نهاية الأمر لهذا الموقف المحرج الذي أتعبه وأجج أحقاده.

كان مسيلمة يستند إلى حافة السور، وينظر حوله بالعينين المجهدتين المتورمتين، في انتظار شيوع الضوء، حتى يراه صاحبه الذي اعتاد منه على الحفاوة والحنان عبر السنين، كان مأزومًا تلك الأزمة التي يحتاج فيها الإنسان إلى ترضية الخاطر ممن شارك في هزيمته، كان يرغب في أن يراه الرجَّال صاحبه ويستنتج من بعيد كآبته الشديدة، فيترك أصحابه المسلمين ويهرع إليه ويقول له: ما بك يا مسيلمة؟ قلْ فقد تركت كل شيء من أجلك.

وفد بني حنيفة سيقفل عائدًا إلى اليمامة بعد ساعة، ومسيلمة يكره كل

شيء هنا، ويود لو سبق أصحابه إلى الخروج، ولكنه يود قبل الرحيل أن يهتم به صاحبه ويترك كل شيء من أجله ويطفئ بأي شيء ما في جوفه من لظى، فالرجَّال لن يكون معهم في العودة، فقد أثبت ولاءً للدين وتعمقًا في فهمه ورغبة في الاستزادة، لذا أمره محمد ﷺ بالمكوث حتى يعود يومًا ما ويفقِّه أهله. لقد صار الرجَّال متفوقًا إذن وعنوانًا لبني حنيفة، أما مسيلمة، رحمان اليمامة، فسيمضي تافهًا مذمومًا مهزومًا، يسخر الناس من طموحه، ومن فشله الذريع في إقناع أحد.

امتلأ الكون بضوء النهار، وتحفَّز مسيلمة لمَّا كشف نور الصبح عن صاحبه، صاحبه المتفوق المشغول الذي يبدو عليه الآن الشعور بالمسؤولية، وقبض على حافة السور بكفيه، وأخذ بكل شوق يترقب منه نظرة، لكن الرجَّال لم يلتفت إليه، فتمطَّى مسيلمة وفرد ذراعيه، وظلت ذراعاه مفرودتين بعض الوقت، لكن صاحبه لم يرفع بصره تجاهه، ولما مرَّت قطة على حافة السور بالقرب منه، وأخذت تنظر إليه تسأله الود، نهرها بصوت مبالغ فيه كي تبتعد عنه، فارتفع بصر الجالسين إليه بما فيهم صاحبه، ولم يكترث الرجَّال المتفوق بصاحبه المهزوم، ونظر له بوجهٍ محايد، ولم يكترث الآخرون، كأنهم يرون على السطح شيخًا معتوهًا يلاعب نفسه في البكور، وأكملوا كلامهم.

ترك مسيلمة السور، تركه وأخذ يتخبط فيما في الحب من بواعث الكراهية، وفيما في الصلح من فحيح الانتقام، ترك السور وهو يريد أن يسترد الرجَّال مرة أخرى، خاليًا من مجده الجديد؛ وقد آمن منذ تلك اللحظة التي ترك فيها السور بأن استرداد الرجَّال بن عنفوة هو نصف نبوته التي يطلبها، ونصف ثأره من محمد ﷺ، وكل ثأره من الرجَّال.

الحفرة

رحل وفد بني حنيفة، وصوت الرجال بن عنفوة أخذ في الانخفاض في المدينة حتى صار مثل الأصوات من حوله، بعد أن انسلخ من الاندفاع البريء للمبتدئين الحماسيين، واكتسب من الاعتياد مسحة مقبولة من الاعتدال والكياسة. وكان راضيًا عن الصورة الجميلة التي يبدو عليها في المدينة، كسيد عربي يتسم بالتعقل والتواضع ولا يحتاج إلى جهد كي يفهم أو يتفهَّم، بخلاف بعض من وفدوا عليها من سادات العرب المتطبعين بالجفاء والفخر؛ والحقيقة التي احتفظ بها لنفسه في المدينة حتى أوشك أن ينساها: هي أنه لم يكن أكثر تواضعًا من هؤلاء المنغلقين المتصلبين بقدر ما كان أذكى منهم، وأكثر مرونة منهم في إدراك الواقع الجديد.

لقد آمن الرجال بن عنفوة بالشوط الذي قطعه في المدينة، باجتهاده وذكائه والسلوك الملتزم، وصار بفعل طموحٍ مبهمٍ حريصًا على هذا الشوط وحريصًا على أن يزداد، وهو سيد عرف جيدًا نقطة ضعفه التي قد تجعل نظرة الناس إليه تتغير فتجنَّبها، فهو رجل عصبي وحارّ ويعتز ببلاده وأهله اعتزازًا شديدًا، لذا انتبه جيدًا لكي لا يقع في الحفرة التي كان يقع فيها بعض الأكابر الغرباء عندما يأتون إلى المدينة، بانفعالاتهم المضطربة بين السعي إلى الاندماج العاطفي مع المؤمنين، والرغبة المتوثبة في حفظ النفس من الهوان والضياع؛ وشاهد كيف يمكن لرجل من السادة الغرباء المضطربين أن يعاير رجلًا محدود الاعتبار في المدينة ويتكبر عليه بسبب الخطأ أو سوء الفهم، ثم يندم ويضطر أمام الناس إلى شيء من التواضع المبتذل السخيف مع الرجل ليعبر عن أسفه، وهذا لم

يعجب الرجَّال بن عنفوة، فعزم على أن يقي نفسه الاعتذار البالغ للعامة، وذلك بادعاء الحلم وخفض الجناح للمؤمنين، وأن يحفظ كبرياءه بأن لايبدي كبرياءه. وإن كان القائد البدوي ذو الطبيعة الحسية طليحة بن خويلد قد أعياه أن يشتاق إلى الجنة وأن يخشى النار، وظلا بالنسبة إليه مكانين يحيط بهما جوٌّ من عدم الاحتمال، فإن القائد الحنفي المتحضر ابن اليمامة لم يجد أي مشكلة في الإيمان بهما رغم أنهما من الغيب، ولكن في أعماقه، ورغم ما ينم عنه سلوكه الطيب الخالي من العجرفة، كان قد أعياه استيعاب أن الناس سواسية.

عندما زاره مسيلمة، كان يعرف جيداً ما دفع صاحبه إلى هذه الزيارة، لهذا أثبت له الشوط الكبير الذي قطعه، حتى يحبط الكاهن الموجوع فلا يتكلم معه في المدينة هنا عن رغبته في تقاسم النبوة، وكان الوعي المباغت الذي اجتاحه في المناخ الإيماني الجديد قد أسقط عن عينيه الغشاوة فلم يعد يرى في مسيلمة بن حبيب رمزاً، بل رآه وهو جالس أمامه، وتحت تأثير خوفه من أن يفسد عليه مسيرته، بعين السخط التي يرى بها الصاحب الذكي صاحبه اللحوح المتخبط الذي قد يتعلَّق به فيتسبب في وقوعه، رآه مسناً بائساً عاطلاً فات زمنه، ويريد شيئًا لا يمكن أن يناله؛ ورغم هذا الجمود، إلا أنه كان يكبت قلبه ولايديم النظر إلى عينيه، حتى لا ينفجر تجاهه شعوره بالشفقة.

حتى تلك الزيارة، وحتى رحيل وفد بني حنيفة، كان الرجَّال لا يزال جاهلاً بطموحه المبهم الذي يدفعه للتألق في المدينة، لكن هذا الطموح لم يستمر مبهمًا من بعد ذلك، بل ظهر له ببطء كما يظهر الكوكب من خلف الغمام، إلى أن انجلى تمامًا، لقد رأى أن الناس يتبوؤون المراتب الرفيعة في الإسلام عن طريق البذل والتفوق في العطاء، والوقوف على الغايات السامية للدين، وليس عن طريق المطالبة الوقحة، وهذا التفكير يناسبه كرجل يتسم

بالذكاء والجدية والنشاط والاجتهاد، اعتاد على أن يثبت كفاءته ويثير الإعجاب، إذن فإعلان صاحبه البائس العاطل عن رغبته في أن يشارك النبي في الأمر هو إعلان سخيف وممقوت؛ أما الصحيح فهو أن يجتهد هو هنا، ثم يمضي إلى اليمامة وقد ترك من خلفه أجمل انطباع في المدينة، ويؤمن أهلها جميعاً بالإسلام الذي جاءهم به، عدا مسيلمة الذي لا بأس من تركه وقتها يتكلم في صحن داره عن غدر الصحاب، ويشعر محمد ﷺ وأصحابه ببالغ السرور بإيمان عشرات الآلاف من أهل اليمامة بغير عنت، وتمضي الأيام باليمامة وهي أقوى ربوع المسلمين كلها، فيؤهلها ما فيها من كثرة الناس وكثرة الخير لأن يتحول إليها الأمر وتكون مدينة الإسلام، هكذا يمكن أن يتحقق مجد بني حنيفة بهدوء، بغير أن يشعر أحد بالتهديد؛ وقد شعر أن هذه الخطة شريفة وعصامية، وليس فيها أي عار أو خبث.

وفي يوم من أيام المسجد، قام أبو هريرة وفرات بن حيان والرجال بن عنفوة معاً من مجلس النبي في سكينة، باتجاه الباب، وكل منهم يحتفي بصاحبيه، وبقي عند النبي بعض الصحابة الآخرين، فنظر النبي إلى الثلاثة أثناء مغادرتهم، وقال لمن عنده: لضرس أحدهم في النار أعظم من أحد.

انقبضت قلوب أصحاب النبي عندما سمعوا تلك النبوءة الخطيرة، التي ألقيت في ظهور ثلاثة رجال من أحبابهم انصرفوا آمنين مطمئنين، ونظروا إليهم نظرة واحدة، كأنها نظرة وداع، وكل منهم قد حمد الله على عافية أنه لم يمض مع الثلاثة ليقتسم معهم الاحتمالات المرعبة، ثم نظروا إلى النبي، وقد وصل بهم الفزع من النبوءة لدرجة أنه لم يجرؤ أحدهم على أن يسأل النبي عمن يكون فيهم هذا الشقي.

إنهم يبجلون الثلاثة، ولا يشكون في دين أي واحد منهم، حتى هذا

الحديث الإسلام، الرجال بن عنفوة، فقد كان يظهر عليه من الخشوع وملازمة القرآن ما لا يتوقعون معه أن يرتد أبدًا عن دينه.

انتهت الجلسة ولم يفق أي منهم من صدمة النبوءة، وبعد أن عادوا إلى بيوتهم، والقلق ما زال يستبد بهم، وهم حائرون بين تكتم ما قاله النبي وبين تحذير إخوانهم، آثر بعضهم الصمت، بينما لم يتمالك عدد منهم أنفسهم في النهاية، وحملوا على عواتقهم بدافع الحب والخوف تنبيه أصحابهم؛ لذا، وقبل أن يمر اليوم، قد وصل إلى سمع أبي هريرة وفرات بن حيان، كل على حدة، وأكثر من مرة، بصوت منخفض فيه مواساة وقلق، وحث على الانتباه، نفس ما قاله النبي، المرة الأولى أصيبا بالرعب، وفي المرات التالية، التي كانت في نفس اليوم، كان الغم يتجدد، وكانا يبادران من يأتي إليهما من رفاق الجلسة، ويبدو عليه الألم والارتباك، يبادرانه بأن النبوءة قد وصلت.

ذهب كل منهم وهو يفكر بأنه المتطوع الوحيد، فلم يكن هناك إذن أي اتفاق على اجتناب التحدث مع الرجَّال صاحبهم الجديد، وثالث الثلاثة، ولكن هذا حدث بشكل عشوائي، وجد كل منهم نفسه يهرع إلى الاثنين، ويستثقل أن يبوح للرجل الجديد، لذا عندما جاء اليوم التالي كان الأمر قد صار أكثر ثقلًا، كشيء أليم وغيبي فات وقت التحدث عنه، واتصل من ذلك اليوم بين أبي هريرة وفرات بن حيان رباط من الخوف، وصارا ينتظران المصير معًا، ويواسي كل منهما الآخر، وينبهه إلى أن يجتنب كل فتنة ويحترس إلى قلبه، بينما يمشي الرجَّال مطمئنًا وهو يظن أنه ليس في الطريق إلا الحفرة التي انتبه إليها وتخطاها، حفرة الكبرياء، وهو لا يدري أن أفكار الرجال وأهدافهم قد تكون هي الحفر التي يقعون فيها.

القبلة والقبيلة

في وادي عسفان، الذي يبعد عن مكة خمسين ميلًا، النبي على ناقته، يمضي وعليه ملابس الإحرام بين المزارع والنخيل وشجر الدوم وعيون الماء، في طريقه إلى الحج في السنة العاشرة من الهجرة؛ ورغم المشهد الجليل لعشرات الآلاف من الحجاج الذين ينزلون معه الأودية ويمرون بين سلاسل الجبال، ويوقظون أهل القرى بهمهمتهم والهميس الصادر من أخفاف إبلهم، إلا أنه لم يكن تحته على ظهر الناقة إلا قطعة مهترئة من القطيفة لا تساوي أربعة دراهم.

جاء هؤلاء إلى المدينة من كل حدب وصوب كي ينعموا بصحبته في هذا السفر الشريف، ويتعلموا شعائر الحج النقية من كل وصايا الوثنية وأوهامها وأعرافها المستقرة، وما خفي عنهم من الأحكام الدقيقة التي لا تتحمل الآراء الشخصية. وأبو بكر صاحبه بجانبه في هذا السفر، كما كان دائمًا؛ ومتاع النبي القليل ومؤونته البسيطة محمولة مع أغراض صاحبه على ناقة لأبي بكر يقودها من ورائهما غلامه. والعرب، من كان منهم على ظهر ناقته في وادي عسفان، ومن كان يمشي على قدميه، يرمون النظرات إلى النبي من خلال زحام المسيرة المتهادية، معجبين بالنبي العربي الذي يحف به الصحابة ويقتربون منه بغير ذلة وانحناء، ولا أحد يفسح الطريق له ويدفع الناس بالأذرع الغليظة عنه كما يحدث في طريق الملوك، حتى أنهم يرون الصحابي يتفادى الشجرة بناقته وينحاز إلى ناقة النبي حتى تحتك ركبته بركبته، فلا يضطرب ولا يعتذر، تمامًا مثلما يأمن الابن من أبيه الحنون.

وأسماء بنت عميس، التي تزوجها أبو بكر بعد عام من استشهاد زوجها جعفر في غزوة مؤتة، نفساء في هودجها من خلفهما، ترضع صغيرها الذي وضعته في أول الطريق إلى الحج على بعد أميال قليلة من المدينة، في ذي الحليفة؛ فكما نزلت آية التيمم في البيداء بسبب ضياع عقد عائشة فكان آل أبي بكر سببًا في تعلم المسلمين شيئًا هامًا من أمر دينهم، ثم وُجِد العقد من بعدها بسهولة، كذلك صار آل أبي بكر سببًا في تعلم المسلمين ما يجب على المرأة أن تفعل في الحج إذا ما ولدت طفلها، وهذا في حجة الوداع، الفرصة الأخيرة لمعرفة الحكم من فم النبي.

وهؤلاء العرب الذين يسيرون مع النبي إلى مكة، فيهم ألوف ممن أسلموا بين ذي الحجة وذي الحجة، ولم يتعلموا بعد الكثير عن دينهم الجديد وما يفعله بالضمائر، ولم تتح لهم الظروف مكوثًا بجانب النبي في مسجد المدينة، كانوا أغصانًا هم أيضًا تم تقليمها ونزع الورق الذي عليها وغرسها في التربة، بانتظار الحياة التي تدب شيئًا فشيئًا، حياة الدين. ولم تكن البساطة التي عليها محمد ﷺ سهلةً في عيونهم، فالرجل منهم يعيش وفي قرارة نفسه حنين متوار لهذا الشيء الخلاب الذي لا يناله في النهاية إلا قلة من المحظوظين ويموت الكثيرون وهم عطشى إليه، حنين إلى أن يمجِّده الناس وينشغلوا به؛ ولو أربعين عاقلًا فقط يجتمعون عليه ويسود عليهم، حتى يجرب مذاق التعالي والفرح، ويستمتع بنظرات الإكبار الرائعة، أما أن لا يتغير رجل البتة بعد أن اجتمعت له كل هذه الألوف، ولا تتغير الطريقة التي يحدث بها البسطاء منهم، فهذا لم يكن شيئًا مما يعرفه العرب ويسعون إليه، بل كان شيئًا جديدًا صادمًا ومثيرًا للإعجاب والإيمان، إنهم لا يعرفون أي شيء عن خلق الأنبياء العرب القدامى، ولم يبق لهم من أحدهم وصية غير ملفقة، ولكن يمكن للناس ولو لم يرثوا شيئًا من

سيرة الأنبياء أن يتوقعوا ما يناسب الأنبياء، وكان شيئًا نبويًا في عيونهم ذلك الخلو من الفرح الشخصي، أن يتجه هذا النبي القرشي إلى مكة التي أخرجته يومًا ما، وقد حف به هذا العدد الهائل غير المسبوق من العرب، بالقليل من المتاع كما خرج منها بالقليل منه، وبجواره أبو بكر، وهو ذاته الذي شاركه الخروج؛ هذا الانصراف عن التكلف والمراسم، وذلك الثبات الكريم عندما أتت الدنيا، يليق حقًا بالأنبياء.

تحت الحمام الذي يرفرف مندهشًا من الحشد العظيم في سماء عسفان وبين سعف النخيل، كان هذا ما تتحرك به قلوب الكثيرين ممن يختلسون النظرات إلى نبيهم الرحيم بين فرجات الزحام، ومضوا سعداء بخواطرهم الطيبة في مسيرة الحج العظمى وهم يشعرون بأنهم محظوظون كونهم جاؤوا في زمن نبي، كأنهم في كل دقيقة يكتشفون هذا ويسعدون به من جديد؛ لكن بين أصحاب تلك الرؤوس المشرئبة إليه هنا وهناك، ممن يشقون طريقهم بين صخور الوادي، مَن كان قد هبط على صدورهم شيء يشبه الغم المفاجئ، شيء غير مفضوح ولكنه مؤلم ولحوح، وأخذ العطن يسري على مهل في ثمرة فؤادهم وهم يرون النبي يقود هذا الحشد الهائل من الناس، وتحول سرورهم وشعورهم الأخوي بالجمهور الذي يغيبون فيه، ذلك السرور الذي كان يغلب عليهم في أول المسيرة، تحول شيئًا فشيئًا إلى حزن أسود رهيب ترسَّب على جدران القلب، وأفسد وقع ضرباته التي كانت وادعة، ما هذا! أنا نكرة، أنا لا شيء، أسير في الزحام، خلف رجل ليس من قبيلتي، ولا أمل لي في أن أكون واحدًا من هؤلاء المقربين إليه، الظاهرين، الذين يتحدث الناس بفضلهم، وتشير إليهم العجائز، فأنا لست أكثر من رجل أسلم لمَّا أسلم الجميع، عليه أن يبقى واحدًا في العدد الكبير، لا يهتم بأمره أحد، يمكن له أن يشير إلى الكبار

لكن لن يشار إليه أبدًا، لذلك، أن لن أشير إلى أحد.

ومضى كل منهم وهو يحاول طيلة الدروب أن يعالج هذا الحزن ويعود كما كان شبيهًا بالفرحين من حوله، وشعر البعض منهم بأنه سيستطيع في النهاية أن يتجاوز هذه المحنة العاطفية المؤسفة التي تعمل في صدره، وأخذ يشجع نفسه على ذلك، لكن آخرين أحسوا بالمشقة البالغة في إطفاء لهب القلب، ومضوا باتجاه البيت بالكبرياء الجريحة.

وقال النبي لصاحبه: أي واد هذا؟

فقال أبو بكر: وادي عسفان.

فقال له النبي: لقد مر به هود وصالح على بكرات خطمها الليف، أُزُرُهُم العباء، وأرديتهم النمار، يحجون البيت العتيق.

وعندما ازدادت المسيرة قربًا من مكة، تجلى للنبي في وادي الأزرق انصباب موسى فيه وهو يضع أصبعيه في أذنيه ويلبي، ثم تجلى له في ثنية هرشى مسير يونس بن متى على ناقة حمراء خطامها ليف وهو يلبي وعليه جبة صوف؛ كان يعود بالحج إلى أصله، وإلى عمل أنبياء الله من قبله، محررًا إياه من ظنون الوثنيين وغرورهم وكبريائهم، واصلًا أمته بهذا السلف العظيم، من الأنبياء الموحدين المتواضعين، الذاهبين إلى الحج خالين من حظوظ النفس.

ولم يكن محمد ﷺ وهو في سبيله إلى مناسك الحج المحررة من زمن الوثنية الآفل يعيش في عالم لا يشاركه فيه في تعظيم البيت والحج غير هؤلاء الوثنيين العرب الذين تشتتت أفكارهم الساذجة على يديه، فقد حملت بعض الشعوب من أسلافها في الأزمنة السحيقة إشارات لموضع هذا البيت العتيق

ذي الأسرار العلوية تربطه بالأيام الأولى على الأرض لآدم أبي البشر، وبزيارات من القديسين القدامى مثل أخنوخ [إدريس] ونوح؛ والصابئة المندائيين، وهم أصحاب دين من أقدم الأديان، كانوا يوقرون الكعبة ويؤمنون بأن من بناها هو هيرمس [إدريس]، ونصارى العرب في الجاهلية كانوا يؤمنون بقدسية البيت العتيق، فيقول الشاعر عدي بن زيد على سبيل القسم:

سَعى الأَعداءُ لا يَألونَ شَرّاً   عَلَيكَ وَرَبِّ مَكَّةَ وَالصَليبِ

وقال الأعشى، وعلى سبيل القسم أيضًا:

حلفت بثوبي راهب الشام والتي   بناها قصي جده وابن جرهم

ولم يكن اليهود في زمن محمد ﷺ وفي الأزمنة القريبة لزمنه التي سيطرت فيها الوثنية على البيت بطريقة مزرية، يحجون إلى البيت، ولم يكن مفروضًا عليهم الحج إليه، ولكنهم يعرفون جيدًا أن إبراهيم قد بناه للأمم في الزمن الغابر كي يعبدوا الإله الواحد، وكانوا يؤمنون بأن بيت المقدس أعظم منه، ويجاهرون بذلك إن سئلوا؛ لأنه مهاجر الأنبياء، وقبلتهم، وفي الأرض المقدسة أرض المحشر، وكانوا يعتقدون أنه أقدم من الكعبة. وقد رد القرآن على مفاخرة اليهود أبناء إبراهيم كما يحبون أن يسموا أنفسهم، بتأكيد أن البيت الذي في مكة هو أول بيت وضعه الله للناس، وأكد كذلك شرف البقعة والبيت بدليلين يميزانه عن بيت المقدس، ففيه أثران عجيبان باقيان من إبراهيم لا يوجد مثلهما في بيت المقدس، ففيه مقام إبراهيم، حيث كان إبراهيم يقف على حجر صلد وهو يبني الكعبة عندما ارتفع بناؤها، فغاصت فيه قدما إبراهيم، وبان في الحفر شكل أصابعه وأخمص قدميه، وترك إبراهيم هذا الأثر المعجز النادر عند البيت، وقد مر عليه وقت ظهور محمد ﷺ محتفظًا بتفاصيل القدمين

ويعرفه العرب جميعًا، خمسة وعشرون قرنًا، إذن يذكِّر القرآن اليهود، المعتزين بقبلتهم، بأن بالحرم المكي آية ظاهرة لا تنكرها الأبصار، وهي أثر باق من إبراهيم عبر القرون ليس لديهم في بيت المقدس مثله، وبقيتْ في الحرم كذلك آية أخرى لا تنكرها القلوب من أثر إبراهيم، وهي دعوته لهذا البلد بالأمن، فقد ظل من يدخله طوال القرون يشعر بالأمان والحماية، وظلت حوادثه في عداد النادر، رغم أن الحرم لا يقع داخل عاصمة إمبراطورية تقيم حوله الحرس والرماح، بل يقع في بيئة عربية مفتوحة بسيطة بغير جنود، بيئة عربية ثأرية، ومع ذلك كان الرجل يرى في الحرم قاتل أبيه ولا يقربه، بيئة عربية لا تخلو من عشائر غليظة قليلة الموارد تعيش على النهب، ومع ذلك لم تجرؤ تلك العشائر على دخول البيت لنهب الحجيج في أي موسم من مواسم الجوع الكافر؛ وهذا الشعور بالأمن رغم الظروف المعاكسة تمامًا، لم يتوفر بهذه الدرجة الملفتة في الأيام الطيبة لبيت المقدس، وفي الأيام السيئة له جرَّب الزوار الفزع الشديد والركض بلا فائدة والسبي والقتل وهم يشاهدون الحرائق في كل ناحية من حولهم.

وفي سرف، بالقرب من مكة، دخل محمد ﷺ على عائشة فوجدها تبكي؛ لأنها حاضت، فأخذ يهدئ من روعها ويواسيها ويتلطف معها، وعرَّفها ما يجب عليها فعله؛ وكما نزلت آية التيمم في البيداء بسبب ضياع عقدها، وكما عرف المسلمون حكم النفساء في الحج بسبب زوجة أبيها، عرف المسلمون حكم الحائض في الحج بسببها.

واستمر النبي في مسيرة الحج التاريخية الضخمة إلى مكة، تلك الحجة الكبرى التي سيمتلئ بها المسلمون رضا وغبطة وإحساسًا بالامتنان، والتي بها طفح الحقد عليه من الذين آمنوا بأنه تخطى القبيلة، وبها طفح الحقد على مكة

من الذين آمنوا من قبل بأنه تخطى القبلة.

وعندما وصلت المسيرة إلى المشاعر المقدسة، كان البعض ممن يسيرون معه قد أفلح في النهاية، وبعد مشقة بالغة، ونسي تباريح الزحام العارضة، وسترَ على نفسه، وكان هناك آخرون قد أعيتهم التباريح وتأجج فيهم هذا الغيظ، ولم يعد لديهم حيلة فيه وقد صار خبيثًا وقهريًا مثل الجرب، فوصل هؤلاء إلى المشاعر المقدسة وهم يحملون شوقًا طفوليًا مضنيًا لديار قبائلهم التي يعتزون بها، يريدون أن يعودوا إليها هاربين من هذا الوجع العاتي وجع (الانضواء)، كي يحكُّوا في خلَّانهم هناك وينقلوا إليهم إصابتهم، تمامًا مثلما يحب الحاسد أن ينقل إلى من حوله إحباطه وحسرته.

لما دخل النبي المسجد من باب بني شيبة، تكحلت عيناه برؤية الكعبة ولا صنم حولها، ولا عريان يطوف بها، وطاب لأذنيه أن لا يسمعا من ها هنا صوتًا يجهر بتلبية الشرك. لقد أعاد النبي الأمور إلى ما كانت عليه في عهد إبراهيم أبيه؛ محمد ﷺ الذي تعرض للخنق هنا حتى كاد يموت، والذي وضعوا على ظهره سلا الجزور وضحكوا، صاحب النعلين الملطخين بدمائه الذي كان يقف عند جدار الكعبة يستمع إلى المطعم بن عدي وهو يجيره، كنَس كل ما ورثه هؤلاء الناس كما تكنس الريح أوراق الشجر الساقطة.

وأهل مكة التي أتعبته، كلهم خرجوا يريدون أن يروه فقط، الأطفال والنساء، والعجائز، والإماء، كل الناس، أخذوا يتزاحمون حوله؛ وحتى ييسر الأمر عليهم، وحتى يراه الضعيف فيهم والقصير، سعى وهو على ظهر ناقته. هذا الذي كانوا يسخرون منه ويتهمونه بالكذب صاروا يحاولون الظفر بأثر من بلل يده من الوضوء.

وفي الطريق بين منى ومزدلفة، فوجئ النبي ومن حوله، بأعرابي متحمس يمسك خطام الناقة يريد أن يوقفها بغير استئذان، فقال الصحابة المحيطون بالنبي: ماله؟ ماله؟

فقاطعهم النبي: أرب ما له [له حاجة].

فقال الأعرابي: يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار.

فأوقف النبي الناقة تمامًا، وقال لأصحابه: لقد وُفِق. ونظر للرجل وقال له: كيف قلت؟ فأعاد الرجل كلامه.

فقال النبي: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم.. دع الناقة.

وعندما كان في نمرة وزالت الشمس، خرج من القبة التي ضربوها له هناك وركب ناقته، ونزل إلى وادي عرنة بأرضه السهلة الفسيحة، فخطب في الناس وهو على الناقة:

(أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع)، (واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله).

وبعد أن أتم خطبته قال لهم: إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت ونصحت وأديت الذي عليك.

قال النبي ﷺ: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد.

وعندما أراد النبي أن يفيض من عرفة، أخذ ينادي ويطلب أسامة بن زيد ليكون خلفه على الناقة، وأخذ الناس ينادون مثله تعظيمًا لما يريده النبي، وأخذ الأعراب يتلفتون يريدون أن يروا هذا الذي يريد النبي البهي أن يخصه بهذا الشرف، وهم يتساءلون فيما بينهم عن شريف من قريش مقرب من محمد ﷺ اسمه أسامة، ثم فوجئوا بشاب صغير أسود أجعد الشعر أفطس الأنف، يقفز على ناقة النبي بكل ثقة ويمسك فيه بتلقائية ابن مدلل؛ بالمشهد الذي يعرف محمد ﷺ كيف يعلّم الناس به، كان يغسل نفوسهم من الفخر وأدران الجاهلية، فمنهم من لان واغتسل، وقبل أخلاق الأنبياء، ومنهم من أبى قلبه وطواه على مزيد من الشوق للقبيلة.

الباب الخشبي المحطم

الأسود العنسي يطل برأسه من نافذة ضيقة وطويلة، بكل شوق واضطرام، وقد شب على أطراف قدميه، والتصق بالحائط، وعيناه المفترستان تنظران إلى أسفل، ويتسرب إليه من الحدائق البعيدة صوت نعيق غربان، يأتيه خافتًا، ويثير فيه نشوة حزينة، كتلك التي تثيرها فيه أنات المعذبين الخافتة وهم يتحسسون جراحهم في الظلمات، وتنهدات الضحايا وهم يجودون بأرواحهم في طرقات القتال، غير أن الجميلة البيضاء النائمة في الحرير السماوي، التي على بعد أمتار قليلة منه ويكاد يأكلها بعينيه، وتتقلب على الصوت المنكر للغربان، قد شدت عليها غطاءها بغير وعي وهي غارقة في النوم، فأصابه الهياج، حتى صار في لحظة واحدة يبدو كأنه ليس بإنسان، واضطرب الكرسي الذي يقف عليه من هياجه وكاد يقع به، وصاح عندئذ صيحة عريضة فزعت منها المرأة واعتدلت تنتفض في فراشها، وارتجت الجدران الغليظة ورددت صداها.

نزل الأسود على الفور من فوق الكرسي، وأخذ يضرب الباب الخشبي الرخيص الذي يفصلها عنه بقبضتيه الثقيلتين وقدميه، ومر من الخرق الكبير الذي أحدثه، كأنه شيطان من شياطين سليمان وقد تحرر، واقتحم عليها الغرفة وهاجمها وأخذ يأمرها بلهفة أن تقاومه بكل ما تستطيع من مقاومة، بأظافرها وأسنانها، وسبابها، وكذلك العويل؛ والبصاق يا أيتها الجميلة، أريد الكثير منه فلا تخافي، كما لو كنت رجلًا يشرع في اغتصابك، وأنا لن أرحم بكاءك أبدًا، ولن يردعني بصاقك، فأنا أعشق كل هذا، وأعشق أن أراكِ في النهاية ممزقة

الثياب، ومنكسرة، فهيا افعلي كل هذا من أجلي.

عشقه للتلصص على النساء كما هو، ولكن كل شيء آخر قد تغير، فقد كان في الماضي يجد لذة غريبة في أن يفتك الحرمان والتعطش به، وهو شبه مصلوب على الجدران، أما الآن، فقد وجد لذة البطش الباهرة، لذة أن يكون قاهرًا فوضويًا مباغتًا، يترك الآخرين هامدين في آلامهم، وفي مقتهم له، ذلك المقت الذي يظن أنه يشع منه رغمًا عنهم شيء من الإعجاب به، وببطولته اللامبالية. إنه لا يغريه أبدًا أن تحبه امرأة عذبة وترحب به في مخدعها، فهذا شيء تافه واعتيادي، لكن الرائع أن توقع الأقدار في قبضته امرأة تشعر في قرارة نفسها بأنه لا يناسبها على الإطلاق، وأنه يثير تقززها، ولكن تبذل في ذات الوقت ما تستطيع كي لا تطفح تعابير الكراهية على وجهها بالدرجة المتهورة التي قد تتسبب لها في الأذى، ثم تنبت فيها تحت تأثير القهر الطويل والأيام، ورغمًا عنها، نبتة الاعتياد.

عشقه للتلصص كما هو، ولكن كل شيء آخر قد تغير، فهذا الرجل الجلف الذي لا يرى أهمية كبيرة للاستحمام، ليس في بيته الطيني في كهف خبان، بل في قصر غمدان بصنعاء، القصر الأعجوبة، المكون من عشرين طابقًا، وتتفرع تحته سراديب يحتاج إلى سنة من عمره حتى يحفظ شبكة شرايينها التي تتجاور وتتقاطع ويعلو بعضها فوق بعض، قصر غمدان الذي سكنه الملك العظيم سيف بن ذي يزن نفسه منذ أكثر من ستين سنة؛ وهذه النائمة البيضاء الجميلة التي أفزعها، والتي حول عينيها هالة خفيفة من السواد ظهرت من أثر الذل في الأيام الأخيرة، هي آزاد الفارسية المسلمة، زوجة شهر بن باذان حاكم صنعاء، حاكم صنعاء الذي قتله الأسود العنسي وتزوج من امرأته قهرًا.

هذا الرجل الهائج العنيف الذي يحمل غضبًا شديد القتامة، الذي كان يستاء عندما يسمع الناس يتحدثون عن محمد ﷺ في نجران وما حول نجران، استطاع أن يقلب الوضع في مدة وجيزة جدًا، وصار الأمر على العكس من ذلك، صار الناس يتحدثون عنه بقلق في المدينة، بعد أن وصلتهم تلك الأخبار الكابوسية الانهيارية، ولقد تألم محمد ﷺ من هذه الفتنة العاتية، وتلك الأهواء التي لعبت بأفئدة الناس في الجنوب، وإن ظل رابط الجأش موقنًا بقصر عمر تلك الدعوة المخربة، وموقنًا بأن دينه سيكون الدين في صنعاء وغير صنعاء من بلاد العرب.

رغم فوضاه الأخلاقية، ولا مبالاته بأن يبدو سمته كما لو كان سمت نبي، وشراسته المخيفة التي لا تجعله ملاذًا للضعفاء والمرضى والفقراء كما يمكن أن يكون النبي، وإغراقه في شرب الخمر، إلا أنه نجح بسهولة في أن يهمس بنبوته في قريته والقرى المحيطة، بصبر أسود، وثقة مجنونة كان لها عليهم أثر السحر، منذ أن امتثلت له الحمامة. وقد أوصاهم بأن يتكتموا الأمر، لأنه نبي لم يحن بعد موعد إعلانه، وسيكون إعلانه مدويًا، ولن يقف لدعوته أحد. انتشى الأقارب بدعوته وتعصبوا لها في هدوء، وصاروا ينتظرون يوم خروجه على أحر من الجمر وهم يطلبون من الله أن يعجِّل فرجه، واعتبروا هذا الخروج الذي ينتظرونه ثأرًا لأمة عريقة، وإكرامًا من الله للقحطانيين، بعد أن خرج النبي العدناني محمد ﷺ.

ولما اطمأن الأسود إلى عدد الذين أخلصوا له، وعرف أن كلامه الآن جدير بأن يؤخذ على محمل الجد، وعرف قبل هذا أن نبوته التي أثارت كل هذا الحماس فيمن كلَّمهم، ستثير نفس الحماس في كل من يشبهونهم في الأصل والعادات والهموم والآمال، راسل كبارًا من قبيلة مذحج التي تُعتبر

قبيلته عنس بطنًا من بطونها، فثارت في كثير منهم النخوة وفرحوا بأن يكون هناك نبي من عشائرهم، بل وتمنوا أن يسرع هذا النبي في الخروج قبل أن يظهر نبي في قبيلة أخرى مجاورة، واستخفت بهم الأماني وهم يتخيلونه وقد أخذهم معه إلى الأمام، وجعلهم أئمة تشتهر أخبارهم ويحفظ أسماءهم التاريخ، مثلما أخذ محمد ﷺ معه الكثير من الرجال إلى الشرف والعلياء، ولولاه ما وصلت أسماؤهم إلى أودية اليمن. وبادر هؤلاء الكبار إلى أداء مهمتهم التي يعوَّل عليهم فيها في بلاد العرب: ألقوا بالخبر في أوساط العامة بطريقة عصبية معلنين له كامل الولاء، فوافقهم العامة على هواهم، وجمعهم بهم شعور قوي بالغبطة والفخر والنعمة الإلَهية. وهكذا أيضًا اتبعه بنو الحارث بن كعب، وتحللوا من إسلامهم الذي دخلوا فيها تماشيًا مع مجريات الأمور في جزيرة العرب، وهكذا أيضًا اتبعه جماعات من الناس من زبيد وأود ومسلية، وبني الحكم بن سعد العشيرة.

وأعلن الأسود عن تمرده الذي اتخذ صيغة نبوية، وخلفه سبعمائة جندي، وقد كان يؤمن وهو يعلن على الناس أنه نبي اليمن بأنه ناجح لا محالة، لأن اليمنيين سيتبعون إلى النهاية أي رجل عنيف يعيد اليمن إليهم ويطرد الغرباء، وكتب إلى عمال محمد ﷺ: أيها المتمردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه.

وتوجه من بعد ذلك إلى نجران، فوقعت تحت سيطرته بعد عشر ليال من أول يوم ظهر فيه وتمرَّد، وقد غمر الناس شعور بأن هذا الرجل الصلب الذي دانت له الأمور بكل بساطة سينجح مرة أخرى وسيرتفع نجمه، لذلك انضم إليه بطلان لهما وزن واسم، وهما عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وقيس بن مكشوح المرادي. وطرد الأسود العنسي فروة بن مسيك عامل محمد ﷺ على

الصدقات من مراد، وطرد عمرو بن حزم عامل محمد ﷺ من نجران. واتجه من بعد ذلك إلى صنعاء، التي كان فتحها عند اليمنيين يضاهي فتح مكة؛ وتقاتل جيشه الصغير مع جيش شهر بن باذان، ووقع الذهول على أهل صنعاء وهم يفرون في كل ناحية من الخراب الذي بدا لهم توراتيًا بفعل الثقافة العبرية التي تلقَّحت بها أفكارهم، وبدا لهم أن هذا الرجل مثل أنبياء العقاب الذين قلَّدهم الرب السيف على أفخاذهم وأسقط المدن تحت أقدامهم؛ لقد سقط شهر بن باذان قتيلًا، ومن بعده تضعضعت على الفور صفوفه التي تركها، فسقطت صنعاء بسهولة مخجلة، ومشى رجال الأسود في شوارعها وهم يؤكدون لبعضهم بعضًا في حالة من الفخر الذاهل أنهم يعيشون معجزة إلَٰهية.

لقد جن جنون الدهماء من أتباعه من السعادة بعد أن سقطت صنعاء، وصاروا يتعاملون مع الأسود العنسي كما لو كان إلهًا ساخطًا يشفي غليل الضعفاء والفقراء، وينصف هؤلاء المنكوبين الذين يشاهدون الناس يقتنون ويدخرون ويتمتعون بينما دنياهم ساكنة بلا حراك؛ ولقد شعروا بلذة غامرة وهم يفكرون في هؤلاء الأثرياء في صنعاء الذين فقدوا في هذا الاجتياح، وفي غمضة عين، كل ما يملكون، وكان هذا أعذب عندهم من الإيمان والحرية.

بعد الاستيلاء على صنعاء، أخذ الأسود يقضي نهاره بإصابة الناس بالهلع، من أجل أن تسبقه سيرته إلى القرى والمدن، فتتيسر له الفتوحات، وتقع البلاد وهو على مشارفها بسبب ارتجاف أقدام ذكورها، واهتزاز السيوف في أيديهم، فالأسود العنسي، الذي قلَّده الرب السيف على فخذه، قادم على الطريق. وكان المسلمون الذين يقفون في طريقه بشجاعة مباغتة ويتهمونه بالكذب والدجل، هم أفضل وسيلة لإثارة الرعب، فيمسك الرجل منهم ويربطه

ويقوم بتقطيعه وهو حي قطعة قطعة، على مهل، حتى يتحول الرجل الذي كان مملؤوًا بحرارة الحياة والشرف إلى كومة من اللحم والعظم، تتربص بها الكلاب والسنانير من بعيد وتنتظر انفضاض الناس عنها، بينما يقف الأسود أمامها بثوبه الملطخ بالدم وقد أحاط به الرعاع المتحمسون وهم يرتجفون، من شدة السعادة، ومن الخوف من أن تعتري نبيهم الحانق لوثة بسبب القتل فيضرب فيهم بسيفه.

ثم سارع الأسود إلى استخدام الإحراق بجانب التقطيع، فاختار أغلب المسلمين على إثر ذلك أن يتقوه ويتجنبوه تمامًا، أما غير المسلمين ممن لم يوالوه، فرأوا أنه من الجنون أن يسأل أحد هذا الرجل سؤالًا متكلفًا ومترفًا عن دلائل النبوة، وأما الرعاع الذي انزلقوا معه في تشجيع القتل، واتبعوا مواقع العقاب المشهودة، ففسدت نفوسهم من أثر التأييد، وفقدوا قدرتهم على الشعور بالكابوس منذ أن رأوا الذين يتلوون من الألم في قلب الحرائق.

ومن بعد هذا، وبوتيرة سريعة، كسرعة كل شيء في اليمن بعد خروج الأسود العنسي، كان قد ارتد الفائض من الأفكار الكارهة للأكابر الذي انفجر في الدهماء عندما فقد الأثرياء ثرواتهم ونعيمهم، ارتد إلى الدهماء، فصاروا لا يهتمون بسادات قبائلهم، ويرونهم كسالى وعاجزين، ومثقلين بالأنانية والاهتمامات التافهة، ولم يعد لهم إلا وجود فخري في حضرة الأسود المنقذ الذي يفعل ولا يسرف في الكلام.

هذه المشاعر قد وصلت إلى كبار العشائر الذين فلتت الأمور من أيديهم وعانوا منها، وقد كانوا يعانون من ناحية أخرى من أن الأسود لا يعاملهم كأنهم إخوة له كما كان الحال قبل أن يخرج بدعوته؛ لقد جعل من نفسه سيدًا عليهم،

سيدًا مخيفًا لا يأمنون جانبه.

ورغم ما يشعرون به من مضاضة، إلا أنه لا أحد منهم قد اجترأ في تلك الأجواء الغوغائية على أن يصنع طعامًا للعامة من عشيرته ويتحدث إليهم أثناء الأكل بشيء من المؤاخذة على الأسود، لأنه قد يفقد كل شيء إذا ما ألقوا طعامه من أيديهم وأفواههم وقاطعوه قبل أن يكمل كلامه وتركوا عشاءه.

ولا أحد قد اجترأ من هؤلاء الكبار الذين يعانون من نفس الشيء، ويرون آلامه في عيون بعضهم البعض، ويحاولون مداراتها خوفًا من الافتضاح، لا أحد منهم قد اجترأ على أن ينتقي جماعة من أحبابه من كبائر العشائر، ويجلس معهم جلسة هادئة سرية، ويعبر عن ضيقه من استبداد الأسود وفظاظته معهم؛ لأن الأسود صنع بسرعة مخيفة مجتمعًا منافقًا وقاسيًا، ومريبًا، يمكن في أجوائه العصبية اتهام أي رجل مهما كان شأنه وحسن سيرته، بالخيانة والتآمر.

ومن بعد هذا، وبنفس الوتيرة السريعة، قد فشا في كبار الناس وصغارهم أن الأسود العنسي يقرأ أفكار البشر، ويتجول في أذهانهم، بعد أن أقسم بعض الناس أنه واجههم بأشياء كانوا يفكرون فيها، لهذا بدأ الرجل من هؤلاء الكبار يطارد بكل جدية خواطره الحرة السيئة عن الأسود العنسي وغلظته، ويكتم في صدره أنفاس ندمه على نصرته له، ويتهرب من المقارنة التي تتسلل إليه على الوسادة بين ما سمعه عن محمد ﷺ النظيف الطاهر الصادق اللهجة، وبين نبيه العنسي الطائش المخيف الذي يسمي نفسه رحمان اليمن بينما لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه، ويبذل الرجل منهم أقصى جهده كل قليل في غسل نفسه من جديد من تلك الأفكار العاصية؛ سعيًا منه لأن يكون جاهزًا في أي وقت لمقابلة العنسي الذي يفتش في عقول الرجال في أثناء اللقاء، لأنه لو لم يفعل ذلك

بكل إلحاح، فسيقبض النبي المخيف على بعض الأفكار الشنيعة التي فشل في التخلص منها وظلت تختبئ في أوكار عقله.

وفي ليل صنعاء، كان الأسود العنسي يراوح بين أمنياته في الزحف شمالاً باتجاه مكة والمدينة، عما قريب، بعد أن شعر بسهولة كل شيء، وبين الترفيه عن نفسه بأن يلعب مع تلك المسكينة لعبة الباب الخشبي المحطم، تلك المسكينة التي نفذ إليها من خرق الباب وأمرها بلهفة أن تقاومه وأن تبصق في وجهه.

أخذ ينتهك جسدها وروحها البائسة، وهي تطيعه وتفعل كل ما اشتهاه: تنشب أظافرها في لحمه، وتعضه بأسنانها، وتبصق وتشتم، إلى حد أثار إعجابه جدًا بينما لا تزال آلام العض تنبض بشدة على لحمه، والبصق يسيل على وجهه، تمامًا كما لو أنه رجل كان يشرع في اغتصابها، لأنها لم تكن تراه بالفعل أكثر من رجل يغتصبها.

والعبد الأسود الضخم، الذي جعله العنسي مسؤولًا عن حفظ حياته في البيت حينما يضع سلاحه، والذي لا يشعر الأسود العنسي بالحرج من أن يقف على شيء من جنون حياته الخاصة، كان يقف على مقربة من الباب المحطم، يضرب كفًا بكف بعد أن سمع صراخ السيدة وبكاءها، وقال لنفسه بوجهٍ بليدٍ ومبتسم، وله تعبير داعر: أي نبي هذا؟!

ومضى العبد خطوات قليلة، ونادى على أحد الخدم كي يحضر بعد قليل نجار القصر، فلما سأله الخادم ماذا سيفعل النجار حتى يخبره، رد عليه بصوت رائق: كالعادة: سيصلح باب نبينا.

هذا العبد لا يشعر مثل السادة بالخوف من أن يجد العنسي أثرًا لهذه السخرية إن رآه بعد قليل وتجول على عجالة في دماغه، فقد كان مثل الخدم الذين يطلعون على عورات أسيادهم ونقائصهم، ويرونهم في طلباتهم الشاذة التي يصرون عليها بنهم طفولي، كان يرى سيده مجردًا من أوهام الناس ومبالغاتهم. أما العنسي فهو يشعر تجاهه بتلك المشاعر المعقدة من التقدير والاحتقار التي يشعر بها السيد تجاه خادمه المتعاون الذي يطوف بعالمه التحتي القذر، فيضطر بسبب سطوة النزوات المرَضية عليه التي يحتاج معها إلى خادم مثله يعتمد عليه، يضطر إلى أن يتهرب من الوساوس التي تقول له إن لمعة السرور الخبيث التي يراها في عيني الخادم بعد كل مرة يقوم فيها بعمل مخجل، لا تعبر عن التواطؤ والمسايرة، بل تعبر عن الفرح والتشفي في السيد الذي أهان نفسه.

وقف أمامها العنسي، وهي متكورة على نفسها، ممزقة الثياب، ومنكسرة، فرفعت بصرها إليه، وثبتت عينيها تجاه وجهه فترة، وهو يتأملها سعيدًا بالخراب الذي حلَّ على روحها السقيمة، ثم ندت منها ابتسامة جميلة رقيقة، وغير زائفة، طالت كثيرًا، فضحك العنسي ضحكة فارغة، وأخذ يؤكد لنفسه بأن نبتة الاعتياد قد نبتت في المرأة، وهي من الآن ستبدأ في الاستمتاع باللعبة، لعبة الباب الخشبي المحطم، فمال عليها وقبل رأسها الذي خفضته له بوداعة، ثم مضى.

لقد نظرت إليه وعبرت في أفكارها عن بالغ احتقارها له، وكررت التفكير في ذلك وهي تنتظر ردة فعله، ولما لم تجده فهم شيئًا مما يجول بخاطرها، تجرأت أكثر، وأخذت تقول في نفسها ببطء وهي لا تزال تنظر إليه إن هذا الرأس يستحق أن يجندل على بلاط القصر، وهذا الجسد القوي يستحق أن

يرمى عند النفايات حتى تتنازع على لحمه الكلاب والغربان، ثم قالت بصوت روحها التعسة: أتمنى أن أقتلك.

لقد ابتسمت تلك الابتسامة لأنها آمنت بأن ولعه بها يعطِّل قدراته الشيطانية، ويجعله عاميًا عن رؤية ما يجول بعقلها، فالعنسي لم يقرأ شيئًا مما كانت تفكر فيه بتمهل، وبصفاءٍ حقود، وطبع قبلة على الرأس ومضى مثل زوج وديع يثق بمحبة زوجته؛ إذن تستطيع هي وحدها من دون الناس أن تفكر في قتله وتصر على ذلك، وتقترب منه كل يوم دون أن ينتبه، إذن هي وحدها من دون الناس تستطيع أن تفسح الطريق لاغتياله بغير أن يشعر منها بالخطر القادم، حتى لو كان رأسه قبيل الموت في حجرها وعيناه في عينيها.

الملاك الذي نزل إلى مسيلمة

همهمات سرت فجأة عند خيام أعراب من بني حنيفة في الليلة الحالكة التي لا يشق عتمتها إلا أضواء بعض المشاعل المتفرقة، بين عدد صغير من السامرين المتمتعين بالهواء المنعش، عن شيء تجلَّى في السماء لا يكادون يصدقونه، نظروا إلى ضيائه قليلًا ثم أخفضوا وجوههم إلى الأرض في خشوع وتسليم، وأيديهم ترتجف، ثم أخذوا ينادون على القريبين منهم في الخيام، بأصوات مذعنة، يخبرونهم عن المعجزة الباهرة التي رُفعَت فوق رؤوس الجميع. ولم يمر إلا قليل حتى خرج أغلب أهل الحي وعلى وجوههم النعاس، وأنفاسهم دافئة من أثر النوم، واسترقوا نظرات قليلة إلى ذلك الشيء البهي الذي في السماء وأفواههم مفتوحة، ثم نظروا إلى الأرض متهيبين، بينما أخفى الأطفال وجوههم في ثياب أمهاتهم؛ وسرعان ما رفع أحدهم صوته الجهوري لينبِّه الذين من حوله، الذين لا يزالون يحتفظون بملامح التغفيل لمن استيقظوا من نومهم ولم تكتمل إفاقتهم، وهو مثلهم لا يزال يحتفظ بها، وصرخ فيهم وقال: من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن. قال هذه الكلمات بصوت متثاقل ولم يعدها، وهرول باتجاه خيمته، كأنه يسير نائمًا، فأخذوا يتناقلونها بينهم وهرعوا إلى داخل الخيام وهم يدفعون أطفالهم أمامهم.

عندما صاح الرجل بصوته الجهوري المتثاقل من أثر النوم بتلك الكلمات، تذكر الناس على الفور ما قاله لهم نبيهم مسيلمة الذي ينزل عندهم منذ أيام، ففي البارحة، وفي ختام جلسة من جلسات الدعوة كان يحكي لهم فيها عن منازلهم في الجنة، مستعينًا ببعض ما أعجبه من أحاديث الناس في المدينة،

وقد كانت الليلة مظلمة كهذه الليلة وهواؤها لطيفاً أيضًا، مما جعل كلامه يسري بالليل في أرواحهم، في ختام الجلسة قال لهم بصوت فيه حرص وإشفاق، ومصارحة: إن الملك ينزل إليَّ، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة؛ ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة، فمن كان منكم ظاهرًا فليدخل منزله، فإن من تأمَّل اختطِف بصره.

وكان قد نزل عندهم في خيمة بنوها له على طرف الحي على ربوة كما أمرهم، على أن يزوروه ويزورهم وقتما أحبوا، إلا إن أطفأ مصباحه، فوقتها يكون له حالٌ من اطلع عليها صُعِق. وعندما رأوا معجزة السماء وسمعوا ما قاله الرجل، نظروا فوجدوا أن مصباحه مطفأ، لذا لم يغامر أحد بالاقتراب من خيمة النبي، وفهموا أن الملاك يتدلى إليه إذن.

كان مسيلمة قد قطع شوطًا لا بأس به منذ أن عاد، فما إن وصل إلى ديار بني حنيفة راجعًا مع الوفد من المدينة جريحًا ساخطًا، حتى شعر أنه استرد سطوته السحرية على الناس التي كان يشعر بالجزع من فقدها بالمدينة، وكان يتذكر طوال طريق العودة بكل ألم نضوبه التام هناك، والسذاجة العجيبة التي غلبت عليه، واضطرابه عندما وقف محمد ﷺ أمامه، وحركاته التافهة فوق السطح في اليوم الأخير لكي يلفت انتباه صاحبه الرجَّال بن عنفوة، أما وقد رجع إلى بلاده فقد شعر أن هناك شيئًا ما قد عاد يغمره ويقويه، وبدأ يقيِّم هزيمته هناك في المدينة باعتبارها مجرد جولة خانه فيها الحظ.

أعلن مسيلمة بين أهله فور أن عاد أنه نبي مثل محمد ﷺ، نبي له النصف، ولمحمد ﷺ النصف، فتهللت وجوه الغالبية بالفرحة التي لا تحفُّظ فيها، مثل فرحة الحرية، ولم يسألوه آية واحدة على صدقه، لأنهم كانوا يرجون ذلك،

وكانوا يشعرون بأسى من اتباع نبي ليس منهم ؛ أما القلة من الأذكياء فكان يبدو على وجوههم فرح متحفظ عندما سمعوا منه ذلك ، يريدون منه ، كما تقول أعينهم التي قرأ مسيلمة ما فيها ، أن يؤكد لهم أنه صادق ، حتى يمضوا معه إلى النهاية في ذلك الطريق الخطر ، من غير أن يصير بنو حنيفة قبيلة ضيعها أنها صدقت رجلًا من أبنائها ؛ كانوا غير قادرين على أن يعلنوا عن قلقهم ؛ حرجًا منه ؛ وضعفًا أمام حماسة العامة ، لذا كان تحفظهم يبدو في عين مسيلمة آيلًا للسقوط .

لقد تحرك فورًا ومارس نشاطه ، فقد كان أكثر دهاءً من أن يتمهل بهم فتتسع دائرة المرتابين ؛ ومن ناحية أخرى كان أكثر دهاءً من أن يدافع عن نبوته فيبيح لهم بدفاعه عنها أن يطرحوا مخاوفهم كلها باستفاضة ؛ لقد تكلم إليهم بنبرة قلَّد فيها وجع الأنبياء ، وطالب ، وحرَّض ، ووضعهم أمام واجباتهم الثقيلة ، وجعلهم مسؤولون على أن يبعثوا فيه الشعور بالرضا عنهم ، فكان هذا من سحره لهم ، وكانوا جاهزين لأن يُسحَروا ، وقد قال ليهيِّج مشاعرهم: يا بني حنيفة ، أريد أن تخبروني بماذا صارت قريش أحقّ بالنبوّة والإمامة منكم؟ والله ما هم بأكثر منكم وأنجد ، وإنّ بلادكم لأوسع من بلادهم ، وأموالكم أكثر من أموالهم .

ووافق هذا الكلام هوى عند رجال الوفد أنفسهم الذين عادوا معه من المدينة ، فقد كان يشوش عليهم التفكير في أمر الدين الجديد إحساسهم بأن بلادهم خير من بلاد النبي الذي جاؤوا من عنده ، وأنه لا يليق بأهلها أن يتبعوا أحدًا من العرب ؛ وقد شغلهم هذا الشعور بالتفوق المترسخ فيهم عن إعمال فكرهم فيما جاء به محمد ﷺ .

دعا مسيلمة الجميع إلى أن يقفوا مع نبيهم الذي من أنفسهم ، وأن ينصروه وهو منهم كما نصرت الأوس والخزرج محمداً وهو ليس منهم ، حتى يعترف

به محمد؛ حيث يكون بين الأنبياء يا إخواني غيرة الأقران، فلا تعجبوا من هذا، ويحب الواحد منهم أن يفوق أخاه في عدد الأتباع، ولن يسلِّم النبي محمد لي بحقي في النبوة إلا لو كانت لي شوكة، وأنا إن خذلتموني كنت شرف النبوة فيكم الذي ضيعتموه؛ أما إن نصرني هذا القرن من بني حنيفة بقي أحفادهم إلى آخر الدهر يقولون افتخارًا بنبوتي: نحن أنبياء الله.

أخذوا يرددونها بينهم بشفاه بللها الرجاء العظيم: نحن أنبياء الله، حتى تعلقت بها قلوبهم وصارت أعز ألقاب المديح عندهم. وقد أوقد صاحبهم فيهم عبر الأيام شعورًا حارقًا بالظلم، فمحمد ﷺ يظلمه ويظلم بني حنيفة كلهم، ويتستر على نبوته ويتمنى أن تذهب تلك النبوة أدراج الرياح، وها هو ذا يصبر عليه إلى أن ينتصر على حظ نفسه ويعلن ما يخفيه؛ حتى تمكَّن هذا الوهم من نفوسهم تمامًا، وهْم المظلمة، فصار لدى أهله الذين صدقوه رغبة قوية في التصدي لمحمد ﷺ حتى يعلن الأمر مرة واحدة ولو على مضض، لأن ما يخفيه شيء عظيم لا يمكن التسامح فيه أبدًا، وآمنوا بأن قدرًا من البسالة والعناد كافٍ لإجبار محمد ﷺ على أن يقولها.

خيمت خرافة الحق المسلوب، حتى صار الرجل الناضج الذكي الذي يريد أن يصدِّق ولكنه عاجز عن ذلك يتمنى أن يجد ذكيًا آخر يهمس إليه بنفس المخاوف، فيتحديان معًا الشعور القبلي المتأجج عند أهلهم الذين يقولون عن أنفسهم: نحن أنبياء الله، ويخرجان لمسيلمة ويقولون له على رؤوس الأشهاد، ومن أجل الصالح العام: نحن نخاف يا ابن العم أن يصدق فيك قول ثمامة بن أثال وهؤلاء المسلمين من أهلنا الذين يتبعونه، أن تكون هذه كذبة عظيمة التي طفت بها أرجاء البلاد، فلا يجد منك بنو حنيفة شيئًا بعد أن اتبعوك، فتخذلهم

في النهاية وتُضحك عليهم الشامتين، ففكِّرْ مرة أخرى، فهم يقولون إنك لو مضيت في هذا الطريق إلى منتهاه والناس من ورائك، ستكون شؤمًا أبديًا يلازم بني حنيفة.

ومكث مسيلمة في اليمامة لا يسمع مثل هذا الكلام إلا من جماعة المسلمين وثمامة، ينعم بنفسه كنبي في دعوته داخل أرجاء اليمامة، نبي تخطى بلطف مرحلة السرية بكثرة الجولات على القرى والأحياء، محافظًا في ذات على أن تكون الوتيرة دون الخروج على دولة محمد ﷺ في المدينة، يمضي بصبر الشيوخ المرير، كل يوم أفضل مما قبله قليلًا، حتى شعر ثمامة بخطورة ما تمضي إليه القبيلة فاقدة لوعيها، فجمع الناس من عشيرته وبعض العشائر القريبة منهم وحذرهم:

: يا بني حنيفة؛ إياكم وهذا الأمر المظلم الذي لا نور فيه، إنه والله لشقاء كتبه الله ﷻ على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به.

يا بني حنيفة؛ إنه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، وإن محمدًا ﷺ رسول الله لا نبي بعده، ولا نبي يشرك معه.

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، هذا والله كلام الله، فأين هذا من قول مسيلمة: يا ضفدع نقي ما تنقين، لا الشراب تمنعين ولا الماء تكدرين!

صرَّح ثمامة بتفاهة ما يقوله مسيلمة ويدعي أنه نزل عليه من عند الله، وقارنه بكلام الله في القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، ولكن الحال ظلت كما كانت منذ البداية: توجع هؤلاء الذين يتحلون بالذكاء، وأصحاب الذوق

والشعور بالجمال، كل هؤلاء الذين يشعرون منذ سنوات بأن كلمات نبيهم أو كاهنهم الأعظم لا ترزقهم شيئًا من التقوى، وترتعش بجانب بيان محمد ﷺ السامق العجيب، ولكنهم حتى بعد الخطبة الواضحة المحرجة أصروا على أن يغشوا إحساسهم من أجل الوطن، وابتلعوا الغصة، وخدعوا أنفسهم بطريقة الأذكياء في خداع الذات، فثمة أشياء رائعة في الطريق، والإبهار قادم، ولدى مسيلمة ما لم يقدمه بعد.

وقد استراح مسيلمة بعد هذه الخطبة، لأنه يعرف أن ثمامة عندما قارن بين القرآن وبين كلامه قد أتى بأشد ما يطعن به عليه، ولن يجد طعنة أشد من هذه التي لم تأت بأي ثمرة؛ وأخذ يسخر في نفسه من ثمامة الذي اتسع الخرق عليه بهدوء وبلا توقف.

كان مسيلمة يريد فقط أن يكون نبيًا، وهذا كان كافيًا وحده كي يؤجج عزيمته ويصرفه عن أي رغبة أخرى من رغبات الحياة، وما حدث هو أن زيارته للمدينة قد منحته على ما عنده فائضًا من العزيمة يكاد يكون مهلكًا لمن في مثل عمره، فقد اشتعلت فيه الرغبة في أن يأتي هذا اليوم المشرق ويتعرض محمد ﷺ والرجَّال بن عنفوة للصدمة الشديدة عندما يهرب ثمامة بن أثال وجماعته وقد غلب عليهم اليأس والكآبة، ويقولون له بخزي ومرارة إن أهل اليمامة قد اتبعوا مسيلمة كلهم، وأعدَّ منهم جيشًا أكبر من جيشك الذي فتحت به مكة، وأكبر من جيشك الذي ذهبت به إلى تبوك، فيقول محمد ﷺ لنفسه: أهذا مسيلمة الذي استخففت به وألقيت إليه بتحذيري ثم مضيت؟!، ويقول الرجَّال بن عنفوة محدثًا نفسه: أذلك مسيلمة الذي تركته فوق السطح في الصباح مثل المجذوب ولم أعره اهتمامًا؟!

وكان كثيرًا ما يتخيل محمدًا ﷺ وقد أرسل إليه بعدئذ رسالة رقيقة مع الرجَّال بن عنفوة يسميه في أولها رحمان اليمامة، ويرجوه فيها أن يسالمه ولا يخرج بجيوشه صوب المدينة، وأن يكون على نجد وما والاها، فيقول مسيلمة لصاحبه القديم الذي سلمه الرسالة: أنا يا هذا على نجد وما والاها بغير أن يأذن لي نبيك القرشي الذي اتبعته؛ ثم يكور الرسالة بيد واحدة ويلقي بها إلى النار بكل استهانة أمام الرجَّال بن عنفوة الذي لا يملك وقتها إلا أن يخفض رأسه مذعنًا مما لاقاه من إيمان بني حنيفة بنبيهم، وازدرائهم لابن القبيلة الذي جاء رسولًا من عند محمد ﷺ.

هذا هو النعيم الذي عاش فيه مسيلمة في دعوته، لكن هذا النعيم لم يدم، ولم يدم على مسيلمة شعور الشيخ الكبير بعذوبة التؤدة والتخطيط الصبور المتقن، فقد لطمت وجهه أخبار نبي الاجتياح اليمني، الأسود العنسي، الذي لم يكن شيئًا، الذي دخل صنعاء وسكن قصرها، وبات على فراش حاكمها الفارسي؛ وأول شيء فعله بعد أن أصابه الغم بسماع هذه الأخبار الثقيلة هو أنه قفل عليه بابه، وجلس أمام طست وأخذ يغرف منه الماء ويضرب به وجهه ضربات متلاحقة من شدة الغيظ، ثم قال وكفاه يرتعشان من الذهول والحنق: الكذَّاب!

لقد تعذب مسيلمة ذلك العذاب الذي يتعرض له كل من يعمل على شيء على مهل وتفنن وتدقيق، عندما يباغته من يجتازه بسرعة البرق ويؤكد له بهذا الاجتياز أن الأمور ليست بحاجة إلى كل هذا الحرص، وأنه متأخر كثيرًا، وأن صبره ليس إلا أثرًا من الأخلاط الفاسدة وعلل التفكير وجناية السوداء عليه، هذا ما فعله به العنسي، لذا كان من شدة حقده يختلي بنفسه في الأيام الأولى

لسماع الخبر، ويغيظ نفسه ويعايرها بالعنسي، ويتهم ذاته وهو يضرب على صدره بالعجز وقلة الهمة؛ وها هو اليمني قد أخذ الجنوب كله أخذة شديدة، وقد يظهر هنا وهناك متنبئون آخرون طائشون يدفعون الجيوش إلى مكة والمدينة، وأبقى أنا هنا راضيًا بإيمان أهلي الشبيه بالمواساة.

ورغم شعوره الجارح بتفوق العنسي عليه، إلا أنه كان لا يزال عنيدًا معتدًا بنفسه حتى وهو في قلب عاصفة الصدمة، وكان يبالغ حتى في تقدير استفادة العنسي من تجربته، فهو يعزو نصف نجاح الرجل العنسي الساحق إلى السرقة الفكرية عندما سمى نفسه: رحمان اليمن، اقتباسًا غير شريف من اسمه المعروف: رحمان اليمامة.

وقد خالطت غيرته من العنسي رغم ذلك سعادة كبيرة بذلك الرجل اليمني الذي يشقُّ على محمد ﷺ ما قام به بغير شك، لذا كان يشعر في الحقيقة بالعجز عن تحديد ما يرجو للرجل، فتوقف عن أن يرجو له أي شيء. وتهرب مسيلمة قدر ما استطاع من الحديث عن العنسي أمام بني حنيفة، معتبرًا الأمر لا يخص اليمامة من قريب أو بعيد؛ حتى لا يفهم الناس من حوله أي انتفاضة يدعو إليها في الأيام القادمة على أنها تقليد منه للتجربة اليمانية التي تأثر بها، وفي ذات الوقت لم يملأ فمه بين بني حنيفة مرة واحدة ويتهم العنسي بأنه رجل كذاب في دعوى النبوة، مثلما قالها لنفسه بعد أن غسل وجهه؛ ليس حبًا فيه أو تثمينًا للشوط المزعج الذي قطعه، لكن لأن الكذاب لا يحب أن يشير إلى أن هناك من يكذبون في نفس ما يتحدث به، فهذا يلقي بظلال من الشك عليه.

بسبب أخبار العنسي، أراد مسيلمة أن ينفجر إيمان العامة به، وأن يفعل

شيئًا يتفشى خبره فينتفع به الأذكياء في خداعهم لأنفسهم أثناء انتظارهم الطويل للإبهار القادم، هذا قبل أن يعلن نبوته بين العرب جميعًا ويرسل رسالة إلى محمد ﷺ يطالبه فيها بالاعتراف به، وهو يعرف أنه لن يعترف به، ويعرف أن أهله سيغيظهم جدًا أنه لم يعترف؛ لذا كان لابد أن يحوم الملاك في سماء اليمامة، فيختبئ الناس مذعورين خوفًا على أبصارهم، ليظهروا لنبيهم في الصبح كامل الولاء الذي لا رجعة فيه، ويزدادون إصرارًا على الالتفاف حوله أثناء دفاعه عن حقه الذي لا يريد محمد ﷺ أن يعلنه ولو مرة واحدة وعلى مضض.

جفل الناس ودخلوا بيوتهم حاملين معهم إحساساً صارخاً بالضعف البشري أمام القدرة الإلّهية التي أعلنت عن نفسها فوق بيوتهم، وكانوا يراجعون مع بعضهم البعض في ستر الخيام، في تلك الدقائق قبل أن يغويهم النوم وهم يتثاءبون، ذلك المنظر البهي الجليل الذي لم يديموا النظر إليه، ويشدون على الأيدي ويقولون: صدق مسيلمة، صدق مسيلمة؛ بينما لا يزالون يسمعون أثناء هذا كله صوتًا صادرًا من الأعالي مثل أصوات الأجراس الصغيرة، يصل إليهم ضعيفًا وهنيئًا، فيسحبهم إلى المسرة والأحلام السعيدة تحت المجد السماوي المحلِّق.

أخذت الأجنحة ذات اللون الأبيض اللؤلؤي الباهر ترفرف في السماء الحالكة في حالة من السلام، لا يراها إلا مسيلمة وحده، وأخذ الذيل الطويل يرتعش في الهواء وتخرج منه ومضات ذهبية وفضية ولها ألوان أخرى زاهية وعجيبة، كأنه يرمي بالجواهر، ثم اكتمل شعور مسيلمة في الهواء العليل بالنعمة بهذه الحصيلة الإيمانية في الليلة التي باركها ملاكه، بعد أن عرف أن هؤلاء

الذين عاينوا المعجزة قد آمنوا أشد الإيمان، وسيقسمون لكل بني حنيفة وكل أهل اليمامة بأنهم رأوا الملاك الذي نزل إلى مسيلمة وسمعوا جلجلته؛ وأخذ يلملم الخيط بمزاج رائق وهو يبتسم، حتى هوت الطائرة الورقية أمامه وسكتت أجراسها.

الوجه المحنط

عيينة بن حصن كبير قبيلة فزارة الغطفانية، ينظر بعينيه الجاحظتين من داخل خيمة ضيافة، نظرة طويلة تجاه الرجل القوي مديد القامة، طليحة بن خويلد، القائم في صلاته على مقربة منهم في الخلاء الذي أمام الخيمة؛ والشلل الذي أصاب منذ زمنٍ وجه عيينة وأمات التعابير عليه، وعوج فمه، وجعل عينيه جاحظتين، قد وهبه للأبد تلك النظرة التي تشبه نظرة رجل منزعج لا يعجبه ما يرى.

صاحب الخيمة، حبال بن خويلد، المقاتل الصلب الشرس، أخو طليحة بن خويلد ووزيره بعد أن صار نبيًا لبني أسد، الذي يستقبل الوافدين عليه ويكرمهم ويحمل رسائل أخيه إلى رؤوس العشائر، يتبادل النظرات الودودة مع بعض الأقارب من بني أسد الجالسين عنده، وبعض الضيوف الأعراب، ويراقب أثناء ذلك نظرات عيينة لأخيه القائم في الصلاة، تلك النظرات التي تشبه نظرات حيوان مفترس قتلوه أثناء انتباهه الشديد إلى فريسة، ثم حنَّطوه وخلَّدوا على وجهه ذلك الانتباه.

كانت أوقات طليحة الماضية كلها رائعة، فقد واجه فيضًا من القبول من أهله منذ أن دلَّهم على الماء، لم تحيِّره نظرة فيها شك، ولم تربكه نبرة فيها شيء من التوجس؛ كلهم يصدقونه نبيًا قائدًا، تمامًا، بل وبدؤوا يحثونه بحماسة بالغة منذ أن سمعوا بخبر الأسود العنسي على أن يعلن أمره لكل العرب، ويؤكدون له أنهم خلفه حتى لو اختار أن يحارب جيوش هرقل نفسه.

وقد كان يغتبط كثيرًا من حظه في أهله الذي يفوق حظ مسيلمة الذي تسرَّبت إليه أخباره من ناقلي الأخبار في ربوع نجد، لكن في أحيان قليلة، كان هذا التأييد الغريب الكاسح يثير فيه موجات قليلة وعابرة من التفكُّر والقلق، فيخشى أن لا يكون لهؤلاء الذين استجابوا له بكل هذا القدر من الخفة قدرة حقيقية على الصبر والصمود أمام حقائق الأرض والحروب، وكان يميل لمداواة تلك المخاوف العابرة بشيء واحد فقط: بالمزيد والمزيد من الخطابة.

وصلاة طليحة التي جاء الضيوف وهو فيها ولم يركع بعد، هي نفسها صلاة المسلمين التي رآها في المدينة، يصليها وقتما يروق له ذلك، فقد كان لديه ولدى المتنبئَيْن الآخرَيْن مشكلة عويصة وهي أنهم أعلنوا النبوة بدون حتى أن يتمكنوا من تأليف أبسط شكل للشعائر المستقلة، فيما كان دين المسلمين قد اكتمل. وهذه الصلاة يصليها أيضًا بعض هؤلاء الذين ذهبوا معه في الوفد إلى المدينة كلما أرادوا الصلاة، وما زالوا يؤدونها بكل ارتياح حتى بعد أن اتبعوه وآمنوا بنبوته، ولا يشعرون بأي تضارب، فالأمر بسيط، فهي من عند الله الذي أرسل النبي القرشي، ثم أنعم على بني أسد وأرسل طليحة.

لا يزال الضيوف الساذجون الخشنون، يرمقون طليحة برضا وإعجاب وهو في قيامه اللافت بعوده الطويل في هدأة الليل على مقربة منهم، ورجل من بني أسد يقول لهم بصوت رشيق ومسرور: إن للأنبياء أحوالًا!، ولا يزال حبال من ناحيته ودودًا وشامخًا في النظرات التي يتبادلها معهم، ووجهه المطمئن المستريح يعطي لهم إحساسًا كاذبًا بأنه يعرف الكثير من أسرار هذه النبوة التي حظي بها أخوه، وهذا على خلاف الحقيقة، فلم يكن ما يوهم به وجهه من معرفة ويقين إلا أثرًا للفخر وحده، الفخر بنبوة شقيقه، ذلك الفخر الذي جعله

يقول منذ أن أعلن أخوه النبوة إنه ليس كثيرًا على خويلد أبيه أن ينجب اثنين من الأنبياء وليس نبيًا واحدًا.

وظل حبال عاجزًا عن فهم ما تنم عنه نظرات عيينة بن حصن التي تبدو دائمًا وفي جميع الجهات، ساخطة ومنزعجة، وهو رجل بالغ الأهمية لأخيه الآن، فهو زعيم له شأن في أهله بني فزارة، وفي غطفان كلها، وهو أول رجل فكَّر فيه طليحة عندما سمع أخبار الأسود العنسي وتشجَّع وقرر أن يفعل شيئًا مشابهًا ويضم إليه زعماء من القبائل القريبة المحالفة ويستعين بهم على أمره. وقد آمن حبال، بعد عدة محالاوت فاشلة في قراءة الوجه المصاب بالشلل، بأن هذا وجه لا يعول عليه أبدًا، وأن مثل هذا الرجل يجب أن يتكلم حتى يعرف الناس ما عنده، فاختار أن يثير أطماع الزعيم ويفتح شهيته، لعله يحرص على أن يسابق إلى الإيمان بأخيه بعد أن يخرج من صلاته، فأسكت من يجلسون بجانبه من أهله، وقال إنه سيتلو الآن على الضيوف آيات أنزلها جبريل على أخيه النبي، وتلا الآيات على مهل وهو يرجو أن تكون هذه الآيات التي طارت بها ألباب العامة في بني أسد، كفيلة بإثارة اهتمام الرجل الجشع وفضوله: والحمام واليمام، والصرد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغن ملكنا العراق والشام.

وفور أن أنهاها حبال قال له عيينة وهو يدعك عينيه: لو وجدناكم على مشارف العراق أو الشام، بعد أن أكلتم الناس في الطريق، اتبعناكم وانتفعنا معكم.

اتضح لحبال فور أن سمع منه هذا الرد العملي الجافي أن هذا الوجه المحنط الميت الذي أصابه الشلل لا يعوق الرجل عن التعبير البتة، بل إن هذا

الوجه منذ أن أصابه ما أصابه، قد انسجم مع روح عيينة التي تجمع بين السذاجة واليقظة والجفاء والنفور، وأحسن في تعبيره عنها وصدق في هذا كل الصدق.

كان عيينة بن حصن منذ أن بدأت الجلسة منذ قليل، يحاول أن يبدو متمنعًا، أو متريثًا، لأنه لا يذهب في الحرب إلا مع رجل يظن أنه في طريقه لجمع الغنائم، ولا يمكن أن يضع نفسه ومن معه رهنًا لتجربة وليدة وخطرة، وهو، وإلى هذه الساعة التي يجلس فيها في خيمة حبال، وطليحة قائم في صلاته، ومحمد ﷺ هناك في المدينة لا يزال أقوى رجل في العرب، يبدو له اتباع طليحة مغامرة غير مأمونة العواقب. لقد كان يحاول أن يبدو متريثًا رغم سعادته الباطنية بأن يكون هناك نبي في حلفائهم المقربين بني أسد، فهو يفضل أن يتبع نبيًا من بني أسد على أن يتبع نبيًا مثل محمد ﷺ ينتمي إلى مُضَر، محمد ﷺ الذي ارتفعت من حوله أصوات النهمين وهو واحد منهم بعد موقعة حنين راغبين في الثروات، رغم أنهم فروا في أول القتال، محمد ﷺ الذي لم يعاتبهم ووسعهم بحلمه وصبره، والذي أخذ الأعراب يجتذبونه من يديه حتى ألجؤوه إلى شجرة فتعلَّق بها رداؤه، محمد ﷺ الذي أعطى عيينة يومها مائة من الإبل وأعطى مثلها للأقرع بن حابس، مما جعل عباس بن مرداس يعاتب النبي في شعره.

لقد باغتت حبال في خيمته هذه القوة المربكة في الرجل المنغلق، وصدم منها، قوة أن يكون الرجل طماعًا مثل أغلب الناس ولكن لا يخفي ذلك، قوة أن يكون الرجل محصنًا بالسليقة من الحرج من الأصدقاء وأصحاب الفضل، ومن الإلحاح العاطفي، ومن حديث التواريخ المجيدة، والملاطفات التي يستخدمها الأعراب في التأثير على بعضهما بعضًا.

وكان لدى حبال من الحساسية والاعتزاز بالنفس مثل أبناء البيوت الرفيعة ما جعله يسكت ولا يعرض على الرجل أي شيء مرة أخرى، ويؤثر أن لايبدو شديد الاهتمام به إلا بالقدر الذي توجبه الضيافة، واختار وهو مجروح أن يترك الأمر لأخيه النبي حتى يفرغ من صلاته الطويلة ويناجي بنفسه صاحبه الذي يجمع بين العزة والنذالة.

وفيما كان الرجال يثرثرون بينهم عن النبي الجديد من بني أسد، ويحاولون بأفكارهم الضحلة القبض على معنى النبوة الذي يتفلَّت منهم، قاطعهم عيينة بصوته الحجري وهو ينظر إلى الأرض وقال إنه لو عرضت عليه هذه النبوة لاعتذر على الفور؛ فتعجَّب الجالسون مما قاله الرجل بوجهه الجامد الذي مات تعبيره، إذ رغم ضعف فهمهم لأمر الوحي والنبوة يستبعدون مثل هذا الاعتذار. ورفع وجهه وأخد ينظر إليهم بنظراته القاسية رغمًا عنه، وقال لهم موضحًا إن فيها من التكليف والصبر يا إخواني، والحلم العجيب، والسخاء البالغ، ما لا أطيقه.. وأخذ يهز رأسه، وهو ينظر للأرض نظرات غضب لا يقصدها. وخمنوا بسهولة أنه يعرف النبوة هكذا من معرفته بمحمد ﷺ، حتى فهم حبال مثل هذا واستاء منه.. غير أن الرجل الذي يحمل وجهًا محنطًا كان يمهد لشيء آخر بكلامه، فقد أكمل بصوته الحجري وقال إنه وإن يكن يكره أن يكون نبيًا، ويصرُّ على ذلك، إلا أنه يحب أن يكون على مقربة من نبي مظفر، نبي مظفر يقدر الناس، ويعرف أوزانهم.

هز حبال رأسه بدون أن ينظر لعيينة، فقد كان غير قادر بسبب جرحه بأن ينظر إليه مرة أخرى، هز رأسه لأنه فهم من هذا الكلام أن الرجل الذي يجر من ورائه قبيلة برماحها لا يقطع الأمل، قد لايبايع الليلة، ولكن قد تأتي به ليال

أخرى، فيبايع في ظروف مشجعة ويجعل مصيره مع مصير أخيه. ونظر حبال تجاه أخيه وهو يتمنى أن يفرغ من صلاته ويتوسط الجلسة.

وقد أطال أخوه القيام لأنه كان يعرف أن عيون الضيوف الأعراب المنتفخين تتجه إليه، وتنظر بإكبار إلى طوله الفارع، ووجهه الفخم، الذي استنار من نور شعلة قريبة، ومن أجل أن هؤلاء ينظرون إليه تكبَّر عن أن يخر ساجدًا أمام هؤلاء الأعزاء ويضع جبهته على الأرض. وهذا الفارس الذي لا يسيِّره إلا شيئان هما الفصاحة والكبرياء، كان لديه هذا الاستياء من السجود أمام الناس منذ البداية، منذ أول صلاة رأى الناس فيها في المدينة، لقد بقي فيه من بعدها إحساس بأنه كثير عليه أن يعيش بقية عمره والناس يطَّلعون عليه وهو يضع جبهته على الأرض لله.

وفي لحظات، حدث فيها صخب لأن الضيوف تهللوا وفرحوا بقدوم شيخ ظريف من شيوخ بني أسد كثير الدعابة، استغل طليحة التهاء الناس عنه وأنهى صلاته بغير ركوع أو سجود، وتوجه مبتسمًا ناحية الضيوف وعيناه على عيينة بن حصن الذي قام مع آخرين يضاحك الشيخ الذي أتاهم؛ وعلى خلاف أخيه الحساس المتصلِّب، الذي لا يتوقف عن التفكير في هوية أبيه وأجداده وهو يتعامل مع الآخرين، كان في عيني الفارس المحنك الذي اختلط بالناس جيِّدهم وخبيثهم، وتعلَّم الغواية والمساومة وتحمُّل الإعراض، كان يبدو في عينيه وهو ينظر إلى عيينة بن حصن استرخاء رجل خبير، يعرف كيف يستولي على لبِّ هذا الرجل الأحمق المطاع، من قبل أن يقطع ذراعًا واحدًا باتجاه العراق.

الروح التي خربت

عند قناة واسعة من قنوات المياه على طرف من أطراف من المدينة، كان الرجَّال بن عنفوة بوجهٍ أقل صفاءً يتأمل في سرب كبير من طيور مالك الحزين العابرة، كانت قد ودَّعت المياه والصخور والأشجار ومضت أمامه، فأخذ يتابعها بعينيه وهو يبتسم ابتسامة حسرة، إذ كان يغبطها، فهو مثل كل البشر الذين يهاجرون إلى المجهول، لتكشف لهم الأيام من بعد ذلك إن كانوا موفقين أم خائبين، أما الطيور، جميع الطيور، فتهاجر بين البلاد مدفوعة بالغريزة السليمة وحدها، لا جشع ولا رعب ولا فضول، تذهب وتعود بغير أي فخر أو ندم.

كان الرجَّال بن عنفوة قد اضطرب فور أن سمع بسقوط صنعاء وتغلغل حركة العنسي في أنحاء الجنوب اضطرابًا لم تُشف منه روحه، وقد رافق هذا الاضطراب الذي سبب له خللًا باقيًا مثل العاهة، إحساس مثل إحساس صاحبه في اليمامة عندما سمع الخبر، إحساس بالهزيمة الشخصية المنكرة؛ فقد كان يحلم بأن يتخرج من مدرسة محمد ﷺ، مثل تلميذ طائع وغير مريب، ليعود إلى بني حنيفة قائدًا ومعلمًا وحيدًا، وينفخ فيهم من روح هذا الدين القادر على تغيير الناس، ويحضهم على البذل والسبْق والقيادة، إلى أن تصير بلادهم عاصمة الإسلام الأخيرة. كان يرى أن أهل المدينة هم من أعطوها منزلتها بما قدموه، ويرى أنه لا عيب في أن يحاول الآخرون أيضًا من أجل بلادهم. وها هو ذا يشعر أن ذلك الحلم العظيم، الذي أخفاه في أغوار نفسه، والذي ظن أنه ربما يحتاج إلى خمس وعشرين سنة من السعي النظيف حتى يصير حقيقة

ماثلة على الأرض، مهدد بظهور هذا المنافس الجنوبي الأخرق الذي استولى بعد خمسة وعشرين يومًا فقط من خروجه على صنعاء، والذي قد يباغت المدينة في أي يوم وينهي كل الأشياء التي كانت تبدو عزيزة وعصية على الموت.

يوم أن سمع الخبر قفل عليه الباب يومًا واحدًا وأخذ يفكر بارتباك ودهشة في المصير، وهو يتهرب من الحقيقة التي لا يريد أن يتمعَّن فيها، وهو أنه ورغم مزاياه العديدة التي تبعث على الشعور بالإعجاب، إلا أنه رجل لم يخلق من أجل إنقاذ شيء. وفي اليوم التالي خرج مرة أخرى ومشى بين رجال محمد ﷺ المؤمنين، الواثقين بأن أمر العنسي إلى زوال، فاسترد تماسكه الظاهري الذي يستطيع أن يعيش به في المدينة، وقد انخدع هو ذاته بالطمأنينة التي شعر بها، ولم يكن يدري أنه لم يتخط عثرة العنسي كما يظن، وأن الشك الذي مرَّ سريعًا بروحه في صدمة الخبر ثم انقشع، قد لقَّح هذه الروح قبل أن يمضي خفيفًا.

ومن بعد هذا جاء خبر شديد من اليمامة زاد روحه إعياءً، خبر لا يقل عنده سوءًا عن خبر العنسي بل ربما يزيد، فقد تناهى إلى سمعه وهو بين الصحابة أمر الرسالة المؤلمة التي وصلت من ثمامة بن أثال إلى محمد ﷺ وانتشر أمرها في المدينة، لقد وقع إذن ما لم يكن يتوقعه على الإطلاق: لقد خرج مسيلمة على الناس في بني حنيفة بدعوى النبوة فاتبعوه وقلَّدوه أمرهم، وصار له الغلبة على جماعة المسلمين وأميرهم ثمامة، هذا وقد شهد له جماعة من الأعراب الأغرار في بني حنيفة بأن ملاكًا عظيمًا قد هبط عليه.

كان في الصدمة الشديدة التي شعر بها منذ أن سمع خبر نبوة مسيلمة شيء شخصي بلا شك، يتخطى التهديد الجديد للمدينة من ناحية اليمامة، فمثل كل من يتمتعون بالجدية والذكاء والدأب، عندما يقارنون أنفسهم بالكسالى

الخياليين الراغبين في الصعود السريع، الذين يعوضون كسلهم ونقص استعدادهم باللطف مع الآخرين والبحث عن المداخل إليهم، كان يظن أن تفوقه على مسيلمة، الذي اتضح لكليهما تمامًا في جلسة المدينة، هو شيء نهائي وعادل، ولم يكن يتوقع أن تأتي لحظة من بعد تلك الجلسة يكون فيها مسيلمة ناجحًا وواثقًا وحاسمًا، وجامعًا كل هؤلاء الناس من خلفه، ويكون هو فيها مغتربًا حائرًا وحيدًا، ومحرجًا.

آه يا مسيلمة، كأن حقدك يقودك، فقد أفسدت لي ما لم تكن تعلم عنه شيئًا؛ وقد كان ما عندي أفضل كثيرًا مما عندك ولكنك أنهيت الأمر، وجمعت الناس كما كنا نحلم معًا؛ وبنو حنيفة الذين مكثتُ هنا من أجل أن أقودهم إلى العلياء بما جاء به محمد ﷺ، لا يمكن لهم منذ الآن أن يكونوا أمراء هذا الدين، أبدًا، حتى لو هلكتَ يا مسيلمة وأسلموا من بعد هلاكك، ذلك إن بقي هذا الدين أصلًا.

ولا يزال الرجَّال بن عنفوة يمشي بين رجال محمد ﷺ المؤمنين، الواثقين بأن أمر العنسي إلى زوال، وأمر مسيلمة كذلك إلى زوال، وقد انتشرت بينهم رؤيا النبي المطَمئنة: فقد رأى في يديه سوارين من ذهب، فأهمه شأنهما، فأوحي إليه في المنام ان انفخهما فنفخهما فطارا، ففسَّر هذين السوارين الزائلين في النهاية بعد سحابة من الهمِّ بالعنسي ومسيلمة؛ وقد شعر الرجَّال بنفحة عابرة من السرور من تفسير محمد ﷺ، إلا أن هذا التفسير لم يبث في روحه نفس الدرجة من الطمأنينة التي بثها في الآخرين.

وبدأ يشعر بشكل جلي بأن مسايرته لهؤلاء المتماسكين تحتضر بهدوء باطني، فيما هم لا يزالون يبشرون بعضهم بعضًا بأن أمر الكذابيْن لن يطول، وأن الغلبة للإسلام، حتى بعد أن وصل إلى المدينة خبر آخر سيئ، وهو خبر

ردة طليحة بن خويلد وادعائه النبوة، واتباع بني أسد له، وجماعات من غطفان وطيء؛ النفس المغتربة والطموحة والمشحونة بالكبرياء، نفْس الرجَّال بن عنفوة، التي تسرب الشك إليها من ثقوبها، صارت تشعر بصعوبة العيش في المدينة في هذه الأجواء، خاصة وقد ظهرت له مشكلة ليست عويصة، ولكنها زادته إرهاقًا وضيقًا، وهي أن الناس هنا في المدينة الذين يشعرون بالخيانة، بدؤوا يتذاكرون أسماء الوفود التي لم يكن يبدو على من فيها جدية في دخول الدين، واتفقوا على أن وفد بني حنيفة كان أشر الوفود وأبعدها عن التقوى، وأجمعوا على أنه لم يقدم عليهم وفد أقسى قلوبًا من بني حنيفة، ولا أحرى أن لا يكون الإسلام يقر في قلوبهم منهم، وصاروا يذمونهم كلهم إلا ثمامة ومن معه؛ وتجنبوا أن يكون هذا في محضره، ولكنه كان يتوقع ذلك، وبسبب طبيعته الأبية والحذرة، الأسيرة لفكرة الاغتراب، صار يبالغ في توقع ذلك، فكلما رأى اثنين يتكلمان هنا وهناك، وسوست إليه نفسه بأنهما يتكلمان عن الأراذل بني حنيفة، واللعين مسيلمة، مما أفسد عليه تمامًا بقاءه في المدينة.

لقد احتج في النهاية على محاولته لأن يكون متماسكًا، ولام نفسه على الصبر بين بشر يعرفون بالضبط ما يريدون ولكنه لم يعد يعرف ما يريد؛ وأخذ يجمع عزمه على التوقف، كي ينظر في شأن نفسه على انفراد، بعيدًا عن سطوة هذا العالم الذي وضع فيه نفسه، وأخذ يحدث نفسه المتعَبة بأن الحلم الحنفي الذي اجتهد هنا من أجله اجتهادًا عظيمًا قد انتهى بغير رجعة، ولا يليق بعاقل مثله أن يستمر في اجتهاده العظيم بحكم التعود وحده؛ وصارح نفسه بأنه لم يعد في قلبه مبرر للبقاء على عهد المدينة ونبيها إلا أن يحبه الناس هنا، ويحمدوا له ثباته، وهذا هدف يبدو له في تلك الأيام الصعبة متواضعًا جدًا. وخاف أن تكون تلك المعزَّة التي يشعر بها تجاه الأشياء التي اكتسبها هنا، والتي غيرته

كثيرًا، خاف أن تكون نابعة من الانحناء الذي يحدث في النفس شيئًا فشيئًا بالعيش في بلاد الآخرين؛ لذا أخذ يراجع كل أفكاره، وحتى سروره، وعواطفه الشجية، ودموعه التي انسابت منه في عدة مناسبات ظليلة ومؤثرة، مخافةً أن يكون كل هذا راجع من النفس المنحنية للمغترب، وقد أخذت الأمور تختلط عليه جدًا، وارتفع صوت صراخها فيه، إلى أن صار عاجزًا عن أن يعرف إن كان مؤمنًا أم كافرًا، وصار فقط يريد الخروج من المدينة كي يرى كل هذا الأمر الضخم من خارجه، من مسافة، خاليًا من مؤثرات الولاء.

ظل في دخان هذه الأفكار عاجزًا عن الخروج، يظن أن كل شيء وارد، حتى أن يتحول دين محمد ﷺ في النهاية بظهور النبوات الكاذبة إلى دين محليّ في المدينة لا يكاد يتخطاها، مثلما أنه من الوارد أيضًا أن يخلد اسم محمد ﷺ بين العرب إلى آخر الدهر وتصير تلك النبوات الكاذبة تراثًا هزيلًا مضحكًا. وظل في دخان هذه الأفكار ناقمًا على البشر، محملًا إياهم المسؤولية عما يشعر به من ضياع؛ فهو كرجل مجتهد وذكي أثبتت له المدينة قدراته، واكتسب فيها خبرة نفسية ومعرفية صقلته كثيرًا، شعر بشكل شخصي بالغيظ الشديد من نجاح المتنبئين الثلاثة، فقد نظر إلى العنسي ومسيلمة وطليحة باعتبارهم شائهين وأشباه جهلة، وأدنى من أن يقنعوا عاقلًا واحدًا بأنهم أنبياء، حتى أنه كان يمسك رأسه من الذهول كلما أمعن التفكير في هذا الأمر ويسأل كيف اقتنع الناس بأن هؤلاء الجهلة أنبياء! ولم يكن هذا من باب الغيرة على الإسلام بقدر ما كان من باب الغيرة من الحظوظ الهائلة التي تمنحها الدنيا للرجال الفارغين. وأخذ يردد بينه وبين نفسه في هذه الأوقات العصيبة أن كثيرًا من الناس إذن هم حمير، حمير بلا شك، تبتهج نفوسهم بالتفاهات، ويجتمعون على الرجال المزيفين الخواة؛ وهم همج أوغاد لا يستسيغون الحق بطبيعتهم

ولا يفهمونه، ويرونه كريهًا، ولا أحد كائنًا من كان يمكن له أن يشرح لهم الحق ويميل أفئدتهم إليه شيئًا فشيئًا ويرضيهم به، حتى لو كان رسولًا نبيًا، إلا إن كان معه تلك المعلِّمة الحاذقة التي تسمى: الهيمنة.

وقد أوصله طول التفكير العدمي هذا في انحطاط العامة إلى قناعة تامة بأن الرجال الأذكياء الموهوبين مثله ليس عليهم الكفاح المرير من أجل أن يطهِّروا الناس ويعلموهم الفضائل، لأنه إن لم تكن هناك هيمنة، سينتهي الحال بالكثير من الأذكياء والموهوبين بأن يلقوا حتفهم تحت أرجل الحفاة الذين ناضلوا من أجلهم، لذا على الأذكياء أن يقتحموا هذا الجنون، ويلعبوا على الذوق الفاسد، ويسايروا اتجاه الريح، ويستغلوا غباء العامة بلا هوادة من أجل المال والشهرة والصعود.

وها هو ذا الرجَّال بن عنفوة يقف عند طرف من أطراف المدينة يتابع الطيور المهاجرة وهي في طريقها إلى العودة، يقف وهو يحمل التخريب الذي لحق بروحه منذ أن سمع خبر العنسي، والذي حرص على أن يظل خافيًا عن فراسة الناس، ذلك التخريب الذي يختلس فرص الاختلاء لكي يروِّح عنه ويجعله ينطق على لسانه بما يريد. وكانت روحه الخربة تناديه بضرورة الخروج من هنا حتى يستريح، في أسرع فرصة، وقد كان يسمع نداءها حتى في صوت الطيور الحزينة.

بقعة الدم الدافئة

في مجلسه في حديقة القصر الذي استولى عليه في ضاحية السادة والأثرياء في صنعاء الذين تعرض الكثير منهم للقتل والتشريد، بالقرب من بئر الحديقة التي قلب جنوده صاحب القصر فيها ورجموه بالحجارة، وفي الوقت الذي خصصه كل يوم لدخول الناس عليه، كان قيس بن مكشوح قائد جنود الأسود العنسي يجلس ومن خلفه يقف من بعيد قليلًا بعض الحرس الأشداء، وينظر إلى الرجل الأعرج الرث الثوب الذي يتقدم إليه بخطوات شاقة وهو يرتجف من الشعور بالهيبة في الممر الطويل بين الشجيرات والزهور وأصص الزرع البديعة، وفي يديه سلة مغطاة مصنوعة من الحلفاء، يحملها باعتزاز شديد كما لو كان يخفي فيها طفله الوحيد.

أطال الرجل النحيف ذو الرقبة الطويلة الضامرة في تحياته وهو ينحني قليلًا للأمام، بهيئته التي تدل على سوء التغذية وإرهاق الرحلة، فأشار له قيس بن مكشوح كي يقعد ويريح يديه، ويضع السلة التي يتوقع أن فيها هدية سخيفة. فاعتذر الرجل اللاهث عن عدم القعود في حضرة القائد المبجَّل، ووضع السلة ببطء وقد شعَّ من وجهه النحيف الدقيق الأعضاء وعينيه البنيتين ابتسامة الرضا عن النفس، كما لو كان يثق تمامًا بأنه سيفاجئ القائد المهيب ويدهشه بما حمل معه، ثم رفع الغطاء وهو يقول بصوت مرتعش، وبلباقة المساكين التي دربهم عليها العوز والاستضعاف، إنه شيء من أجل النبي رأى أنه العبد الخاطئ لا يستحق شرف أن يقدمه إليه بنفسه؛ وحمل بين يديه تمثالًا من الطين المحروق بطول ذراع وهو يكاد يبكي من عواطفه الساذجة التي غلبته، تمثالًا لنبيه العظيم

الأسود العنسي خير من طلعت عليه شمس اليمن؛ أعددته يا سيدي بنفسي، وصبرت عليه وأنا أصنعه حتى رضيت عنه كل الرضا، والله يشهد أن طينه قد نزلت عليه دموعي؛ وهاتان العينان من حجر العقيق، كانا كل ما ظفرت بهما من الدنيا، ولو كان عندي ما هو أنفس من العقيق ما ضننت به؛ وكل ما أرجوه هو أن يتقبَّله ويبارك عبده.

سكت قيس بن مكشوح قليلًا وهو يتأمل في وجه الرجل الهزيل الذي لفحته شمس الطريق، ثم بدأ يوبخه ببرود شديد ويتهكَّم من صنيعه، فقد استخدم عقيقتين مختلفتين، فجعل للنبي العظيم الذي عقمت النساء أن ينجبن مثله عينين غير متماثلتين في السعة، كما أن هذه تنظر في ناحية وتلك في ناحية أخرى، لذا فهو يبدو بهاتين العينين مثل عفريت كئيب؛ فنظر الرجل لعيني التمثال الذي بين يديه وشهق، فقد هاله أن الملاحظة في محلها، ثم أخفض وجهه للأرض في هم وخضوع كمن أدرك ذنبه، وأخذ يرتجف أمام قيس بن مكشوح مثل شجيرة ضعيفة تكاد الريح تنزعها.

وهاتان الأذنان الكبيرتان البارزتان يارجل، ألا ترى أنهما مثل أذني الوطاويط؟ تناسَ قليلًا أنك أنت الصانع، وانظر إليهما بإمعان، إنهما لا تليقان برجل كرَّمه الله وجعله نبيًا، بل تليقان بجلف مغفل لا عقل له.

أخذ الرجل الساذج يؤنب نفسه بصوت يخرج منه بصعوبة، على تلك الملاحظات الثمينة التي أبداها القائد المخلص الغيور وهو يضع التمثال في السلة ويغطيه مرة أخرى، وأصر على أنه سيجتهد من أجل أن يمسح خطيئته الفنية ويعود ومعه شيء يليق بكبرياء النبي ونور وجهه؛ ولم يكن الرجل يدري أن ما فعله قيس بن مكشوح هو ما ينفِّس به الرجل الثاني عن غيظه من الرجل

الأول، أن يوجع محبيه، وأن يهين الساعين إليه، مخفيًا ضغينته خلف قناع الغيرة عليه، ولا يكتفي بأن يوجعهم، بل ويومئ في تنفيسه بكل حذر إلى نقائصه التي يتعامون عنها، فأذنا النبي الكاذب كبيرتان فعلًا كما صدقتْ أنامل الرجل المسكين الذي يقف أمامه مهزوزًا، وقيس يقصد أن يقول إن أذني العنسي تنبئان أنه ليس أكثر من جلف مغفل بلا عقل. وأخذ ينصح الرجل بتعالي القادة ولهجتهم الرسمية الحجرية أن يهتم بشغله أكثر من ذلك ولا يجرؤ على شيء إلا إن كان أهلًا له، أو لا يعود إلى مثل هذا ويتوب إلى الله منه؛ وكان يفكر في أثناء ذلك في أن التمثال ذا العينين غير المتماثلتين الحولاوين يجسد بشكل جلي رائع ما في حب الرعاع للزعماء من إهانة.

ولان قيس بن مكشوح قليلًا ونظر إلى الرجل نظرة تشي بالعطف والود، وعاد مرة أخرى للكلام عن صدمته في منظر الأذنين، ولكن هذه المرة بصوت هادئ وديع فيه استدراج خبيث؛ إنه يحاول أن يربك الرجل بنفحة الحنان المفاجئة، تلك النفحة التي تحل عقدة لسان المساكين، لعله يدافع عن نفسه ويقول إنني لم آت بشيء من عندي يا سيدي، فأذناه كبيرتان حقًا، إنه يريد أن يسمع مثل هذا من الرجل فيضحك منه، فيرد عليه الرجل بأن يضحك هو أيضًا، ثم يتنحنح قيس ويبتسم له ابتسامة طيبة ويقول له بلطفٍ: كفى ولا تعد لمثل هذا القول؛ ولكن الرجل لم يفعل وظل يتهم يديه الحقيرتين الدنيئتين اللتين تستحقان البتر. ولما سمع منه قيس هذا، أمره بأن ينصرف وهو ينظر إلى وجهه متلذذًا شامتًا بما يبدو عليه من خجل وانكسار خاطر، وازداد تلذذًا عندما استدار الرجل الأعرج ومشى، فقد وجد ثوب الرجل وقد تلطَّخ من الخلف بنزيف مفاجئ من الدم بفعل البواسير وهو يمشي بغير أن يشعر به.

لقد شمت فيه وهو ينظر إلى الدم من كل العامة أمثاله، الذين يرغبون في

أن يضعوا حياتهم البائسة فداءً للأسود العنسي، كأنهم ورثوا حبه والصياح باسمه من عهد أجدادهم، بينما لم يمر اليوم على استيلاء السيد المفاجئ على صنعاء إلا شهر وأيام قليلة، السيد الذي كان على بابه في أيامه الأولى في القصر حارس ضخم واحد يحفظه من الاغتيال، ثم ها هو ذا قد وضع مائة من الحراس المدججين بالسلاح في المسافة بين بوابة القصر وبين الحارس المفضل الأول حافظ الحياة والأسرار.

شمت فيه من كل العامة الذين فجَّر حبهم المجنون له فيهم شهوة الوشاية، العامة الذين يطوفون بالقصر الكبير بأسمالهم وأمراضهم وهم يتمنون أن يضع يده الكريمة عليهم ويستغفر لهم، يده الكريمة التي لا يعرفون أنه يتصيد بها الجواري فجأة في عتمات القصر وهو غارق في سكره، فيقع على الواحدة منهن فوق البلاط في الظلمة، فيسمع أنفاسها ويشم رائحتها ولكن لا يبالي بمعرفة اسمها، ولا يبالي إن كانت جميلة أو دميمة، العامة الذين يغلب عليهم الشعور بأنهم خاطئون ومذنبون وجديرون بأن تحل عليهم المصائب والمحن، رغم أنهم في حقيقة الأمر جوعى ومذعورون ويتحملون الضيم، وملابسهم ممزقة، وأمراضهم مزمنة، ولم يبق لهم إلا مصيبة الموت، العامة الذي آمنوا في نشوة الفرح والانتصار بأنه سيطرد جميع أعدائه من أبناء الفرس المرفهين من البلاد، ويسكنهم في مساكنهم، وظلوا على حبهم الشديد له بعد أن قرب إليه جماعة منهم واتخذ منهم وزراء وأهل مشورة وتزوج أرملة أميرهم شهر بن باذان، العامة الذي آمنوا بأنه لن يسمح لأحد بأن يستولي على حمل بعير من محاصيل البلاد، وأنه سيوزع الثروات بالعدل على المحرومين والتعساء، وظلوا مؤمنين به بينما رجاله يجبون إليه كنوز الذهب والفضة والقطع الأثرية في وضح النهار ويضعونها في مخازنه المنيعة.

وهكذا أخذ يسترسل في خواطره الناقمة على العنسي، ومؤكدًا في ذات الوقت لنفسه بأن ذاك الذي مضى ومن خلفه بقعة الدم الدافئة، وكل من هم على شاكلته، هم مجرمون في هذا الخضوع وهذه المباركة التي لا حد لها، فقد أذلوا القادة أمثاله وجعلوهم ينحنون له مثل انحنائهم، وقد كان يليق برجل مثله أن يكون حاكمًا كريمًا لليمن لا هذا الكاهن السوداوي المجنون.

لو كانوا جميعًا نظروا في أعمال العنسي نظر العقلاء لاتهموه، ولقالوا عنه إنه سكِّير وآثم وزان وحقود وشهواني، وتلعب به الشياطين، عندئذ يعجز العنسي عن قراءة كل تلك العقول، كل العقول التي تكرهه وتكذبه وتحتقره، وسينتهي به الحال إلى أن ينهار باكيًا ذليلًا فاشلًا، ولكن هؤلاء الرعاع قد تركونا نحن القلة من الشيوخ والرؤساء في مواجهته، كي يقرأ عقولنا بإمعان، وبغير أن يتشتت، لينتشل من بين صفوفنا المذعورة أي رجل منا وجد في ذهنه آثارًا باقية من السباب والاحتقار، فلا يصدق إنكاره، ولا يقبل استرحامه، ويحطم الجمجمة بالمطرقة، مثلما حدث ورأينا من قبل نثار مخ الرجل الذي كان يقف بيننا، المخ الذي أهلك صاحبه.

تغيرت خواطر القائد فجأة، فقد تلبَّسه خوف من الرجل الأعرج الذى كان يعاني أمامه من شدة الخوف، خاف أن تغمره الشجاعة التي يمنحها اليأس، فيجرب حظه مرة أخرى ويذهب بالتمثال التافه إلى قصر العنسي الذي تروق له محبة هؤلاء الجنونية، فيسمح له بالدخول، ويدخل الرجل، وينهار من الحب والشكوى، ويطفئ أوجاعه بالدمع عند ظلال نبيه الذي يستمع إليه، فيفهم العنسي مما سمع أن قائد جنده يسخر من منظره، فيستقدمه ويقرأ ما في ذهنه قبل أن ينجح قيس في تنظيفه مما فيه من أفكار ساخطة، فلا يرحم استعطافه

ولا توسلاته، ويحطم الجمجمة.

لقد ندم على أنه لم يؤكد على الرجل أن لا يفكر في عرض تمثاله اللعين على العنسي نفسه، وأخذ يضطرب في جلسته ويقضم أظافره، وهو يفكر في أن يبعث الحرس في أثر الرجل، ثم يتراجع عن هذا ويهوِّن من شأن الهاجس، ويطمئن نفسه ويذكرها بنظرات الرجل أمامه إلى عيني التمثال، إنه قد فقد الثقة فيما صنع تمامًا ولن يغامر بالذهاب بطينه المحروق؛ حرقه الله كما احترق طينه.

ثم أخذه الخوف بعيدًا ولعب بأفكاره؛ ماذا لو كان الرجل قد نكَّره العنسي وبعثه ليختبر ولائي؟ بعثه حقيرًا ضعيفًا بليدًا حتى لا أحتاط له، فأنا قائد الجنود، أكثر رجل يهتم العنسي بالاطمئنان إلى ولائه. هذا يعني أنني لست حذرًا بما فيه الكفاية، وقابلًا للوقوع في الفخاخ السهلة.. لا، هذا لا يمكن أن يكون، فكل شيء في الرجل حقيقي: بؤسه، وجوعه، وغباؤه، والدم الذي على ثوبه.. وأنا في الحقيقة إن كان العنسي قد أدخل الرجل عليَّ لم أقبل بتمثالٍ شائهٍ لا يليق بمقام النبي، هذا كل ما قلت... لا أدري، ولكن إن نجوت من هذه فلن أكرر هذا الخطأ مرة ثانية، وسأعامل حتى أقرب الناس على أنهم جميعًا وشاة... فالمزيد من الحرص أيسر من هذا الخوف، هذا الخوف وخيم جدًا، وتستحيل معه الحياة الكريمة.

وبعد هذه الخواطر التعسة، وبمزاج غير رائق، ووجه تعبر ملامحه عن معاناة حقيقية، أخذ يردد بلسانه أكثر من مائة مرة، وببطء، أن العنسي نبي صالح، ودمائي دونه.. العنسي نبي صالح، ودمائي دونه.

تحت رحمة الشوق

بعد أيام قليلة جدًا من وصول أخبار اليمامة كان الرجَّال بن عنفوة قد استوى تمامًا ولم يعد فيه أي شيء من الخشوع وهو يصلي أو يقرأ القرآن، صار مثل شجرة انقطع عنها الماء ولكنها لم تعلن موتها بعد، ولم يعد الدين فيه إلا خبرة كثيفة وناشئة.

وبدأ يتقلَّب في سريره شوقًا لفرصة للسفر إلى اليمامة، كي يلحق بموكب المجد العريض هناك. ورأى أن عليه أن يغادر المدينة في أقرب وقت ولكن بعذر وجيه؛ حتى لا يرتاب فيه أحد ويشك في إيمانه، فقد يحتاج إلى العودة، ولن يمكنه ذلك إلا إن أحسن الخروج؛ وإذا وصل إلى دياره ووجد أن مسيلمة قد استولى على قلوب الناس فعلًا وتمكن منهم، وانتظموا خلفه وأظهروا رغبة صادقة في التضحية، نفع صاحبه بما عنده من خبرة يفتقدها وأعانه وصار له.

وأكد لنفسه مرارًا وتكرارًا وهو تحت رحمة الشوق، وبوعي شديد الانتهازية من أثر صدمة الأحداث، أن الرحيل في أسرع وقت سيعطيه فرصة أن يكون على يمين مسيلمة وزيرًا له، فلا يوجد بالقرب من مسيلمة حتى الآن رجل ظاهر عاقل يملؤ العين يعينه وينفعه، وهذا الفراغ إن تأخر هو في شغله سيشغله رجل غيره لا محالة وإن كان أقل منه نفعًا؛ وأكد لنفسه من ناحية أخرى أن بقاءه في المدينة مدة شهر آخر انتظارًا لما تسفر عنه الأمور، مجرد البقاء، سيجعل منه عدوًا من أعداء أهله بني حنيفة لا يستطيع الرجوع أبدًا.

وفور أن استوى تمامًا هكذا، وفرغت قارورة صدره من آخر نسمة من

عبق الإيمان، جاءته الحجة التي يريد، التي تسمح له بالخروج بغير أن يتشكك في ردَّته التي يضمرها أحد: فقد وصلت إلى النبي رسالة جريئة ومفاجئة من مسيلمة، حملها إليه رجلان: (من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله: سلام عليك؛ أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون).

وقد سأل النبي الرجلين: فما تقولان أنتما؟

قالا: نقول كما قال.

فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

وقد كتب النبي إلى مسيلمة رسالة: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

وعندما كان الرجَّال بن عنفوة يمد يده مثل الآخرين لمصافحة حبيب بن زيد، ابن أم عمارة نسيبة بنت كعب، وهو في طريقه إلى اليمامة حاملًا رسالة النبي، كان في قرارة نفسه يصافح شابًا يظن أنه لن يرى أمه مرة ثانية، فأحقاد مسيلمة ستشتعل فيه من هذه الرسالة التي يكذبه فيها محمد ﷺ، ولن يطيق الصبر على حاملها إلا أن جاراه، ولن يرحم غربته إلا إن نال منه اعترافًا ولو تحت تأثير الرعب، وهو يعلم أن هذا الشاب قوي الإيمان لن يلين أبدًا، لذا كانت آخر نظرة منه إليه ذاخرة بمشاعر الغيرة التي يشعر بها المقصرون تجاه الصاعدين إلى الشهادة.

رسالة مسيلمة هي الحجة الرائعة التي جاءته عندما اكتمل خواؤه الروحي،

فقد اجترأ مسيلمة كثيرًا بهذه الرسالة التي يقول بها إن اليمامة استقلت بأمرها بعيدًا عن محمد ﷺ والإسلام، وهذا قد يدفع بالأمور باتجاه الحرب، لذا فإن الرجل الذي يشهد له أهل اليمامة بالذكاء والشرف، ويشهدون له بأنه يعرف مسيلمة أكثر من غيره، الرجل الذي يستطيع أن يكذبه ويفضحه ويعجزه عن الرد، صار عليه الآن أن يذهب مشكورًا من تلقاء نفسه إلى اليمامة من أجل هذه المهمة الشريفة.

بصوت حاول أن يبدو طبيعيًا تمامًا، ولكنه عجز عن أن يجعله كذلك، وبدون أن ينظر في عيني النبي، عرض الرجَّال بن عنفوة على النبي أن يذهب بسرعة إلى أهله في اليمامة كي يفضح لهم كذب ذلك الرجل مسيلمة في ادعائه النبوة ويردهم عن اتباعه؛ وحاول قدر جهده أن تكون نبرته مخلصة ومؤثرة وهو يختم كلامه بقوله إنه لم يعد لديه صبر على البقاء هنا بينما مسيلمة يضل الناس هناك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كانت ضربات قلبه متسارعة، وحلقه قد جف تمامًا وهو يتأهب لسماع رد النبي وبصره إلى الأرض، فقد كان يشعر بخطورة الخطوة التي أقدم عليها، خطورة أن ينفرد بالنبي ويكذب عليه؛ يهون كل ما بعد ذلك من الصعاب التي يخفيها الغيب، لكن هذه اللحظات أمام محمد ﷺ فصعبة حقًا، فقد يرفع وجهه وينظر نظرة غضب، ويفضح له ما فيه.

بعد لحظات الصمت التي أحس الرجَّال أنها طويلة، شعر بمزيج من الخزي والراحة عندما أذن له النبي بالرحيل بدون أن يجهده في السؤال عما ينوي فعله، وبدون أن يبدو عليه أنه يعوِّل عليه على الإطلاق، وبدون أن يوصيه أي وصية.

ابتلع ريقه فرحًا بالنجاة، واغتنم الإذن وانصرف سريعًا كي يتجهَّز للسفر. وفكَّر إلى لحظات قليلة وظهره إلى محمد ﷺ في احتمال أن الرسول لا يثق به كما كان يثق من قبل، ولا حتى يحتفي به كما كان يحتفي، ومرت به ومضة من الوجع وهو لا يزال يبتسم من أثر النجاة في المقابلة، الوجع من كون محمد ﷺ لم يدع له؛ ثم أشاح بيده للمدينة وصرف ذهنه تمامًا عن مثل هذه الأفكار العاطفية الأخيرة، مستهترًا بها، مؤكدًا لنفسه على أن الأمر قد انتهى، وما إن أكد ذلك لنفسه حتى غمره شوق إلى اليمامة ومسيلمة كأنه اللعنة، شوق لا يطيق معه أن يطأ تراب المدينة أو ينظر في وجوه أهلها.

الحركة التي للأمام

فور أن سمع طليحة بن خويلد أن مسيلمة قد أرسل رسالة للنبي محمد ﷺ، رفع صوته يأمر بإحضار رقعة من الجلد، كي يكتب رسالة هو أيضًا قبل أن يفكر في الذي سيسطره فيها؛ فبينما كان الأسود العنسي غائبًا ومستجمًا في نهمه الخرافي وقسوته وارتيابه وجنوبه لا يبالي بأحد، كان مسيلمة العجوز، وطليحة الذي يتمتع بعافية الشباب، كان كل منهما يتابع باهتمام شديد وإحساس تنافسي عال أي حركة للأمام يأتي بها واحد من الاثنين الآخرين، لعلها تكون ضرورية جدًا ويجب القيام بمثلها بسرعة، ومن أجل هذا جلس طليحة يكتب رسالته إلى محمد ﷺ بدون أن ينتظر عواقب رسالة مسيلمة.

بدأ يكتب ولم يكن قد أمهل نفسه وقتًا يذكر كي يتفكَّر في فحوى الرسالة، غير أنه اختار أن تكون طلبًا للموادعة، فهو على خلاف المتنبئيْن الآخريْن لا يتحرك حتى الآن بوحي من ضغينة شخصية تجاه محمد ﷺ، كل ما في الأمر أنه قد أعجبته هذه النبوة بما فيها من حفاوة الناس بالأنبياء، وخفضهم أصواتهم عندهم، فأراد أن يسمح له النبي بأن ينعم بتجربة مشابهة بين أهله في صحراء نجد، تجربة لا تنغصها العداوة. وكان يكتب وهو يشعر بالإعجاب بما يكتب كرجل فصيح، وكان يكتب وهو يتمنى أن يبتسم النبي ابتسامة فيها شيء من الألم وهو يقرأ هذا الذي يكتب، ابتسامة يعلن بها أنه يتقبل الأمر الواقع ويتذكَّر أن له همَّين، همَّ العنسي وهمَّ مسيلمة، ويكره أن يزيدهما بالهم الجديد، فيتركه يعيش نبوته في منأى عنه بين القفار، ويأمن كل منهما جانب الآخر.

وكان طليحة متحمسًا للكتابة إلى محمد ﷺ بسبب آخر غير اللحاق بخطوة مسيلمة التي قد تكون مهمة جدًا، وهو أنه يعيش في قلة من الأحداث، فليس عنده أي جديد من بعد آخر أخباره عندما أراح نفسه وجعل الصلاة بغير ركوع وسجود، بوحي من تلك المرة التي خرج فيها من الصلاة ليلًا وهو قائم حتى لا يراه الضيوف الأعراب في هذه الصلاة الجديدة عليهم وهو يضع جبهته على الأرض، إذ قال لأتباعه في نهار اليوم التالي: إن الله لا يصنع بتعفُّر وجوهكم وتقبُّح أدباركم شيئًا، اذكروا الله أعفة قيامًا.

وبعد أن جف حبر الرسالة وهو لايزال ينظر إليها معجبًا، لم يفكر كثيرًا فيمن يجب أن يكون رسوله، فهو يريد رجلًا واثقًا صلبًا يتحلى بقدر كبير من الشجاعة والإيمان به، ويستطيع أن يضفي على دعواه بمنظره ولهجته العزيزة أكبر قدر من الجدية الذي قد يدفع النبي للتسليم بنبوته في هذا الوقت الخطر، ولم يكن هناك من هو أحسن من أخيه حبال نفسه، حبال الذي يتمتع بقدر لا بأس به من الشهرة، ذلك القدر الذي يجعل صاحبه مهووسًا بالبحث عن ضربة ظهور رائعة تصل به إلى فردوس الشهرة الكاملة.

وقد ذهب حبال إلى المدينة محملًا بأوهام البيت الرفيع، والأب خويلد الجدير بإنجاب نبيين وليس واحدًا، وأوهام الجسم الشامخ الجميل، تلك الأوهام التي تلازمه وتعوقه عن تقدير الآخرين، وتجعله عاجزًا عن استيعاب النواحي الحقيقية والراسخة لتفوقهم عليه؛ ووقف بهذه الروح المستعلية أمام محمد ﷺ أهم رجل في جزيرة العرب، بغير أن يفكر في تاريخه القوي الذي يجعل الفارق بينهما شاسعًا، ولم يكن يراه أمامه أكثر من شيخ عربي وقور يذكر الله كثيرًا ولا يحب الجلبة ولا يحب الفخر، وهذا الشيخ هو الآن محل منافسة

من أخيه العزيز في النبوة، وغالبًا لن يحب لطليحة أن يشاركه هذا الشرف؛ وصار متحفزًا جدًا للدفاع عن اسم أخيه إن اتهمه محمد ﷺ بأنه ليس على شيء، وأن كل ما يعيش فيه ليس أكثر من أمنيات رجل فصيح، ومتحفزًا في ذات الوقت لكي يؤكد لمحمد ﷺ صدق أخيه إن بدا على محمد ﷺ أنه يشعر بجدية الأمر، على أن يكون هذا أيضًا بغير أي تودد.

كان محمد ﷺ قد فرغ من قراءة الرسالة أمام الرسول المعجب بنفسه، وكان حبال الظامئ إلى كامل الشهرة له رغبة تلح عليه بجانب مهمته الأساسية التي كلفه أخوه بها، وهي أن يقول عنه محمد ﷺ بعد أن يمضي جاءني حبال بن خويلد الأسدي وصفته كذا وكذا، فيخلد ذكره هنا على ألسنة المسلمين الذين يتناقلون بينهم ما يقوله نبيهم؛ وسأله النبي محمد ﷺ عن الذي يأتي أخاه من عالم الغيب ويوعز إليه بأنه نبي.

فقال بفخر وهو يظن أن محمدًا ﷺ الآن يقف على مسافة ليست بعيدة من نبوة أخيه: يأتيه ذو النون.

فقال محمد ﷺ: لقد سمَّى ملكًا.

فاستخف الطرب بحبال للحظات وظن أن محمدًا ﷺ يقف الآن قبالة الحقيقة المرة وهي أن طليحة صار نبيًا مثله، ولكنه سرعان ما نظر إلى وجه محمد ﷺ جيدًا فعرف أنه يكذِّب أخاه، ولاحظ أن تعبير (سمَّى ملكًا) الذي اختاره محمد لا يعني أن هذا الملاك يأتيه بالفعل، فتضايق وغلبه الشعور الذي يغلب المتعجرفين ضيقي الصدر إذا لم يعطهم أحد ما يريدون أخذه، الشعور بالرغبة في مضايقته وتكديره قبل أن يمضوا، ومع ذلك فهو يدرك جيدًا أن هذا

سيكون في حدود، فقال إنه جاء إلى هنا من أجل الموادعة التي طلبها أخوه في الرسالة ليس أكثر، وهو وأخوه على أية حال لا يهمهما كثيرًا الظفر باعترافه بنبوة طليحة. وأنهى كلامه وهو يشير إلى نفسه بكل غرور ليرد اعتبار نفسه بنفسه: أنا ابن خويلد.

فنظر محمد ﷺ إليه وهو يبغض فيه أنه يشغل نفسه ويريد أن يشغل أهله معه عن الهدى والحق الذي قامت عليه السماوات والأرض من أجل أهداف تافهة، وأسماء آباء لم يكن لهم أي نفع، وودعه بكلمتين لا غير انسحب بعدهما حبال: قتلك الله.

هذه الحركة التي للأمام كما ظن طليحة، جلبت عليه ما لم تجلب على مسيلمة الذي قلَّده، فمسيلمة من بلد ريفي حضري، لا يميل أهله إلى الغارة، ولديهم عمران يخشون عليه، لذا سينهيهم الخوف على ما يمتلكون عن أن يفكروا في السير للإغارة على المدينة، أما بنو أسد الأعراب، فليس لديهم من البنيان والزروع ما يخافون عليه، وهم لديهم كأغلب الأعراب ميل للهجوم، لذا من الأفضل البدء بهم حتى لا تغلبهم النزعة ويتجرؤوا على ذلك؛ لهذا أمر النبي مقاتلًا شديدًا من بني أسد ومؤمنًا راسخًا منهم، هو ضرار بن الأزور، أن يجمع إليه من اتبعه من بني أسد الذين يسكنون في مساكن أخرى لبني أسد لم ينتشر فيها أمر طليحة، وذلك لمقاتلة طليحة في سميراء من بلاد بني أسد التي جعلها مركزًا لدعوته.

رائحة الخفافيش

على مدخل منجم يمني قديم، تفوح من فوهته الضيقة الرائحة الكريهة للآلاف من الخفافيش التي استعمرته، كان قيس بن مكشوح يقف تحت عريشة صنعها له العمال، وكان بجانبه وزراء الأسود العنسي الثلاثة من أبناء الفرس المقربين، فيروز الديلمي، وهو ابن عم آزاد التي تزوجها العنسي قهرًا، وداذويه، وجشنش الديلمي، الذين فاجؤوه بتلك الزيارة غير المتوقعة وهو يقف هناك مع بعض الجنود للإشراف على دخول العمال للمنجم العتيق الذي يُرجى أن لا يكون قد استنفد الملوك الأوائل ما فيه من ذهب.

وقد جمعه بالثلاثة شعور بالقرف من الرائحة الناتجة عن استعمار الخفافيش منذ قرون للمنجم، تلك الرائحة التي تخرج على شكل زفرات متتابعة لا تُطاق، وأخذ الأربعة يراقبون في صمتٍ العمال الضعفاء الخائرين الذين يرتدون ثوبًا قصيرًا وشفافًا من الكتان بغير جيوب حتى لا يسرقوا أي شيء، يراقبونهم وهم يحملون المصابيح في وضح النهار ويدلفون إلى المنجم المعتم الخطر بغير أن يبدو عليهم أي انزعاج من الرائحة البشعة أو خوف من أن ينهار عليهم.

هذا القرف من الرائحة الذي يعمُّ الرجال الرسميين الأربعة، وفَّر بينهم نوعًا من الانسجام الطارئ، ورفع عنهم التكلف، وأعطاهم فرصة ثمينة لأن يتركوا وجوههم على سجيتها، فعبرت تلك الوجوه براحة تامة عن القرف من عيشة الهوان والرعب التي فرضها العنسي على الجميع في جملة تعبيرها عن القرف من فظاعة الرائحة.

وقد كانوا يفكرون في شيء واحد بغير اتفاق وهم ينظرون إلى العمال الذين

يمضون إلى الأمام كأشباح بائسة، كانوا يسألون تلك الوجوه المرهقة التي تمر من أمامهم وهي تدخر أوجاع القرون عن آخر هذا الولاء المخيف الذي يجعل أمثالهم لا يشعرون بالظلم وهم يدخلون إلى المنجم المخيف ببطون لم تشبع، من أجل أن يقتطعوا بالقدُّوم الأحجار المشوبة بالذهب وهم يعانون من العرق وضيق الزوايا وقلة الهواء المتاح للتنفس، ويخرجون مرهقين إلى الجنود بالذي جمعوه، كي يحملوه إلى خزائن نبيهم العنسي صاحب كل الدفائن وكل الركاز.

تبادلوا نظرات حرة هم الأربعة، غير تلك النظرات المنطفئة التي يتبادلونها دائمًا تحت سقف العنسي وفي حضرة صوته الغليظ، نظرات تتمرد على تحفظهم وتحتج بكل جرأة على المشهد السخيف الذي هم فيه، وكل المشاهد السخيفة التي مرت بهم، وعلى كل ما نزل بأهل اليمن، وعلى هذه الحياة التي تشبه مهزلة.

كان قيس بن مكشوح قد نسي وقتها كل ما فيه من استثقال لأبناء الفرس، فقد خمد استثقاله لهم في غمرة معاناته من العنسي التي بلغت مداها، فقد صار يعامله كما لو أنه ليس أكثر من عبد مقرَّب، وصار يسمح لنفسه بأن يكلفه بأي مهمة تخطر على باله وهو عنده مهما بدت تافهة، كمراقبة عمال المناجم، لذا رحَّب بما رآه في أعينهم جميعًا، وكانوا يهزون رؤوسهم جميعًا إلى بعضهم بعضًا، كأنما كل رجل منهم يقول للآخر: أفهمك.

وبما أنهم هم الذين جاؤوا إلى قيس بن مكشوح، وأوجدوا الفرصة للالتقاء به بعيداً عن المجرم الكذاب، انتظر أن يفاجئوه ويعترفوا لديه بكل غيظ بأنهم يكرهون هذا العنسي ولم يعد عندهم صبر عليه، إنه يريد أن يتلذذ بسماع هذا في بلاد الخوف، تلك البلاد التي صار الرجل فيها يجد صعوبة في معرفة

ما يكنه أقرب الناس إليه تجاه العنسي، فأغلب الناس يبدو عليهم مما يقولون ويعلنون أنهم للآن متيمون به، وجاهزون لأن يكونوا فداءه، ولا أحد يعرف كم منهم قد أفاق في داخله وندم، ومستمر في ادعاء الحب الجنوني تخوفًا من الوشاية.

كان الثلاثة أبناء الفرس يشعرون بأنهم أحاطوا به، وأنهم يعرفون جيدًا ما يعتمل بنفسه، فهو مثلهم يتصنَّع الرضا حتى يتقي شر الرجل المجرم، وهذا الرجل وإن كان يضايقهم منه كراهيته للعنصر الفارسي وحبه للرئاسة، إلا أنهم يعرفون جيدًا عنه شدة بغضه للإسراف والنهم، ويحتقر الرجل الذي يكون أكبر همه جمع الأموال، من أجل هذا لايشكُّون في أنه يحتقر العنسي الذي ظهر عليه بوضوح اشتهاء فاضح للثروات.

وبعد أن راهن نفسه على أن أحدهم الآن بعد أن تكلَّمت عيونهم سيفاجئه ويقول كل ما في صدره، فوجئ بهم يستأذنون منه وهم يبتسمون في وجهه، معلنين بابتسامتهم صفاء قلوبهم له، فهز رأسه وظهر على وجهه الأسى، وغمره شعور عنيف بالوحدة. أخذ ينظر إليهم وهم يمشون بعيدًا عنه، وقد أوشك من شدة الغيظ والشوق للخلاص أن يلحق بهم وينفجر هو بما في صدره، وليكن ما يكون. وبعد خطوات قليلة ضحك قيس، عندما رأى فيروز الديلمي يرجع إليه. اقترب منه فيروز وقال له بلهجة تزيل الحواجز: إنك أكبر وأعز من أن تقف هذا الموقف، هذا ما نراه نحن الثلاثة فيك، وما يراه آخرون كثيرون. سنمر عليك الليلة، إن شئت أن تسمع منا، وإن لم تشأ ردنا من عند بابك.

بالليل عرف منهم وهو في منتهى السعادة أن النبي محمد كتب إلى الكثيرين من أجل القضاء على العنسي، كتب إلى زعماء حميَر وهمدان، وإلى

أهل نجران، وكتب إليهم هم الأبناء، وعرف منهم أن هناك كثيرين قد نفد صبرهم على الأسود العنسي، وأن هناك كتائب شديدة يعلمونها ولها قادة في غاية الإخلاص، في حضرموت وفي غير حضرموت، قد استعدوا للقتال في سبيل التخلص منه، وهناك سرايا في قلب صنعاء نفسها لا يعلم العنسي عنها شيئًا، مستعدة للانقضاض عليه، ولكنهم هم الثلاثة أجمعوا أمرهم على أن يتخلص اليمن من الكابوس باغتيال الأسود العنسي حقنًا للدماء، وهم يرون أنه لا غنى عنه في هذا الأمر الذي لابد أن يكون فيه سيد عربي الجذور في قدره، حتى لايعتقد الناس أن اغتياله هو خلاص الأبناء وليس خلاص اليمن كله.

وبعد أن تعاهدوا جميعًا على التخلص منه، من أجل الرحمة بأهل اليمن، ودعهم قيس بن مكشوح بلطف وتواضع أثار عواطفهم تجاهه، ولم يكن ما ظهر عليه من إشراق وأدب أكثر من تواضع ولطف رجل قد اقترب من سدة الحكم تجاه فريق المناصرين الذي يلتف حوله، حسب ما يظن في نفسه.

وجلس وحده سعيدًا بالقرب من البئر التي ألقي فيها صاحب القصر الفارسي؛ سعيدًا لأنه لم يشعر بالخوف من احتمال أن يكون العنسي قد أرسلهم، ولم يرغب في أن ينظف نفسه من أثر اللقاء بأن يقول مائة مرة إن العنسي نبي صالح، ودماءه دونه، لقد استعاد وعيه الصحيح، وشفي من هلاوس الخوف. وأخذ يبتسم وحده ابتسامة مضيئة وهو يذكر أجمل ما قيل له في هذا اليوم: (إنك أكبر وأعز من أن تقف هذا الموقف، هذا ما نراه نحن الثلاثة فيك، وما يراه آخرون كثيرون)، فقد ظن أن هذا تعبير يكاد يكون صريحًا عن أنه هو حاكم اليمن القادم، وهذا التعبير لم يخرج من أي فم، بل خرج من فم الرجل الذي كتب إليه محمد ﷺ كتابًا، وهو الرجل الذي ينافسه في المكانة.

الفانوس الأخضر

انفتح باب المقصورة في بيت مسيلمة بن حبيب ببطء، وانبجس من الداخل نور أبيض هامس خلف الرجل الذي فتح الباب، فقام في حديقة (الرحمان) الواسعة التي تطل عليها المقصورة أكثر من ألفي رجل كانوا يجلسون هناك على العشب المبلل في وقت العشاء، مستبشرين برذاذ المطر الذي جاء في غير موعده، فقد ظهر لهم الرجل الذي ينتظرونه، الرجَّال بن عنفوة العائد من مدينة محمد ﷺ، في رداء قرمزي، ظهر لهم بوجهه المتزمت الذي يعرفونه، وإن بدا عليه أنه صار أكثر هدوءًا من ذي قبل، مثل أي رجل أنضجته التجربة وعرف ما لم يكن يعرف، ظهر وشعره الطويل مبلل ومنسدل على الناحيتين، كأنه عابد موجوع خرج من نهر مقدس قد تطهَّر فيه؛ ظهر وفي يده اليمنى فانوس يشع ضوءًا أخضر، وتحت إبطه الأيسر لفافات من المخطوطات الجلدية القديمة التي توحي نظراته لها وإحكامه عليها بأنها بالغة النفاسة والأهمية. وضع الفانوس ذا الضوء الأخضر على سور المقصورة الخشبي العريض بهدوء، ونظرة نظرة ثاقبة تجاه النجوم التي تبدو من فوق الرذاذ مثل دموع مهتزة، فبدا في أعينهم عظيمًا حكيمًا ذهبت به الأقدار، ثم عادت به محملًا بالأسرار النجيبة.

كان الرجَّال بن عنفوة قد دخل البلد منذ ساعات قليلة صامتًا تمامًا ومرهقًا فوق جمله، ورآه الناس يمد أنفه أحيانًا للأمام ويغمض عينيه، كأنما تشده رائحة خلابة لايشمها أحد غيره، فتجمعوا حوله وأحاطوا بجمله من كل ناحية وسألوه أيها العائد مع من تكون، وبأي شيء جئت من عند محمد؟ لم يرد عليهم وظل

مشدودًا إلى الأمام مثل رجل سحره مصيره؛ ولما ضيقوا عليه الطريق إصرارًا منهم على أن يعرفوا، أقسم من فوق جمله أنه لن يتكلم مع أحد قبل مسيلمة أبدًا، فإن معه أمانة ثقيلة لا يحملها من الناس أحد غيره، ويخاف أن يموت قبل أن يؤديها؛ ووضع طرف عمامته على فمه، فأفسحوا له الطريق إلى بيت مسيلمة الفسيح.

ازداد انتباه الرجال الواقفين عندما أشار إليهم صاحب الوجه الغارق في الضوء الأخضر، وبدأ يتكلم، فأسكتوا بعضهم بعضًا، فقال إن مسيلمة قد قال له ذات يوم إن محمدًا ومن معه مردودون عن اليمامة، طالما أنه فيها، وأضاف يومها أيضًا إن محمدًا يعلم ذلك جيدًا.

وسكت الرجَّال قليلًا كأنما يسترجع تفصيل ما حدث، ثم أكمل كلامه وقال إنه عجز في الحقيقة يومها عن أن يصدق ذلك، وظل عاجزًا عن أن يصدقه؛ إلا أنه اقترب من محمد ﷺ كثيرًا هناك في المدينة، حتى أحبه محمد ﷺ وارتاح إليه ووثق به كل الثقة؛ لذا لما وصلت رسالة مسيلمة الجريئة التي يؤكد فيها أنه شريك لمحمد ﷺ في أمر النبوة، انفرد بمحمد ﷺ وحرَّضه على أن يترك كل شيء ويغزو اليمامة حتى لا يستفحل أمرها خلف رجل كاذب يدعي النبوة؛ وكان قد تذكر ما قاله مسيلمة، (إن محمدًا ومن معه مردودون عن اليمامة)، وتذكَّر أيضًا ما جرأ مسيلمة على قوله في المدينة نفسها، إذ قال إنه رسول مثل محمد؛ فأراد الرجَّال أن يختبر عند محمد ﷺ صدق ما قاله مسيلمة، لعل محمدًا ﷺ كان يضيِّق عليه ولا يريد أن يعطيه فرصة، وقال إنه أيقن عندما حرَّض محمدًا على غزو اليمامة أنه يتحاشى التفكير في ذلك تمامًا، ولكنه لم يترك له فرصة، وأخذ يزيد عليه بكل طريقة، وهو لا يزال يبتعد عن حديث الغزو، فما وجد الرجَّال مفرًا من أن يسأله بكل وضوح: هل أنت مردود عن

اليمامة، ولا تستطيع أنت ولا أصحابك دخولها على مسيلمة؟ فخفض بصره ولم يرد ولو بكلمة واحدة؛ فعرفت أن صاحبنا على حق في كل ما كان يقول، وفهمت أن محمدًا يحاول يائسًا أن يمنع صعوده، فقلت له بصوت خفيض: هو إذن نبي مرسل مثلك تخفي خبره، ويشقُّ على نفسك الاعتراف به.

وقال الرجَّال إنه عاد إلى بلاده بعد أن احتال على محمد ﷺ وادعى له أنه قادر على أن يفضَّ الناس عن مسيلمة، وهو ذاهب من أجل ذلك، حتى يجتمع العرب على نبي واحد، وقد تعلَّق محمد ﷺ بهذا الأمل كثيرًا، وأخذ يلح عليه عند الوداع أن ينهي هذا الأمر الذي يتعبه، حتى أضجره، وقام بنفسه وودَّعه حتى طرف المدينة ولسانه لا يفتر عن الدعاء له.

وختم الرجَّال بن عنفوة خطبته المثيرة بأن قال لهم بصوت يغالب البكاء إنه جاء من أجل أن يخبرهم بأن ذلك البار الذي صدقوه، والذي يقف هذا المساء في مقصورة بيته، هو نبيهم الذي أرسل إليهم على الحقيقة، وأمره باقٍ في بني حنيفة إلى قيام الساعة؛ ومهما سمعوا من تحذير، بل وإن وجدوا سيوف المسلمين فوق نحورهم في اليمامة، عليهم أن لا يرتابوا في النصر الذي يعدهم به الله إن بغت عليهم قريش ومَن ظاهرها، تزول السماوات والأرض وهذا الوعد لا يزول.

وعندما صاح أحد المتحمسين من الذين يشعرون بالظلم الشديد لأن محمدًا ﷺ يتهرب من الاعتراف العلني بنبوة مسيلمة، عندما صاح قائلًا هل تستطيع أن تواجه محمدًا بهذا إن جمعتكما الأيام؟ فوضع الرجَّال كفه على صدره وقال نعم وألف نعم.. قتلني الله إن كنت كاذبًا على بني ربيعة.

وقد أخذ كلامه الناس جميعًا، حتى الأذكياء الذين كان في نفوسهم شيء

من نبوة مسيلمة أذهلهم هذا الكلام الذي قاله الرجَّال وهو يمسك نفسه بصعوبة عن البكاء، وهو عندهم رجل عاقل وأمين، ولم يعرفوا عنه أنه كذاب؛ وصار أمر نبوة مسيلمة التي يحاول محمد ﷺ أن يغمطها هو خبر لا يقبل أي تكذيب؛ ووقف الناس يعترفون لبعضهم بعضًا ويعترفون إليه أيضًا بأنهم مدينون له بالكثير، فقد استخرج بذكائه وصبره السر العظيم الذي أراد محمد ﷺ أن يدفنه للأبد.

مسح الرجَّال بن عنفوة بسرعة بخنصره دمعة على عينه، كأنه يحاول أن يغافلهم عن نزولها، وودعهم واستدار ببطء، ولم يسأله أحد عن لفافات المخطوطات الجلدية القديمة التي لم يقرأ منها حرفًا واحدًا، لماذا خرج إليهم وهي تحت إبطه؟. استدار ببطء وهو يعرف بكل غرور وإحساس بالتميز أنه قد انتهت الآن فرصتهم لطرح الأسئلة، وأنه الآن صار وزيرًا بقوة الحشود التي أتت والتي ستأتي في الأيام القادمة، وأنه لا يوجد هنا من يستحق أن يكون على يمين مسيلمة غيره. وكان يشعر وقتها كما لو كانت أيام المدينة ذكريات بعيدة ومبهمة، ووجوه أصحابه الذين تركهم هناك تكاد تذهب من مخيلته.

وسهر سهرة مرحة هو ومسيلمة خالية من أي عتاب، كان أغلبها مزاحًا من شدة فرحتهما بما اكتسباه من مكانة عظيمة. وتذكرا خلالها أمنياتهما القديمة بأن يكون لبني حنيفة جيش عظيم، وأن يستقل بنو حنيفة بأمرهم، وبشَّرا بعضهما بعضًا بدولة عربية عظيمة في خلال عام واحد لا غير، لن يقدر عليها أحد. وقد تخلل هذه السهرة المرحة بعض الاقتراحات التي كان الرجَّال يقترحها بلطف أثناء الحديث بشأن مهام الأيام القادمة، ويؤكد بكل الود والأخوة

أنه سيكون معه في كل خطوة مباركة، وهو يرمي إلى أن يترك مسيلمة

نفسه على سجيتها في التعبير عن افتقاره إلى خبرته بأحوال النبوة وأعمالها، حتى يستمتع بالسيطرة؛ وقد غلب عليه في السهرة المرحة الممتدة شعور بالرضا التام عن منزلة الرجل الثاني، رضا أشبه ما يكون بالغرور؛ فقد اقتنع تمامًا أن هذه المنزلة تستلزم رجلًا ذكيًا ومنظَّمًا ومنتبهًا مثله، بينما يمكن للرجل الأول أن يبقى طويلًا في منزلته بعقل يفتقر للعلم وللذكاء. وكان مسيلمة سعيدًا بصديقه الذي يمثل له نصف نبوته كما كان يظن، وسعيدًا بروح التعاون التي يتحلى بها، وكان في سعادته به ذات التلوث الممتع الذي يشعر به رجل أفسد رجلًا متميزًا وجادًا وأخرجه عن مساره الحميد.

وبعد أن مضى من عنده الرجَّال بن عنفوة على وعد باللقاء في الغد، كان مسيلمة مثل أي كذَّاب لا يشعر بالشبع أبدًا من الشهادة له، رغم أنه حصل على أعظم شهادة كاذبة ممكنة اليوم، لذا نزل مسرعًا عبر الدرجات الحجرية إلى القبو الذي تحت بيته وهو يحمل شمعة، ويبعد بعصاه خيوط العنكبوت التي تنهال عليه أثناء نزوله. وفي القبو الصامت المقبض الذي يمضي به كان يسمع صدى أنفاسه الذي يتردد، ويسمع بصعوبة أنات الأسير التي تأتي من الغرفة الأخيرة التي تشبه الجُحر الوضيع الذي لا باب له، فالقابع فيها لا يقوى على القيام.

وصل إليه وهو متكوِّم، ونخسه بعصاه، فاعتدل حبيب بن زيد بصعوبة بالغة، الشاب الذي أرسله محمد ﷺ إليه برسالة، وكان يبدو عليه الإنهاك والعطش الشديد والتشتت، وكان يبدو عليه في اللحظات الأولى من إفاقته من النوم أنه لا يذكر شيئًا من شدة التعب، ثم إنه نظر إلى كفيه اللتين قطع مسيلمة أصابعهما بالأمس وكواهما، وأسند رأسه على الحائط الحجري. وحكى له مسيلمة بكل افتخار ورضا ما جاء به الرجَّال بن عنفوة من المدينة من شهادة

عظيمة له، كأنه يحثه على أن يتعقَّل ويحذو حذوه، وقال له إن الرجَّال رجل شجاع حقًا ويستطيع أن يحكم جيدًا على الناس، وهو يفكِّر في الأمور أحسن مما يفكر فيها شاب صغير مثله. ولم يرد عليه حبيب بن زيد بكلمة، وكان مشغولًا بموجات الألم الرهيب الذي استيقظ فيه.

مال عليه مسيلمة بالشمعة حتى أنار وجهه الجريح المتعَب وقال: أسألك ما سألتك بالأمس: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال حبيب: نعم.

قال مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟

فرفع حبيب بن زيد رأسه بعيدًا قليلًا عن الحائط الذي استند عليه وقال: أنا أصم لا أسمع.

فأبعد مسيلمة الشمعة عن وجهه، ورفع قدمه وضرب بها جانب رأس حبيب بن زيد فصدمه بالحائط الحجري صدمة قوية: أتعيد هذا القول بعد أن أحزنتك على أصابعك! أمجنون أنت!

وابتعد قليلًا، وقال: سأذهب للنوم لأني ذاهب في الغد كي أتفل في بئر لجماعة من بني ثعلبة، فلا ينقطع ماؤها.. ودعْك أنت في جهلك ببركتي التي يعرفها الناس... [ثم أكمل كلامه بلهجة محذرة]: ولكني عائد إليك، وسأكرر نفس السؤال عليك؛ فإن شئت تركت لك الشمعة حتى تتأمل في كفيك وتودعهما، فإني سأقطعهما إن عدت إليك ووجدتك على استكبارك.

المعسكر الذي لم يلتحق به أبو بكر

في اليوم الخامس والعشرين من شهر صفر بالسنة الحادية عشر للهجرة، كانت أم عمارة نسيبة بنت كعب، والدة حبيب بن زيد، التي تشعر منذ عدة أيام بضيق شديد في النفَس كما لو كانت تعيش في مكان ضيق ثقيل الهواء، قد فوجئت مرة أخرى بنفس الشعور المخيف الذي انتابها فجأة أكثر من مرة في الأيام الماضية: لقد شعرت المرأة الصلبة كما لو أن شريان قلبها قد انقطع. وقد تشبعت روحها بآلام الثكل بسبب أحاسيس القطع الغريبة هذه، وأحاط بها الظن من كل ناحية أن ابنها في كرب شديد في اليمامة؛ ومع ذلك كانت تحاول قدر الإمكان أن تبحث في غابة الهواجس هنا وهناك عن أمل، بحزن فهدة عادت ولم تجد شبلها في محله، فأخذت تطمئن نفسها بأن الرجال بن عنفوة الذي ذهب كي يرد مسيلمة عن غيه، قد لا يستطيع أن يرده، ولكنه يقدر على أن يشفع لابنها الشاب الذي عرفه هنا أثناء عيشه بالمدينة، فلا يمسه مسيلمة بسوء؛ ولم تكن تدري أن الرجَّال بن عنفوة الذي ترجو خيره، وإلى تلك اللحظات التي كان ابنها فيها يجود بأنفاسه الأخيرة في قبو مسيلمة بعد أن فقد ذراعيه من أصولهما وكذلك رجليه، وتكاثرت عليه آلامه الرهيبة بفعل مواضع الكي المتعددة والتعطيش، لم يكن قد أتى على خاطره أمر ابنها حبيب بن زيد بسبب انشغاله بمنصبه الجديد بجوار مسيلمة كخبير في النبوة. وفور أن بدا أن روح حبيب بن زيد ستفيض إلى بارئها في أي لحظة، هرع حارس القبو إلى مسيلمة وأخبره بذلك في حضور الرجَّال بن عنفوة، كي يأتي ويختم له العذاب إن أراد، فقام مسيلمة مسرعًا بخفة الأحقاد الهائلة، كي يلقي بما تبقى منه في

الجمر وهو بين الحياة والموت، بينما خبط الرجَّال جبهته بكفه ولم يقم من خلف صاحبه، متعجبًا من نفسه كيف نسي هذا الشاب هذا النسيان التام!

وأم عمارة التي هيأت نفسها لأن تقتل مسيلمة بعد أن حدثها قلبها بأن ابنها أسلم الروح، وأنها لن تشعر بانقطاع الشريان مرة أخرى، تصل إليها الأصوات المنبعثة من جلسة موسعة من جلسات كبار السن بالقرب من بيتها يؤمها بعض الشباب، ولا تصل إليها المعاني بسبب ما دبَّ فيها من أوجاع الفقد وما اشتعل فيها من نار الثأر. كان الجالسون يحاولون أن يتوقعوا ما سيحدث في الأيام القادمة؛ وقد ذهبت آراؤهم في كل اتجاه، ولم يدروا إلا وقد تشعَّب بهم الحديث إلى بعيد، حتى وجدوا أنفسهم يسترسلون في أمر مخيف لم يتكلموا فيه من قبل، ولم يكن هناك حقيقة صحية مؤلمة تدعو للتفكير فيه، لقد وجدوا أنفسهم يتبادلون الآراء حول من يمكن أن يكون خلفًا للنبي محمد ﷺ إن مات. ورغم أنهم لم يحبوا الحديث، إلا أنهم جربوه، واسترسلوا فيه، كما يحدث للناس أحيانًا وهم يحاولون في ضباب الحياة التماس المصائر المحتملة. وقد تذكروا في معرض حديثهم ما يدل على فضل عمر وفضل عليّ بن أبي طالب وفضل غيرهما من الصحابة الكبار، من مواقفهم العظيمة، ومن أحاديث النبي، لكن توافق أغلبهم على أن الأمور لو مشت بشكل اعتيادي سيكون هذا الخلف هو أبو بكر ولا أحد غيره؛ وبدا لهم أنه أجدر الناس بالإمامة، وأحسن الصحابة فرصة لتحقيق الاتفاق في أمة فقدت نبيها؛ واستندوا في هذا على تاريخه الشريف في صحبة النبي منذ أسلم في أول الدعوة. وأخذوا يذكرون ما يؤيد جدارته بالإمامة من كلام النبي: فهذا يتذكَّر المرأة التي أتت إلى النبي لغاية ما، فأمرها بأن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؛

وهي تقصد الموت، فقال لها: إن لم تجديني فأتي أبا بكر؛ وذلك قد تذكَّر أمر النبي للمسلمين بالاقتداء بأبي بكر وعمر حيث قال: اقتدوا باللذيْن من بعدي: أبي بكر وعمر؛ وآخر حكى ما عرفه عن أنس بن مالك من أن بني المصطلق بعثوه إلى النبي كي يسأله إلى من يدفعون صدقاتهم من بعده، فقال: إلى أبي بكر؛ تجمعت عندهم إشارات النبي الصريحة بأن أبا بكر سيكون من بعده، حتى تلك الإشارة التي جاءت في رؤيا أحد الصحابة التي حكاها للنبي، فقد رأى ميزانًا أنزل من السماء، فوُزن النبي وأبو بكر، فرجح النبي بأبي بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رُفع هذا الميزان الذي نزل من السماء، ففسرها النبي بأنها خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء.

وغير هذه الأحاديث التي تؤكد معًا أنه من بعده ولا أحد غيره، تذكروا ما استطاعوا تذكره من الأحاديث التي تؤكد فضله ومكانته، مثل قول النبي: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله. ومن بعد هذا أخذوا يجمعون الأحاديث التي يمدح فيها النبي صحابةً بأسمائهم أو يبشرهم، فكان مما ذكروه من مدْح النبي أنه قال: أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم عليّ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمينًا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح؛ وكان مما ذكروه من تبشيره أنه قال: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة

في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة؛ وقد لاحظوا أن كل الأحاديث التي يمدح فيها النبي اثنين أو أكثر من الصحابة أو يبشرهم، لم يجعل اسم أبي بكر تاليًا لاسم أحد منهم ولا مرة واحدة، بل يبدؤها جميعًا بذكره، مما يؤكد أنه أفضل أصحاب النبي قاطبة.

هذا لم يكن بالطبع رأي جميع الحاضرين في اختيار الرجل الذي يخلف النبي، فقد كان بينهم قلة ترى بقوة أن سعد بن عبادة زعيم الخزرج هو الأحق، وكذلك كان بينهم قلة ترى بقوة أيضًا أن عليًا زوج فاطمة وأبا السبطين هو الأحق بها. وقد كانت الكثرة التي ترجح وتفضل أبا بكر وتتوقعه تعبر عن ذلك بلهجة سلسلة وادعة، مثل الطبع الغالب على الذين يختارون الاختيار المائز الذي يصعب جحوده، بينما كانت القلة المعبرة عن ترجيحها وتفضيلها لسعد بن عبادة أو علي بن أبي طالب يغلب عليها قوة العاطفة والاشتداد والتعصب، تدفعهم حرارة التفضيل الشخصي.

وانتهى الناس من حديث افتراضات الأيام القادمة هذا وهم يتمنون لو عاش النبي إلى أن يصلي عليهم واحدًا وراء الآخر، وانتهت أم عمارة من شرودها في مسيلمة وهي تتمنى أن تعيش حتى ترى مصرعه ونهاية أمره؛ لكن لا أم عمارة التي لم تنتبه لشيء مما يقول الرجال في مجلسهم، ولا كل هؤلاء الجالسين في اليوم الخامس والعشرين من صفر، بل ولا أي رجل من عامة المسلمين في المدينة أو من العرب عمومًا، يتوقع ما سيأمر به النبي محمد ﷺ في اليوم التالي في هذا المناخ المقلق الذي فرضه وجود ثلاثة متنبئين خطرين يحيقون بالحجاز، أحدهم وهو العنسي قد امتد سلطانه ووصل إلى زبَد سواحل

المياه الثلاثة، مياه الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي، وامتد شمالاً إلى أعمال الطائف، والثاني وهو مسيلمة قد استتب له الأمر في حاضرة عربية عظيمة وتبعه جموع أهلها، والثالث وهو طليحة الذي ظهر من المواجهات الأولى أن ضرارًا بن الأزور ومن معه من المسلمين لا قبل لهم به وبمن معه، وقد صار ملهمًا جذابًا للأعراب لا يتبعه فقط بنو أسد، بل يتبعه أيضًا جماعات من غطفان وعبس وذبيان وبعض من طيء.

في اليوم السادس والعشرين من شهر صفر، أمر محمد ﷺ المسلمين بالاستعداد للتوجه إلى البلقاء من أرض الشام، أي للوقوف مرة أخرى بندية في وجه الروم أنفسهم، القوة الأعظم، حيث أن حزنه على أصحابه الثلاثة حاملي الراية الذين استشهدوا في غزوة مؤتة لا يزال يتجدد فيه: زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة؛ وهو وقوف خطر بغير أي شك، ومكلف كما تبيَّن غزوة مؤتة. وقد تلقى المسلمون أمر النبي بالاستعداد لهذا الغزو الثأري بنفس القدر من القبول والرضا اللذيْن يتلقون بهما كل أوامره، فلا تلكؤوا ولا جزعوا ولا اندهشوا. ورغم أن دعوة الناس لهذا البعث لم تكن بالاستنفار العام الذي لا يسمح لأحد بالتخلف كما في تبوك، وبالتالي لا وعيد ينتظر من لن يذهب، إلا أنه قد بدا أن كثيرين سينضمون لهذا الجيش الذي سيتجه فور اكتماله إلى الشمال؛ سينشِّط المسلمون إذن في ذلك التوقيت الحرج تلك الجبهة القديمة التي تعرض فيها ثلاثة من أمراء النبي للقتل في السنة الثامنة للهجرة، من أجل الثأر الذي يمكن تأجيله على أية حال إلى مناخ أكثر هدوءًا.

لكن التحرك لتلك الغزوة في ذلك التوقيت يقول أشياء شديدة الأهمية، يقول للمسلمين إن المهمة الطويلة التي تنتظركم هي الفتوحات، وإن الردة بأس

سيُذهبه الله، وظرفٌ قذر سيمضي بسرعة ونلتفت من بعد مضيِّه إلى مهامنا العظيمة؛ هذا ما يقوله للمسلمين، أما ما يقوله للجمهور العربي الواسع من المحايدين ولأشباه المحايدين بين محمد ﷺ والخارجين عليه هو أن هناك أيها الناس أمة حقيقية وجادة تتخلق في جزيرة العرب، أمة تعرف أعداءها جيدًا وتعمل على إعلاء كلمة الله، وتجمع العرب وتحركهم إلى غايات أكثر سموًا، أما حركات التمرد هذه، فما هي إلا تعطيل غبي ومزرٍ للمسيرة تولاه رجال أنانيون فارغون لن يبقى من هذرهم شيء؛ وبما أن قبائل الشمال العربية التي سيبعث إليها محمد ﷺ جيشه لديها في شأن القتال ما هو أهم من الشراسة نفسها وأشد منها سمعة، وهو أنها تمارس القتال كمهنة، ولا تجزع من طول الحرب، فقد مضت على أجيالها قرون وهي تمتهن القتال من أجل الروم، لذلك فإن التحرك الجريء يقول للقبائل التي تدرس الأمر وتفكر في إعلان تمردها: فكِّري مرة أخرى، فالمسلمون خصم شديد لم يأبه بعرب الشمال الذين يترزقون من الجندية؛ وبما أن محمدًا ﷺ قد اختار الهجوم على تلك المنطقة من أجل الثأر لدماء الأمراء الثلاثة الذين قتلوا منذ أكثر من سنتين فإن التحرك يقول شيئًا في منتهى الإلحاح للقبائل المارقة التي تمردت وانتهى الأمر، والتي لديها أقلية من المسلمين، يقول إياكم والمسلمين الذين بين أظهركم، فمحمد ﷺ لا ينسى دماء أصحابه.

في اليوم السادس والعشرين هذا من شهر صفر، الذي أمر محمد ﷺ فيه المسلمين بالاستعداد للتوجه إلى البلقاء من أرض الشام، لم يكن أحد يتوقع القائد الذي سيختاره النبي لحمل الراية في اليوم التالي.

في السابع والعشرين من صفر دعا الشاب صغير السن أسامة بن زيد، ابن أول حامل للراية في مؤتة، وكلفه بإمارة هذا الجيش وهو دون العشرين، قائلًا

له: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحًا على أبنَى، وحرق عليهم، وأسرع المسير تسبق الخبر، فإن ظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم.

وفي الثامن والعشرين، وفيما كان النبي عائدًا من جنازة في البقيع، أصابه صداع في رأسه، وارتفعت حرارته كثيرًا، حتى إن أصحابه الذين قلقوا عليه كانوا يجدون الحرارة قد انتقلت إلى العصابة التي يربط بها رأسه، وفي صبح التاسع والعشرين عقد اللواء لأسامة بيده، فتوجه أسامة بالذين تجمعوا وعسكر في منطقة الجرف شمال غرب المدينة، على بعد أكثر من أربعة أميال من المسجد.

وأثناء فترة التجمع، حيث مكث أسامة في الجرف منتظرًا من يتوافدون عليه، ومنتظرًا الأخبار التي تأتيه عن صحة النبي، بدأ بعض الناس يتكلمون مع أصحابهم في خفية وهدوء في استعمال النبي لأسامة وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين! ولكن لم يتفوه المهاجرون الأولون أنفسهم بمثل هذا الكلام، ولم يشعروا في صدورهم بأي تحفظ واستياء من أن يكونوا من خلف ذلك الشاب الصغير الذي اختاره النبي للإمارة، فهم يتورعون كل الورع عن مخالفته حتى في أبسط أمور الحياة، ولم يمروا كبشر بلحظة ضيق وارتباك إلا في الحديبية، حيث عجزوا لبعض الوقت عن تصديق ما آلت إليه الأمور بعد أن كانت روحهم المعنوية مرتفعة جدًا، عجزوا عن أن يصدقوا أنهم سيتحللون من الإحرام الآن ويعودون بغير عمرة، لكن سرعان ما رجعوا وأفاقوا، وأصروا على ألا يمروا بمثلها مرة ثانية؛ وحتى في تلك الساعة شديدة الصعوبة لم يرتبك أبو بكر ولو للحظة واحدة ولم يصبه حتى ذلك الفتور الذي يعبر به المهذبون عن رفضهم؛ لهذا يعرف المسلمون جميعًا في المدينة أن هذا

الصحابي الكبير المتواضع الذي سلَّم قلبه لله، أبا بكر، لن يغيظه أن يكون جنديًا في جيش يقوده الشاب الصغير، فقد قبل بروح طيبة من قبل أن يكون عمرو بن العاص أمير جيش هو فيه، وقد كان عمرو حديث الإسلام وقتها، لكن أبا بكر لم يذهب إلى المعسكر مع أسامة بن زيد في التاسع والعشرين، ولا ذهب من خلفه من بعد التاسع والعشرين، وظل ماكثًا بالمدينة.

لم يتوجه أبو بكر إلى المعسكر مثل كثير من الصحابة الذين تجهزوا وخرجوا إلى الجرف، لكن لم يحيِّر هذا الأمر أحدًا على الإطلاق، ولم يبلغ السخف وتفاهة التصور بواحد من أهل المدينة ولو من المنافقين درجة الاعتقاد في أن رجلًا ظاهرًا جدًا مثل أبي بكر تخلف عامدًا عن غزوة أمره النبي بالذهاب فيها وعصاه بعد كل الكفاح الطويل والتاريخ الطيب وجاوره في المدينة بأعصاب هادئة وهو لا يبالي بغضب النبي ولا يخشى أن يُحبَط عمله ظنًا منه أن المرض سيشغله عنه، فقد كان المرض في الأيام الأولى أخف من أن يشغل محمداً ﷺ عن القيادة، وحتى لو أخذت صحته تتدهور من بعد ذلك، فسيظل قادرًا على أن يجرد من يعصيه من أي منزلة كسبها في الإسلام ببضعة كلمات يقولها وهو راقد في فراشه؛ لقد كانوا يعرفون الشيء الذي يمكن أن يرد على الذهن ببساطة، والذي لا يحتاج إلى مناقشة، وهو أن النبي قد استبقاه.

غرفة الأرواح

قيس بن مكشوح يقف وهو يحاول أن يخفي اضطرابه، على باب غرفة من غرف القصر قلَّما سمح الأسود العنسي لأحد بدخولها، فقد حذَّر الجميع من قبل بأنها غرفة يجتمع عنده فيها أرواح متكبِّرة ثقيلة الحضور تأتيه من ممالكها البعيدة في الجزر المجهولة وخرائب الأمم الهالكة، وفي قمم الجبال الغائبة في السحاب؛ ولم يكن قيس بن مكشوح أثناء وقوفه عند الباب يرى العنسي الذي استدعاه، فثمة دخان بخور كثيف يصعد من المجامر عند مدخل الغرفة الطويلة ضعيفة الإضاءة، لم ير من خلاله إلا جماجم حيوانات معلَّقة، وأظلافًا.

تقدم قيس بن مكشوح وهو موهوم، يتبع صوت سيده الذي يناديه، حتى وقف أمام العنسي الجالس وأمامه قرعة كبيرة مجوفة، شعر بالدوار عندما نظر فيها، وأحس أنها سحيقة جدًا، وتدبُّ فيها حياوات خفيَّة، وحيَّاه بكل أدب. وكان على وجه الأسود العنسي ذلك الهدوء المخيف الذي كاد يذهب بروح قيس بن مكشوح الذي سببت له رائحة البخور الغريب التي استنشقها شيئًا من التعاسة والخور. وبعد أن تكلم قيس بعض الكلمات الطيبة المجاملة، وهو يشعر بثقل المكان، وبذلك التعب الذي يغشى إنسانًا يشعر أنه مراقب من أعين مهيبة مستترة ثبَّتت نظراتها عليه، أسكته الأسود بإشارة من كفه، ورمى سمعه ناحية اليسار، وتغير وجهه، ولم يكن هناك شيء عن يساره يمكن لقيس أن يراه، ثم قال لقيس بن مكشوح بهدوء ولوم: ما يقول هذا؟

بلع قيس ريقه ونظر إلى لا شيء عن يسار الأسود، ثم قال: وما يقول؟

: يقول لي: عمدتَ إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك وتآمر على ملكك، وأضمر على الغدر؛ إنه يقول: يا أسود يا أسود، يا سوآه يا سوآه، فطفْ به وخذْ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف رقبتك.

تحركت أمعاء قيس بن مكشوح من الرعب وهو يسمع اتهام الأسود الخطير له بأنه يستعد لقتله، ويسمع تهديده له بالتخلص منه قبل أن يفعلها، وشعر بدفء في أمعائه وهو يفكر في هذا الكلام الذي يقوله العنسي بقدْرٍ معجِزٍ من الثقة، مما يجعل الإنكار صعبًا جدًا، ولكنه تماسك وقال له بنبرة عاطفية حارة: لأنت أعظم في نفسي، وأجلّ عندي من أن أحدِّث بك نفسي.

نظر الأسود عن يساره، ثم نظر إلى قيس وقال وهو لا يزال متأكدًا تمامًا من التهمة، راضيًا باهتزاز قيس: ما أجفاك.. أتكذِّب الملك! قد صدق الملك، وعرفت الآن أنك تائب مما اطَّلع عليه منك.

نظر قيس إلى الأسود، ورأى نظرته الجديدة الصعبة إليه التي عليه أن يتأقلم معها: نظرة الرجل إلى رجل يكرهه ولكن يحتاج إليه بجانبه، وشعر أن هذا الوضع المكشوف صعب مع رجل مرعب مثله، فنظر تجاه يسار الأسود مستعطفًا هذا الشيء الذي لا يراه، ولم يظفر بالطبع بأي عطف، وحسبها بسرعة، لأن التروي أمام الجبارين قاتل، فوجد أنه لو أصر على الإنكار بينما العنسي متأكد بهذه الطريقة، بوشاية من هذا الخفيِّ عن يساره، ربما اشتعل غضبه وقتله، لذا اكتفى بأن هز رأسه، وترك وجهه الذي هرب الدم منه لتتلاطم عليه كل الانفعالات النافعة: الندم، الخجل، الاندهاش، الذل، وكذلك التأثر من المكرمة، مكرمة الصفح. ومضى كسيرًا مهمومًا مهزومًا أمام العنسي وهو يعرف

حجم المأساة التي بدأت، مأساة أن يعيش مقربًا من العنسي ولم يعد صافيًا له.

بعد أن خرج من الغرفة ومضى قليلًا بخطوات طبيعية، التفت خلفه، فتأكد أن العنسي ليس عند باب غرفة الأرواح، فأخذ يهرول باتجاه ديوان الوزراء في الطابق الأرضي، حيث يجلس أبناء الفرس الثلاثة، ومنظره وهو يمر مسرعًا قلقًا بين الأعمدة والطرقات أخذ يلفت انتباه الحراس واحدًا بعد الآخر، وكان يكلم نفسه أثناء ذلك مشتت الذهن، يسأل نفسه لماذا قرأ دماغه هو وحده ولم يقرأ أدمغة المتآمرين الثلاثة الآخرين!

رمى قيس بن مكشوح نفسه بينهم، وحكى ما حدث قبل أن يلتقط أنفاسه، وأخذ يحضُّهم على الإسراع باغتياله وهو لا يزال مضطرب الأنفاس ويمسك في قمصانهم من شدة الانفعال، كأنه من الممكن أن يصعدوا له الآن ويقتلوه في الغرفة؛ وفهموا من تعلُّقه بقمصانهم أنه قد بلغ به الحقد على العنسي مبلغه، ولكنه في الحقيقة يمسك في قمصانهم لأنه شعر بأنه انكشف وحده بسبب ثغرة ما في دماغه، ويخشى أن يتعظوا من خبر انكشاف أمره ويتعقَّلوا ويتراجعوا عن المؤامرة، ويضبطوا أمورهم مع العنسي، فيضطر هو بدافع اليأس إلى السعي للهروب من اليمن باعتباره الغادر الوحيد في البطانة، تاركًا أسرته، وتاركًا أمواله، وتاركًا طموحه، هذا من بعد أن زاروه عند المنجم في نهار مشؤوم وبدؤوا غوايتهم؛ وربما بعد كل هذا البؤس يكون العنسي قد قرأ أفكاره عن الخروج سرًا من اليمن، فيصبر عليه من باب التلاعب به ويتركه يقطع معظم طريق الهروب أمام عينيه كأنه يلهو بنملة تبحث عن الفرار، وعندما يمتلئ فرحًا بالنجاة على حدود ملْك الأسود العنسي يعودون به إليه ذليلًا مكبلًا.

طال اجتماعهم قليلًا، واتفقوا كلهم على أن هذا الرجل المجرم لابد أن

يقتل في أقرب فرصة، وتوقَّف قيس عن التمسك العصبي بقمصانهم بعد أن عرف أنه لن يكون وحده. وأثناء ما كانوا يحددون الموعد لاجتماع بعيد عن القصر يضعون فيه خطة محكمة لا مجال فيها للخطأ، دخل عليهم أحد الحراس وقال لهم إن العنسي ينتظرهم الآن في غرفة الأرواح هم الأربعة، ولا يتخلف منهم واحد.

مضى الأربعة خلف الحارس المرعب، لا أحد فيهم يناجي الآخر، أو ينظر في عينيه، كأن هذا يضفي في الدقائق الأخيرة عليهم مسحة من البراءة.

ووقف الأربعة على الباب، ورأوا الجماجم والأظلاف المعلقة، ومروا في دخان البخور الذي يجلب الشعور بالتعاسة، ووقفوا أمام العنسي والقرعة الخاوية بين يديه؛ وواجههم على الفور بأنهم يتآمرون عليه معًا، ولم يحفظوا جميله وقد جعلهم وزراءه وقادته وأشرافًا في الناس. وكان مقتدرًا على الأربعة وهم واقفون أمامه، نفس اقتداره على قيس عندما كان هنا وحده منذ قليل؛ وكان في كامل يقينه مما يقول، وفي كامل تماسكه أيضًا، ولا يبدو عليه أنه يشعر بالاضطراب والجزع اللذيْن يمكن أن يشعر بهما سلطان قد عرف أن رجاله المقربين قد اجتمعوا عليه كلهم؛ فلم يجد الأربعة ما يقولونه إلا أن يخفضوا رؤوسهم ويطلبوا منه العفو بأصوات منكسرة.

في آخر هذا اليوم القاسي بالقصر، توجه قيس إلى قصره، وعاش ليلة شديدة الصعوبة، كان نومه فيها خفيفًا جدًا ومليئًا بالكوابيس، التي كان يظن أن العنسي يرسلها إليه؛ وكان يائسًا من طريقته التقليدية لتنظيف الدماغ من الأفكار السيئة عن العنسي عن طريق ترديد كلمات طيبة عنه، ويرى أنه تخطى هذه المرحلة بعد أن كشفه العنسي، ولم يعد هناك شيء يجدي إلا خياران، إما

أن يسارع بقتل العنسي قبل أن يستدعيه مرة أخرى، أو أن يتوب ويصفو تجاه العنسي فيعرف العنسي هذا هو وذلك الخفيُّ الذي عن يساره فيصفوان له، واكتشف بعد أن تأمل كثيرًا في الخيارين أن الصفاء بعد التهمة أصعب بين القادة من القتل. وظل طوال الليل ينام نومًا خفيفًا ثم يقوم مفزوعًا وهو يحلم بأشياء ترتطم بوجهه فجأة بعد أن كان في طريقه لقتل العنسي في المنام، وعندما يقوم يؤنب نفسه على التفكير في هذا ولو في النوم، لأن العنسي يمكن أن يستدعيه مرة أخرى بسبب هذه الأحلام الكثيفة طوال الليل التي يتسلل فيها لقتله، وكلما أنَّب نفسه على التفكير في قتل العنسي لأن العنسي يقرأ الأفكار، عاد وأنَّب نفسه على هذا التأنيب، وقال: وكيف لي أن أقتله مباشرةً بغير أن أفكِّر في قتله وأتعمَّد ذلك!

في الصبح، استيقظ من نومه العثر على أن العنسي أرسل يستدعيه، فتوجه إلى القصر بدون أن يغسل وجهه، وكانت فيه أثناء السير إليه تلك الشجاعة التي تكون عند رجل لم ينم جيدًا بسبب عدم استيعابه للأمور. ووقف أمامه في البهو الذي يتسلل إليه ضوء النهار، بوجهه الحزين، وشعر رأسه المضطرب، وأفكاره المشوشة. وأخبره العنسي بصوته القوي الذي يجلجل في فضاء القصر أن صاحب وحيه حذره: إلَّا تقطع من قيس يده يقطع رقبتك.

وردَّ عليه قيس ردًا مطولًا بلهجة مظلوم يشعر بالإرهاق، أوضح فيه الخراب الذي حل بنفسه بسبب القلق الشديد، وختم رده بأن قال: ليس من الحق أن أقتلك وأنت رسول الله، فمرني بما أحببت. فأما الخوف والفزع فأنا فيهما مخافة أن تقتلني، فإما قتلتني فموتة أهون عليَّ من موتات أموتها كل يوم.

فنظر العنسي إلى رده اليائس، ونظر في وجهه المرهق، فعفا عنه وصرفه.

وكان قيس متعبًا جدًا ومستعدًا بالفعل لأن يُقتَل ويتخلص من حياته الجديدة هذه التي تبدو سيئة للغاية، حياة رجل غير موثوق به، وغير آمن، ولديه مشاكل عويصة مع النوم.

وعندما خرج الأسود العنسي من القصر بعد قليل وقد أعدوا له موكبًا، هرع قيس إلى الديوان بهيئته المضطربة، وهو يشعر بالغيظ مثلما شعر بالأمس من كونه ناداه وحده، ويشعر بالخوف من أن يتراجعوا ويظل وحده. وحكى لزملائه الثلاثة كيف أن العنسي قد هدَّده من جديد، وكيف أنه تركه وعفا عنه بعد أن شكى له من أن خوفه الشديد منه هو الذي يجعله يبدو له مريبًا معدوم الولاء يطوي قلبه على خيانة، خوفه الشديد وليس الكراهية، خوفه الشديد هو الذي يفعل ذلك وهو الذي تختمر به في رأسه رغمًا عنه هواجس فظيعة لا يملك أن يمنعها، هواجس لا ضابط لها لا يبعثها إلا الخوف. وكان قيس يبذل قصارى جهده بملامحه التي غلب عليها الأسى والاضطراب في توضيح فكرته لهم عن الخوف الذي يسيطر على الأفكار ويتلاعب بها كيف يشاء ويجعل الرجل الثقة يبدو مثل الخائن؛ حتى تبدو مقنعة جدًا لهم ومؤثرة؛ لأنه يريد أن يطمئن منهم إلى أن دفاعه كان رائعًا ومثيرًا للشفقة، وأن العنسي لن يستدعيه مرة ثانية كي يهدده. وقد انفضُّوا بسرعة خوفًا من أن تشي الأرواح إلى الأسود العنسي باجتماعهم، بعد أن أقسموا على أنهم لن يتراجعوا عن قتله.

في صباح اليوم التالي، وفيما كان قيس وفيروز وداذويه يبدو عليهم أنهم يتعرضون للشمس اللطيفة في الخلف من فناء القصر قبل أن تشتد، وبالقرب منهم حظيرة تابعة للقصر لها سياج من الخشب بها قرابة المائة رأس من البقر والبعير، ظهر لهم فجأة الأسود العنسي ومعه جماعة من حراسه الأشداء الذين لا يفارقونه، وحاول الثلاثة أن يظهروا كأصدقاء لطاف يثرثرون بأي شيء، وقد

شعروا بالخطر الشديد، فهو يقترب منهم ومعه حربة يهزها في يده، وسيفه الطويل في غمده. ومر بجانبهم بدون أن يلقي عليهم التحية، كأنه لا يراهم. وفتح الحراس له باب الحظيرة الخشبي فاندفع بين البقر والبعير، وأشهر سيفه، وأخذ يضرب في الأنعام التي تحيط به بسيفه بغير هوادة ويطعنها في نحورها بحربته، كأنه رجل أصابته لوثة، والدم ينفجر ويأتي على ثيابه، والبقر والإبل تتهاوى تباعًا، وتتخبط في الدماء وترتعش، وهو يمضي وهو يزيح عنه بغير اكتراث أعناق الجمال التي ذبحها ومالت عليه. وجماعات من البقر والجمال التي لم يعقرها العنسي بعد أخذت تخرج من الحظيرة ببلادة، وتمشي بهدوء لا تعرف أين يمكنها الذهاب، وهي تظن أنه لا نجاة، هي فقط تؤجل الموت بعض الدقائق؛ وأخذت تطوف بالقرب من الرجال الثلاثة بلا معنى، وكانت الأرض قد مادت بهم، وقد زاد طوفان الأنعام بهم من دوارهم، فخرج العنسي بعد أن ذبح كل الحيوانات التي بداخل الحظيرة، وأخذ يطعن تلك التي خرجت واحدة وراء الأخرى من حول الوزراء المتسمِّرين في مكانهم.

وبعد أن أنهى المذبحة قال: أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟

وشعر قيس لأول مرة بالحظ الطيب، فرجل آخر غيره هو المهدد الآن، وإن كان جشنش الذي لم يكن معهم أسعد حظًا من الجميع. وهز الأسود العنسي حربته، ثم وضع حدها عند رقبة فيروز الذي يقاربه في قوة الجسد، فيما كانت آخر بهيمة تنتفض تحت قدمي فيروز والدم يخرج على شكل دفقات من رقبتها.

وقال العنسي وهو ينظر لفيروز وللبقرة التي تخلَّصت من تشنجاتها: لقد هممت أن أنحرك يافيروز فأتبعك هذه البهيمة.

رد عليه فيروز الذي كان متماسكًا إلى حد كبير، وقد رسم على وجهه علامات الحزن والصدمة والشجاعة: لم يكن طلبنا للعفو في المرة السابقة إلا تهيبًا من مجادلتك وأنت نبي، فاخترنا أن نرضيك في ظنك فينا إلى أن يوحى إليك باستقامتنا خلفك فتطيِّب خواطرنا.. محال أن تكون منا إليك خيانة وقد اخترتنا لصهرك، وفضَّلتنا.. فلو لم تكن نبيًا ما بعنا نصيبنا منك بشيء؛ فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا؟ لا تصدق فينا ما يبلغك، فإنَّا حيث تحب.

أظهر الأسود العنسي إعجابه برد فيروز، وإن لم يكن يظهر عليه أنه صار يثق به؛ وأمره بأن يقسم لحوم الذبائح بمعرفته.

بعد أن مضى العنسي، شعر الرجال الثلاثة بالمزيد من الإصرار في نفوسهم على التخلص منه، وشعروا أن هذا الرجل الطائش السخيف في طريقه إلى الغياب؛ ورغم خوفهم الشديد منه، وخوفهم من أن يعود مرة أخرى إلى تهديداته، وصعوبة المشهد الذي رأوه منذ قليل عندما وضع طرف الحربة على حنجرة فيروز، إلا أنهم شعروا وهم لا يزالون عند الحظيرة بأن شيئًا من هيبته قد انسفك مثل دم هذه الذبائح؛ وهذا الشعور الغامض، وغير الملائم لما هم فيه، والذي لا يعرفون له سببًا، لا يرجع إلى شدة الحنق من كثرة التهديد، بل لأنه ارتكب الخطأ الذي لا يصح أن يقع فيه طاغية مثله وهو أن يعفو أكثر من مرة، فالطاغية يعفو مرغمًا، ويداري ما يشعر به من إذلال في قرارة نفسه عندما ترغمه الظروف على العفو؛ والعفو الذي يعفوه كي يظل عالمه متماسكًا، يفضح لمن يحيطون به تمامًا أنه يعرف نفسه كرجل غشاش لا يستحق المكانة التي يحتلها، ويفضح إحساسه الدفين بأنه رجل مهدد بأن يخسر كل شيء.

من أجل هذا كان فيروز يبتسم وهو شارد وأصبعه على الحنجرة بينما يمضي العنسي بعيدًا، كان يبتسم وقد ازداد إصرارًا على أن يتذوق العنسي القتل وحده، بدون أن يتعرض الآخرون من حوله للقتل وهم يحاولون الدفاع عنه، كما لو كان حيوانًا قد نفق لا أكثر، ورأى أن قتله وهو نائم أو مخمور يوفر هذه الفرصة. وازدادت ابتسامته تألقًا، وهو يتمتم باسم الإنسان الذي خطر له مرة واحدة أن يستعين به لأن العنسي يبدو مطمئنًا إليه تمامًا، اسم ابنة عمه: آزاد.

الكتاب الذي لم يكتبه محمد ﷺ

بدأ مرض النبي يدخل مرحلة شديدة بعد أسبوع من إصابته المفاجئة بالصداع وهو عائد من الجنازة، فدخلت معه المدينة في طور من الخوف لم تذق مثله منذ أن هلَّ وجهه عليها بالنهار منذ عقد من الزمن، وظهر هذا الخوف على كل شيء فيها: حوائطها، وأشجارها، وأسواقها، وملامح أطفالها، ونبرات الرجال. وفور أن اشتد عليه المرض وعصف به، انتقل إلى بيت عائشة، وإلى صوت عائشة الذي يرتاح لسماعه، وتعابير الحب على وجهها الشاب التي يروق له أن يراها، وذلك الولاء الذي لا أول ولا آخر، الذي يشع من نظراتها إليه، ذهب إلى حيث يحب أن يضع رأسه المحمَّل بالهموم، وحيث يحب أن يبوح بوجعه فيواسيه إحساسها الثري به كزوج ومؤدِّب وحبيب يعلن حبه لها.

رقد عندها وهي تتألم جدًا لما يشعر به، وتحاول أن تخفف عنه بكل طريقة، وتقرأ عليه الأدعية والرقى التي تعلمتها منه. وفي يوم الأربعاء، السابع من ربيع الأول، بلغ به الوجع مبلغه، حتى أغمي عليه، ثم أفاق وهو شديد الشعور بالتعب، وشديد الشعور بالمسلمين، يريد أن يخرج إليهم في المسجد كي يوصيهم، فجعل الذين يحيطون به يريقون عليه المياه من سبع قرب، حتى شعر ببعض الانتعاش، فدخل المسجد وهو معصوب الرأس، تحف به النظرات المتألمة من المسلمين.

وقال لهم بكل حرص ومحبة، وتأكيد: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي [بطانتي وموضع سري]، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم،

فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

وقال: إن عبدًا خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده.

وفور أن نطق بها في خطبته إليهم، بكى أبو بكر، وقال وعينا النبي المحبتان عليه، مليئتان بالتقدير والرضا: فديناك بآبائنا وأمهاتنا؛ فتعجب الموجودون من بكائه ومن كلامه، وأخذوا يتهامسون عن هذا الشيخ المحب للنبي والملازم له طول الكفاح، الذي خالف الكل في الفهم بسبب شدة العاطفة والقرب وظن أن النبي يتكلم عن نفسه، بينما هم يرون أنه يتكلم عن عبدٍ ما قد خيره الله.

وفيما كان الدمع لا يزال ينهمل على وجه الشيخ النحيف الأبيض، أبي بكر، وعيناه على النبي المتوعِّك الجالس على المنبر، قال النبي عنه: إن من أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر.

وجاء يوم الخميس، الثامن من ربيع الأول، وقد كان النبي لا يزال يؤم المسلمين في كل الصلوات رغم شدة المرض عليه، وفيما كان راقدًا في بيت عائشة وأزواجه كلهن عنده، وهو غير قادر على أن يقوم، وقد ازداد شعوره بأن الرحيل قد أزف، دخلت ابنته فاطمة، بنفس مشية أبيها، فرحب بها وأجلسها بجواره بعد أن قبَّلته، ثم همس إليها، فبكت على الفور وانهملت دموعها وهي ملتصقة بأبيها الحنون. وبعد قليل دعاها مرة أخرى بعد أن أحزنه بكاءها

وناجاها، فضحكت وعيناها مليئتان بحب عجيب له.

لم يشأ أن تفجع فيه بسماع خبر وفاته مرة واحدة، وهو يعلم شدة تعلقها به وعدم صبرها على أن يكون بعيدًا عنها، خاصة وقد تتابع عليها موت الحبيبات، أمها، ثم أخواتها الشابات الثلاث تباعًا، فأراد أن تعرف منه أن أجله قد اقترب، ودعاها للصبر على مصابها فيه، فتفجَّر فيها الحنان على أبيها المتوجِّع المفارق، الذي يملأ عينيه منها، فبكت وانهملت دموعها بغير صوت؛ لأنها لم تتخيل حياةً ليس فيها محمد ﷺ؛ ومن العجيب أن شابة في الثامنة والعشرين من عمرها ضحكت بعد قليل ورضيت، وأحبت أن تعلن له رضاها ببسمتها العريضة ولم تزل دموعها تترقرق؛ ذلك لأن أباها بشَّرها بأنها أول من يلحق به من أهله.

وقد دخل عليه جماعة من الصحابة يزورونه في نفس اليوم من بعد ذلك، وهو لا يزال راقدًا في سريره في غمار الوجع الشديد الآخذ في الصعود، وقد استقر فيه الشعور بقرب الرحيل، ذلك الشعور الذي جعله يبدأ بمراضاة قرة عينه فاطمة وتقويتها، وبقي ما يقوِّي به أصحابه؛ لقد تعاظم فيه ذلك الشعور المخلص جراء الإحساس بالنهاية بأن هناك ما يجب أن يعطيه لهم فوق كل الذي أعطى عبر السنين، رغم أنه لم يُبق شيئًا، حتى يظفر بذلك الشيء الغالي الذي يرجوه وهو الاطمئنان عليهم من بعده، قال لهم: هلموا أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده.

قالها بكل روح الحرص التي عند رائد يصعب عليه أن يترك من يتبعونه يجربون الأيام وتجربهم، ويريد من شدة حبه لهم أن لا يترك أمامهم أي حيرة أو معضلة، ويظل معهم من خلال وصية حتى بعد أن يرحل.

وحدث أمامه ما يؤذي أي نبي وهو يشعر بأن الرحيل قد أزف: اختلف الناس عند سريره، ولم يشعروا بأنفسهم إلا وقد صاروا فريقين، فريق غلبت عليه طاعة النبي، وفريق غلبت عليه محبة النبي؛ خشي المطيعون أن يفوتهم شيء مما عند الرائد من فائدة لأهله، وخشي المحبون أن يفوتهم الرائد نفسه إن حمَّل نفسه فوق طاقتها وشرع في الإملاء وهو في هذه الحالة. وقد تأذى النبي الحريص عليهم، ليس من رأي هؤلاء ولا من رأي هؤلاء، ولكن تأذى من تنازعهم واختلافهم عنده وإكثارهم من اللغط، فأمرهم بأن يقوموا عنه.

وقد فهم أغلب الذين أرادوا طاعة النبي وهم ينصرفون أن ما كان سيكتبه ليس واجبًا عليه كما ظنوا، فلو كان واجبًا لأبقاهم هم على الأقل وصرف الآخرين، لأن النبي لا يترك التبليغ تحت أي ذريعة.

وقد صلى بهم النبي صلوات ذلك اليوم الخميس إلى صلاة المغرب، وعندما حان وقت صلاة العشاء، وكان يجد صعوبة شديدة في أن يقوم، اغتسل وهمَّ بأن يقوم إلى المصلين فأغمي عليه، ولما أفاق سأل عن صلاة الناس فعرف من أهله أنهم لم يصلوا، ولما أراد أن يتحامل على نفسه ليخرج ويصلي بهم أغمي عليه مرة ثانية، ثم قام بعد الإغماءة الثانية وهو لا يزال يرغب في الخروج ليصلي بهم، وحاول أن يستجمع قوته، لكنه أصيب بالإغماء للمرة الثالثة.

لما أفاق من الإغماءة الثالثة، وصار واضحًا له أنه لا يملك أن يقوم، نادى في الذين من حوله كي يأمروا أبا بكر على لسانه بالصلاة بالناس. وخافت عائشة بشدة على أبيها من أن يتشاءم به الناس إن حل محل النبي في الإمامة، فاعتذرت للنبي برقة قلبه ومسارعته للبكاء فقالت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف،

وإنه متى يقوم مقامك لايسمع الناس، فلو أمرت عمر. ووجدت النبي مصرًا تمامًا على رأيه، ولكنها لم تيأس، فقد شغلها هاجس التشاؤم وكرهت لأبيها أن يظلمه الناس من شدة حبهم للنبي، فمالت على حفصة بنت عمر كي تعرض هي أيضًا على النبي ذات الرأي، فعرضته، فغضب النبي وأصرَّ على أن لا يصلي بالناس أحد غير أبي بكر. وتلك كانت أول صلاة في مرضه يأمر فيها بأن ينوب عنه في إمامتها أبو بكر، صلاة العشاء في الثامن من ربيع الأول.

وقد عمَّ المسلمين شعور عارم بالحزن على تدهور صحة النبي، النبي الذي يعرفون شدة حبه للصلاة، ويعرفون أنه لن يمنعه عن أن يخرج عليهم ليصليها بهم إلا أنه لا يقوى على ذلك. وتعطَّشوا في كل لحظة إلى أن يخرج إليهم بوجهه البشوش ويصلي بهم صلاتهم هذه في أي ركعة من الركعات الأربع القادمة، وتعطَّش أبو بكر الذي يقف أمامهم مهمومًا لخروج النبي أكثر مما تعطَّشوا، وتمنى أن يتقدم النبي المتعَب في أي لحظة من صلاتهم التي سيبدؤونها فيتأخَّر له ليصلي بالناس؛ وغلبت المسلمون دموعهم وهم ينتظمون في صفوف الصلاة، الصلاة بغير محمد ﷺ.

وأغلب هؤلاء الذين ظنوا أن النبي كان سيوصي بخليفة من ضمن ما كان حريصًا على أن يكتبه للمسلمين في هذا الخميس، سواء الذين كانوا عند فراشه وقتئذ، أو هؤلاء الذين سمعوا بالأمر بعد أن تفشى بين أهل المدينة فور انصرافهم من عنده، المتوزعين الآن في صفوف الصلاة خلف أبي بكر منتظرين تكبيرة الإحرام، أغلبهم كان يرجحون أنه كان سيختار للمسلمين أبا بكر في كتابه الذي لم يكتبه، إن كان سيكتب فيه اسم خليفة؛ ولما نظروا فوجدوا أنه قد مدح في الأمس الأربعاء بعد صلاة الظهر أبا بكر وأمر بالإبقاء على بابه من المسجد، ووجدوا أنه اختاره في يومهم الخميس هذا الذي كان سيكتب لهم

فيه الكتاب كي يؤمهم في صلاة العشاء، لانت قلوبهم على حزنٍ خلف الشيخ الأسيف صاحب نبيهم، ولم يعد لديهم شك في أنه يحب لهم أبا بكر، كتب كتابًا بهذا أو لم يكتب.

وقد بات الناس وهم يخافون على حياة الرسول الذي افتقدوه منذ صلاة العشاء، وبدؤوا منذ فجر يوم الجمعة يقفون بالقرب من بيته ينتظرون أي أخبار عنه، أو يمضون إلى حال سبيلهم بعد أن يطلبوا من الآخرين أن يخبروهم بأي جديد. وبعد قليل خرج علي بن أبي طالب ويبدو على وجهه شيء من البشر، فتجمعوا حوله يسألونه عنه: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟

فقال لهم: أصبح بحمد الله بارئًا.

فأخذه عمه العباس من يده وقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا [مأمور محكوم]، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا؛ إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر، إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا.

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله.

كان الأمر في ذلك الوقت طبيعيًا جدًا أن يرد هكذا إلى أذهان سادة بني هاشم بيت النبوة، فهم كما يبدو الأمر من عند بيت النبوة لا يفكرون في إزاحة أحد، بل يفكرون في الاحتفاظ بشيء. كان الأمر في ذلك الوقت طبيعيًا جدًا أن يرد هكذا إلى أذهانهم، فالنبي مريض مرض موت، ولابد أن أحدًا ما سيأتي

من بعده، وهذا القادم مجهول، والأصل في نظرهم هو أن البيت الذي أكرمه الله بالنبوة، يكون منه أيضًا من يحكم الناس من بعد هدى النبوة؛ وباتفاق بني هاشم، بما فيهم العباس عم النبي وعم عليّ، فإنه لا أحد في بني هاشم ينافس عليًا في صلاحه للولاية، وهذا ما يعرفه عليّ عن نفسه، وهو صحيح.

ولم يكن الأمر عند العباس عم النبي، أو عند علي بن أبي طالب ابن عم النبي ووالد حفيديه، لم يكن نظرية في الحكم محاطة بهالة من التقديس، بقدر ما كان حبًا لأن تحتفظ العائلة بأثر من شرف النبوة، وبقدر ما كان إيمانًا بالفضل الذي انعكس عليهم من نور النبوة.

لكن في نفس الوقت لم يكن العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب عاجزيْن عن تخيل خروج الخلافة من بني هاشم إلى غيرهم من بيوت قريش، بل ظلا يؤمنان بدرجة عالية من الواقعية بأن هذا احتمال وارد، لدرجة أن يسعى العباس للتوصية إذا كان الأمر خارجًا منهم لا محالة، ولدرجة أن يخشى علي بن أبي طالب أن يمنع عنهم النبي إياها.

وفي نفس الوقت لم يكن التفكير في إبقاء الحكم فيهم عدوانيًا أو هجوميًا، ولم ترد على ذهن العباس وعلي بن أبي طالب وهما يفكران في أن تكون الخلافة لعلي بن أبي طالب، صيغًا مثل: عليّ أفضل من فلان وفلان، ولم يكن علي بن أبي طالب يهمس بأنه خير من أبي بكر أو خير من عمر حتى ولو داخل بيته وهو يحدث طفليه، بل كان علي بن أبي طالب يرى أن أبا بكر خير الأمة بعد النبي، ويصرح بذلك إن سئل، ويصرح به بغير سؤال؛ وفي العموم لم يكن أحد من أصحاب محمد ﷺ المقربين يقول أبدًا عنه نفسه: (أنا خير من فلان). لم يكن الأمر كذلك، كانت الفكرة أبسط من أن تكون حقودة،

كان الأمر على هذه الشاكلة: علي بن أبي طالب هو أفضل أقارب محمد ﷺ المقربين، وهو زوج ابنته الحبيبة، ووالد حفيديه، وهو ربيبه.

إن ما كان ينمو في علي بن أبي طالب منذ الصغر، بدون أن يراقب أحدًا، هو ذلك الشعور القوي بأنه أولى الناس بمحمد ﷺ، ولقد كبر فيه الحب الذي أخذ يترسخ مع الأيام منذ الطفولة، مع كل بسمة في الوجه، ومع كل تربيتة على الكتف، وفي نظرة التقدير التي رآها في وجه محمد ﷺ عندما بلغ مبلغ الرجال، وعندما سكت ولم يستطع أن ينطق ويخطب من النبي ابنته ففاتحه محمد ﷺ ويسَّر عليه الطلب، وعندما امتلأت عين النبي بالمحبة والفرح وهو يدعو له ولها قبل الزفاف، ونما الحب في الالتفاتات التي تبادلاها في غبار المعارك، وعندما أعطاه النبي الراية في يوم خيبر، ونما في كل مرة حمل النبي الحسن أو الحسين من يديه.

العباس بن عبد المطلب، وهو رجل تاجر واقعي، وكبير في السن، وعم للنبي، يرى أن مواجهة الرسول وسؤاله عمن يخلفه أفضل للأهل من ترك الأمور للملابسات، بينما عليّ بن أبي طالب الذي يحمل معه حب كل هذه السنين لمحمد ﷺ، والذي رباه محمد ﷺ، والذي لاحظ أن النبي لم يتكلم إلى الآن ويوصي بخليفة، وبدأ يظن أنه لن يتكلم، شقَّ عليه أن يفاتح النبي في هذا الأمر الذي لم يشأ النبي أن يتكلم فيه من تلقاء نفسه، وكره أن يفعل، ورأى أن لا يسأله أي شيء، وأن يحفه فقط بالرعاية التي تليق بين الأهل؛ مؤملًا أن يكون تقدير أسرة النبي في شخصه من بعد ذلك منتظرًا من المسلمين أنفسهم، فيكون اختيارهم له هو من وفاء الناس لأنفسهم، فقد اختاروا ـ إذا اختاروه ـ واحدًا من الربانيين من خيرة أصحاب نبيهم، ومن أتقى الأصحاب، ومن أقضاهم،

وصاحب سابقة في الإسلام؛ وفي نفس الوقت يكون اختيارهم له هو من وفاء الناس لنبيهم.

وفي يوم السبت، العاشر من ربيع الأول كان عمر بن الخطاب قد أبلغ النبي باعتراض بعض الناس على تأميره لأسامة بن زيد وهو صغير السن، هذا بعد أن رد على من تزعموا هذا الرأي، وقد كان هذا الحديث الذي بدأ همسًا قد تفشى؛ وقد كان الجيش قد تأخر عن التحرك بسبب المرض الذي نزل بالنبي وأقلق المسلمين عليه؛ فغضب النبي لما سمع مقالة الناس في أسامة، وكان لديه في ذلك اليوم شيء قليل وعابر من التحسن، فتحامل على نفسه وخرج إلى المسجد وصعد المنبر وهو يربط رأسه بعصابة، وشهد لأسامة بأنه يستحق الإمارة مثل أبيه، وشهد له بشدة حبه له كما أحب أباه، ووصاهم به.

انتهى النقاش عندئذ في بعث أسامة فور أن قال النبي ما قال، ولكن هذا ليس كل شيء، فبالنسبة لمن كانوا يحبون أن يسمي النبي خليفةً باسمه الصريح في مرضه يلزم به المهاجرين والأنصار، وتوقعوا أن يسمعوا خبر الخليفة في أي ساعة، عرفوا فور أن نزل النبي من المنبر واتجه لبيته أنه لن يفعل ذلك في الغالب، لا اليوم ولا في أي يوم؛ فعندما وجد في نفسه نشاطًا يكفيه بالكاد لصعود المنبر، صعد وقطع الكلام الدائر في اختياره لأسامة، وأوصاهم به، وبلَّغهم بنفسه رغم آلامه التي تهد قوى جسده ولم يأمر أحدًا من أصحابه بأن ينقل عنه؛ وهذه الوقفة على المنبر كان يمكن أن تكون من أجل إعلان الخليفة على الناس، لو أنه أراد.

لقد فهموها اثنتين: إما أن النبي يريد أن يتركهم ينظرون فيمن قرَّب وقدَّم ولا يريد أن يستن لأمته اختيار السابق للاحق، أو أنه اطمأن إلى أن من يأتي

بعده سيكون له حظ من القبول والإكبار أفضل كثيرًا من حظ أسامة، فلو كان من يرتضيه لهم خليفةً والحكمة كل الحكمة في اختياره رجلًا لا يرجحونه من تلقاء أنفسهم، لصعد المنبر ونادى باسمه.

وفي صلاة الظهر، خرج النبي وهو يستند على رجلين، وكان أبو بكر يصلي في الناس، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر ليترك له الإمامة، فأشار له كي لا يتأخر، وجعل الرجلين يجلسانه عن يسار أبي بكر، فكان أبو يكر يقتدي بصلاة النبي، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر ويسمعون تكبيره.

وفي يوم الأحد، الحادي عشر من ربيع الأول، بلغت أوجاع النبي مبلغها، فأعتق غلمانه، ووهب أسلحته للمسلمين، وتصدق بدنانير سبعة كانت عنده، كان قد سأل عنها عائشة، فجاءت بها إليه، فوضعها في كفه ثم قال: ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده؟. وقد عاد إليه أسامة من معسكره متأثرًا، ودخل على النبي وهو ممدد، وانخفض وقبَّله، فأخذ النبي يرفع يديه إلى السماء ويضعهما على أسامة، يدعو له.

النخعة والخوار

أصوات خافتة جدًا، في وسط الظلام الحالك، لأحجار تزاح على الأرض بحرص شديد، تلتها أنفاس متلاحقة، كأنها لرجال برزت رؤوسهم أخيرًا من مكان ضيق كانوا يتنفسون فيه بصعوبة. ومرت لحظات صماء بلا صوت، قطعتها هسهسة أقدام رجال تتحرك بحرص، مصحوبة بهمهمات، ثم أصوات أياد تفتش في أحد الأركان؛ وبعدها، اشتعل مصباح بنور أصفر خافت بالقرب من الأرض، ظهر في ضوئه وجوه قيس وفيروز وداذويه وهم جالسون ينظرون في وجوه بعضهم بعضًا.

لقد عيَّنت آزاد لابن عمها فيروز جيبًا في جانب القصر من الخارج، يشبه طريقًا ضيقًا ومسدودًا وقصيرًا، لا سراج فيه، ولا يقف على رأسه حراس؛ والحراس الذي يطوفون بالقصر الكبير طوال الليل ويلتقون وجهًا لوجه، لو نظروا إلى مدخل هذا الجيب غير الملفت عن يمينهم ويسارهم لن يظنوا أن هناك شيئًا خطرًا يحدث في عتمته. وعيَّنت له آزاد أيضًا المكان الذي ينقب فيه في جانب هذا الجيب فيجد نفسه داخل القصر العظيم في مخزن فارغ وكبير، يفضي به إلى مخازن أخرى فارغة متتالية، كلها إلى الجنوب من جناحها الذي تنام فيه والذي سينام فيه معها الليلة الأسود العنسي. وهناك بين آخر هذا الصف من المخازن والباب الضيق الخصوصي في أحد أركان جناحها، طريق قصير ماكر تعرفه هي بحكم الخبرة بالمكان، غير لائق لكنه يختصر الوصول، يشبه الطرق العملية غير المعدة للسادة في القلاع والقصور، التي يسير فيها الخدم والعبيد كي يوفروا الوقت؛ وإلى أن ينتهي به طريق التهريب الماكر هذا الذي

اختزنته في ذاكرتها البصرية عند باب جناحها لن يكون قد واجه حارسًا واحدًا، لكن لو شذَّ عنه وتاه لن ينجو.

وقد تمشَّت في النهار ببراءة وحدها في القصر؛ فلا أحد يجرؤ على سؤالها إلى أين هي ذاهبة، فنبيُّ كل هؤلاء الحراس لا يراقبها ولا يرتاب فيها، بل هو راض عنها، ولا يرفض لها طلبًا، ويظن أنها رضيت به واعتادت حياتها معه. تمشَّت في الطريق الطويل الظاهر المحوري الموصل إلى تلك المخازن كأنها تتريَّض، وهي تحتضن قطتها الرقيقة البيضاء ذات الفراء الناعم الطويل؛ ونور النهار يهبط من النوافذ العالية المشرعة. وهناك، قبالة النقطة التي عيَّنتها له كي ينقبها، أخرجت من جيبها مصباحًا صغيرًا ووضعته تحت قصعة من الفخار مقلوبة في ركن من الأركان، ثم أخرجت كذلك قارورة بها صبغة كثيفة ولزجة حمراء اللون، وخلعت أحد زوجي حذائها، وأفرغت الصبغة على كعبه، وارتدته مرة ثانية ومضت ببراءة في الطريق القصير غير اللائق وهي تحتضن قطتها وتقبلها، تاركة وراءها علامات للقادمين من أجل الخلاص.

أسقت آزاد العنسي الخمر في جناحها وهو جالس على طرف سريرها، وفرطت له الرمان وأخذ يأكل من كفيها مسرورًا، وكلما توقف عن الشرب ملأت كأسه وابتسمت، فيشرب من جديد. وغلبه النوم فاستلقى على حرير سريرها، بكتفيه العريضتين الضخمتي العظم، وضم رأسه إلى جسده من شدة السكر مثلما تفعل السلحفاة.

ودخل فيروز من بابها الخاص في ظهر الجناح، فهزت رأسها له كي يتقدم، وتقدم في الجناح وهو ينظر إلى الرجل الذي يغط في النوم، واثقًا من أن الخلاص بعد قليل جدًا، مستمتعًا بتلك اللحظات الأخيرة، ففوجئ مفاجأة

مرعبة ذهبت بمتعته مرة واحدة، لم ينفعه معها إلا قوة قلبه وشدة حقده على العنسي، فقد اعتدل العنسي في سريره وهو نائم، شيء فيه أقامه وهو لا يزال نائمًا تمامًا، روح شيطانية أقامت جسده وتكلمت على لسانه وقالت بنبرتها الخبيثة الرنانة المزمجرة، بينما عينا العنسي مفتوحتان باتجاه فيروز ولكنه لا يرى شيئًا: ما لي وما لك يا فيروز؟

تراجع فيروز خطوة مندهشًا لأنه كان مستعدًا لأي شيء، حتى أن يستيقظ العنسي فور دخوله، لكنه لم يكن مستعدًا لهذا الذي يرى. وتماسك فيروز بعد لحظات ذكَّر نفسه فيها بأنه إما أن يموت العنسي، والآن، أو تموت ابنة عمه آزاد التي تورطت معهم ويموت هو أيضًا، والتي التصقت من الذعر بالحائط عندما اعتدل، فتقدم بدافع من غريزة الدفاع عن النفس وضرب العنسي ضربة واحدة مرتجلة بالسيف لم تكن قوية بسبب المفاجأة التي لا تزال مؤثرة عليه، ووجد نفسه كما يحدث من الأقوياء يترك السيف ويعتمد على قوة جسده، فهجم على العنسي وهو لا يزال حائرًا إن كان هذا قد أفاق أم لا يزال الشيطان يعمل فيه، فاختلطا الرجلان القويان بأعين الصراع الجاحظة، ومسك فيروز العنسي من ذقنه وفمه، وصار الرجل القوي الثمل يتنفس من أنفه وعيناه تكادان تخرجان من الإصرار على الحياة، حتى انقلب من شدة فيروز عليه، وصار فيروز فوق ظهره، وهو لا يزال يخشى أن يستجمع هذا الذي نام ثملًا قواه الشديدة، فوضع ركبتيه على ظهره، وأخذ يرفع الرأس الضخم بآخر ما فيه من قوة وقد انتفضت عروق رقبته، ويحرك هذا الرأس الثقيل المرتكز على رقبة غليظة كرقبة الثور يمينًا ويسارًا وهو يجزُّ على أسنانه، حتى سمع منه نخعة، فترك الرأس من يديه، وقد عرف أن عنقه قد اندق.

قام فيروز من فوقه، والتقط سيفه بأنفاس متلاحقة، ونظر متشفيًا إلى

الرجل النائم على بطنه، الذي لن يهدده ثانية، والذي تحررت ابنة عمه من دنسه. وذهب ناحية الباب، فجرت خلفه آزاد مرعوبة، خائفة من أن يتركها معه، فهي لم تكن قد اطمأنت لمقتله.

دخل الرجلان بعد أن أشار إليهم فيروز ليتقدما، واتفقوا على حز رأسه. ولما اقتربوا منه، تحرك واضطرب بقوة شيطانية، فارتبكوا للحظات قليلة من الهول، ثم جمعهم الغيظ عليه، حتى هي أيضًا، فمسكتْ بشعره، وصعد الاثنان على صدره العريض وهو لا يزال يقاوم من غير أن يكون حيًا، ومن غير أن يكون ميتًا، ويصدر أصواتًا مخيفة سحيقة كانوا يكتمونها، فأخذ فيروز يذبح رقبته، وانفجر الدم وهو يخور مثل الثور، وظهر طرف لسانه على شفته السفلى، فأعطى وجهه هيئة مضحكة ومخيفة.

وهنا، شعر الحارس الأصيل الأول المتواطئ بأنه سمع صوتًا غريبًا من الداخل، لقد سمع النخعة منذ قليل وتفهَّمها، لكن هذا الصوت الأخير ليس مثل الأصوات السعيدة لشبق النبي التي يعهدها، والتي كان يتسلى بها في وقت الحراسة، فاقترب خطوات قليلة ورمى أذنه ليسمع الرد وسأل بصوت يشوبه القلق: ما هذا؟

فردت عليه آزاد من الداخل: نبيكم يوحى إليه.

الجسر

في فجر الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، من السنة الحادية عشرة للهجرة، وفيما كان أبو بكر يصلي بالمسلمين، أطل النبي عليهم فجأة بعد أن أزاح الستارة التي في حجرة عائشة، وقد كان وجهه في تلك الإطلالة في أبهى صورة له، كأنه قد تعافى من المرض، وابتسم لهم ابتسامة نورانية تشع بالرضا والحنان، والشعور بالعوض، كما يفرح الإنسان بنعمة الزرع البهيج المستقيم على عوده في حقله، الذي استوى من بعد أن أخلص فيه وتعب؛ منظرهم وهم يصلون لله، هو أجمل ما يمتع به عينيه من مناظر الدنيا، وقد أوشك ستار الحياة أن يُرخَى بينهم وبينه.

وما إن وقع عليه بصر أبي بكر وأبصار المسلمين، حتى أخذ أبو بكر يتراجع مسرورًا إذ ظن أن النبي ينوي الخروج ليصلي بهم، وكان أحب شيء إليه هو أن يعود النبي إليهم فيصلي بهم كما كان يصلي، واضطربت قلوب المسلمين في الصفوف فرحًا به، حتى كاد الانفعال يخرجهم من الصلاة؛ فملأ النبي عينيه منهم وهو لايزال يبتسم ابتسامته الصافية العجيبة، وأشار لهم كي يتموا صلاتهم، وأرخى ستر الحجرة.

كان يبدو عليه تحسن واضح، فلم يظن من كانوا عنده أنه التحسن الذي يأتي بين يدي الموت. وقد استبشر وبشَّرهم بمقتل الأسود العنسي على يد فيروز، الذي مات البارحة، بشَّرهم وهو على فراش مرضه على بعد سبعمائة ميل مستقيمة من صنعاء وساحة صنعاء التي ألقوا فيها رأسه. ولم يكن اليمنيون

الوادعون الذين كانوا في هذا الصباح في حقولهم وبيوتهم التي تبعد أكثر من عشرة أميال من القصر قد عرفوا حتى ذلك الوقت خبر رأس الأسود العنسي الذي ألقوه، وما كانوا قد عرفوا أن قلوب جنوده قد زُلزلت ولطموا وجوههم وفروا في كل ناحية وهم يشعرون بالذهول والضياع، ويظنون أن الأمر واسع التدبير، وأن كل الآخرين فيه، وأنه لم يعد هناك شيء يمكن الدفاع عنه بعد مقتل العنسي إلا الحياة، هربوا في كل الطرق في شكل فصائل صغيرة لا يجمعها إلا الخوف والصداقة.

وقد دخل أسامة بن زيد على النبي، وارتاح عندما وجده مفيقًا قادرًا على الكلام، فما كان أسامة ومن معه قادرين على أن يسافروا وهم في قلق على النبي. ودعَّه أسامة بعد ان اطمأن عليه، وخرج إلى المعسكر كي يتحرك بالجيش.

لم يمر وقت طويل على أسامة، وهو يستعد للتحرك باتجاه الشمال، حتى وصله رسول مسرع من أمه أم أيمن يقول له: إن رسول الله يموت فأقبلْ. فأقبل أسامة ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ومن خلفهم الجيش، والدنيا قد اسودت في أعين الجميع.

كان النبي يتألم بشدة وابنته بالقرب منه في بيت عائشة، وقالت فاطمة وقد تفطَّر قلبها على آلام أبيها: وا كرب أباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

ولما بدا أنه أوشك على الموت، أسندته عائشة إليها، وبعد وقت قليل قضاه في استخدام سواك عبدالرحمن بن أبي بكر، وفي وضع يديه في ماء إناء بجانبه ومسْح وجهه بيديه بالماء وهو يعاني من سكرات الموت، انتهى الأمر

بأن رفع إصبعه ونظر تجاه السقف وقال: مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى.

عندما سمع المسلمون للمرة الأولى خبر موت النبي اضطربوا جدًا وتحيروا، وسيطر عليهم الذهول الذي تسببه فجيعة كبرى، فمنهم من ثقلت عليه الحياة ووجد نفسه يغلق عليه بيته لا يريد أن يواسيه أحد أو يواسي أحدًا، ومنهم من وجد نفسه يقف بين الناس يراهم ويسمع منهم لكنه لا يريد أن يقول أي شيء، ومنهم من وجد نفسه من فرط التأثر لا يستطيع أن يحكم عباراته؛ إلا أن أبا بكر هو الوحيد الذي غمَّه النبأ وثقل عليه ورغم هذا ظلت لديه القدرة على أن يوحد الصفوف التي تبلبلت بالخبر، كما توحدت خلفه في الصلوات الأخيرة.

كان الناس في المسجد، وعمر يقف بينهم يهدد بأعلى صوته بقطع أيدي وأرجل هؤلاء الذين يقولون إن الرسول قد مات؛ فهو قد ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وسيرجع كما رجع موسى، فدخل أبو بكر حزينًا صامتًا ولم يكلم أحدًا، ورمى بصره على عمر بن الخطاب ومضى إلى بيت عائشة.

إنه أمامه، النبي، الحبيب، صاحب العمر، الذي تجول معه في موسم الحج من أجل الدعوة لدين الله وأبو لهب يطارده بين المخيمات، ورفيق الغار، ورفيق الهجرة، ورفيق الخطوب والآلام، والوجه البشوش في يوم الفتح، مسجى بثوب. اقترب منه ومال عليه، ورفع الغطاء عن وجهه، وقبَّله وانخرط في البكاء الذي يخرج من أعماقه ويهز عوده النحيف، وقال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها.

وخرج أبو بكر للناس، لهؤلاء الذين تبسم محمد ﷺ وهو يراهم في صلاة الفجر، خرج كي يحميهم من الإحساس البشع الذي غمرهم من جراء الخبر المفجع، الإحساس بالانقطاع؛ فوجد عمر بن الخطاب لا يزال يكلمهم غاضبًا متوعدًا، لا يريد أن يصدق، بل ولا يريد ممن هم حوله أن يصدقوا، كأن هذا يمنع الحقيقة المرة. قال له: اجلس يا عمر. لكن عمر بن الخطاب لم يتوقف عن الكلام، فأعادها عليه، ولم يتوقف كذلك عن الكلام. فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه، فتوجه الناس بأبصارهم إليه. فقال:

أما بعد؛ فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت؛ ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

فانخرط الناس في البكاء عندما سمعوها كأنهم يتامى، وكأنهم يسمعونها لأول مرة، أما عمر بن الخطاب فسقط على الأرض مغشيًا عليه. لقد استطاع أبو بكر بسرعة، ورغم ما هو فيه من غم شديد، أن ينفي عنهم الشعور بالانقطاع الذي غمرهم بهذه المصيبة، وأن يضعهم أمام واجبات العبودية.

لقد كانت خطبته القصيرة الفاعلة جسرًا صنعه بروح أبوية يتحمَّل عبورهم، وعبر عليه الناس من حزن إلى حزن، من حزن قد يفضي إذا أفرطوا فيه إلى الكآبة والإهمال، إلى حزن نبيل يبعث على الانتباه، والغيرة على ما تعب عليه النبي.

لقد كانت هذه الهمة همة إيمان عظيم، وليست كتلك الهمة التي تكون عند أبناء الملوك وهم يشيعون آباءهم إلى مثاويهم الأخيرة، ليتقبلوا الملْك من

بعدهم بحزن وارتياح، هي همة صادقة وطاهرة، مثل همة رجل شمَّر وضرب بالفأس التي تركها أبوه حقل أبيه وهو صامت بعد أن دفنه، ذلك لأن هذه الأرض كانت حياة أبيه، ولا يرضى البوار للتي تركها خضراء، وهو يراه وهو يضرب الأرض على كل شيء فيها.

الزحام على أبي بكر

عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر، يحثون الخطى تجاه سقيفة بني ساعدة، في نهار الاثنين الذي مات فيه النبي، بعد أن وصلت الأخبار بأن الأنصار اجتمعوا هناك من أجل أن يتماسكوا معًا في إعلان خليفة منهم هو سعد بن عبادة، وفي توحيد الصف الأنصاري على هذا الاختيار.

وعلى رغم ما غلب على الثلاثة وهم يمضون مسرعين من الشعور بالمفاجأة والاستياء من هذا الإقصاء للمهاجرين، خاصةً وأن هذا قد حدث والمدينة غريقة في الحزن على النبي الذي مات منذ قليل، إلا أنهم مضوا باتجاه الأنصار بغير يأس، مضوا وهم يتوقعون منهم أن يكونوا كما عرفوهم منذ الهجرة، كرامًا، وأبعد الناس عن الجحود، وأسرع الناس للحق إذا عرفوه، ولهذا لم يفكروا بأن ثلاثة من الرجال فقط لا يكفون في زحام من الأنصار، بل فكروا بأن المنطق السليم الذي يحملونه معهم، وكذلك طبع الأنصار الطيب، كفيلان معًا برد الأمور إلى نصابها.

دخلوا المزرعة التي تتخللها بيوت متفرقة لبني ساعدة والتي تحيط بها بساتينهم، واتجهوا إلى السقيفة التي تتوسَّط المزرعة، وكان الناس يملؤون الرحبة التي أمامها، ومزدحمين عند البئر القريبة منها.

بعد أن وصلوا أخيرًا بخطوات جادة وشقوا طريقهم بين المزدحمين في الخارج، واتجهوا إلى المدخل، أخذ الأنصار الذين يملؤون نواحي السقيفة يتفحصونهم، وقد عرفوا أن ثمة جدالًا وعتابًا سيبدأ؛ والمبرر الذي كان عند

عامة الأنصار الذي كانوا يبررون به لأنفسهم اجتماعهم وانفرادهم بالأمر هو أنه لا حرج في ذلك طالما أن النبي مات من دون أن يحدد من يحكم من بعده.

ولما وصلوا إلى القاعة التي بها يجلس رؤوس الأنصار، ومن خلفهم يتزاحم الناس بأكتافهم، كان يبدو للوهلة الأولى أن هؤلاء الأنصار في السقيفة على وفاق تام في الرأي، ولكن في الحقيقة أن هؤلاء كانوا مختلفين، رغم المكان الواحد الذي يجمعهم، ورغم الفكرة الأساسية البسيطة التي تجمعهم وهي أن النبي لم يختر الخليفة من فوق منبره باسم صريح فلا بأس بأن يتولوا المهمة، كان القلة منهم من المتصفين بشيء من الجفاء والتعصب قد قادوا الأكثرية من المتسمين باللطف واللين إلى المكان، كان هؤلاء القلة قد جاؤوا إلى هنا والأمر بالنسبة إليهم ليس قابلًا لأي نقاش، بل لديهم استعداد للمطالبة بطرد المهاجرين إن عارضوا بيعة سعد، ذلك لأنهم اعتبروا أن رفض المهاجرين أن يحكم الأنصار بلدهم هو ازدراء للأنصار، وأغلب هؤلاء من عصبة سعد بن عبادة كبيرهم؛ أما الأكثرية فقد كانوا على النقيض من ذلك، جاؤوا وهم يقبلون بهذا الأمر شرط أن يمضي به الآخرون من الأنصار حتى إقناع المهاجرين، جاؤوا وهم يخفون هذا الشرط في صدورهم، ويخفون نيتهم التراجع عن قبوله لو اتضح أن المهاجرين يرفضونه تمامًا، وجاء بعض منهم على سبيل المجاملة، بل ومنهم من جاء من الأوس وهو في قرارة نفسه يتمنى أن لا يحدث ذلك. لم يكن يظهر لهم وهم معًا يزحمون السقيفة اختلافهم في الطبع وفي درجة الإصرار على تنصيب سعد بن عبادة، وكانت هذه الزيارة المفاجئة للمهاجرين الثلاثة هي التي ستعيد كل رجل إلى طبعه.

نظر عمر بن الخطاب، ووجد أحد الرجال ملفوفًا في غطاء بين الناس،

فسأل: من هذا؟

ردوا عليه: سعد بن عبادة.

فقال عمر: ماله؟

قالوا: يوعك. [يعاني من الحمى].

وقد أفسحوا للمهاجرين الثلاثة، فجلسوا بجانب بعضهم بعضًا. وقام خطيب الأنصار وتكلم بعد أن تشهد وأثنى على الله: نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط، وقد دفَّت دافَّة منكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنوا الأمر من دوننا [نحن الكثرة التي نصرت دين الله وأنتم قلة جاءت إلينا، ومع ذلك ينوي هؤلاء القلة الذين ساروا إلينا ونزلوا بيننا أن يستبعدونا من السيادة في عقر دارنا ويخرجونا من أمر الخلافة].

فأراد عمر أن يتكلم، وكان قد أعد حديثًا أعجبه، لكن أبا بكر قال له: على رسلك. وكان أبو بكر لا يريد أن ينعطف الحوار إلى اتجاه خشن بعد مقالة الرجل التي فيها شعور بالتفوق والحنق. وتكلم أبو بكر وهو جالس بين عمر وأبي عبيدة: أما بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم أهله. (ثم أخذ يذكر كل ما نزل في الأنصار وكل ما مدحهم به النبي، فكان كلامه عن الأنصار خير من كلام خطيب الأنصار عن قومه). وإنا والله يا معشر الأنصار ما ننكر فضلكم، ولا بلاءكم في الإسلام، ولا حقكم الواجب علينا. ولكن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط العرب دارًا وأنسابًا.

وأوضح أبو بكر في كلمته مكانة قريش، وأوضح كيف أن العرب الذين آمنوا بمحمد ﷺ لن يعترفوا إلا برجل من قبيلته، ولن يتفهَّموا أي اختيار آخر،

وقد غيَّرت طريقة كلامه نظرة كثير من الأنصار للأمر، فقد كانوا يفكرون في أن هذا الأمير الذي سيكون، هو حاكم المدينة، وهم أصل المدينة، لكن أبا بكر ردَّهم إلى أن الأمير الذي سيكون هو حاكم أمة محمد ﷺ، وهم المهاجرين أصل محمد ﷺ.

قام الحباب بن المنذر من الأنصار بعد هذه الكلمات ليجعل الفريقين على قدم المساواة، فقال بعد أن أكَّد على خبرته وحسن رأيه وعلاجه للأمور والنزاعات: منا أمير، ومنكم أمير. فإنا والله ما ننفس عليكم هذا الأمر، ولكنا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم [يأتي من يحكمنا من قريش في أجيال أخرى من ليس مثلكم في الدين، فيضطهدنا بذكرى هزائم آبائهم القرشيين يوم أن كانوا يحاربون الدين].

وما إن قال ذلك، حتى ارتفع اللغط بين مؤيد لهذا التراجع في الموقف الأنصاري وبين معارض، لكنهم كانوا ينظرون في وجوه المهاجرين الثلاثة بعد أن سمعوا مقالة الحباب، فعرفوا أنهم لم يتأثروا بعرض الحباب، ولا يريدون إلا أن تكون الخلافة في قريش بشكل واضح. فقام خطيب الأنصار، وهو يرغب في أن يرضَى المهاجرون باقتسام السلطة ولا يسعوا لأكثر من ذلك، وقال: إن رسول الله كان إذا استعمل رجلًا منكم، قرنه برجل منا؛ فتبايعوا على ذلك.

فقام عمر بن الخطاب وقال: (هيهات، لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمرهم فيهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين؛ فمن ذا ينازعنا سلطان محمد ﷺ

وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة!).

فقام رجل أنصاري بعرض جديد: إذن أولًا نختار رجلًا من المهاجرين، وإذا مات اخترنا رجلًا من الأنصار، فإذا مات اخترنا رجلًا من المهاجرين، كذلك أبدًا. فيكون أجدر أن يشفق القرشي إذا زاغ أن ينقض عليه الأنصاري، وكذلك الأنصاري إذا زاغ أن ينقض عليه القرشي.

وهذا التنازل الذي بدأه بكلمة (أولًا)، يعني أن خليفة محمد ﷺ الذي يمكن أن يتم اختياره بعد قليل سيكون من المهاجرين، ومع هذا لم تظهر أي علامة رضا على وجه الثلاثة؛ فارتفع الصوت بسبب شعور بعض الأنصار بالاستفزاز من التراجع الذي لا يكف، والذي لا يكفي المهاجرين في نفس الوقت، فتكلم أبو عبيدة بهدوء، وبكلمات عاطفية قليلة مؤثرة: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بَدّل وَغيَّر.

وقد تأثر الكثير من الأنصار بتلك الكلمات، حتى بدؤوا ينصحون الذين يشعرون بالاستفزاز بالهدوء والحلم، وقام بشير بن سعد وهو رجل كبير في السن وقال: يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل بذلك، ولا نبتغي به من الدنيا عرضًا، فإن الله ولي النعمة، وولي المنة علينا بذلك، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في هذا الأمر أبدًا، فاتقوا الله، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وقام أسيد بن حضير زعيم الأوس من بعده ودعا الأنصار بلهجة هادئة

لترك الأمر لقريش، فشعر سعد بن عبادة بأن كل شيء قد انهار. وتدخل من بعده أبو بكر بنظرة ذكية تعتمد على القرآن، فقال: إن الله سمانا الصادقين، وسماكم المفلحين؛ مشيرًا إلى الآيات: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ثم أكمل كلامه وقال: وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا، فقال في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ثم ذكَّرهم بأن الرسول قد أوصى بالأنصار خيرًا قبل موته، وأوصى أن من تولى أمر المسلمين فعليه أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، فكيف يوصي بهم إلا إن كان الخليفة ليس منهم؟.

كان الأنصار قد هدؤوا وظهر على كثيرين منهم أنهم مالوا إلى أن هذا الأمر ليس فيهم بعد أن سمعوا ما قاله أبو بكر. فقال لهم: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم.

ومسك بيد عمر ويد أبي عبيدة؛ وقد شعر عمر بخطورة ما ختم به خطبته، فهو أهون عليه أن يُضرب عنقه على أن يكون أميرًا على قوم فيهم أبو بكر، وظهر على أبي عبيدة أنه يأبى ذلك تمامًا أيضًا. وقد ظهر أبو بكر للأنصار في خاتمة كلامه بترشيحه للاثنين كما عرفوه دائمًا، رجلًا متجردًا كيِّسًا، يتكلم بالدين ومصلحة الدين حتى وهو يتكلم عن قريش.

فقال عمر: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ فاستعاذوا بالله من ذلك.

فقال عمر لأبي بكر: أبسط يدك يا أبا بكر. فبسطها أبو بكر، فبايعه عمر، فأخذ الأنصار يسرعون إلى أبي بكر وأياديهم تسبقهم كي يبايعوه.

وقد أخذ سعد بن عبادة وهو في إجهاد الحمى الشديد ينظر بخجل للناس الذين اجتمعوا له اليوم وهم ينصرفون من حوله، وتملَّك منه الغيظ لأنهم كانوا يؤكدون له منذ قليل جدًا أنهم معه، ثم ها هم الآن يتزاحمون على أبي بكر من أجل مبايعته. وشعر بالحنق على المهاجرين الثلاثة بدون أن يتهمهم بالظلم؛ فقط كان يراهم قياسيين تمامًا ومبدئيين في مطلبهم؛ بحيث أنهم حتى لم يراعوا جرحه ويمنحوه من تلقاء أنفسهم شيئًا فخريًا يداري به حرجه ويبيِّض وجهه أمام أهله، فهذه الأمور ليست في بالهم وهم يقررون مصير الحكم، وأقصى ما حصل عليه هو أن أبا بكر كان مترفقًا به على عكس عمر الذي كان مغتاظًا منه ويعامله على أنه هو الذي وضع نفسه في هذا المأزق وكاد يتسبب في بلبلة.

تمت البيعة في السقيفة، وهكذا صنع أبو بكر، ومعه عمر وأبو عبيدة، جسرًا عبرت عليه جماعة الأنصار إلى الأبد إلى قبول أن تكون الخلافة في المهاجرين، ولم يرجعوا عن هذا الجسر البتة. وهذا الزحام على أبي بكر من الرجال الذين كانوا يملؤون السقيفة والرحبة التي أمامها قد أعلن انتهاء أول خلاف بين المسلمين بعد محمد ﷺ في ساعة واحدة من النهار، بفضل سلامة قلوب الأنصار وإيثارهم.

كان كل ما دار في هذا النهار منذ أن اجتمع الأنصار في سقيفتهم وإلى أن بويع أبو بكر، يؤكد ما أكدت عليه أيام النبي الأخيرة التي لم يسمع فيها أحد منه أبدًا اسم خليفة، فاجتماع عددٍ كبيرٍ من الأنصار من أجل اختيار خليفة منهم، كأنه لا يوجد شيء يبطل هذا، ثم مجيء الثلاثة المهاجرين ونجاحهم

في تغيير قناعة الأنصار، إلى واحدٍ منهم هو أبو بكر، كأنه لا يوجد شيء يبطل هذا، ثم هذه اللحظات الصعبة التي مرَّ بها سعد بن عبادة وهو ينظر لأهل السقيفة المتجمهرين على أبي بكر، وهو لا يعرف على الإطلاق شيئًا قاله النبي فيفحم به الآخرين وهو يقول لأبي بكر: لا لي ولا لك، ويبطل به تلك البيعة، لأنه لو يعرف رجلًا آخر من المهاجرين غير أبي بكر قد أوصى له محمد ﷺ ما اجتمع هو والأنصار أصلًا من أجل اختيار خليفة منهم، وما جاء هؤلاء الثلاثة؛ هذه الدائرة المقفلة في قصة اختيار الخليفة، ليس من المعقول أن تكون نقطة المركز فيها وصيةً في الخلافة أوصى بها محمد ﷺ وتواطأ المهاجرون والأنصار على محوها، بما فيهم سعد بن عبادة الذي حزَّ في نفسه أن يتحول الناس عنه.

جدران الحزن الأربعة

كان جثمان النبي أمام علي بن أبي طالب، ويغمره وجود الجثمان بالولاء الشديد، فهو بين يديه دون شيوخ المهاجرين والأنصار، وقد جعله هذا، وبحزنٍ وقور، وبغير أي نظرة خيالية للأمجاد، يزداد ترجيحًا لكون الناس في الخارج سيختارونه في هدوءٍ خلفًا للرسول بعد أن يواروه الثرى.

أثناء هذه الطمأنينة الحزينة، وهو لايريد أن يقابل أحدًا أو ينشغل بأحد عن تجهيز النبي، وفيما كان الحزن يكاد يفتك بفاطمة بنت محمد ﷺ من داخلها وقد فاض على وجهها وعينيها أكثر مما ظهر على لسانها، للدرجة التي جعلت أقاربها الذين جاؤوا يواسونها يشعرون بخوف شديد على حياتها من هول ما يرون عليها من آلام، ويشعرون بشيء يشبه تأنيب الضمير من كونهم أحياء بينما النبي قد مات، جاء إلى بيت علي وفاطمة، المواجه لبيت عائشة، خبر بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، فأصابه الوجوم من الخبر الذي سيق لهما جملة واحدة، وصدم من أن تتم البيعة بتجاهل تام لهم هكذا، كأنه لا شأن لهم بمن يخلف محمدًا ﷺ، ولكنه انشغل عن وجومه بما هو أصعب، انشغل بالأثر شديد السوء للخبر على فاطمة، التي شعرت كامرأة تحب أباها النبي حبًا هائلًا بقسوةِ أن تتحرك الحياة بالناس اليوم، أن يسارعوا إلى اختيار خلف لأبيها بعد ساعات قليلة من موته، وشعرت بقسوةٍ في أن تطيب نفس صاحب أبيها وأحب الناس إليه بذلك، فيقبل حركة الحياة من بعده بهذه السرعة؛ كان حزنها النسائي وهو في أوجه في الساعات الأولى قد صرف نظرها عن ضرورة الإسراع في اختيار خليفة يقي الناس الفتن والمنازعات في بيئة عربية تتربص بالمدينة.

وقد استفهم علي بن أبي طالب بهدوء وصوت خفيض عما حدث بعد أن بذل جهدًا لم يكلل بالنجاح في تهدئة خاطر زوجته، وفهم ما فعله الأنصار، ولكن ظل يوجعه أن يسارع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ويتخطوه، ويذهبوا ويحسموا الأمر بدون أن يتحدثوا إليه وإلى أهل البيت، وظل يوجعه أن هذا الإسراع قد جدد أحزان زوجته التي لا تطيق دنيا لا ترى فيها أباها، وظل يشعر أنه مكبل لا يقدر على الحركة إلا في تلك الأذرع القليلة بين فاطمة والجثمان، ولا يقدر على أن يخلِّف الاثنين من ورائه ويخرج ويسأل عن حقوق آل محمد ﷺ.

و قد جاءه خبر آخر بعد قليل وهو في معاناته أن بالغد سيكون هناك بيعة عامة في المسجد، هنا على بعد خطوات من دار فاطمة، فتمنى من شدة إشفاقه على فاطمة أن تتحسن من هنا إلى الغد، أو لا يأتي هذا الغد أبدًا.

لم يكن هذا كل ما عانى منه بين بيعة السقيفة والبيعة القادمة، فقد ضايقه في هذه الساعات بين البيعتين قليل من الناس من بني عبد مناف، إذ حاول البعض منهم تأليب مواجعه بنبرة متعصبة، وبعضهم بالغ في مواساته بشأن الخلافة كأنه قد وقعت عليه نكبة لن يقوم منها، فصار مضغوطًا حليمًا بين جدران الحزن الأربعة التي تحيط به: قلب فاطمة الذي يكاد ينفطر، وغيظ الأقارب، وتجاوز أبي بكر وعمر له، وجثمان النبي.

نظر علي بن أبي طالب في الأمر في هذه الساعات بين البيعتين رغم كل الضغوط المربكة، وهو متمسك بالحلم والأدب والتواضع، متمسك بها مع كل من دفعهم الحب والفضول كي يذهبوا إليه ليعرفوا كيف يرى الأمر، فيزيدون ما يشعر به من ضغط، ومتمسك بها مع الأقارب ذوي الشيبة، الذين يدور

كلامهم كله حول أن الحق في هذا الأمر في بني عبد مناف، ولا يصح أن يكون في تيم عشيرة أبي بكر، وكان كلامهم يزيده إحباطًا، ويشككه في الفكرة التي عنده، فكرة أحقيته في الخلافة، فهم يتكلمون بأيدٍ ترتعش من الغضب في أوزان البيوت، ولا يتكلمون في أوزان الرجال؛ وهذا التزمت عندهم في الدفاع عن فكرة حق الحكم استنادًا للنبوة لم يشعر أنه يشبه ما يشعر به، فالجاه الدنيوي أرخص عنده من نعله، بينما هم يفكرون في الأمر بعقلية عربية مكية متشربة برؤى ما قبل البعثة، وكذلك فإنهم لا يبدون في نظره ولو اجتمعوا في وزن أبي بكر الذي لا يقبلونه، ولا يشغلهم حفظ الدين معشار ما يشغله.

في هذه الساعات بين البيعتين، استطاع بصعوبة أن يفلت عدة مرات من الضغوط التي تحيط به وتعوقه عن التفكير بحرية، كل مرة كانت لا تزيد عن دقيقتين يختطفهما ثم يعود حليمًا لمن يريدون منه أن يسمعهم جيدًا، أو كي يواسي فاطمة، أو يجلس ويربت على أبنائه الصغار الأربعة الباكين على جدهم، كان يتنحى بنفسه في كل مرة ويكلمها بطريقة صريحة وهادئة وعاقلة، مرة يقول لها إن أبا بكر أفضل مني، ومرة يذكرها بأنه صاحب الهجرة وأنه ثاني اثنين، ومرة يذكرها بأن الرسول لم يوص بالولاية له، ومرة يقول لها كان الرسول يرى موضعي وموضع أبي بكر عندما اختاره ليؤم الناس في الصلاة، ومرة يقول لها إن انفعال هؤلاء الأهل مؤقت.

في يوم الثلاثاء، وقت الفجر جلس أبو بكر على الدرجة الأولى من الدرجات الثلاث من منبر محمد ﷺ، مستعدًا للبيعة العامة، وفيه حنين إلى الرسول الذي كان يقف هنا من خلفه على الدرجة الثالثة ويخطب، وفيه إحساس بالمسئولية تجاه الأمة التي تركها الرسول من خلفه، يجلس على الدرجة

الأولى، بين الحنين والمسؤولية، بين النبي الراحل والأمة.

أبو بكر في جلسته، بينما يقف عمر بجانبه بطوله الفارع، ولحظات مرت ثم خطب عمر في الناس: أيها الناس، إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت مما وجدت في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إليَّ رسول الله، ولكنني كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا؛ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه.

فقام أبو بكر، وتزاحم عليه الناس يبايعونه. وبعد هذا، أخذ عمر يدفع أبا بكر كي يصعد الدرجات الثلاث ويخطب فيهم. ومن فوق المنبر خطب أبو بكر: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

وعندما سمع علي بتقاطُر الناس على أبي بكر من أجل البيعة، ظن أن الله لن يجمع كل هؤلاء إلا على خير بعد محمد ﷺ؛ ولأنه يذكر جيداً تحذير النبي: من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية، ويذكر أيضًا قوله: من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتة جاهلية؛ من أجل هذا، استل نصل إيمانه على الفور، وذبح به فكرة أحقية بني

هاشم ومن ثم أحقيته بالخلافة، وهو لم يكن قد كرهها، وأخذ ينظر مجهدًا في دمائها وهي تسيل من وجدانه. لقد قتلها فيه، بدون أن يستأذن فاطمة التي يخاف أن يزيد على أحزانها ذرة من الحزن، وبدون أن يستأذن شيوخ العشيرة، الذين فيهم من ربت على كتفه مشفقًا عليه مما جرى، وفيهم من عايره وحرَّضه كأنه قد خاف وقصَّر في حقوق العشيرة، وهو يظن أن هؤلاء الرجال جميعًا سيقبلون بالخليفة خلال أيام قليلة. لقد قتلها فيه، ولم يهمه بعد أن قتلها أن تحتاج إلى فترة ما كي تتحلل تمامًا ولا يبقى لها أي أثر، فهذا لا يملك الإنسان حيلة معه، ولا يحاسبه الله عليه، وإنسان مثله، تأخذ معه الأشياء التي قتلها أقل الوقت كي تتحلل.

كان قد حسم أمره تمامًا بعد أن بايع الناس ولم يتلكؤوا على أن الخليفة لن يجد منه إلا النصح والطاعة والدعاء والعون، وحسم أمره على أن يعلن له ذلك ثم يعود لبيته وامرأته في هدوء. وشعر بأن عليه أن يؤدي هذا بسرعة سلامةً لنفسه عند الله، تقوى لله وليس تقية من أبي بكر أو الناس.

وحرص علي بن أبي طالب على أن يذهب إليه بعد أن يمضي الناس؛ كي لا يكون في جملة من مدوا أيديهم وبايعوا ومضوا، فقد أحس أنهم تجاهلوه في الأمر عندما ذهبوا إلى السقيفة بدونه وجعلوه رجلًا من العامة لا أكثر، لذا أراد أن يمد يده إلى أبي بكر، ولكن لا تكون هذه المصافحة أبدًا مصافحة سريعة بين الرجال فيمضي من بعدها كي يفسح الطريق للأيادي الكثيرة في قلب الصخب، لأنه لو فعل ذلك سيكون قد اتفق مع الثلاثة في أنه ليس أكثر من رجل يعيش على هامش المدينة، وغير هذا فهو يريد أن يتكلم قبل أن يمد يده، يريد أن يقول إن مثله، وآخرون أيضًا مثل العباس عم محمد ﷺ والزبير بن

العوام ابن عمة محمد ﷺ، ما كان يجب أن يتخطوهم وجثمان النبي بينهم، ويتموا البيعة من دونهم وهم عترة الرسول؛ يريد أن يعاتب أولًا؛ لأنه لا يرضى أن يصافح وفي نفسه شيء.

بعد وقت من الخطبة، اقترب الشاب ابن الواحد والثلاثين عامًا، علي بن أبي طالب، من الشيخ صاحب الواحد والستين عامًا، الخليفة، ولقد كان أبو بكر ينظر له وهو قادم إليه برفق وتقدير، وثبات أيضًا، فهو صادق تمامًا في فهم ذاته، فلا يغشها ولا يجلدها، يعرف نفسه شيخًا ناضجًا أكرمه الله بولاية لم يتمنَّها في ساعة من الليل أو النهار، لكنه يؤمن في ذات الوقت بأنه يمتلك أسبابها ولا فخر، وليس لديه اعتذار عن حصوله عليها. وقد كان علي بن أبي طالب ينظر له وهو متجه إليه بحب واحترام، وثبات أيضًا، فهو يعلم عن نفسه أنه لم يكن يطلب مجدًا فانيًا، ويعلم أن مثله لا يتهمه عاقل مثل أبي بكر بالحسد.

ذلك الستار

دخل أبو بكر بيت عائشة في يوم الثلاثاء نفسه يوم البيعة، وكان فيه عند جثمان النبي علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، والفضل وقثم ابنا العباس، وأسامة بن زيد، وشقران خادم النبي، وكانوا قد غسلوه وكفنوه في ثلاثة أثواب، ووقفوا يتشاورون فيما بينهم في موضع دفنه، واختلفوا في ذلك، فقال لهم أبو بكر: سمعت رسول الله يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض؛ فرُفع فراشه وحُفر في موضعه، ثم دخل الناس تباعًا للصلاة عليه. وبعد انتهاء الصلاة، دفنوه وقد دخلت ليلة الأربعاء.

وعندما رأت فاطمة أنس بن مالك خادم النبي الذي صار شابًا في العشرين، خارجًا من بيت عائشة مهمومًا يشعر باليتم وعلى ثوبه ويديه غبار الدفن، قالت له: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟

فجف حلقه، ولم يقل أي شيء.

وفي اليوم الثالث من موت النبي، أمر أبو بكر رجلًا أن ينادي في الناس: ألا لا يبيتنَّ في المدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف؛ فامتثل الناس ومضوا إلى الجرف وهم متعجبون من شدة تمسكه بالمضي فيما أراد النبي في هذه الظروف المخيفة وهذا التوقيت المرعب، وعدم اعتداده بالهواجس التي تسيطر عليهم، ووجهه الذي ليس فيه أي شائبة من آثار التردد. وما كانوا يظنون أنه سيفعل هذا أبدًا، وما كانوا يظنون أن فيه قوة كانت خافية عنهم سيقودهم بها هذا الرجل المعروف باللين والرأفة، فعما قليل سيصل خبر

وفاة النبي المدوي إلى أحياء العرب المختلفة، ولا شيء بعد هذا يمكن توقعه على وجه الدقة، لا يعلمون من يبقى على العهد، ولا يعلمون من يعلن عصيانه وشماتته، ولا يعلمون من يمكن أن يذهب به الفرح إلى أبعد من ذلك فيطمع في المدينة نفسها بعد أن مات قائدها.

بعد خمسة أيام من موت النبي، ذهبت فاطمة إلى أبي بكر وهو جالس بالمسجد، من أجل أن تطلب ميراثها من النبي، مما أفاء الله عليه بالمدينة، وفدك، وما بقي من خُمس خيبر. وقد كان حزنها ضاريًا كما هو، لم تحمل منه الأيام القليلة شيئًا. ولم يكن يهمها في أخذ الميراث امتلاك ثروة كبيرة، ولم يكن عندها شهوة للمال والتنعم، فهي تأدبت وقنعت في بيت النبي الزاهد، وخرجت منه إلى بيت الإمام الزاهد، وتعرف دعاء أبيها: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا، ولا تزال تذكر أنها طلبت من أبيها خادمة تخدم في بيتها، واشتكت له وقالت: طحنتُ حتى مجلت يداي، فلم يجبها إلى طلبها، وفضلَّ أن ينفق على جوعى المسلمين على أن يوفر لها أسباب الراحة في بيتها؛ وبخلاف كل هذا فهي تعلم شيئًا عن مصير أسرتها لا يستقيم معه طول الأمل ولا حب الأنعام والحرث، فهي تعلم مما تنبأ به النبي أن ابنها الحسين سيموت شهيدًا مقتولًا، وزوجها علي سيموت كذلك، وتعلم أنها أسرع أهل محمد ﷺ لحاقًا به.

إنها تطلب الميراث حتى تنتفع مباشرة من غلة الأرض، لا أن يصلها نصيبها من يد أبي بكر الخليفة شبيهًا بأعطية حاكم، فلدى بنت محمد ﷺ من الإباء ما يجعلها تكره ذلك، ولا تقبل أن يعولها ويعول أبناءها إلا رجلان، أحدهما أبوها النبي الذي مات، والآخر هو علي. وكانت تريد أن تصنع في أرض فدك مثلما صنع أبوها، فتأخذ قوت بيتها الذي يكفيهم، وتخرج ما كان النبي يخرج في سبيل الله، تريد أن ترثه هي وزوجها في العمل الصالح.

كانت كزوجة تحب أن يختار الناس عليًا كي يخلف أباها فيهم، ولما لم يفعلوا، أرادت بكل حب وولاء أن تجعل عليًا يخلف أباها في الأرض الموروثة، كان هكذا الأمر عندها: هناك أرض أنا أملكها، وأنا بنت الرسول أجعله فيما أملك خليفة للرسول.

فقال أبو بكر ردًا على طلبها الميراث من وراء الستار الذي بينهما في المسجد: إن رسول الله ﷺ قال: لا نورث؛ ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال.

فاندهشت فاطمة، لأن عالمها الخاص الذي ورثته من أبيها، وتريد أن تجعل من علي بن أبي طالب خلفًا لأبيها عليه، وتطيب خاطره به وتواسيه، يقول أبو بكر إنه لا وجود له، لا وجود له على الإطلاق. إنها لم تكن سمعت بقول أبيها هذا عن أن الأنبياء لا يورثون، وشعرت بصدمة من جوابه الجاهز، الذي لم يسبقه تمهيد يحتاجه مثلها عندما يقال لها لا.

هي لم تكن تظن أنها ستعود بغير موافقته السريعة، فهي بنت النبي الذي مات منذ أيام، وهذا الذي رفض هو صاحبه وحبيبه وخليفته، وهي في هذه الأيام الصعبة عليها يسرع إليها الشعور بقسوة الناس، حتى وإن حثوا على أبيها التراب. وجادلت قليلًا، وهو يستمع بعذاب إلى الأنَّة التي تصدر منها بين الكلمات، حتى تقطَّع قلبه وكره الخلافة التي جلبت عليه هذا الموقف، فهو لم يكن يحمل أي همٍّ لأن يأتيه العباس يطلب ثلاثة أثمان الميراث فيرده بحديث النبي، رغم إجلاله لعم النبي، ولا يحمل همًّا لأن تأتيه زوجات النبي معًا يطلبن ثُمن الميراث، رغم أن بينهن ابنته وابنة عمر، أما فاطمة، فالأمر أكثر صعوبة، وأشد مرارة.

وقد كان الجدال صعباً عليها كما يصعب على كل من يتمتعون بنفس حساسة عندما يضطرون للدفاع عن طلبهم المرفوض مرة ثانية، حتى تملَّك منها الشعور بالجرح والغضب، وانساب الحزن النازف في صوتها وهي تتماسك عن البكاء؛ فهي لم تتمرَّن على أن لا يقدِّر أحد حزنها، ولم تعتد من الأب الحنون إلا على النبرة اللطيفة المرخاة، ولم يكن يغيِّرها على أبيها ولو قليلًا أن يرفض لها طلبًا، فروحاهما متفاهمتان وبينهما ود جليل وصافٍ؛ أما أبو بكر فقد كان في ورطة حقيقية أرهقته وهو في مقتبل الخلافة، فهذه التي يفصلها عنه الستار أثقل الناس وزنًا عنده في هذه الدنيا بعد أبيها، وهو الشيخ الذي يفصله عنها ستار يخاف أن يزيغ عن هدي أبيها ولو شيئًا قليلًا؛ وقد توتَّر أبو بكر بين ما يخاف وما يكره، يخاف أن يضل عن طريق الحق، ويكره أن فاطمة بنت محمد ﷺ، أغلى الناس وبنت أغلى الناس، تمر عليه لأول مرة بعد أن صار خليفةً لأبيها في أمر لا يستطيع أن يقبله، لأنه عازم على أن يتبع الرسول في كل أمره.

ولم يكن يدري وهو يرد عليها أن التوتر الذي غشاه قد ترك على نبرته رغمًا عنه شيئًا مما فيه من حدة؛ لأنه كان في ضغط وجودها المهيب المجلل بالحزن وهي ابنة النبي، وقلبها سريع الإدماء هكذا، يستميت في اتباع أمر النبي ولا يريد أن يغير شيئًا مما تركه مهما كانت الضغوط.

وبالقليل الذي بقي فيها من قدرة على الطلب، وكانت روحها تنزف من الغضب والحياء، طلبت ما بدا لها ضروريًا ومعقولًا، وما يجب أن يوافق عليه، فعرضت أن يقوم علي بن أبي طالب على الأرض بما كان يقوم به النبي، تمامًا كما كان يفعل ويقسم، فيكون هو القيِّم عليها وليس الخليفة، وعندئذ يكون أبو بكر لم يبعد عن هدي النبي خطوة واحدة، فالعبرة بالصنع والقسمة في هذه

الأموال، لا بمن يصنع ويقسم؛ وفي نظرها أن هذا ليس فيه أي حرج على أبي بكر، ولم يعد له من بعده حجة؛ نحن لن نتصرف في الأرض، ولكن نتصرف في الغلة بنفس الطريقة التي كانت للرسول. لكنه فاجأها بأنه لايقبل ذلك أيضًا، فقد قال لها وهو متشبث بالنجاة رغم الألم الذي يعتصره: إني والله، لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهده، ولأعملنَّ فيها بما عمل به رسول الله.

ومضت فاطمة بنت محمد ﷺ بعيدًا عن الستار وهي غاضبة عليه، وكان الشيخ يتألم كثيرًا وهي تفارق المكان، ألمًا لا ندم فيه. وهذا الوجع الذي فاح بين يديه منذ قليل عند الستار، ما جال بخاطره أن الناس سيبقونه حيًا للأبد بعد أن ترحل فاطمة ويرحل، وكذلك بعد أن يرحل كل الطيبين بغير أن يتركوا دراهم في بيوتهم؛ وما جال بخاطره أن الناس سيقفون غاضبين عند مكانه ومكانها من الستار، بينما لا أحد فيهم قد جرَّب قلبه نفس الورع الذي كان عنده حتى يعرف لماذا رفض يوم أن رفض، ولا أحد فيهم قد ذاق مثل حزن فاطمة حتى يتفهَّم لماذا غضبت يوم أن غضبت.

إنه وجع إنساني عمره من عمر من توجَّع، ولا يجب أن يحيا هذا الوجع الإنساني بعد من توجَّع، إنه وجع لا صحف مخبوءة له، وليس له رموز خفية ومقدسة، وهو من ناحية أخرى لا يعود إلى حب العقار، ولا يعود إلى حب الرئاسة، يعود فقط إلى شيء واحد لا غير، إلى عاطفة الحب الشديد تجاه محمد ﷺ، فقط الحب الشديد تجاه محمد ﷺ.

هذا الستار الحاجز بين فاطمة وأبي بكر، فصلَ بين نوعين من الحب الفائق نالهما محمد ﷺ في الدنيا وتمتع بهما، فحب أبي بكر الشديد لمحمد

ﷺ هو حب إفساح، مثل حب خديجة أم فاطمة لمحمد ﷺ، حب يقوم على طلب راحة محمد ﷺ ورضاه، والتضحية بلا حدود من أجله، وإنكار الذات بين يديه؛ وبسبب هذه الروح كان أبو بكر الشيخ الناضج يفسح بنفس طيبة في مجلس النبي كي يجلس العباس بجوار النبي بدلًا منه، أو علي الذي يصغره بثلاثين عامًا، فهو لا يشعر بأي حزن من اهتمام محمد ﷺ بالآخرين؛ أما من يحب محمدًا ﷺ منذ أن كان صغيرًا، وترعرع في لطفه وحنانه، مثل فاطمة وعائشة وعلي، وقد كانت تمثلهم من الناحية الأخرى من الستار منذ قليل ابنته فاطمة، يتأجج فيه حب من نوع آخر، حب يقوم على التعلق، حب فيه مسحة إنسانية محببة من الغيرة، يجعل المحب مستمرًا في بذل الجهد من أجل الحصول على المزيد والمزيد من عناية محمد ﷺ ومن الحظوة عند محمد ﷺ، ومن التأكيد على نصيبه العاطفي الكبير منه، حتى بعد أن مات.

الخرافة التي لم يطلقها أحد

تجمع صبيان من المدينة عند باب المسجد، ينظرون إلى أبي بكر وحوله جماعة من الصحابة يكلمونه، وعلى وجوه الأطفال قلق بشأن ما التقطوه من كلام الأهل في البيوت هذه الأيام ولا يفهمونه جيدًا، وهم هنا لأنهم يعرفون أن أبا بكر هذا، صاحب النبي، صار مسؤولًا عن حماية الجميع؛ ويتمنون لو سمعوا ما يقال هناك بين أبي بكر والرجال؛ كي يفهموا ما يدور في العالم، وكي يستعدوا لما يمكن أن يحدث؛ وكانوا أثناء مراقبتهم للجلسة يتبادلون فيما بينهم أشتاتًا من الكلام المخيف الذي تناهى إلى أسماعهم عن أن المدينة صارت مهددة.

كانت الأخبار التي أخذت تصل إلى المدينة تباعًا من بلاد العرب القريبة محبطة، بل مرعبة، هذا بخلاف ما ظهر على أعين من تفضحهم عيونهم من بقايا المنافقين في الداخل من استهتار وسعادة كأنهم صاروا مطمئنين إلى أن نهاية هذا الدين قد قربت كثيرًا، وأن العقد من الزمان الذي مكث فيه محمد ﷺ هنا، سوف يذهب العرب بكل آثاره عما قريب. لم يعد هناك الآن في بلاد العرب إلا مساجد قليلة جدًا تقام فيها صلاة الجمعة، فقد ارتدت بعض القبائل عن الإسلام تمامًا، وازدادت حماسة بني حنيفة خلف مسيلمة، وقد أيده الرجَّال بن عنفوة وارتد عن الإسلام، وقد انفك رباط الخوف الذي كان يربط بين أبي هريرة وفرات بن حيان، بعد أن عرفا بردة الرجَّال، وأنه هو صاحب الضرس الأعظم من جبل أحد في النار؛ وكذلك ازداد جمع الأعراب الذين بايعوا طليحة، وهناك أنباء لم تتأكد بعد عن تأييد عيينة بن حصن له، وأعلنت

بعض القبائل أنها على الإسلام لكن لا أحد له عليها ولاية بعد محمد ﷺ، أما بعض العشائر فلا يزال موقفها يكتنفه الغموض، ويبدو أنها تنتظر حتى تقرأ ما سيبدو على المدينة من قوة أو ضعف.

والصحابة الذين يراهم الصبيان متجمعين حول أبي بكر، كانوا يحاولون بكل هدوء إقناعه بالتراجع عن إخراج جيش أسامة، قالوا له: إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين. وظل أبو بكر راسخًا جدًا في موقفه، لا يقبل حتى أن يؤجل خروج الجيش لما بعد ذلك، كما لو كان لا يفهم الخطر الذي يتكلم عنه كل هؤلاء وكل أهل المدينة بلا استثناء. وبعد قليل، اتجه الصحابة إلى باب المسجد، فأفسح لهم الصبيان وهم يشعرون بقلق لأنهم لا يجدون على وجوه الصحابة المقبلين أي علامات انفراج.

واتسع كلام الناس فيما بينهم في أنحاء المدينة عن إصراره العجيب على هذا البعث، وصاروا ينظرون إلى هذا البعث الذي سيخلي المدينة من حجم معتبر من قوتها الضاربة على أنه مغامرة قد يتحطم فيها مجتمع المدينة ولا تقوم له قائمة.

البقية الباقية من المنافقين، وبخاصة الذين لم تتدهور قدرتهم على الكتمان منهم، أخذوا ينضمون إلى أي تجمع للناس ويمدون أعناقهم فيه، ويستمعون بأسى مفتعل لهؤلاء الذين يعبرون عن شعورهم البالغ بالقلق، ويهزون رؤوسهم بحسرة عند الذين يتكلمون في كل مكان في المدينة عن إصرار أبي بكر على المخاطرة بإخراج الجيش.

وكان من هؤلاء المنافقين من يتمنى في كل مرة أن يخطر على بال واحد

من هؤلاء القلقين المستائين أن يبدأ في التأليب على أبي بكر ويطرح خلافته التي لم يمر عليها سوى أيام قليلة للنقاش في جلسة جانبية، ويطلب عزله من أجل نجاة المدينة، فتتفشى الفكرة الجريئة بين الناس، فلا يستطيع أبو بكر أن يفعل حيالها شيئًا، لكن هذا التأليب على الخليفة لم يحدث البتة؛ فهؤلاء المسلمون الذين يتخافتون عنه في الطرقات والأندية، كان يبدو لهم في عمق هذه الصلابة في كامل النظافة والاستقامة، بريئًا من التجبر، كما كان يبدو دائمًا.

وكان من هؤلاء المنافقين من ذهب به الخيال بعيدًا، فتمنى أن تظهر في هذه الأيام دعوى ما بأن محمدًا ﷺ قد أوصى بالخلافة لرجل آخر غير أبي بكر، صادقة كانت أو مكذوبة، مقنعة كانت أو سخيفة، فينظر المسلمون فيها في هذه الأجواء، فيتمسك بها جماعة منهم للتخلص من أبي بكر الذي لم يهمه الدفاع عن المدينة بقدر ما أهمه اتباع ما أمر به محمد ﷺ، لكن المنافقين لم يسمعوا إلى ذلك الوقت أي دعوى من هذا النوع على الإطلاق، وإن ظلوا يتمنون أن يختلقها أحد ما، لعل الوضع يتفجَّر.

بعد عدة محاولات تطوع فيها البعض من الصحابة بالتعبير لأبي بكر عن خوفه وخوف من حوله، اتفق جماعة منهم على أن مهمة إقناع أبي بكر تقع على عاتق عمر بن الخطاب، فكلموه، بل وكلمه أيضًا أسامة بن زيد نفسه قائد الجيش، الذي صار مقتنعًا تمامًا بأنه لا بد أن يمكث هو ومن معه؛ ولم يعد يؤمن بأهمية خروج هذا الجيش إلا أبو بكر وحده، مستندًا على شيء واحد فقط وهو أن الرسول أوصى بذلك وشدد على هذا قبل أن يموت.

أرسل أسامة عمر بن الخطاب إلى أبي بكر كي يقول له: إن معي وجوه

المسلمين وجلتهم، ولا آمن على خليفة رسول الله، وحرم رسول الله، والمسلمين أن يتخطفهم المشركون.

وبلَّغ عمر أبا بكر الرسالة، ولكن أبا بكر لم يتزحزح عن موقفه، ولم يصبه الإحباط من كونها جاءت من قائد الجيش نفسه. واستمر أبو بكر بعد رسالة أسامة في تحمل ضغوط عدد من المحاولات المتتالية، بدون أن يشعر بأي إرهاق أو شك من أنه وحيد في هذا العالم فيما يرى.

وكان المنافقون يقفون بحذر على بعض جلسات أبي بكر، دون أن يتكلموا، فقط يتأملون بحقد هذه الصلابة الغريبة، وهم لا يزالون يأملون في أن يخرج رجل ما في أيام الفرصة هذه بدعوى الوصية التي ضيعها أبو بكر بالاتفاق مع عمر بن الخطاب الذي أخذه معه إلى السقيفة، هذا وهم يعلمون بحقد بالغ وصريح أن أبا بكر في الحقيقة لا يمكن أن يكون قد أخذ شيئًا يعلم أن محمدًا ﷺ جعله لغيره، فأن يتمسك بإنفاذ البعث وهو في أيام خلافته الأولى الصعبة وضد رغبة جموع الأنصار والمهاجرين الذين بايعوه، فقط من أجل ما أمر به محمد ﷺ، يجبرهم على الاعتراف لأنفسهم بأن الشيخ الصلب، والأمين على ما تركه محمد ﷺ، لا يمكن أن يخالف وصية أوصى بها نبيه الذي رحل أبدًا؛ هكذا حدَّث المنافقون أنفسهم.

وفي النهاية دعا أبو بكر الصحابة لاجتماع، لأنه لا يريد من أحد أن يكلمه في هذا الأمر مرة أخرى. وظهر عمر بن الخطاب في هذا الاجتماع واحدًا من المتشددين بكل صراحة في رفض خروج الجيش، الذين بيَّنوا لأبي بكر أن الأعراب بالجوار، قد يدخلونها من أقطارها بأعداد هائلة، ويهينون أهلها، وينهبون ثمارها، ويتخطفون النساء سبايا على مقربة من قبر الرسول. وانفض

الاجتماع رغم كل هذه الضغوط بدون أن يتزحزح، وبدون أن يتزحزحوا؛ وقد ظهر لهم أن أبا بكر الذي يعرفون تقواه، ويعرفون لين جانبه، ويعرفون صدقه، يمتلك شيئًا آخر لم يظهر جليًا إلا بالخلافة: يمتلك عزمًا شبيهًا بعزم الرسل.

وقد دعاهم من بعد ذلك لاجتماع آخر في المسجد، قال لهم فيه بكل وضوح: والله لا أحل لواءً عقده رسول الله ﷺ؛ والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله، ولو لم يبق في المدينة أحد غيري لأنفذته.

انقاد المسلمون أخيرًا لإصراره على خروج الجيش، لكن بقي لدى فصيل منهم حاجة للكلام بشأن إمارة الجيش، للمرة الثانية، فالتف جماعة من الأنصار حول عمر بن الخطاب، وألحوا عليه أن ينفرد بأبي بكر ويكلمه كي يختار رجلًا أكبر سنًا من أسامة للقيادة. وكان رجال من المنافقين القادرين على إخفاء ما فيهم جيدًا، قد أظهروا تأييدًا وإلحاحًا على هذا الطلب بين جمهرة الذين يضغطون من أجل استبدال أسامة، ووقفوا ينتظرون النتيجة مع المنتظرين، وقد أوشكوا على الوصول لليأس من أن يظهر رجل يدَّعي أي شيء.

وذهب عمر برأي الأنصار إلى أبي بكر، وقال له: إن الأنصار تطلب رجلًا أقدم سنًا من أسامة.

أما أبو بكر، فتغيرت ملامح وجهه في لحظة كأنه سمع كارثة، وقام مرة واحدة، ومسك عمر من لحيته وقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه!

انصرف عمر من أمامه وهو يضبط لحيته التي تألم من شد أبي بكر لها،

وكان الناس ينتظرونه خارجًا، يظنون أن هذا الطلب يجاب بلا شك، فالتفوا حول عمر أول ما خرج وقالوا: ما صنعت؟

فأخذ يصرفهم بيده عنه وهو متكدر ويقول: امضوا ثكلتكم أمهاتكم. ما لقيت في سببكم اليوم من خليفة رسول الله.

تأسف الأنصار من النتيجة، وتأسف المنافقون وهم يقفون بينهم لسبب آخر، فلو كان عمر بن الخطاب يعرف أن النبي قد استعمل عليًا على المسلمين من بعده وجعل له الولاية، ما كلَّمه أبو بكر على ذلك النحو، ولكان له رد آخر إن مسك أبو بكر لحيته وقال له: استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه!

هذا غضب رجل ليس بينه وبين عمر خائنة في استعمال محمد ﷺ. إذن لم يعد بإمكان إنسان يحيا هنا ويرى الرجلين ويعيش الحدث أن يطلق الآن الخرافة المطلوبة.

وقد جاء البشير راكبًا من اليمن إلى أبي بكر، ووصل إليه في آخر ربيع الأول، بمثل ما جاء به بشيرٌ آخر لمحمد ﷺ ليلة موته، جاء بخبر مقتل العنسي على يد فيروز ومن معه، جاءه كأنه مكافأة له على ما بدا عليه من إصرار وإيمان، مصحوبًا بأخبار عن بعض الاضطرابات المتوقعة، فكتب أبو بكر لأهل اليمن على الفور: (أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدُّوا معه، فإني قد وليته).

حمل الرسول الرسالة وطواها، رسالة تولية فيروز، التي ستفجِّر فيما بعد أحقاد قيس بن مكشوح الذي كان ينتظر شيئًا آخر.

في أول ربيع الآخر، كان أسامة يتحرك بفرسه، والجيش من ورائه، وأبو

بكر الخليفة يمشي على قدميه بجانبه، وهو ينوي أن يمضي معهم قليلًا باتجاه الشمال على سبيل التوديع ورفع الهمم، فشعر أسامة بعد خطوات قليلة بالحرج من أن يكون راكبًا وخليفة المسلمين بجواره ماشيًا، فقال: ياخليفة رسول الله، والله لتركبنَّ أو لأنزلنَّ؟

فقال له أبو بكر بنفس سمحة: والله لا تنزل، ووالله لا أركب.. وما عليَّ أن أغبر قدميَّ في سبيل الله ساعة؟

وبعد ذلك التفت أبو بكر خلفه، ونادى في الجيش: يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني، فوقفوا يستمعون إليه، وكان عمر بن الخطاب بجواره، هذا بعد أن طلب من أسامة أن يسمح له بالعودة معه إلى المدينة كي يعينه. وأكمل أبو بكر كلامه: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب [جماعات من الرهبان المقاتلين الملكانيين]، فاخفقوهم بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله.

الأرض كافرة

عيون الأطفال مليئة بالحذر والضيق، وهم ذاهبون في صحبة أمهاتهم تجاه حصون المدينة، ويودعون من بعيد آباءهم المتجمعين عند المسجد ومعهم أسلحتهم ويشيرون إلى بعض المواضع، ويقترحون فيما بينهم بعض التحصينات. وقد بدأ الأطفال يظنون أن سنوات طفولتهم القادمة كلها ستضيع في بؤس الحروب الآتية والغارات على المدينة، وأن شواربهم ستنبت طفلاً وراء الآخر، فيقفون جميعًا في النهاية على الطرقات والمعابر بجانب آبائهم، بنفس سحنات البالغين المهمومة، من أجل الدفاع عن مدينة الرسول المهددة.

وجوه أهل المدينة الآن لا تشبه وجوههم عندما كانوا من حول محمد ﷺ في الأيام السعيدة في طريقهم إلى الحج، عندما كانوا ينزلون الأودية فيملؤونها، لقد صار فيها أثر الصدمة من جحود الناس. كانوا يظنون في تلك الأيام أن العرب أصبحوا فريقين: فريق المسلمين، وفريق الذين أوشكوا على الإسلام. لقد مات محمد ﷺ، وكان خبر وفاته هو أسرع خبر تناقله العرب بين أحيائهم حزنًا وفرحًا، تسابقوا في نقله إلى الأحياء القريبة منهم بالشهوة التي ينقل بها الناس الأخبار العظيمة، بأسرع الخيول وأسرع الهجن، وما إن يتلقاه حي حتى يركض به رجال منه إلى من حولهم، وهكذا أخذ خبر الوفاة يندفع بالسرعة القصوى، بالليل والنهار، حتى وصل إلى بلاد العرب النائية في زمن لم يتحقق لنبأ من أنباء العرب من قبل.

لقد مات محمد ﷺ وطار الخبر، واكتشف أهل المدينة أن الحلقة

الضخمة من الناس الذين تحلَّقوا حوله كان فيها كثير من المشاهدين، أما المسلمون حقًا فهم قلة، قلة كُتِب عليهم أن يحرسوا الحلقة، بينما يستعد المشاهدون الآن للعصف بهؤلاء الحراس.

لقد صار الجرح أكثر وضوحًا بعد أن تحرك جيش أسامة منذ أيام قليلة، وكانوا يتمنون إلى ذلك الوقت أن يكون هذا الجرح وهمًا، لكن الوجوه قد التقت بالوجوه، ولم يعد الأمر أخبارًا تصل بآفات الأخبار، فقد جاءت وفود كثيرة من العرب إلى المدينة، من أسد وغطفان وطيء، ومن عبس وذبيان، وقدموا واجب العزاء فيمن هو نبيهم بلهجة رسمية خالية من الإحساس، وكان هذا الوجه البارد الذي جاؤوا به أول الصدمة.

نزلوا في ضيافة أثرياء المدينة الذين استقبلوهم استقبالًا طيبًا وبذلوا جهدًا لإخفاء شعورهم بالغيظ من ضيوفهم القساة المراوغين الذين يظهر عليهم مكر ولا مبالاة من يستعدون للمساومة. لم يضيع الضيوف وقتهم، أخذوا يرسلون ساداتهم للتحدث مع أبي بكر، ومع من لهم بهم صلات وثيقة من شيوخ المدينة، تحدثوا مباشرة بشأن الزكاة، وقالوا صراحةً إنه لم يعد من المناسب أن يدفعوها لأحد بعد محمد ﷺ، وقالوا إن المشركين من حولهم عندما كان يعايرونهم بدفعها، كانوا يدافعون عن أنفسهم بأنهم يؤدونها لمن بعثه الله، ولن يستطيعوا تحمل المزيد من المعايرة بعد موت من بعثه الله، لذا فعلى أبي بكر أن يقبلهم ويقبل منهم إسلامهم هكذا بدون هذه الإتاوة التي لن تطيب لها نفوسهم، وأن عليه أن لا يقلق بشأن الفقراء في كل حي، فكل حي يعالج هذا الأمر من خلال أكابره وأثريائه.

وفي أمسية رقيقة تجْمع بعض سادة المدينة، وفيها سيدان من سادة

الوفود، الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن بوجهه الساخط بفعل الشلل، نظر عيينة إلى الأقرع الذي يجلس أمامه، وهزا رأسيهما هزة خفيفة، إيذانًا بشيء ما مُتفق عليه، فمال عيينة على سيد من سادات الأنصار، ميلة تبدو كأنها لرجل حكيم ربما يريد أن يخمد فتنة، واهتم الرجل به ومال عليه هو أيضًا، فقال له عيينة إنه لا يرضيه أن تقع عداوة على المال بين المدينة والقبائل بعد موت الرسول، ولديه اقتراح يظن أنه أفضل ما يكون، فازداد ميل السيد الأنصاري عليه وأظهر اهتمامًا بالغًا، فقال له عيينة بصوت ليس فيه أي حرج: قد ارتد عامة مَن ورائنا عن الإسلام، وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدون إلى رسول الله. فهز الأنصاري رأسه يحثه على إكمال ما عنده، فأشار بذقنه للأقرع بن حابس ثم قال: فإن تجعلوا لنا جعلًا نرجع فنكفيكم مَن وراءنا [ادفعوا لي وللأقرع أجرًا مقابل أن نصرف عنكم خطر الممتنعين عن أداء الزكاة].

وقد حمل بعض الأنصار والمهاجرين العرض الوقح إلى أبي بكر، بعد أن عرضوا عليه أن يكون هذا مؤقتًا لحين عودة أسامة، فقال: أما أنا، فأرى أن ننبذ إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن لا نرشوا على الإسلام أحدًا.

كثير من الأخبار التي تصل إلى المدينة وتلف في بيوتها ومجالسها بعد أن عرف العرب كلهم خبر الوفاة هي أخبار سيئة، وفوق طاقتهم على الاحتمال؛ نعم عرفوا أن أهل نجران ظلوا على العهد، وبعثوا يجددونه مع أبي بكر، ونعم عرفوا بثبات أهل البلدتين مكة والطائف، ونعم عرفوا من خبر مبكر من حضرموت أن زياد بن لبيد، الحاكم بالإنابة هناك، نعى الرسول للناس أول ما

وصله الخبر، وأخذهم بالبيعة لأبي بكر، وقد وقفت معه بعض العشائر وأحاطت به وتمسكت بدينها، وبدا يقظًا ومهيبًا، وأظهر شدته وسطوته مع من ارتاب منهم، وأظهر أنه لن يتهاون وسيمارس عمله بغير أن يرتبك أو يتملق للقوى المحلية التي من المؤكد أنها تشعر بأن أبا بكر بعيد، ولديه جبال من الهموم؛ لكن في مقابل حضرموت ثمة قرى عربية قفز منها أمراء محمد ﷺ بعيدًا في الساعات الأولى من نبأ الوفاة كأن الأرض قد صارت جمرًا من تحتهم، ولم يجدوا حظًا مثل حظ زياد.

ومن الأخبار السيئة التي طافت بالمدينة أخبار المنطقة ما بين مكة واليمن، فقد ارتدت جماعة من عكّ والأشعريين، وأقاموا على الأعلاب، وخرج على أمير مكة عتاب بن أسيد بعض المرتدين من كنانة ومدلج وخزاعة في تهامة بزعامة جندب بن سلمى، وخرج على أمير الطائف عثمان بن أبي العاص جماعات من المرتدين في شنوءة من الأزد وبجيلة وخثعم بزعامة حميضة بن النعمان، وخرجت جماعة من بجيلة على جرير بن عبدالله البجلي.

وقد كان يسعى إلى أهل المدينة وقتها في الطريق خبر آخر غير سار من إقليم البحرين [من قطر إلى البصرة وعاصمته الإحساء]، يحمله الرجل التقيُّ العلاء بن الحضرمي الذي أرسله النبي ليفقههم في الدين: قد مات المنذر بن ساوى ملك البحرين المسلم بعد وفاة النبي بأيام، فارتد أهل البحرين أول ما سمعوا خبر الوفاة؛ وها هو ذا عامل محمد ﷺ يقطع الطريق الطويل فارًا متألمًا. ومن عُمان، كان عمرو بن العاص يقطع الطريق الطويل هو أيضًا، ومعه خطاب من جيفر حاكم عمان، أن الناس قد ارتدوا بعد أن سمعوا بنبأ وفاة الرسول، واتبعوا رجلًا ادعى النبوة يقال له: ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي، وقد تغلب

ذو التاج عليه وعلى أخيه عباد، وفرا منه إلى الأطراف بين الجبال والبحار.

وكان أهل المدينة مندهشين مما يشعرون به من جحود الناس، وغير قادرين على فهم عدم تعلق هؤلاء بمحمد ﷺ مثلما تعلقوا هم به، وكان لديهم في هذه الأيام الصعبة الأولى الغفلة التي تكون عند المتميز، حينما يجهل النقص الحقيقي الذي يعاني منه الآخرون، فلا يتوقع منهم ما يرى، فقد كان الفارق واضحًا جدًا بين مجتمع المدينة وتلك المجتمعات العربية البعيدة التي ليست في جوار المدينة، أو حتى ليست في جوار مكة، فمحمد ﷺ مكث هنا مدة طويلة يعلم ويربِّي ويؤدب، أما الآخرون فلم ينالوا شيئًا يذكر من ذلك؛ فرجال الوفود الذين أرسلتهم أغلب العشائر إلى محمد ﷺ، كانوا الكبار الذين يمثلون العشيرة في أي لقاء دنيوي بحت، وجاؤوا تقريبًا بنفس الروح التي يذهبون بها إلى شيوخ قبائل عظيمة من أجل إبرام المعاهدات، ولم يتم تعزيز هذه الوفود الراقية برجال بسطاء مهمَّشين يظهر عليهم استعداد لتلقي الفضائل الدينية والروحية من أجل الدعوة إليها فيما بعد؛ لذا جاء الأكابر وبايعوا وعادوا لأهلهم كي يقدموا بالقليل من الحماس انطباعات سريعة عن الدين الجديد؛ هذا في مجمل الأمر ما تقوله الجغرافيا الإيمانية، لكن بالطبع ظل هناك في قلب المدينة نفسها منافقون يتمنون أن تأتي حركة الردة على الإسلام من جذوره، وظل هناك في المناطق الأشد نأيًا رجال في قمة الإيمان بما جاء به محمد ﷺ.

ولم تكن قلة الارتواء الإيماني وحدها ما أعاق العرب عن أن يتحولوا من حال المشاهدة إلى حال الحراسة ويتذوقوا طعم الإيمان؛ فقد كان لدى العرب مشكلة أخرى غير هذا الجفاف الديني، وغير التحاسد القبلي أيضًا، مشكلة مع

موضوع سنوات عمر الرجل النابغ الذي يستحق أن يشهدوا له بالحكمة إن تكلم بالحكمة، قِدم الفرد كان لا يقل أهمية عن أخلاقه في جعل التعاليم التي أتى بها مقبولة تنفتح لها الآذان شبه الصماء والقلوب الغلف، لذا كانوا يبالغون في أعمار الحكماء ويرفعونها إلى أرقام خرافية، فالرجل الحكيم الملهم هو في مخيلة العربي رجل معمَّر، رجل أكبر سنًا من كل الذين يحيطون به، رجل معمَّر مرت عليه سنوات طويلة يعظ الناس ويخطب فيهم حتى سلموا له قلوبهم وعظَّموه، ولا أحد يضايقه على الإطلاق، حتى أن كثيرًا ممن يستمعون إليه خرجوا إلى الدنيا ووجدوه هكذا، بشيبته وتجاعيد وجهه وحكمته وصوته العريق؛ هذا هو الحكيم الملهم في أذهان العرب، تعطيه الشيخوخة هيئة خلابة بين الواقع والرمز.

أما محمد ﷺ، فقد ظهر ولفت العرب منذ أن فتح مكة، كما لم يظهر أحد، وتضاعف اهتمام الناس بالقرآن الذي نزل عليه، وبأخباره ونبوءاته وانتصاراته، وأخلاقه الطيبة؛ وفي عقلهم الباطن ظنوا أن أمامهم ما لايقل عن أربعين سنة من متابعة أخباره وأخبار وحيه، حتى يطابق الرجل الحكيم الملهم العجيب الذي في عقولهم، الرجل الآسر الأصيل، الجدير بأن لا يختلف الناس عليه وأن لا يضايقوه، ويكون أغلب العرب الذين ينصتون إليه وقتئذ قد خرجوا إلى الدنيا وهو موجود هكذا.

لكن محمدًا ﷺ فاجأهم بالموت بعد فتح مكة بعامين فقط، أي بعد فترة قصيرة من بداية اهتمام الناس الشديد به؛ وقد مات يوم أن مات عن ثلاث وستين سنة، لذا ظهر موته في مثل أعمار الناس معبرًا في فكرهم البسيط عن نوع من عدم التوفيق، خاصة وأن نبوءات الفتوح الجليلة لم تتحقق في حياته.

ومن ناحية أخرى كان لدى بعض العرب مشكلة ثقافية مع الإسلام، ومع درجة توغله في حياة الناس، ولم تكن ردتهم موجهة لفكرة التوحيد، فقد كسب الإسلام في هذه الجولة تمامًا، وعرَّى لهم السذاجة التي كانوا يعيشون فيها تحت ظلال الأصنام وفكرة تعدد الآلهة؛ كل ما في الأمر أن كثيرين منهم كانوا يرغبون في أن يتحول الإسلام هذا إلى دين أقل كلفة، ليس من ناحية الزكاة فقط، ولكن من كل ناحية، بحيث يبدو أنه من بعد أن حطَّم أصنام الجاهلية التي عبدها آباؤهم صالحَ تلك الجاهلية الثكلى ورضي بأن يترك لها آدابها وأنسابها وذوقها العام.

وها هي ذي الوفود التي جاءت قد أظهر لها أبو بكر في ختام الضيافة الثقيلة رفضًا تامًا وحاسمًا لطلبها، وقرأ بما يعرفه من طبائع الناس الغدرَ في صفحة وجوههم وفي التفاتاتهم. ولما كان الصحابة المقربون يسألونه عما يفكر فيه، وهم يريدون تحديدًا أن يستفسروا عما ينوي عليه كي يدافع عن المدينة إن أحدقت بها الأخطار، وجدوه يؤكد لهم بغير أي تردد أنه ينوي قتال كل الممتنعين عن أداء الزكاة، من أتى كي يتفاوض بشأنها ومن لم يأت.

الرأي العام في المدينة كان ينظر إلى أبي بكر كأنه يتشدد في أمر الزكاة في وقت لا يحتاج إلى التشدد، والحقيقة أن دفع الزكاة بخلاف قيمته الدينية هو الشيء الأبرز الذي يؤكد على وجود دولة مسلمة تسأل أجزاءها وترتبط بها بعلاقة جدية، والتوقف عن توريد هذه الزكاوات هو بمثابة سقوط لها، ولن يكون لها وجود بعد هذا إلا في أذهان قادة المدينة.

وتناقش معه عمر بشأن مانعي الزكاة، وكان يرى أن الناس بحاجة إلى نوع من السياسة حتى يألفوا الدين والدولة، فقال له: إذا منعك العرب الزكاة فاصبر عليهم.

فغضب أبو بكر وقال له: والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة.

قال له عمر: ومع من تقاتلهم؟

فرد عليه: والذي نفسي بيده لو لم يبق في القرى غيري لقاتلتهم بمفردي.

قال عمر: يا خليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم؛ فإنهم اليوم بمنزلة الوحش.

فانفعل أبو بكر عليه وقال: رجوت نصرتك، وجئتني بخذلانك! أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام؟! بماذا أتألفهم، بشعر مفتعل، أو بسحر مفترى؟! هيهات هيهات مضى النبي وانقطع الوحي، وتم الدين، أَوَ ينقص وأنا حي؟!

وقد عاد عمر لمناقشته مرة ثانية وقال له يا أبا بكر، كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى)؟!

فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها.

وهنا تأكد عمر وهو يسمع هذا الكلام من أبي بكر، ويرى في وجهه نور اليقين، أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرف أن هذا هو الحق، ووافقه عليه.

وبعد أن خرجت الوفود من المدينة بدون أي ود متبادل، جعل أبو بكر على الممرات إلى المدينة التي تكون بين الجبال حراسات بقيادة علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود، ثم رجع للمسلمين الذين كانوا في انتظاره في المسجد، وقال: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلًا تؤتون أم نهارًا، وأدناهم منكم على بريد [اثنا عشر ميلًا]، وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم فاستعدوا وأعدوا.

حصان الجاهلية

الحراس على الممرات الجبلية إلى المدينة في كامل اليقظة، وكذلك على أجناب المدينة، والخليفة الناضج الذكي مستيقظ يتفقد الناس وأحوالهم، يمضي ثابتًا بعوده النحيف وهو يعلم حقيقتين عن الصراع القادم الذي ليس لديه أوهام فيه، يعلم أنه صراع لن يدخل فيه وسيط في أي وقت كي يحجز بينهم وبين القوم، ويعلم أنه صراع لا يمكن فيه القبول بحل وسط بين الفريقين، لذا لا بد من نصر ساحق، عنيف، لا يؤجل شيئًا للأجيال القادمة، ويفصل عربة العرب للأبد عن حصان الجاهلية.

لم يدخر أبو بكر القوى التي بحوزة المدينة لأيام أخرى، فسارع وبعث إلى القبائل القريبة التي ثبتت على الإسلام رسائل كي يجهادوا معه أهل الردة، بعث إلى أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وكعب. وبعد ثلاثة أيام من ذهاب الوفود، وأثناء الحراسة الليلية على أحد الممرات الجبلية إلى المدينة، انتبه الحراس إلى سرية قادمة في هدوء، تقصد دخول المدينة وأهلها نائمون، فأرسلوا واحدًا منهم يخبر أبا بكر، فعاد بعد قليل إلى الحرس يخبرهم بأمر أبي بكر بأن يلزموا أماكنهم، وأنه قادم الآن مع أهل المدينة لمطاردة هؤلاء المهاجمين. ولم يمر وقت طويل، وقد كان المتسللون يمضون إلى الأمام بدون أي جلبة، حتى ظهر المسلمون أمامهم في الظلام مرة واحدة على إبلهم، فاضطرب المهاجمون من المفاجأة وتراجعوا فزعين، حتى وصلوا بدون أن يتوقفوا لحظة إلى منطقة ذي حسى جهة شرق المدينة التي جاؤوا منها، حيث كانت تعسكر هناك سرايا للمرتدين من خلف أصحابهم المتقدمين إلى المدينة.

وعندما رأى القابعون هناك أن أصدقاءهم قادمون ومن ورائهم ورطة، أفسحوا لهم كي يمروا من بينهم، وأغاثوهم بأن ألقوا بقرب منفوخة، ودحرجوها بأرجلهم كي ترعب إبل المسلمين، وقد كان أغلبها إبلًا تنقل الماء وليس عندها خبرة بمكر القتال، ففزعت من منظر القرب التي تبدو لها ككائنات حياة غريبة تركض بشجاعة تجاه قوائمها، فاستدارت بغير إذن أصحابها، وحملتهم إلى المدينة مرة أخرى وهم غير قادرين على السيطرة عليها.

وسعد المهاجمون بهذه النهاية التي أوحت إليهم بأن قوة المدينة متواضعة وأن أفكار المسلمين مضطربة بسبب ما يشعرون به من أزمة، فأرسلوا إلى أهل ذي القصة من المرتدين، يبشرونهم بتهافت حالة المدينة، ويدعونهم للإقبال عليهم بسرعة من أجل اقتحامها ووضع نهاية لهذه الدولة وهي في هذه الحالة من الضعف، فجاؤوا مسرعين وهم في غاية التفاؤل والطمع. واجتمعوا بأصحابهم في ظلمة الليل، واطمأنوا منهم إلى أن المدينة ستنهار بغارة واحدة لا غير، ولن يبقى فيها إلا بعض العجائز، وبقية الدواب التي ستسير في الطرقات وحدها بعد أن مات أصحابها أو أُسِروا؛ ولأن الأمر ليس أكثر من غارة شديدة تجتاح الطرقات ينتهي بعدها كل شيء، رأوا أنه لا بأس من بعض الراحة، فوضعوا رؤوسهم على الرمال في الهواء العليل تحت النجوم. وعند الفجر، استيقظوا وكأنهم يحلمون في الليلة الزرقاء الآخذة في الذهاب بسيوف المسلمين تعمل فيهم، فأصابهم الذعر، واضطربوا، وأخذوا يقفزون على الخيول بغير تمييز ويهربون إلى جهة الشرق من حيث جاؤوا.

كان أبو بكر يعلم جيدًا أن المنتصر الذي سيكتفي بالقليل من النصر في هذه الحرب التي بدأت سيخسر كل شيء في النهاية، فاختار أن يتوسع في رسم الحقائق على الأرض، لتكون أبلغ في التأثير على المرتدين، فسارع إلى ذي

القصة التي أخلاها الذعر من أصحابها، وترك فيها جماعة من المقاتلين، وصارت تلك المنطقة من مناطق المرتدين منطقة محررة خاضعة لدولة الإسلام.

في ذلك الوقت، كان أحد أبناء إقليم البحرين وهو الجارود بن المعلى يرد جماعات من بني عبد القيس للإسلام، وهو رجل منهم قد جاء إلى المدينة وأسلم عند الرسول وعاد ليدعو قومه. كان موت محمد ﷺ قد جعلهم يشعرون بريبة، فأفهمهم الجارود أن موت الأنبياء مثل محمد ﷺ حق، وأنه ليس من التقصير، وليس فيه شيء من خذلان الله، فنظروا في وجهه الذي يشع بالإيمان واليقين وهو يقرأ لهم شيئًا من القرآن، وتشهدوا وعادوا للإسلام؛ وقد كان هذا يبدو جميلًا وسهلًا، أن تكون الكلمة والعظة هي كل شيء.

لما عاد أبو بكر ومن معه إلى المدينة منتصرين، وصلت إلى المدينة أخبار سيئة: فلول العشائر المنهزمة الهاربة قد رجعوا مغتاظين إلى مساكنهم ونواحيهم، وقتلوا المسلمين المسالمين من أهلهم ردًا على الهزيمة، فالصراع عميق وعنيف بالفعل كما فهم أبو بكر من قبل أن يبدأ، ولا ينفع فيه نصر قليل، فأقسم على الثأر لدماء المسلمين في كل عشيرة.

ورغم قسوة خبر قتلى المسلمين نتيجةً لما فعله أبو بكر بالمرتدين، إلا أن أبا بكر قد وجد نتيجة طيبة في المدينة، فهذا التعامل الصارم مع من زحفوا تجاه المدينة لدرجة تتبعهم أتى أُكُله، حتى أنه قد وصلت إلى المدينة أموال الزكاة من ستة أحياء من أحياء العرب في ليلة واحدة، بعد أن شاهد الناس رأس الذئب الطائر فتعلموا الحكمة. وقد جاء عدي بن حاتم الطائي وقدَّم الزكاة عن عشيرته بنفس طيبة وإيمان خالص، ونبهه أبو بكر إلى المصير الذي ينتظر من يمتنعون عن أداء الزكاة، وينضمون إلى سائر المحاربين للدين، وأرسله كي يحذر الجماعات من أهله التي مالت إلى طليحة بن خويلد، فأشفق

عليهم عدي وأسرع إليهم. وقد وجد أبو بكر أيضًا نتيجة طيبة للرسائل التي أرسلها للقبائل المسلمة التي طلب عونها، فقد ازدحمت المدينة برجال تلك القبائل وبخيولهم وجمالهم، وشعر المسلمون بالأمل والعزوة والعافية.

وكما عاد أبو بكر مظفرًا من سرية ذات السلاسل فسأله رافع الطائي يومها النصيحة، فقال له من ضمن ما قال: لا تؤمَّرنَّ على اثنين، ها قد عاد مظفرًا فوجد رافع الطائي الذي جاء إلى المدينة يقترب إليه في المسجد ويسأله السؤال الذي لم يحب أن يكبته، وصار من الضروري أن يسمع إجابته من هذا الشيخ الذي أحبه، فسأله: ما حملك على أن تلي أمر المسلمين وقد نهيتني أن أتأمر على اثنين؟ فحدثه عما حدث في السقيفة، وكيف بايعوه وقبلها منهم، ثم قال: لم أجد من ذلك بدًا، فقد تخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة.

وقبل أن ينصرم الأسبوع الأول من جمادى الأول، اغتبط المسلمون جدًا واستبشروا بعد أن عاد جيش أسامة موفقًا، بعد أن قام بغارات سريعة مباغتة مثل الأعاصير، وفر المرتدون في قضاعة منه إلى دومة الجندل، ومضى إلى الحمقتين وأكل من في وجهه إلى آبل، ورجع على الفور بالغنائم. وقد ترك انطباعًا مخيفًا في المناطق التي أغار عليها، وفي الأحياء التي مر عليها في الذهاب والعودة.

ترك أبو بكر أسامة ومن معه كي يستريحوا، وأخذ الرجال الذين طاردوا الأعراب معه واتجه إلى الربذة التي فيها المرتدون من عبس وذبيان، وقاتلهم وهزمهم، ففروا منه، وتركوا أرضهم، وتركوا هناك من ورائهم أسيرًا شهيرًا هو الشاعر الحطيئة، فأسكن أبو بكر تلك الأرض بعض المسلمين، وحرَّم دخولها على ذبيان. لقد هربوا إلى بزاخة حيث يعسكر طليحة بن خويلد ومعه قومه بنو أسد، ليصير وحده من وقتها أمل الأعراب في نجد كلها لمحاربة الإسلام.

ولم يمر رجوع بني عبد القيس في البحرين للإسلام على خير، رغم أنه بدا جميلًا وسهلًا أن تكون الكلمة والعظة هي كل شيء، فقد اغتاظ أهل البحرين المصرين على الردة من ذلك، واجتمعوا بزعامة الحطم بن ضبيعة، وردوا الملْك في آل المنذر، إلى المنذر بن النعمان بن المنذر، ويسمى بالغرور، وبذلوا جهدًا في جعل الجارود يرجع عن إسلامه لكنه أبى، فخرج الحطم حتى نزل القطيف وهجر، وحرض من فيهما من أبناء الفرس، ولهم شأن في البحرين أعظم من شأنهم في اليمن، وحرض من لم يسلموا من البدء، وحاصر الجارود ومن معه في جواثا، بتأييد من فارس، لتكون هناك جبهة جديدة للحرب على وشك الاشتعال.

هكذا صارت البحرين تنذر بحرب بين المسلمين والمرتدين، مثلما صارت بزاخة تنذر بالحرب؛ وقد بدأ الصراع يتمطَّى في الجنوب أيضًا، فقد بدأ عمرو بن معد يكرب، الفارس المرعب، الذي جعله العنسي أميره على قبيلة مذحج، يتحرك ساعيًا للوصول إلى السلطة، وكذلك بدأ قيس بن مكشوح يسعى من أجل ذلك، فقد تأجج شعوره بالحقد على حاكم صنعاء فيروز، وقد كان يتوقع أنه هو الحاكم القادم وليس ابن الفرس هذا، ولم تشفع له عنده لحظات الشقاء التي عاشاها معًا في بلاط العنسي.

راسل قيس بن مكشوح ذا الكلاع الحميري وغيره من زعماء القبائل اليمانية، يحرضهم على أبناء الفرس، ويقول إنه يرى أن يقتل رؤساءهم ويطرد الآخرين منهم، لكن هؤلاء الزعماء كانوا يتابعون جولات الانتصار المتتالية للمسلمين، وأيقنوا أنهم سيأتون لمن يقتلون رجالهم بغير شك، فقد كان هذا من أكثر الأشياء التي يؤكد عليها المسلمون بصفحة السيوف، لهذا ردوا علىٰ قيس بأن هذا الأمر لا شأن لهم به. بعد أن تلقىٰ الردود السلبية غيَّر قيس وجهته وراسل

عصابات العنسي العسكرية الخطرة التي بقيت بلا رئيس، وطلب منهم أن يتعاونوا معه في طرد الأبناء من اليمن، وردوا عليه بالموافقة. وبدأت هذه العصابات تقترب من صنعاء، وذاع في أهل صنعاء خبر زحفهم، فأخذوا يتشاورون.

وادعى قيس القلق بشأن زحف محاربي العنسي أمام فيروز وداذويه وجشنش، بعد أن تقمص نفس الشخصية القلقة التي كانت تلجأ إليهم أيام الخوف من العنسي والتآمر عليه، وقد كان قادرًا على إخفاء حنقه وغيظه وكراهيته، ولم يعد من بعد أن ذهب العنسي يخشى من أن يقرأ أحد أفكاره. وانتهى اللقاء بأن دعاهم إلى طعام الغداء في الغد عنده بلهجة ودية وهو يذكرهم بمعاناتهم جميعًا في خدمة الساخط المجنون الذي رحل.

عندما حان موعد الغداء، وكان فيروز في الطريق، وقد سبقه داذويه، سمع فيروز في الطريق امرأتين تقول إحداهما للأخرى: هذا مقتول كما قُتل داذويه. فمضى للأمام قليلًا وقد استيقظت حواسه، فرأى الموت في بعض العيون الغادرة، على جوانب الطريق، فالتف فيروز وركض مذعورًا وحزينًا على صاحبه، وبعد قليل وجد جشنش قادمًا فضربه بيده ليرجع معه، وركضا، بأقصى سرعة، ومن ورائهما فرسان قيس، لكنهما نجيا ووصلا إلى جبل خولان حيث يعيش أخوال فيروز العرب.

وسيطر قيس على صنعاء بمعاونة مقاتلي العنسي الذين كانوا في حاجة إلى رجل حاقد وطموح يعطي لحياتهم معنى، وقد انضم إليه عوام من القبائل، أما الرؤساء فتعلموا مما حدث، ولم يرغبوا في أن يسلموا قيادهم لطاغية آخر. وفور أن اطمأن قيس بن مكشوح لنفسه كحاكم في صنعاء، شرع في التعامل مع الأبناء، فمن لم يظهر عليهم أي انحياز إلى فيروز ولم يفكروا إلا في أنفسهم

تركهم وشأنهم، وأما المحسوبون على فيروز فاتخذ قرارًا بنفيهم من اليمن. والرجل الصلب فيروز لم ييأس، بل سارع في تحريض القبائل التي بقيت على الإسلام من أجل نصرته، فدعمه بنو عقيل والعكيون، بل وعملوا أيضًا على تخليص الأبناء من أيدي الفرسان الذين كلفهم قيس بنفيهم من اليمن، وجمعوا منهم عددًا كبيرًا تحت إمرة فيروز.

خرج أبو بكر إلى ذي القصة ومعه جيوش المسلمين، ليجعل من ذي القصة التي تسترها الجبال بشرق المدينة نقطة انطلاق لرد المرتدين في كل أنحاء الجزيرة كي يضمن أكبر قدر من الكتمان بخصوص أحجام الجيوش واتجاهاتها، وأخذ يقسِّم الجيش هناك إلى ألوية، وقد حرَّك أكثرها في وقت متقارب، فالفكرة البديعة في الحرب في عدة جبهات في وقت واحد، بدلًا من تكوين جيش ضخم يواجه المرتدين جماعة بعد أخرى، أن هذا يشغل كل بلدة بنفسها، ويحرم المرتدين من الوصول إلى فكرة شديدة الخطورة وهي أن يتعاونوا ويعدوا جيشًا واحدًا يواجهون به قوات المدينة.

وقد أرسل أبو بكر حذيفة بن محصن الغلفاني بجيش إلى عمان، وأرسل عرفجة بن هرثمة البارقي بجيش إلى مهرة، وأمرهما بالسير معًا، فيبدآن بعمان فتكون القيادة هناك لحذيفة، ثم من بعد عمان مهرة فتكون القيادة هناك لعرفجة، وكان المطلوب منهما أولًا الوصول، ثم انتظار أوامر أخرى قبل الحرب، فقد كان لا بد من الانتصار أولًا على جبهات أخرى أكثر تهديدًا، وأكثر قربًا.

وأرسل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف بلاد الشام، في نواحي البلقاء حيث مساكن قبيلة كلب، وأرسل عمرو بن العاص إلى دومة الجندل، حيث مساكن قضاعة؛ رغم أنه لم يكن هناك في تلك النواحي بعد بعث

أسامة مظاهر ردة تثير الخوف، ولكن أبا بكر وضع على عاتق القائدَيْن في هذه المهمة الحساسة في الشمال والشمال الغربي تأمين الحدود مع بيزنطة والسعي من أجل الاستعانة بمن يمكن الاستعانة بهم من العرب هناك شيئًا فشيئًا في تكوين جيش، والعمل من خلال العلاقات الطيبة ومن خلال التهديد أيضًا، ومن خلال الوقت، على خلخلة العلاقة بين العرب والبيزنطيين، وإظهار البيزنطيين كأمة لم تعد لديها رغبة في المبادرة والردع؛ ومضى القائدان إلى المهمة التي لا ينتظر أبو بكر أن يسمع عن أدائها أخبارًا سريعة مثل مهام القادة الآخرين.

وقد دفع أبو بكر بخطاب موحد في جميع النواحي كي يقرأه الرسل على الكل، العامة والخاصة، من ظلوا على إسلامهم ومن ارتدوا، يضع فيه كل إنسان أمام مسؤوليته، فإما جعل من نفسه محاربًا أو آمنًا لا شيء عليه، وبيَّن فيه أن النبي بشرٌ قد أدى ما عليه ثم مات، وهذا لا يجيز لأحد التحول عن دينه؛ وجعل الأذان هو علامة الأمان، وأوضح لهم أن ثمة جيشًا قادمًا في كل ناحية يحمل الأمن لمن ثبتوا على الحق أو عادوا إليه، ويحمل الموت والسبي لمن سواهم.

ولم يعتمد أبو بكر فقط على تحريك ألوية من عنده، فبعث إلى الأمراء فيما بين مكة واليمن، الذين لديهم عدد كاف من المقاتلين، كي يقاتلوا أهل الردة حولهم، بعث إلى عتاب بن أسيد، وعثمان بن العاص، وجرير بن عبد الله البجلي، والطاهر بن أبي هالة، والذي كان قد تحرك بالفعل هو ومسروق العكي ولم ينتظر ردًا من أبي بكر، وانتصر على المرتدين وقتلهم قتلًا عظيمًا حتى أنتن الطريق من رائحة جثثهم؛ وكان أبو بكر مهتمًا بأن يتم إغلاق الطريق على اضطرابات اليمن فلا تنسكب باتجاه مكة.

المرأة التي في ظل شجرة شوك

أم زمل الفزارية، ابنة عمة عيينة بن حصن، تجلس في ظل شجرة من أشجار الشوك بجوار خيمتها الكبيرة في بلدها ظَفَر بنجد، تكاد نار الثأر المتأججة فيها تبعث الدخان منها، فقد سمعت بخروج جيش للمسلمين إلى نجد، فصارت تتمنى أن تتطاير الأيام مثل الشرر ثم تسمع بهزيمة ساحقة لهم على يد طليحة بن خويلد. منذ أن وصلتها أخبار الزحف، أكثرت من الجلوس عند باب خيمتها تطعم الطعام، وتنظر إلى الخلاء الواسع، وتنتظر الأخبار، وتسأل المسافرين عن الدماء هل سُفِكت، وكانوا يقولون لها ليس بعد؛ صبرًا.

لم تعد تتوسَّل إلى الدنيا، بحق ما عرفت عنها من غدر، إلا كي تشفي غليلها برؤية النساء المسلمات وزوجات النبي حافيات مقيدات بالسلاسل، وجوههن فاضت بالتعاسة والذل والغبار، ويبعن في أسواق نجد؛ فهي لم ولن تنسى ما جرى على أمها التي حرَّضت على قتل المسلمين في زمن محمد ﷺ، فأغاروا على العشيرة وظفروا بها وقتلوها انتقامًا لقتل رجالهم، وأخذوها هي سبية، وكان من نصيبها أن تكون في بيت عائشة زوجة محمد ﷺ. وقد أعتقتها عائشة بنت أبي بكر لكن الذكرى السوداء لمقتل أمها ولفترة أَسْرها لم تعتقها، فعادت لقومها تحمل جرحًا لا يندمل، وورثت مكانة الأم المبجَّلة، وورثت جملها العظيم الذي كانت تقوده في القتال فيجتمع حوله أشجع الفرسان. ولما سمعت بقرب وقوع الحرب في نجد ما عادت تطيق بطء الأيام، وكرهت الصبر وشقَّت جيبه.

وصل جيش خالد بن الوليد إلى طيء، بينما تحدث عدي بن حاتم الطائي

إلى بني طيء يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام، وأن يعلنوا الولاء لأبي بكر، فقالوا لا نبايع أبا الفصيل أبدًا [الفصيل هو صغير الناقة أول ما يفصل عن أمه، بينما البكر هو الفتى من الإبل، ويقصدون الاستهزاء والتصغير من شأنه]، فقال لهم: والله ليأتينكم جيش، فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا أنه أبو الفحل الأكبر؛ واستمر في تخويفهم حتى رضوا، وطلبوا مهلة حتى يسحبوا إخوانهم من الجيوش التي تدعم طليحة بن خويلد الأسدي، ثلاثة أيام لا أكثر، فعرض عدي الأمر على خالد بن الوليد فرحَّب، وبالفعل طلبوا من طليحة أن يترك إخوانهم بحجة اقتراب جيش من جيوش المسلمين منهم ينوي غزوهم، وهم بحاجة إلى مقاتلي طيء المنضمين إليه، كي يكون لهم جيش ينزل بالمسلمين هزيمة نكراء لا يكون لديهم من بعدها طاقة للزحف تجاه بزاخة، فرحَّب طليحة بذلك. وبعد ذلك همَّ خالد بالذهاب لمقاتلة جديلة، وهمْ من طيء أيضًا، فطلب منه عدي مهلة لهؤلاء كي يتكلم معهم، ونجح عدي بالفعل؛ وبهذا كان وجه خير على أهله الذين نجوا من السيف بفضله، وكان وجه خير على خالد، إذ أعلن له استعداد طيء لتقديم مقاتلين إلى جيشه.

وصلت إلى طليحة أخبار الخدعة التي تعرض لها وانشقاق طيء عنه واستعداد مقاتليهم للانضمام إلى جيش المسلمين، فأصابه الغم وشعر بالتشاؤم، لكنه نظر إلى وجه عيينة الصارم الذي استطاع أن يقنعه بالانضمام إليه والتحمس له، فوجد أنه من الصعب جدًا أن يخذل من صدقوه، وقرر أن يستمر فيما هو فيه ويترك الأمر للحظ الذي كان معه في مواقف شديدة الصعوبة من قبل.

ووصلت من اليمن أخبار إلى أبي بكر أن فيروز قد عاد أميرًا على صنعاء، بعد أن واجه برجاله جيش قيس بالقرب من صنعاء فهزمه هزيمة لم يكن قيس

يتوقعها، وفر قيس هاربًا. وقد بدأ يثور هو وعمرو في أنحاء اليمن ويفسد فيها، إلا أن نجران ظلت على عهدها؛ فأرسل أبو بكر الطاهر بن أبي هالة في جيش ليعزز قوة فيروز في صنعاء.

أما أرض حضرموت الثابتة تحت قدمي زياد بن لبيد فقد كانت تنذر بشيء ما، منذ وفاة محمد ﷺ، ولكن شدة زياد أجَّلت المواجهة، فقد كان هناك مرتدون، فقط ينتظرون لحظةً توحِّدهم، وقد كان هناك وجهاء لم يتقدموا عند زياد ببيعة لأبي بكر، وكل ما قدروا على فعله هو أنهم تجاهلوا ما يدور حولهم، وأبدوا عدم اهتمام بزياد، وهو يشعر بكل ذلك، ولكنه يؤجل المواجهة إلى اللحظة التي يقف فيها رجل ما، مهما كان وزنه، في سبيله وهو يؤدي عمله الذي يؤمن به.

ولم يكن الأشعث بن قيس وهو في مقام ملك شاب من ملوك كندة قد تقدم إلى البيعة لأبي بكر، منذ أن أخبرهم زياد خبر الموت وخبر الخلافة، وكان يصيح باعتراضاته في مجالسه، ولكن بدون أن يقف في طريق زياد. وقد أحس قريبه امرؤ القيس بن عابس الكندي بخطورة ذلك، وهو رجل مسلم، أخذ يذكره بأنه وفد على الرسول، ويذكره بترحيب الرسول بهم، واستحلفه أن لاينقض إسلامه، وأن لا يفسد على الناس رأيهم وهو من ملوك كندة، فيتبعونه فتحدث لهم من جرائه مصيبة، لكن الأشعث أبى وقال: قد رجعت العرب إلى ما كانت الآباء تعبد، ونحن أقصى العرب دارًا من أبي بكر، أيبعث إلينا أبو بكر الجيوش؟

فقال امرؤ القيس: إي والله، وأُخرى: لا يدعك عامل رسول الله ﷺ، ترجع إلى الكفر.

فقال الأشعث: من؟

قال: زياد بن لبيد.

فضحك الأشعث ضحكة عنجهية وكبرياء وقال: أما يرضى زياد أن أُجِيره؟!

فقال امرؤ القيس: سترى!

وأرسل خالد بن الوليد عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم للاستطلاع على جيوش طليحة في بزاخة، وفي الطريق قابلا بالليل فارسًا مهيبًا تمكنا من التغلب عليه وقتله، وانجلت الشمس على وجه قتيل ثمين متكبر قد دعا عليه محمد ﷺ بالقتل، إنه حبال بن خويلد أخو طليحة. وقد جن جنون طليحة وأخ آخر له اسمه سلمة عندما عرفا بمقتل أخيهما، فخرجا يبحثان عن القاتلين، وأقسما ألا يعودا إلا بعد أن يثأرا له، حتى أدركاهما وقتلاهما. وأثناء عودة طليحة بعد أن نال ثأره، كان يشعر بتأنيب الضمير، فهو الذي بعث أخاه إلى المدينة كي يسلم الخطاب إلى محمد ﷺ، وأول ما رجع حبال حكى له يومها وهو لا يبالي أن محمدًا ﷺ دعا عليه بالقتل.

وأثناء زحف جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد باتجاه طليحة ومن معه في بزاخة، ظهر للجنود جثتان، وعندما اقتربوا منهما أصابهم الهم عندما عرفوهما، إنهما عكاشة وثابت، وتأثروا كثيرًا بموت السيدين، فاختار خالد أن يمر بهم على منازل طيء لينضم إليهم مقاتلوهم، فتنتعش نفوسهم وتتعافى من الانقباض الذي حدث لها من مقتل الرجلين، وبالفعل سعد المسلمون بدخولهم فيهم.

وقد طلب الطائيون من خالد أن يترك لهم محاربة قبيلة قيس في قوات

طليحة، واعتذروا عن مواجهة بني أسد لأنهم حلفاؤهم، فوافقهم خالد رغم استياء عدي بن حاتم نفسه، ورأى من الناحية الفنية أن لا يجعلهم في مواجهة جيش ليس في نفوسهم رغبة في محاربته.

وفيما كانت الحرب توشك على الاندلاع في بزاخة، كانت امرأة تميمية حسناء وشديدة النشاط والحماسة، ولديها قدرة على التأثير في الرجال، اسمها سجاح، من نصارى بني تميم، قد أتت من الجزيرة الفراتية بالعراق حيث يعيش أخوالها من تغلب، ومعها جيش من ربيعة والنمر وإياد وشيبان، ويحيط بها جماعة من أخوالها من تغلب، ونزلت منازل بني تميم، وهي قادمة بكل الحماس من أجل الدعوة لمقاتلة أبي بكر، وقد نزلت عندهم وهم مختلفون بشدة حول الوضع الجديد، منهم من يريد أن يظل على التزامه تجاه المدينة، ومنهم من يأبى دفع الزكاة، ويرى أن العهد قد انتهى بموت محمد ﷺ، وقد ازداد الاضطراب بوجودها بين الفريقين. وفجَّرت بينهم دعوى نبوتها، فارتبكوا، حتى هؤلاء الذين كانوا يؤيدونها في الحرب على المدينة، فهذه أول دعوى نبوة من امرأة.

وقد وصلت أخبار طيبة لأبي بكر من أمير مكة وأمير الطائف كذلك، فقد أرسل عتاب بن أسيد أمير مكة جيشًا يقوده أخوه خالد بن أسيد قاتلَ المرتدين في الأبارق في تهامة وأكثر فيهم القتل وفض جمعهم، وأفلت زعيمهم جندب مخزيًا مذعورًا يشعر بالعار؛ ثم ما لبث أن أعلن بالشعر ندمه وإيمانه بالله وحده وعودته للدين. وقد أرسل عثمان بن العاص أمير الطائف عثمان بن ربيعة، فالتقوا بشنوءة فهزموا تلك الجموع وانفضت عن زعيمها حميضة الذي لاذ بالفرار.

بدأ القتال العنيف بين جيش خالد وجيش طليحة، وعيينة بن حصن يقود

جيش طليحة بنفسه، فقد استطاع طليحة الخبير بنفوس الأعراب أن يستخدم الطمع والشح والأحقاد حتى جعل عيينة يقف مثل هذا الموقف بكل حماسة، بينما طليحة في خيمة بعيدة قليلًا عن الميدان قد لف جسده بكساء، وجلس متخذًا وضعية نبي ينتظر الوحي. بعد فترة بان أن جيش خالد يلطم جيش طليحة ويذهب فيه، وبان أن القوات قد تنهار في أي لحظة من الجدية التي يحارب بها المسلمون وهم يهدفون إلى القضاء على أوهام الأعراب في طليحة تمامًا بعد قليل. من أجل هذه الأجواء المخيفة، انسل عيينة إلى نبيه طليحة وهو في حالة قلق شديد، ومع ذلك كان يتمنى أن يكون قد نزل من السماء بشرى، وربما معها شيء من المديح عن شجاعة عيينة وشهامة عيينة، ودخل عليه الخيمة وسأله بوجهه المحنَّط: هل جاءك جبريل؟

فرد عليه طليحة بدون أن ينظر إليه: لا.

فهز السيف في يده قليلًا معبرًا بأدب عن احتجاجه على تأخر الوحي، وتركه وعاد إلى صفوف القتال. بعد قليل، كان الوضع قد ازداد سوءًا، فتراجع عيينة ناحية الخيمة وهو في حالة من الغليان، ودخل الخيمة وقال لنبيه طليحة: لا أبا لك! أجاءك جبريل بعد؟

قال: لا والله.

قال عيينة: حتى متى! قد والله بلغ منا.

رجع عيينة إلى خضم المعركة، فرأى أن جيشه على وشك الفضيحة، وجيش خالد يضرب فيه من كل ناحية كأنه ينفض ثوبًا، فرجع عيينة مرعوبًا ساخطًا إلى طليحة، يريد أي خبر سماوي ينجدهم، ولم يعد به حاجة إلى المديح، وقال لطليحة: هل جاءك جبريل؟

قال طليحة: نعم.

قال عُيينة: فماذا قال لك؟

قال طلحة: إنه قال لي: إن لك رحًا كرحاه، وحديثًا لا تنساه.

فاغتاظ عيينة واحتقر الكلمات التي لا معنى لها، وأيقن أنه كان ضحية وهم خدعه به صديقه الفارس الكاهن، وقال له: قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه. وخرج من الخيمة، ونادى في قومه بصوت بائس وغاضب وجريح: انصرفوا يا بني فزارة، فإنه كذاب!

وقد اغتم طليحة في الداخل وهو يسمع الكلمات الصادقة عنه، وتأهب بخجل لتقديم النصيحة للناس من أهله الذين لن يجدوا غيره حتى بعد أن فعل بهم ما فعل، فآخر ما تفعله أمة بقائد أحبته وأوردها المهالك أن تسأله: ماذا نفعل؟ وقام إلى فرسه، وقد حمل زوجته النوار على بعير، فجاؤوا إليه يسألونه، فوثب على فرسه، وقال لهم: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل. وفر بأهله باتجاه الشام، تاركًا خلفه بني أسد غارقين في وجع الحرب ووجع الخدعة.

تراجع كثير من قوم طليحة وتأسفوا عما حدث، وفي ذات الوقت بقي كثيرون من غير قبيلة طليحة يصرون على القتال رغم هروب من اتبعوه، وتراجعت جماعات منهم بحثًا عن أرض صلبة يقفون عليها، واتفقوا على أن يتجمعوا عند أم زمل، بعد أن وجدوا أنفسهم بلا نبي، فقط بحقدٍ يريدون من أحد أن يتبناه ويوجهه، وآمنوا بأن هذه المرأة التي ينسحبون باتجاهها فيها من الإصرار والغلِّ ما لم يكن عند كذاب بني أسد.

وفي تلك الفترة كان عكرمة بن أبي جهل الذي شارف على اليمامة بأمر

من أبي بكر، قد سمع أخبار قريبه المخزومي المظفر خالد بن الوليد، فأراد أن يكون الانتصار الباهر الثاني، وربما الأكبر من انتصار خالد، مقرونًا برجل قرشي من بني مخزوم مثله، رغم توصية أبي بكر له بأن ينتظر المدد من شرحبيل بن حسنة، وكان أبو بكر يهدف إلى أن يكون عكرمة فقط على مقربة من مسيلمة، حتى يصاب بالتوتر من وجود الجيش المسلم عنده، فيمكث في حراسة بلده ولا يفكر في أن يضم جيشه الضخم لأحد. تعجَّل عكرمة بن أبي جهل الهجوم رغم قلة حجم جيشه مقارنة بالجيش الضخم الذي مع مسيلمة، فأخذ وهو رجل شجاع خبير بالحرب ضربة موجعة لم يتوقعها، أثخنت آماله في المجد الكبير، فتراجع وأرسل رسالة إلى أبي بكر، يخبره فيها بأسف وصراحة بما حدث.

أرسل أبو بكر إلى عكرمة رسالة شديدة: (يا ابن أم عكرمة، لا أرينك ولا تريني، لا ترجعنَّ فتوهن الناس، امض إلى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة). وأبلغ أبو بكر القائدين اللذين سارا معًا إلى عمان ومهرة بأن عكرمة سيلحق بهما فلينتظراه، ويسمعا إلى رأيه في الحرب، وأرسل شرحبيل بن حسنة كي يقف على مشارف اليمامة، وأمره أن لا يتعجَّل، وينتظر هناك حتى يأتيه المدد.

أرسلت سجاح إلى مالك بن نويرة زعيم قومها بني يربوع، وهي واقفة بمن معها على حدود أرضهم، وعرضت عليه الموادعة فوادعها على الفور، وحدثته بكل تلقائية بعزمها على غزو المدينة، وشعر الرجل الداهية الذي يحسن عرض أفكاره أنها امرأة خطرة قادرة على تحقيق بعض النجاح الممكن، لكنها لا تستطيع أن تميز جيدًا بين ما تقدر عليه وما لا تقدر، وهو يرى أن رغبتها في الذهاب إلى المدينة هي حماقة نادرة، هو لم يقل ذلك، ولكنه تمكن من أن

يمحو من رأسها فكرة الإغارة على المدينة، لأنه حسب أن الفشل المتوقع سيقود بني تميم إلى كارثة، استطاع هذا بحديثه العذب، وصوته الأخوي الودود، وبقدرته على أن يأخذ ما يريد، وقبل كل هذا بالوجاهة الواثقة التي عليه، التي أربكت أنوثة المتنبئة الجميلة وجعلتها ترغب في الاتفاق معه، كما تميل بعض النساء لتأييد الرجل بسبب حسنه بدون أن تتودد إليه أو يتودد إليها، فقط كنوعٍ من المكافأة على الوسامة. استطاع أن يصرفها عن مهاجمة المدينة، بل واستطاع أن يقنع الجميلة المندفعة بأن تكون معه على أحياء بني تميم التي خالفته، وهو واحد ممن تباطؤوا في إرسال الزكاة إلى المدينة.

وصل عكرمة بن أبي جهل إلى القائدين قبل وصولهما إلى عمان، واتفقوا هناك بالقرب من عمان على مراسلة جيفر وعباد المختبئين، كي ينضما برجالهما إليهم؛ أما في بلاد تميم، فشرعت سجاح في العمل لصالح الملك اللبق الوسيم مالك بنو نويرة، ووكيع من سادة بني تميم الذي وادعها هو أيضًا، ودخلت في مغامرات حربية غير مفهومة داخل القبيلة نفسها، بشأن حزازات لا دخل لها بها؛ وفي اليمامة، تراجع شرحبيل بن حسنة أمام هجمة شرسة من قوات مسيلمة نتيجة لاقترابه المبالغ فيه، فارتفعت معنويات جيش مسيلمة وافتخروا بنبيهم المؤيد؛ وقد روَّج مسيلمة هو وخبير النبوة الرجَّال مجددًا لفكرة أن المسلمين مردودون عن اليمامة، طالما أن مسيلمة فيها، وضحك بنو حنيفة وهم يظنون أنهم شاهدوا بأعينهم نعم الرب على عبده ونبيه مسيلمة، وكان مسيلمة يتمتع بنكهة هذا النصر الصغير، ويتكلم فيه كثيرًا.

أما خالد، فمكث في بزاخة في سيطرة تامة، يقتل من قتل المسلمين، ويأسر القادة ويقيدهم بالحبال، فيهم قرة بن هبيرة، وأبو شجرة بن عبد العزى السلمي، وفيهم أيضًا صاحب الوجه المحنَّط عيينة بن حصن. ثم جهز سرية

ترسلهم إلى أبي بكر في المدينة، وقد كان الأسرى لا يصدقون انهيار كل شيء بهذه السهولة، ولا يصدقون هروب فارس الجاهلية طليحة بهذه الطريقة، ولا يصدقون أن الإسلام قد اقتحم نجداً هكذا وبسط فيها نفوذه وأذل الأسياد.

أما بنو عامر الذين كانوا ممن يشاهدون الوضع عن كثب، ورأوا النازلة التي نزلت بحلف طليحة، ورأوا الأكابر مقيدين بالحبال، فأسرعوا إلى خالد بن الوليد وطلبوا الرجوع إلى عهد الإسلام، فوادعهم كما وادع غطفان وسليم، ولكن بعد أن دفعت العشائر ثمن دماء المسلمين التي سُفكت من أهلهم.

وانتهت غارات سجاح على بني تميم على الكثير من القتلى في الجانبين، وبسخط بني تميم عليها. وقد تصالح الفريقان وتبادلوا الأسرى، وعم السلام مرة أخرى بني تميم، لكن المرأة لم تشعر باليأس، فقد تحمست مرة أخرى لمقاتلة أبي بكر، بهذا اللفظ، كأن في الأمر ضغينة شخصية، وأبو بكر لا يعرفها ولا هي تعرفه، وتحركت بالفعل، فاعترضها أوس بن خزيمة في منطقة النباج وأغار على جيشها، ومنيت بهزيمة، وتبادلت معه الأسرى، واشترط عليها في الصلح أن لا تجتاز دياره إلى المدينة. واجتمع إليها أهلها الصابرون وسألوها: ما تأمريننا؟ فقد صالح مالك ووكيع قومهما فلا ينصروننا ولا يريدوننا أن نجوز أرضهم، وقد عاهدنا هؤلاء القوم؟

قالت: اليمامة.

فتعجبوا، ونبهوها بأدب إلى قوة مسيلمة وضخامة الجيش الذي معه.

فقالت لهم: عليكم باليمامة، ودفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ندامة.

وصبيان المدينة الذين بدا عليهم الخوف بعد بعث أسامة، وكانوا يفكرون في أن الرجال الذين يضمرون الشر للمدينة هم أشباه وحوشٌ يصعب القضاء عليهم، عايشوا ما لم يتخيلوه ومالم يتخيله عيينة بن حصن الذين كان هنا منذ زمن غير بعيد يفكر في الحصول على أجر مقابل رد المقاتلين، لقد وصل إلى المدينة بوجهه المحنط في صف الأسرى المقيدين، وهو ينظر إلى الرمال كأنه غاضب من الرمال، فأخذ الصبيان ينخسونه بالجريد وهو يهتز مع كل نخسة مثل ضبع محاصر ومثخن بالجراح، وبكَّتوه وقالوا له: أي عدو الله، أكفرت بعد إيمانك! فقال: والله ما كنت آمنت بالله قط. وقد عفا أبو بكر عن عيينة وعن قرة وأبي شجرة، كي يفسح لقلوبهم وقلوب أقوامهم أن تبرد مما فيها من غيظ من الإسلام.

استسلم من استسلم من المرتدين في جيش طليحة للهزيمة ونتائجها، أما من لا علاج لما فيهم من غيظ وأحقاد إلا النصر أو الموت فقد تجمعوا عند أم زمل التي لها ثأر عند المسلمين، التي كانت جالسة تحت شجرة الشوك، تمضغ في وضح النهار أحقادها المرة، وتلعن الحظ، عندما وصلوا إليها وأفجعوها بخبر هزيمة البطل طليحة وهروبه، فنشب في كفها شوك الشجرة وهي لا تدري.

لقد نشطت وتفجرت قواها، وركبت جمل أمها المستجمَّ بسبب بعد عهده بالحروب، وأخذت تخطب وتحرض الناس على مقاتلة خالد بن الوليد، فتجمع عندها كل مكلوم، وكل من لا هدف له، وكل عابر سبيل ظن أن هذه ستنتصر طالما أنها تتكلم بهذه النبرة، وسيكون عندها غنائم عظيمة، وأن أصحاب الثأر مثلها ومثل من التفوا حولها لا يبالون كثيرًا بالغنائم، إنما غنيمتهم مذلة أعدائهم، لذا يمكن أخذ الغنائم التي لا يبالون بها. أما المكلومون من أبناء الجاهلية المخلصين، المتشبثون بالماضي، والكارهون للتغيير، فكانوا يحبون أن يسمعوا

نداءاتها وتحريضها، وتقشعر أبدانهم عندما تمضي بين صفوفهم بوجهها الذي ينضح بالنخوة وهي تنظر في وجوههم وتسميهم الأبطال، ويشعرون عندما تخاطبهم بأنهم ينتمون إلى زمن جميل سيدافعون عنه بأرواحهم، ويشعرون بالأصالة والوفاء، وكل تلك المشاعر التي تنتاب البسطاء عندما تقف بينهم امرأة وتشجعهم على الثبات، فيهبهم صوتها يقينًا زائفًا.

وعندما اشتعلت الحرب، وأحاط المسلمون بجيشها الذي تكوَّن حولها من الموتورين والمنتفعين، اندهشوا من شجاعة المرأة، فهي لا تفقد شيئًا من عزيمتها مهما وقع القتلى من حولها، وكان يلتف حول جملها جماعة كبيرة من الفرسان من أهلها، الموت عندهم أهون كثيرًا عليهم من أن يفروا ويتركوها، فجعل خالد مائة من الإبل لمن يستطيع أن ينفذ إلى تلك الباسلة ويعقر جملها. ولم يستطع المسلمون أن يصلوا إلى الجمل إلا فوق جثث الأبطال الذين دافعوا عنها، وأجساد الجرحى الذين كانت أعينهم تعتذر وهم يرون المسلمين عند الجمل، وظلت تعتذر وهم يعقرون جملها، وظلت تعتذر وهو يهوي إلى الأرض ويلقي رقبته عليها، وظلت تعتذر وهم يقتلون المرأة الغاضبة ويسكتون صوتها للأبد.

مالك الحزين

بدأ مالك بن نويرة يميل للعزلة والجلوس في الخلاء بعيدًا عن الناس، يحاول الهروب من الشعور بالذنب تجاه أهله الذين اتبعوه، فقد مضت الجميلة سجاح إلى عالم المغامرات الفسيح وتركته مكشوفًا، وحملت معها التفاؤل الذي تبثه في المناخ الذي يحيط بها، وها قد وصلت إليه في البطاح أخبار نجاح خالد بن الوليد، فارتبك جدًا، وفشل في الاحتفاظ برباطة جأش الملوك، وتحاشى أن يشعر الناس بضعفه، فمال للجلوس وحيدًا. إنه يدرك أن ابن الوليد قادم لا محالة، وأن الحساب ثقيل على منع الزكاة، وأكثر ثقلًا على التحالف مع مدعية النبوة، وأثقل على محاربة عشائر مسلمة من بني تميم ضمن الحروب التي شنَّها بالتعاون مع الجميلة التي مضت، وتركته كي يدفع الثمن وحده، فوكيع رفيق الحرب قد تراجع بسرعة وانحنى وأبدى ندمه وقدَّم الزكاة، أما هو، مالك بن نويرة، فمنعته كبرياء الملوك من أن يفعل ذلك، وأحس أن خروج الروح أهون، فوقف محله ولم يظهر الجزع ولم يطلب الشفاعة ولم يهرع إلى المدينة معترفًا بالخطأ، في الوقت الذي لم تعد فيه فرصة للنجاة إلا بالاعتذار الواضح وإعلان الندم بعد أن فعل ما فعل. لقد كان يرجو أن يتجاوز المسلمون عما فعل في الآونة الأخيرة بدون أن يعبر لهم في المقابل عن أي شيء من الأسف، وكان المحيطون به يتعجبون فيما بينهم مما يأمل فيه، وهو عندهم أذكى من أن يظن ذلك كافيًا، ولكن الرغبة الشديدة في الحفاظ على الرصانة والشكل أمام الناس أثرت على استجابته للخطر الذي يزحف إليه.

وعندما اقترب خالد من البطاح، اعترف مالك لقومه بكل كآبة بأنه أضرَّ بهم بمعاداة المسلمين، ونصحهم بالرجوع إلى الإسلام والتفرق من أجل تجنب القتال. ولما وصل خالد لم يجد أحدًا، وهو رجل يذهب للحرب بالأساس كي يحارب، أو كي يجد مستسلمين يطلبون العفو ويعلنون الندم، فأرسل الجنود يفتشون عن العصاة، وجيء بمالك بن نويرة نفسه هادئًا حزينًا، وفيه شيء من الجنون الوقور لرجل لا يصدق النهاية، وفي عينيه خليط غريب ومؤثر من الوداعة والتعالي. وارتاب منه خالد بن الوليد، واستقر في ضميره أن هذا الرجل العاجز عن إبداء الندم غير صادق في دعوى الرجوع إلى الدين، لذا لم يمنحه الفرصة التي أخذها أسراه الذين كانوا يحملون السيوف؛ فلقد وقع في يد خالد الكثير من الأسرى، وبعضهم من السادة مثل مالك، وبحكم الخبرة فهو يعرف أن الرجل يستطيع أن يفعل ما سيفهمه المسلمون ولا يلتبس عليهم، وهو أن يستقبلهم مذعنًا ومعتذرًا، لا أكثر من ذلك، ولكنه كما يبدو لخالد كان يأبي أن يقف بين أهله على رأس مراسم التسليم؛ كان الرجل ضائعًا مشتتًا بين عدم الرضا بالخضوع وعدم الرضا بالموت، فقتله خالد الذي تعامل معه وجهًا لوجه، وسط شعور بعدم الارتياح بين جماعة من الجنود المسلمين الذين لم يقتربوا من الرجل، المتأثرين في حكمهم على الأمر بسلمية الأجواء في البطاح منذ أن جاؤوا.

وعندما تزوج خالد من امرأة الرجل، تحول شعور تلك الجماعة بعدم الارتياح إلى غضب؛ واستبشعوا تلك الزيجة التي لحقت بالقتلة، فبدؤوا يفكرون في قتل مالك الذي لم يظهر أي مقاومة تستفز القائد وتدفعه لقتله، وبدؤوا يقولون فيما بينهم إن هذا الرجل الذي مات ربما يكون قد مات مسلمًا رجع للإسلام بفعل الخوف، وكانت الأيام ستصلح قلبه مثلما حدث مع

الكثيرين من قبل، فيتحول الغصن الذي يبدو خشبة ميتة لا حياة فيها، إلى غصن تدب فيه الحياة من أثر التربة؛ إذن ربما تزوج خالد من امرأة رجلٍ قتله بعد أن عاد إلى الإسلام، وقبل أن يجف دمه على التراب.

وفي الثالث من رمضان كانت المدينة على موعد مع موت مؤثر ومتوقع، فقد توفيت فاطمة حبيبة أبيها بعد معاناة مع المرض، وكانت أول أهل محمد ﷺ لحوقًا به كما قال لها، ودفنت ليلًا في نعش كانت أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر قد صنعته لها من الجريد بعد أن جعلته محنيًا كما رأته في الحبشة أيام الهجرة، بحيث يوضع الثوب أعلاه فلا يصف جثمانها، فأعجب فاطمة الحيية.

وبسبب الحزن الذي عادت به فاطمة يوم أن طلبت الميراث، وهو حزن نابع من تعلقها بأبيها وليس تعلقًا بالمال والعقار، والذي ذاب في مادة حزنها على أبيها فلم يعد بالإمكان فصلهما، وبسبب خوف علي بن أبي طالب الشديد عليها وعلى مشاعرها، كان قد تباعد عن مصاحبة أبي بكر، بغير خصام، يظهر في المهمات والملمات، ويصلي خلفه، ويرجو له التوفيق، لكن لا يكون في مجلسه إلا إن دعت الحاجة، فحول أبي بكر كثير من المخلصين العقلاء، أما هو فمسؤول وحده عن زوجته الضعيفة التي غلبها المرض، والتي كانت بحاجة متواصلة إلى الرعاية والتمريض وحسن الصحبة والمواساة، وبحاجة إلى أن يبذل ما يستطيع كي يخفف عنها حزنها العارم.

ولما ماتت فاطمة، بعد أن اجتهد علي بن أبي طالب في رفقتها حتى لا تغادر الدنيا وفي نفسها شيء من المؤاخذة عليه، أحس بالرضا من كونه قد وفق في القيام بواجبه تجاه زوجته ابنة النبي، وبث فيه موتها ما يبث موت

الأحباب من شعور مضاعف بعدم الرغبة في الأشياء، وأحس بالرغبة في أن يستريح من العبء الذي كان يفرضه عليه اقترابها من الموت، وشعر بأنه يريد أن يكرم حزنها بدفنه، وأنه يريد أن يعالج ما في علاقته بأبي بكر من لوم مكتوم منذ أن عادت فاطمة حزينة، وأحب أن يطوي تلك الصفحة مع الخليفة الموفق، الذي أعز الله به الدين، فبادر إلى ذلك، ودعاه إليه، فعاتب أبا بكر بعد أن ذكر له فضله، بغرض أن يتفهَّم أبو بكر تنائيه عنه، وليس بسبب أنه عاجز عن أن يتخطى ما حدث، فامتلأت عينا أبي بكر بالدموع وهو في بيت علي، وهو الرجل الذي صار أهم أهل الجزيرة بلا منازع، وأوضح له ما فيه من حب تجاه أهل بيت محمد ﷺ، وكيف أن قرابة الرسول أحب إليه من قرابته. ووعده علي بأن يبايعه مرة أخرى أمام الناس، بعد أن يمر في كلامه بسرعة على ما كان، حتى تُغلق الصفحة للأبد. وبعد صلاة الظهر، كانت البيعة، واحتفى بها الناس، ومدحوا بها عليًا، فلم تكن تلك البيعة الظاهرة عندهم بالشيء الذي ينقص أبو بكر، بل كانت في تقديرهم هي الشيء الذي ينقص عليًا.

واستقدم أبو بكر القائد خالد بن الوليد كي يستجوبه بشأن قتله لمالك وزواجه من امرأته، وكان عمر بن الخطاب غاضبًا جدًا ومصرًا على معاقبته، أما أبو بكر فرآه بعد أن استمع إليه صاحب عذر في قتل الرجل الذي كان عليه أن يتضاءل أمام الواقع كي يشتري عمره. وأعاده أبو بكر إلى جهاده، فهو عنده محارب فذ هناك حاجة إليه، وليس من العقل أن يكون جثمان مالك هو العقبة التي تقف عندها فرسه إلى الأبد فيعتزل من بعدها جبهات القتال. ودفع أبو بكر دية لشقيق مالك الشاعر متمم بن نويرة، ورد إليه الأسرى من تميم، فيما بدأت القرائح العربية الجانحة للخيال والعشق وقصص الفتنة والنساء اللواتي يسلبن الرجال عقولهم تتكلم عن أن خالدًا قتل الرجل ليظفر بامرأته الجميلة ليلى بعد

أن رأى مفاتنها، وفيما بدأ الشاعر أخو مالك من ناحية أخرى ينتقم من خالد عن طريق مراثيه المؤثرة، وسيبقى هذا الشاعر ينتقم بالمراثي إلى نهاية العمر، ورغم هذا فسيظل في نفس الوقت ينفي لمن يسأله في ساعة من ساعات الصفا أن يكون أخوه مات على الإسلام.

وفي خضم هذه المسؤولية الجسيمة التي تحملها أبو بكر، وغابة الخيوط الكثيرة التي يتابعها، فوجيء بمصيبة عائلية، فابنه الشاب عبدالله الذي عاش بجرحه الذي أصيب به في الطائف ولم يُطهروه له جيداً، وعاش بسببه يعاني من نوبات من الحمي تنتابه كل حين، قد خانه الجرح القديم وانفتح، فأخذ الشاب يتمسَّك بيد زوجته الحبيبة عاتكة وهو يشعر أنه يمضي في رحاب الموت الواسعة، حتى ودع الدنيا وعينيها في شهر شوال.

حديقة الموت

بعد أن زفت أم زمل إلى الموت، وبعد أن مات الملك الوسيم المتكبر وتزوج خالد من امرأته، ها هي ذي سجاح التي أمرت أهلها بأن يدفوا دفيف الحمامة ويتجهوا إلى اليمامة، تضع الحناء في كفيها، لأنها ستتزوج بعد ساعة من مسيلمة الذي ذهبت بجيشها الصبور لمقاتلته، فبعد أن فشلت عدة مرات، وذهبت إلى اليمامة بغير أن تحاسب نفسها على النكبات الأخيرة، خاف منها مسيلمة، وأراد أن لا ينشغل بها وهو يسمع أخبار انتصارات خالد الساحقة، فطلب اللقاء بها، والتقيا في خيمة لطيفة على بحيرة ماء خلابة على حدود اليمامة، والغزلان الصغيرة تتجسس عليهما بعيونها الواسعة، ورائحة الزهور تلهو في المكان، وكان قد صبغ شعره من أجلها بالوسمة، وفرك وجهه بالعجينة الخضراء حتى التهبت بشرته.

واشتم مسيلمة منها ضعفًا أنثويًا تحت الشدة البادية، فحكى لها عن إحساسه بالظلم لأنه نبي يستحق نصف الأرض، ونصفها الآخر لقريش، بنبرة يبدو منها رجلًا حساسًا وعاطفيًا، وتبادلا الإعجاب والإطراء، وعرض عليها أن تضع نبوتها التي لا يؤمن بها في قرارة نفسه، على نبوته التي لا يؤمن بها أيضًا، ويتزوجا. وبعد ثلاثة أيام من وضعها الحناء ومن اختلائهما في جو من العطر والهناء المفرط، عادت لقومها الصابرين الذين نزلوا على مقربة منها على الماء، عادت لهم متوردة الخدين وقالت لهم إنها آمنت بمسيلمة وتزوجته خلال هذه الفترة. وشعروا بالخجل، ورجوها أن تعود إليه وتطلب منه مهرًا يناسبها،

فليس لمثلها أن تكون سهلة هكذا وهي تجر خلفها جيشًا كبيرًا. وقد تنازل مسيلمة من أجل خاطرها عن صلاتي العشاء والفجر مرة واحدة، ولكن قومها ذكَّروها بأنهم لم يقطعوا كل هذا الطريق من أجل تخفيف الصلاة، فعادت إلى عريسها مرة ثانية، ونجحت في الاتفاق معه على أن تأخذ نصف غلات اليمامة، وسعد الجيش بالصفقة العظيمة، فحملت معها نصف ما قد تقرر لها، وتركت من خلفها رجالًا يحملون النصف الآخر، ومضت بعد هذه الزيجة الخاطفة بجيشها باتجاه الجزيرة التي جاءت منها، ومعها الإبل التي حملت المحاصيل. وقد تهجَّم خالد بن الوليد بجيشه الذي قوامه اثنا عشر ألف مقاتل، على جماعة متأخرة من قواتها الضخمة تمضي في السهب الواسع، مودعًا إياها بالرعب وهي في إيابها إلى العراق تاركة من ورائها الملك المقتول والمتنبئ الذي جاءه خالد.

وأرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي إلى البحرين على رأس لواء، على أن يمر باليمامة القريبة، حتى ينتفع عند وصوله بمن يمده بهم خالد بن الوليد بعد أن ينتهي من أمر مسيلمة. وكان المرتدون قد أحكموا حصارهم على المسلمين في جواثا، فبدؤوا يعانون من الجوع، ومع هذا فلم يتسلل منهم واحد فيخرج ويطلب الماء والطعام مقابل العودة عن الإسلام، رغم أن هؤلاء الجوعى لم يروا النبي.

وعندما وصل خالد بن الوليد إلى ثنية اليمامة، وجد سرية نائمة وأسلحتهم معهم، فقاموا من نومهم وهم محاطون بالجيش الكبير، واعترفوا له أنهم من بني حنيفة، وسألهم عن الدين فقالوا منا نبي ومنكم نبي، فأمر بقتلهم، فأخذوا يشرحون له أنهم قد ذهبوا من أجل ثأر ما وأنهم لا يحملون هذا السلاح من أجل المسلمين، لكنه أصر على قتلهم طالما أنهم ثبتوا وقالوا ما قالوا، فللعزة

ثمن، فأشار أحد الرجال منهم إلى سيد من ساداتهم وهو مجَّاعة وقال: أيها الرجل، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيرًا أو شرًا فاستبق هذا الرجل. فأبقاه خالد كي ينتفع به، وقيده بالحديد، وجعله في خيمته تحرسه زوجته ليلى.

وصلت أخبار جيش خالد إلى مسيلمة، فعسكر بجيشه المرعب المكون من أربعين ألف مقاتل بعقرباء في طرف اليمامة، بحيث يكون ريف اليمامة وحصونها من ورائه. ووقف الجيشان في مواجهة بعضهما بعضًا، بعد شروق الشمس بقليل، وكلاهما يشعر أن هذا اليوم لا يمكن أن يشبه أي يوم مر على الناس في جزيرة العرب.

وبدأ القتال، وفي أوله حدث نوع من التلاسن بين الأعراب والحضر في جيش خالد، فأهل المدينة يرمون أهل البادية بعدم الثبات، فيرميهم أهل البادية بالافتقاد للشراسة المطلوبة. وقد تراجعت صفوف المسلمين بشكل يوحي بالنهاية المحزنة بسبب ضخامة جيش اليمامة، حتى تمكن بعض جنود مسيلمة من الوصول إلى خيمة خالد ومزقوها، ووجدوا فيها ليلى زوجة خالد وأسيرهم، ففكوا قيوده وكادوا يقتلونها، فصاح فيهم مجاعة: أنا لها جار، فنعمت الحرة. عليكم بالرجال.

وركب الهم بني حنيفة عندما نظروا خلفهم، فقد تراجع المسلمون حقًا، ولكن بعد أن قتلوا عددًا منهم، عددًا أكبر مما تخيلوه وهم يشاهدون ضغط جيشهم الضخم على المسلمين، والرمال التي سقط عليها الناس لا تكذب. وقد اكتشفوا وهم ينظرون إلى جثث أهلهم شيئًا مريعًا لم يشعروا به عندما حدث، لقد خسر مسيلمة رجلًا لا يمكن تعويضه، فالرجال بن عنفوة واحد من هؤلاء القتلى، مات ولم يرَ أحد موته. أما الرجَّال بن عنفوة، فقد رأى مسيلمة

في آخر نظرة له من نظرات الحياة، عندما لم يعد يسمع أي شيء، وكان يشعر بهدوءٍ ووهنٍ أن مسيلمة هزمه في الجولة الأخيرة والفادحة من الحياة، لكن شيئًا فاسدًا في روحه أعاقه وهو ينزف عن الشعور بالندم.

بعد هذا التراجع أخذ المسلمون يتماسكون، ويشجعون بعضهم بعضًا، يتمنون تحطيم جيش مسيلمة، ويتمنون قتل مسيلمة، فموته اليوم يعني أن ثالث الثلاثة الذين أعلنوا النبوة في عهد محمد ﷺ قد انجلى للناس كذبه؛ وكان خالد من ناحية أخرى قد استوعب ما حدث واستجمع أفكاره بعد الصدمة، وأخذ يميز صفوفه حسب القبيلة حتى يثير فيهم النعرة، فخافت كل جماعة من العرب من اتهام أهلها بالجبن. وتحرك المسلمون للأمام، باتجاه بني حنيفة الذين لم تعجبهم كلفة هجومهم على المسلمين ونكَّدت عليهم، وقدَّم المؤمنون نماذج من الشجاعة والفداء أحيت نفوس المقاتلين المسلمين، وتفشَّت فيهم صيحات إيمانية جعلت من الرجال أشباه أسود، وبدا لهم الموت صادقًا وأجمل من الحياة، وكان الحنيفيون في المقابل في منتهى الشراسة والتعصب بسبب عاطفتهم العنيفة تجاه بلدهم، تلك العاطفة التي تجسدت في مسيلمة.

وأيقن خالد أن ما ينهي كفاح بني حنيفة الباطل هو أن يتصيَّد مسيلمة ويقتله، فأخذ يضغط ويقترب من ناحيته، ويستفزه للخروج إليه من خلال الظهور أمامه بطريقة مغرية، وقد حرَّك الاستفزاز كثيرين من رجال مسيلمة المحيطين به، فخرجوا إلى خالد ومَن حوله، فقُتلوا، وحاول هو أن يجبر نفسه على الشجاعة كما يمكن أن يفعل نبي واثق من النصر مؤمنًا بوعد الله، لكن قلبه لم يطاوعه، وظهر عليه الاضطراب، فشد خالد عليه وعلى من حوله، وكثر سقوط رجاله، فصاح بعضهم به: أين ما كنت تعدنا؟

فقال وهو يسلم نفسه لعاطفة الخوف بكل ما فيها من صراحة وتلقائية: قاتلوا عن أحسابكم.

ورأى محكم بن الطفيل تراجع قومه أمام المسلمين فصاح فيهم وهو يشير إلى حديقة مسيلمة القريبة المعروفة بحديقة الرحمان: يا بني حنيفة، الحديقة.

فهرب بنو حنيفة بالآلاف إلى الحديقة الواسعة عالية الأسوار، ومحكم بن الطفيل ومن معه يحمون ظهورهم أثناء الهروب إليها، فصوَّب أفضل رماة السهام في قريش إليه بسهم تجاه نحره، فاخترق سهم عبدالرحمن بن أبي بكر نحر الرجل وقتله.

ودعا البراء بن مالك المسلمين كي يرفعوه على رماحهم ويلقونه عليهم من فوق السور، حتى يفتح الحديقة التي أغلقوها عليهم، فألقوه بالداخل، فأخذ يلوِّح بسيفه وهو يتجه ناحية الباب، وكانوا يشاهدونه كأنهم يحلمون، كأنه وحده خطر شديد على كل هؤلاء، فأحجم الكثيرون ممن رأوه عن التقدم إليه، ومَن تقدموا ذعروا منه وانتفضوا وتراجعوا، فقد تراخت أعصابهم بسبب صدمتهم في أنفسهم، وفي الرجَّال الذي داست عليه أقدام المسلمين، وفي النبي الخائف الذي هرب إلى الحديقة معهم؛ حتى شاهدوه على بعد خطوة واحدة من باب الحديقة الثقيل، وبدلًا من أن ينقضوا عليه، أخذ كل منهم يبحث عن منأى، حتى يموت الآخرون من أهله بدلًا منه، عن آخر شجرة في الحديقة يتستر بها قبل أن ينفتح الباب، عن أي كومة من التبن يضع نفسه فيها إلى أن يتوقف الموت في الحديقة التي سيسرح فيها الموت. وانفتح الباب لموجات هائلة من المسلمين الغاضبين، ورفرفت في المكان أجنحة الويل، واندلعت حرب الزحام بين الآلاف في المكان المسوَّر بين الأشجار، حيث لا فرار، وحيث

يجب على الإنسان أن لا يتوقف عن القتل حتى يحافظ على حياته. وها هو ذا الموت يسرح في بني حنيفة، في حديقة نبيهم، يقعون في كل الأركان، أما وحشيٌّ الذي قتل حمزة عم النبي ثم أسلم من بعد ذلك، فمسك حربته وأخذ يضبطها تجاه مسيلمة نفسه، ثم صوبها تجاهه؛ وقد كانت المرأة الشجاعة، التي أصيبت بأحد عشر جرحًا في هذه المعركة، أم عمارة نسيبة بنت كعب، والدة حبيب بن زيد الذي عذبه مسيلمة وقتله، سعيدة وهي تسمع صرخة مسيلمة، وترى الحربة في بطنه وقد مسكها بيديه من شدة آلامه وأغمض عينيه، ثم قعد على الأرض حائرًا فيها، وسعيدة وهي ترى ابنها عبدالله يتقدم إلى قاتل أخيه بثبات، ومسيلمة لا يستطيع أن يقوم ولا يستطيع أن يستغيث، وسعيدة وهي تراه يهوي بسيفه عليه فيفلق رأسه. وانطلقت الصيحات بين بني حنيفة عن مقتل مسيلمة، حتى أن بعضهم من الذهول رمى سلاحه، وبعضهم أصابه لوثة، وبعضهم قتل نفسه لأنه عجز عن أن يصدق أن مسيلمة ليس أكثر من كاهن كذاب، وأن المسلمين غير مردودين عن اليمامة كما قال؛ إنه يوم النحس عليهم، يوم دماء بني حنيفة التي سالت من أكثر من عشرين ألف رجل منهم قتلوا من الشروق إلى منتصف العصر.

ومكث خالد يفرض سيطرته ويلتقط الناس هنا وهناك في الأنحاء، حتى جاء وقت فتح حصون اليمامة على من فيها؛ وبناء على الثقة التي يشعر بها خالد تجاه مجاعة بعد أن أجار زوجته ليلى وأبعد المقاتلين عنها، استدعاه، فأفهمه مجاعة أن الحصون مليئة بالمقاتلين الذين لم ينزلوا هذه الحرب، وهم في كامل العدة والعافية، وعرض عليه الصلح، فنظر خالد إلى رجاله المرهقين وفكَّر في أن قتلاه هم ألف ومائتا رجل، ويكره أن يكون عنده المزيد من الضحايا، ورضي خالد بنصف السبي كما قال له مجاعة، وقال له مجاعة إنه

سيذهب إلى قومه في الحصون يعرض عليهم ما اتفق عليه، وذهب إلى الحصون التي لم يكن فيها إلا النساء والأطفال والشيوخ والمرضى، وقال للنساء: البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون. ولما فعلن ما أمرهن به، رآهن خالد وصدق أن الحصون بها جيش آخر في كامل استعداده. وعندما دخل خالد ومن معه الحصون ولم يجد فيها إلا الضعفاء، متكومين على بعضهم بعضًا، فاستاء وقال لمجاعة: ويحك يا مجاعة خدعتني. فقال له الرجل: هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت. فقدَّر خالد ما فعل وتفهَّمه.

ودعاهم خالد إلى الإسلام، وصالحهم، وبعث بوفد منهم إلى أبي بكر في المدينة، ليواجهوا هناك السؤال الموجع الذي سيظل يلاحق هذا الجيل من بني حنيفة ممن شاهدوا مسيلمة وصدقوه: كيف خدعكم هذا؟!

النبوءة التي اقترب أوانها

مر العلاء بن الحضرمي على اليمامة، وأخذ معه المسلمين من أهلها من أتباع ثمامة بن أثال، وكذلك من أسلم منهم بعد الهزيمة وندم ورغب في الجهاد، واتجه إلى البحرين. وعندما بدا لخالد بن الوليد أن كل شيء على ما يرام من حوله في أنحاء اليمامة وريفها الجميل، وهو رجل بطبيعته يعمل بالحرب ولا تنفر منها نفسه، ويتقبَّل كلفتها، ويعلن بين أنَّاتها تمسكه بالحياة، دعا مجاعة كي يزوجه ابنته، فحاول الرجل أن ينبهه إلى أنه يخشى تقريع الخليفة، فهو يعرف ما حدث بسبب زواج خالد من ليلى، ولكن القائد أصر على الزواج، وكان من طبيعته أن يتحمل بجسارة كلفة ما يحب، فتزوج من ابنة الرجل.

والثورة التي أشعلها قيس وعمرو في اليمن بلغت أوجها، وصار لابد من التصدي لها بعد أن تمت السيطرة على نجد واليمامة وخضع وسط الجزيرة لدولة الإسلام، والانفجار الذي كان لابد أن يحدث حول زياد بن لبيد في حضرموت حدث، فقد وقعت مشادة عبرت عما في النفوس من ترقب واحتقان، فقد اعترض حارثة بن سراقة الكندي أول اعتراض عملي على الصدقات، يصل إلى درجة العصيان والاستخفاف بالأمير الذي أرسله محمد ﷺ، بسبب أن الأمير قد أخذ للصدقة ناقة من خيار إبل أحد الغلمان، فراح الغلام يستغيث بحارثة، الذي تكلم مع زياد من أجل استبدالها، فأبى زياد المتحفظ والرسمي، والذي يعرف أن اشتمام الضعف هنا قد يؤدي به إلى الهروب أو القتل، واعتبر أن وسم الصدقة على الناقة قد أنهى الأمر، وطال

بينهما الجدل، فلم يستطع حارثة أن يمسك نفسه من الغضب، فحلَّ عقال الناقة وأطلقها وأنشد الشعر، فانفجر الوضع، وتجمع المسلمون حول الأمير الذي أقره محمد ﷺ ثم أبو بكر، وتجمع المرتدون حول ابن القبيلة؛ لكن المسلمين تجمعوا مرة واحدة فعرف زياد بسرعةٍ مَن حوله، بينما السخط المكتوم فاجأ الأمير بزيادات يبعثها الغضب يومًا بعد يوم في جماعة المناوئين التي صارت زعامتها إلى الأشعث بن قيس الذي تهرب في البدء من البيعة؛ هؤلاء الحذرون بدؤوا يكشفون ما فيهم من كراهية في شكل دفقات من الناس تظهر بوضوح في صفوف العصيان. ودار القتال بين الفريقين.

ووصلت أخبار اليمن إلى أبي بكر فأرسل آخر الألوية بقيادة المهاجر بن أبي أمية المخزومي للقضاء على الردة هناك، وعليه أن يأخذ إليه المقاتلين المسلمين من القرى التي في طريقه، ووصل إلى سمع لقيط المتنبئ بعمان مجيء جيش المسلمين، الجيش الذي اجتمع فيه من مع حذيفة بن محصن ومن مع عرفجة بن هرثمة، ثم لحق بهم عكرمة بمن معه، والذين توقفوا وراسلوا جيفر وأخاه، ووصل العلاء بن الحضرمي ومن معه إلى البحرين، وأرسل يطمئن الجارود ومن معه بقرب الخلاص، فيما جاء إلى خالد بن الوليد خطاب من أبي بكر الذي كان قد سعد هو وأهل المدينة كلهم بالقضاء على دعوة مسيلمة وهزيمة بني حنيفة، وإن كان قد أصابهم الهم بسبب عدد الشهداء، قال له في ذلك الخطاب: يا ابن أم خالد، إنك لفارغ، تنكح النساء، وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد!

كان في شهداء اليمامة عدد من قراء القرآن، حتى أن عمر بن الخطاب شعر بالقلق فعرض على الخليفة أن يجمع القرآن كله بين دفتين في نسخة مكتوبة، من صدور الرجال ومن السطور التي كتبوها، خوفًا من أن يموت

الحفظة في معارك أخرى، فينفلت شيء من القرآن من الناس. وتردد أبو بكر في البدء لأن النبي لم يفعل ذلك، ثم انشرح صدره، فأسند أبو بكر هذا الأمر العظيم إلى الشاب الأنصاري زيد بن ثابت الأنصاري، فهو ممن يحفظون القرآن، وممن كتبوا الوحي للنبي، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في آخر عمر النبي، وهو فوق ذلك يتمتع بقوة العقل وقوة الإيمان. فبدأ زيد في عمله بإحساس ثقيل جدًا بالمسؤولية، فأخذ يجمع القرآن من الجلود وعظام الإبل والخزف وجرائد النخل وصفائح الحجارة، ومن صدور الرجال، بدرجة عالية جدًا من التثبُّت: بالنظر فيما هو مكتوب بين يدي الرسول على سبيل الإملاء، وبحضور شاهدين عدلين يشهدان على ذلك، مقَارنًا بما يحفظه الصحابة، مقارنًا بما ثبت في العرضة الأخيرة للقرآن التي حضرها.

وقد تواجه جيش العلاء وجيش المرتدين، وصنع كل جيش خندقًا أحاط به نفسه، ودارت مناوشات يومية لا يعرف أي الفريقين متى تنتهي وعلى أي شيء تنتهي. وفي خلال هذه المناوشات اليومية في البحرين كانت عمان تتأهب للصدام القادم بين المسلمين وآخر المتنبئين، فقد جمع لقيط جيشه وعسكر في دبا، وخرج جيفر وعباد والمقاتلون معهما إلى صحار، وأرسلا إلى قادة المسلمين كي ينضموا إليهما، فتحركوا إليهما.

وبعد شهر من نصف الحرب هذه في البحرين، سمع المسلمون ضوضاء شديدة في معسكر المرتدين، فأرسل العلاء رجلًا يتجسس عليهم، فعاد إليه يبشره بأنهم سكارى حد الثمالة، ولا يستطيع الرجل فيهم أن يقوم من مكانه ويحمل درعًا. بعد قليل كانت سيوف المسلمين تمزقهم، وقد أفاقوا من الفزع بأعصاب خائرة، وسقط منهم من سقط، جريحًا أو قتيلًا، ومنهم من لم يحترس أثناء هروبه فوقع في الخندق وانكسرت عظامه، ومنهم من هام على وجهه

بالليل في العراء يبكي، وانتهى الأمر بقتل الحطم، ووقوع الغرور ملك البحرين في الأسر. وقد عبَّر الغرور عن ندمه، وسفَّه نفسه، وأسلم، فعفا عنه العلاء. وقد تجمع أغلب الفارين في دارين، فتبعهم العلاء وسحقهم هناك.

وقد طارد بعض المقاتلين العرب الأشداء فلول المرتدين عند تخوم العراق، يحملون في قلوبهم شوقًا لتحرير العراق من قبضة الفرس، بقيادة رجل كان قد التقاه محمد ﷺ وأبو بكر من خمس عشرة سنة، وابتسم لمحمد ﷺ من داخل مخيم بني شيبان تلك القبيلة القوية، عندما دعاهم الرجل الرصين الخلوق محمد ﷺ الذي يطارده عمه بين المخيمات في نهاية الجلسة أن يسبحوا الله ويقدسوه عندما يعطيهم عما قريب ديار فارس، إنه المثنى بن حارثة الذي استبعد الأمر يومها، ولكنه بعد عشر سنوات من اللقاء الذي لم يشغله كثيرًا، تلقى أخبار فتح مكة مبتسمًا، وأيقن أن هذا الرجل الذي التقاه نبي حقًا، وادخر في قلبه شوقًا لأن يكون له حظ مجيد في نبوءة محمد ﷺ بفتح ديار فارس، وتحرَّك برجاله عندما انهزم المرتدون في البحرين الذين دعمتهم فارس، وشعر أن ما قاله محمد ﷺ قد اقترب أوانه.

اللهب الخافت الأخير

كان خبر المثنى خبرًا جيدًا من ناحية فارس يسعى في الصحراء إلى أبي بكر، لكن كان ثمة خبر سيئ يقطع الطريق إليه من ناحية حدود الروم التي كانت خاملة منذ بعث أسامة، فقد استفحلت مظاهر الردة في بني كلب بدومة الجندل، ولم يعد الأمر يتوقف على ردة حاكمها أكيدر وبعض كبرائها، فقد صارت دومة الجندل ملجأ للمرتدين في الشمال، ولم يعد كافيًا لردعها قوات موجودة أصلًا لضبط الأمور في فناء الإمبراطورية الخلفي، بل صار الأمر يتطلب جيشًا مقاتلًا يجتث الردة تمامًا ويستولي على البلد؛ على أن هذا الخبر سيصل المدينة بعد أن جربت الانتصار على أعداء شرسين، لذا لن تبدو دومة الجندل مثل عقبة كبيرة تثير الهموم.

والتقى جيش لقيط المتنبئ العماني وجيوش المسلمين في دبا في معركة عنيفة. بعد فترة كاد جيش لقيط أن ينتصر نصرًا حاسمًا، وقد ظهر الاضطراب الشديد في صفوف المسلمين؛ لكن فجأة، انضم إليهم جيش كبير من بني عبد القيس ومن قبائل البحرين التي انتصرت منذ قليل على المرتدين في البحرين، وحدثت مقتلة عظيمة في جيش لقيط، حتى سقط منهم عشرة آلاف مقاتل، من بينهم المتنبئ نفسه.

ووصلت إلى أبي بكر أخبار المثنى بن حارثة الذي نزل بدلتا الفرات ودجلة، وعرف أنه الرجل الذي قابله من قبل هو والنبي وعلي بن أبي طالب في موسم الحج، وهو صاحب الحرب في بني شيبان، وأحد أعظم أبطالهم،

وبدأت هذه الأخبار تلفت انتباه الخليفة تجاه العراق وفارس، وقد كان مشغولًا قبل أن تصله بأن يعجل إلى الشام والروم بعد أن ينتهي من مشاغبات العرب، فبدأ يضع في حسبانه تدهور حالة الإمبراطورية الفارسية، وكيف وقف هرقل على أبواب العاصمة المدائن، وكيف أنهم لم يحركوا ساكنًا عند تقلص نفوذهم في جزيرة العرب في عدة نواح، وكيف اقتتل على الحكم هناك تسعة أمراء خلال أربع سنوات. وصلت هذه الأخبار إلى أبي بكر بينما كان عرفجة يسير إليه يقود الغنائم، فيما بقي حذيفة في عمان يضبط الأمور، أما عكرمة فقد زاد جيشه بالقبائل التي رأت الغلبة فانضمت إليه، واتجه بالجيش إلى مهرة كما أمره أبو بكر.

ووجد عكرمة أهل مهرة منقسمين إلى فريقين في نزاع على الحكم، فريق بقيادة رجل اسمه المصبَّح، وفريق بقيادة رجل اسمه شخريت وهو الفريق الأقل عددًا. راسل عكرمة شخريت وأقنعه بالعودة إلى الإسلام وبالانضمام إليه هو وجيشه، بينما رفض المصبَّح، فاقتتل الجيشان اقتتالًا شديدًا، انتهى بهزيمة جيش المصبَّح وقتله. وبقي عكرمة في مهرة يضبط الأمور، وقد ازداد جيشه مرة أخرى، ثم أخذ يزحف باتجاه جنوب اليمن كما أمره أبو بكر.

وقد وصل إلى نجران جيش المهاجر بن أمية المخزومي الذي أرسله أبو بكر لقمع الثورة في اليمن، بعد أن ازداد جيشه برجال في مكة ثم الطائف، وازداد أيضًا في نجران، وقد وفِّق ومضى مثل السهم بلا إبطاء باتجاه صنعاء، وفي ذات الوقت كان عكرمة قد دخل إلى جنوب اليمن بجيشه الذي ازداد مرتين وسيطر على النخع وحمير.

ووصل المثنى بن حارثة إلى المدينة، وشجع أبا بكر على العزم على فتح

العراق، وبين له أن العرب الذين استقروا بدلتا النهرين الخصبة يعملون بالزراعة، ودهاقين الفرس [كبار ملاك الأراضي والعمَد ومن في حكمهم] ينهبون غلتهم ولا يتركون لهم إلا القليل، لذا فهم سيرحبون بمن يرفع عنهم بلاء الفرس. واستشار أبو بكر الصحابة، وانتهى الأمر بمباركة ودعم جهد المثنى، وودعه أبو بكر وقد عزم على دعمه.

وفي اليمن، ضاقت الأرض بالقائديْن الطموحين قيس وعمرو، وهما يسمعان عن تقدم جيشي المهاجر وعكرمة من ناحيتين، بهيبةٍ قدرية، وكره كل منهما الآخر، كأن طموح صاحبه هو الذي أهلكه، ووصلت إلى كل منهما مع القصاصين المآسي التي حلت برؤساء العرب في نجد واليمامة والبحرين وعمان ومهرة، فهذا قتلوه، وهذا أسروه ثم عفا عنه أبو بكر، وهذا فر مثل الدجاجة، فظن كل منهما أنه لن يكون له مصير آخر، ففكر كل منهما في أن الأسر هو أفضل الحلول المرة، ولما بادر عمرو بتسليم نفسه خشي قيس أن يتأخر فينال صاحبه بالتبكير أفضل مما سينال هو، فلحق به. وأرسل المهاجر الأسيرين إلى أبي بكر على الفور، واستقر المهاجر في صنعاء وقضى على فلول قوات الأسود العنسي الضائعة في الزمن.

بعد قليل، ترك خالد بن الوليد ذكريات الموت في الحديقة، والزوجتين، ومناظر الريف المريحة، واتجه إلى العراق بأمر من أبي بكر المستبصر للخارطة بجميع ما فيها، والمستجيب بشكل ذكي وسريع للتفاصيل المتشعبة، وقد أوصاه بالرفق بالمزارعين المنكبين على عملهم ولا شأن لهم بالحروب، وكلفه بدخول العراق من الجنوب، وأن يأتي الأُبُلة، ومنها إلى الحيرة، وفي ذات الوقت قد أمر عياض بن غنم بأن يخمد التمرد في دومة الجندل ثم يدخل العراق من

المصيَّخ بشمال العراق، ثم يتجه جنوبًا إلى الحيرة، فإن وصل قبل خالد كانت قيادة الجيش له، وإن بلغها خالد قبله كانت قيادة الجيش له.

وصل جيش خالد بعد أن زحف في طريق مختصر، بجيشه الذي بلغ عشرة آلاف مقاتل، وأول ما فعله هو أن أرسل رسالة إلى هرمز حاكم الأبلة، تلك المدينة المحاطة بالبساتين، الواقعة على شاطئ دجلة البصرة في زاوية الخليج، قال فيها: أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا لا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

واجتمع جيش خالد بجيش المثنى الذي يبلغ ثمانية آلاف مقاتل عند حدود العراق، وقسم خالد الجيش الواحد إلى ثلاث فرق، يتحرك كل منها في طريق، على أن يلتقوا في الحفير، الفرقة الأولى بقيادة المثنى، وسارت قبله بيومين، الفرقة الثانية بقيادة عدي بن حاتم الطائي، وسارت قبله بيوم، فيما استلم هرمز الرسالة التي استفزته، وأخذ يحقِّر من هذا العربي الجائع الحالم الذي تجرأ على كتابتها، وأرسل إلى الإمبراطور أردشير يخطره بالتهديد، وقد عزم هرمز على أن يؤدب ذلك الطائش الذي كتب تلك الرسالة.

وأثار الأشعث بن قيس الفوضى الواسعة في حضرموت، وجمع كل من يقدر على جمعهم من المقاتلين المؤيدين له في فروع قبيلة كندة، حتى يقضي على الوجود الإسلامي في حضرموت، وانضم إليه بنو الأرقم وبنو حجر وبنو خمر وبنو هند، وبدأ المتعصبون يتعرضون لمساكن جيرانهم من المسلمين التي تقع في مناطق نفوذهم، يجلونهم منها ويقتلونهم، حتى قلق زياد وهو رجل شديد البأس من أن تفلت الأمور منه ويرخص دم المسلمين، فأمر أبو بكر

المهاجر بالالتقاء بعكرمة، كي يسيرا معًا لمعاونة زياد الذي كان يتوعد المتمردين بأن يدفعوا ثمن إجرامهم؛ وسار عكرمة من أبيَن وسار المهاجر من صنعاء، والتقيا في مأرب، واستخلف المهاجر هناك عكرمة على الجيش وانطلق مع كتيبة قوية وسريعة حتى يلحق بزياد قبل أن يتفاقم الأمر معه، ووصل المهاجر وكتيبته، وانضم إلى جيش زياد، وثقلت الكفة، وهاجموا الأشعث بضراوة وهزموه، ففر هو والجمهور الذي معه إلى حصن النجير.

اتجه هرمز بجيشه الكبير إلى كاظمة، حيث يتوقع أن ينزل فيها خالداً وجيشه، ولكن خالد كان يلعب به ويخفي جهته، إذ تخطى كاظمة إلى الحفير في الشمال منها وعلى الغرب من الأبلة، وعندما علم أن خالد بن الوليد ذهب إلى الحفير، تحرك بجيشه المتثاقل بالحديد الذي يكاد يختفي تحته الرجال والأحصنة، وأخذ يضغط على رجاله كي يصلوا قبل خالد، بينما كان خالد يتباطأ، حتى يرهق هرمز من معه وهم يحملون الكثير من العتاد، وفرح هرمز بوصوله قبل خالد، وأنهك رجاله في حفر الخنادق، وفي عمل تحصينات بالأحجار وتلال الرمال الناتجة عن الحفر، ولما أتموا أعمالهم الميدانية المجهدة وهرمز يشعر بالبراعة، اتجه خالد بمن معه إلى كاظمة، وعندما سمع هرمز بذلك انفجر من الغيظ وأخذ يركل الأرض، ونظر إلى إنشاءاته متحسرًا ثم مضى إلى كاظمة، بعد أن ربط عددًا من المشاة إلى بعضهم بعضًا بالسلاسل، كي يقاتلوا بثبات وصلابة وفداء، بدون أن يتاح لهم خيار الهرب.

وهناك، وفي شهر محرم من السنة الثانية عشرة للهجرة، صار الجيشان وجهًا لوجه، وهرمز يشعر بكراهية شديدة تجاه خالد الذي تلاعب به، يريد أن يقتله في أول المعركة، ليس على سبيل أي غرض عسكري كتحطيم نفسية الجيش المسلم، بل يريد أن يقتله كنوع من التأديب على الحفريات التي أخذت

من رجاله وقتًا وجهدًا بغير داع، فوضع هرمز خطة غادرة، بأن يطلب مبارزة خالد بن الوليد، وعندما يبرز إليه، يهجم بعض فرسانه الأشداء على خالد من ظهره، وبالفعل نادى: أين خالد؟ فخرج إليه خالد ماشيًا، وتبارزا بالسيف، فركض فرسان فارسيون باتجاه خالد، بينما كان خالد قد ضم هرمز إليه يعتصره بذراعيه القويتين، فأخذ خالد يبارزهم، فخرج القعقاع لهم مسرعًا بمفرزة من الفرسان، وقتلوهم كما قتل خالد هرمز، وفر الفرس، وتبعهم المسلمون إلى الليل إلى الجسر الأعظم من الفرات [البصرة]، ولم يشد انتباه المسلمين شيئ في هذه الحرب قدر ورطة الرجال في بعضهم بعضًا وهم مربوطون بالسلاسل، هذا يريد أن يحارب كي يحيا، وهذا يريد أن يفر كي يحيا، وكيف أخذوا يتماوجون رغمًا عنهم ويبدلون الجهات كأنهم سكارى، لذا أسموها ذات السلاسل.

وفي السلاسل وقف أمام أبي بكر بطلان من أبطال العصر الجاهلي الذي يجود بآخر أنفاسه، وهما يشعران بالخزي وغرابة الدنيا، ينظران إلى توبيخ عينيه، ويتمنيان أن يريا فيهما بشرى العفو، قيس بن مكشوح وعمرو بن معد يكرب. ووجَّه أبو بكر كلامه إلى قيس قاتل داذويه، وقد تحرك أمامه وامتلأ غضبًا: يا قيس، قتلت عباد الله واتخذت المرتدين وليجة من دون المؤمنين. فنفى قيس بشدة أنه قتل داذويه، فقد خاف أن يقتله به إن اعترف.

ونظر إلى عمرو، بطل اليمن الشهير، نظرة كتلك النظرة المعاتبة والغاضبة التي ينظرها الإنسان لمن ظلم نفسه وقال: أما تستحي أنك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله. فهز عمرو رأسه وهو يشعر بالحرج، والفرج أيضًا، وقال: لا جرم لأقبلنَّ ولا أعود. وعفا عنهما أبو بكر وتركهما يعودان إلى الوطن.

كان من ظهر حصن النجير الذي هرب إليه الأشعث ومن معه ثلاثة سبل، فجاء زياد على سبيل وقطعه على المحاصرين، وقطع المهاجر الثاني، وظل الثالث إلى بعض الوقت مفتوحًا يمر منه المدد والطعام والسلاح إلى أهل الحصن، حتى وصل عكرمة وقطعه وبعث فرقة تطارد الفرسان الذين كانوا يرغبون في الوصول إلى الحصن لنجدة أهله، وأخذت الفرقة تتبع الثائرين وتقتلهم إلى الساحل.

ومن شبابيك الحصن أدرك أهل الحصن المأساة التي تحيق بهم والتي نزلت بأتباعهم خارج الحصن، وبعض النسوة كن قد فقدن أعصابهن وأخذن يشتمن النبي والإسلام والمسلمين، وكان الرجال ينظرون بيأس هادئ إلى النساء عندما يشببن على أطراف أقدامهن كي يشتمن من الشبابيك، كأنهم يقولون لهن: لقد فلت الأمل منا بهذا السباب. وكان النجير بما ينبعث منه صراخ وسباب وأصوات هلع، هو اللهب الخافت الأخير في فتيل مصباح الردة، الذي ينعكس ظله بعبوس واهتزاز على حائط الجزيرة العربية.

وأخذ الرجال في ليلةٍ يشجعون أنفسهم على المواجهة، وهم يضربون على صدور بعضهم بعضًا، ويقولون ما هي إلا موتة لا أكثر، وجربوا حظهم في الصبح، وكل واحد فيهم قد غشَّه ما ظنه في الآخرين من شجاعة، وانطلقوا إلى السبل الثلاثة وهم يصيحون، فردتهم القوات بعنف بعد أن اصطادت البعض منهم، فرجعوا مذعورين وأغلقوا الأبواب.

بعد هذه المحاولة التافهة التي كشفت لهم ضعفهم، فقدوا كبرياءهم، وانسحقت نفوسهم، فعزت في أعينهم الحياة، مجرد الحياة، وغلب عليهم الوهن والذل، وبدؤوا يصرخون في أي امرأة تفقد أعصابها وتشب على أطراف

قدميها وتفتح الشباك وتبدأ في السباب، وبدؤوا يفكرون بغير أي حرج في النجاة والاستسلام. وعرض الأشعث على من معه في الحصن أن يخرج ويأخذ لهم الأمان، وهو ينظر لهم نظرات دافئة، ويمسح بيديه على رؤوس الصبيان، كأنه لم يدفعه إلى هذا إلا رحمته بأهله، فوافقوه على الفور، وأخذوا يعتذرون له من أنه يتنازل من أجل خاطرهم ويعرض الاستسلام، وأخذ يغلق عينيه كأن هذه الحقيقة توجعه.

طلب الأشعث من شباك الحصن من زياد أن يسمح له بالنزول ليتكلم معه، فسمح له. ونزل الأشعث ولم يجد في وجه زياد العطف الذي كان يطمع فيه، بل وجد رجلًا يعامله على أنه مهزوم ليس له أن يتمنى الكثير، حتى أنه بذل جهدًا كي يتفق معه على نجاته هو شخصيًا بأن يرسله زياد إلى أبي بكر؛ وكان قد أصر على ذلك لأنه يظن أن أبا بكر لن يقتله إذا جيء به إليه واعترف له بندمه، واستطاع الحصول على نجاة عدد قليل من أهل الحصن من المقاتلين، اختارهم من أهله، وترك غيرهم ممن رفعوا السلاح لأمر قادة المسلمين فيهم، كل هذا مقابل أن يفتح الحصن للقوات.

المثنى الذي انطلق خلف فلول الفرس بأمر من خالد، وصلته أنباء عن قدوم جيش عظيم من الفرس من المدائن، جيش عظيم صادفه الفارون المذعورون في طريقهم، فهرعوا إليه والتقطوا أنفاسهم. كانت رسالة هرمز قد وصلت إلى الملك أردشير، فاستدعى على الفور الأمير قارن بن قريانس، وأعدا جيشًا متماسكًا واثقًا يردع المسلمين. وقد عرف قارن تفاصيل هزيمة هرمز من الجنود المرتعشين من شدة الرعب، فربت على أكتافهم وطمأنهم وضمهم إليه، وكان فيهم قائدان من قادة جيش هرمز، قباذ وأنوشجان، ووعد قارن الفارين بالثأر مما حدث؛ وعسكر بالجيش في المذار على ضفاف قناة

تصل دجلة بالفرات.

أنزل المثنى جيشه قريبًا من المذار، وكتب إلى خالد بن الوليد، وسرعان ما جاءه خالد، بينما كان جيش الفرس يتلمَّظ من شدة الرغبة في الثأر. وبدأ القتال في شهر صفر، بأسوأ ما يمكن أن يحدث في بداية في نظر الجنود الفارسيين، فقد سقط قادة الفرس أمام أعين جنودهم في مبارزات، قباذ، وأنوشجان، وقارن نفسه الذي كان يطمئن الكل كان أول القتلى، فأصاب الجنود التشاؤم والرعب وهم يجدون أنفسهم بغير قيادة، ولكن ظلوا إلى بعض الوقت في بسالة خالية من المعنى، حتى لاحظوا اختلال المعركة، وأنهم يبارزون وأرجلهم بين جثث أصحابهم الذين كانوا يسمرون معهم في المعسكر، وتعبت أياديهم، وتعبت أرواحهم، فخلع كثيرون منهم ثيابهم وقفزوا كالأسراب في النهر، لتنتهي معركة المذار على رجال من الفرس ملؤوا النهر وهم يسبحون عرايا وباكين باحثين عن النجاة، بعد أن تركوا وراءهم عددًا كبيرًا من القتلى ما كان الفرس يتخيلون أن يخسروه في معركة.

وفيما كان طليحة بن خويلد يخر ساجدًا لله في الشام وقد تجهز لأداء العمرة، ويستغفر الله في سجوده، ويشكره على أنه لم يقتله في بزاخة كما قتل العنسي ومسيلمة، وأمد في عمره حتى تاب، وفيما كان الشوق إلى زيارة المدينة يغلبه في سجوده، وهو يرد هذا الشوق من شدة حيائه من أن ينظر إلى وجه أبي بكر، كان الأشعث قد وصل إلى المدينة في الحديد، ويداه مجموعتان إلى عنقه، متفائلًا باللقاء مع الخليفة؛ وقد حاول الأشعث في البدء أن يكذب على أبي بكر: يا خليفة رسول الله، ما كفرت بعد إسلامي ولكني شححت على مالي.

فقال أبو بكر: ألستَ الذي تقول قد رجعت العرب إلى ما كانت تعبد

الآباء، وأبو بكر يبعث إلينا الجيوش ونحن أقصى العرب دارًا، فردّ عليك من هو خير منك فقال لك: لا يدعك عامله ترجع إلى الكفر فقلتَ: من؟ فقال: زياد بن لبيد، فتضاحكتَ؛ فكيف وجدتَ زيادًا أأذكرت به أمه؟ [هل استطاعت أمه أن تنجب رجلًا حقًا؟].

فقال الأشعث: نعم، كلَّ الإذكار.

وعفا أبو بكر عن ملك كندة الشاب الأشعث بن قيس، وزوجه أخته أم فروة بعد أن طلبها منه.

صواعق من سماء السخط

بقي خالد في المذار يراقب تحركات الفرس، بينما جهز الإمبراطور أردشير جيشين من أجل الرد على الهزيمة، الأول بقيادة أندرزغر، والثاني بقيادة جاذويه، فاتجه أندرزغر بجيشه إلى الولجة، بعد أن ضم إليه من استنفرهم من الدهاقين وعمالهم والعرب الموالين من بني بكر بن وائل، أما جاذويه فكان له تدبير آخر، فتوجه إلى وسط السواد [سواد العراق الأراضي الخصبة في جنوب العراق على أطراف دجلة والفرات وما بينهما]، كي ينفذ من هناك إلى الصحراء، لأنه يريد أن يفاجئ المسلمين من الأمام، ويكون جيش أندرزغر من خلفهم، فينحشر الجيش المسلم بينهما.

علم خالد وهو بالمذار بأنباء الحشد الفارسي الكبير، فتحرك بجيشه باتجاه الولجة، وصار في مواجهة الفرس، وكان قد دفع بفرقتين للالتفاف لمهاجمة الفرس من الخلف والجانبين، وبدأ القتال في معركة الولجة في الثاني والعشرين من شهر صفر من السنة الثانية عشرة للهجرة، واستمر فترة طويلة، عنيفًا ومتكافئًا، إلى أن وصلت الفرقتان الملتفَّتان، فقلبتا المعركة تمامًا، وفاجئتا الفرس المنتبهين إلى جيش خالد الذي يشتد عليهم من الأمام، فنال الفرس هزيمة منكرة، وفر أندرزغر منهكًا مع بعض الرجال، ومات في الطريق من شدة العطش.

اشتعل غضب العرب الموالين للفرس بسبب كثرة من ماتوا منهم في الولجة، وصارت أحياؤهم وقراهم تتنادى بالثأر، وطلبوا العون من الفرس،

وعسكروا في أليس على صلب الفرات في منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة، يقودهم عبد الأسود العجلي، واجتمع إليهم بعض الفرس. وقد أمر أردشير جاذويه بالتوجه إلى أليس، وأمده بقوة يقودها جابان. أمر جاذويه جابان بأن يتحرك هو بالجيش إلى أليس، على أن لا يبدأ في مقاتلة المسلمين حتى يأتيه، إلا إن اضطروه إلى ذلك، وتوجه هو إلى المدائن كي يتناقش مع الإمبراطور في كيفية إيقاف المسلمين عن التقدم، وعندما وصل جابان إلى أليس، انشغل عنه جاذويه بالإمبراطور المريض. تقدم خالد إليهم وهو يعرف أن نصارى العرب تجمعوا للقائه، بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، ولم يعرف بأمر جيش جابان، والتقى الجيشان في الخامس والعشرين من شهر صفر، ودارت بينهما معركة طويلة قاسية، ينتظر فيها جابان ومن معه قدوم جاذويه ومعه مدد كما يتوقعون، وكان الفرس ومن معهم مستميتين في القتال، مصرِّين على الانتصار أشد الإصرار، واستمرت المعركة في غاية العنف والضراوة، كل فريق حريص على أن لا يفلت منه الأمل، ولما طال القتال كثيرًا، بدأت صفوف الفرس في التراخي، فلم يمهلهم المسلمون وتحاملوا على أنفسهم وضغطوا عليهم بآخر ما لديهم من قوة، فتحطمت صفوف الفرس والعرب الموالين في النهاية بعد أن تأكدوا أن خالدًا لا ييأس وجاذويه لا يأتي، وتفرق جيش الفرس والعرب بين قتيل وجريح وأسير وعدد كبير من الفارين الذين يشعرون بالهوان. وتوجه خالد بن الوليد من بعد ذلك إلى أمغيشيا التي شارك أهلها في الحرب في أليس، فتركها أهلها وفروا في كل ناحية، فأخذ جنده كل ما في البلد ودمروها في الثامن والعشرين من صفر، بينما لا تزال أليس التي غادرها تعج بآثار الحرب المروعة؛ وبالنظر إلى دماء الفرس التي انسربت إلى النهر عند أليس، وتركت أثرًا بالقرب من ضفته، وتحت ضغط

الملكة الأدبية وغل المعارك، وحب التهويل، سيذهب الناس بعيدًا في مرويَّاتهم في عدد القتلى وفيما جرى من دماء، وقد صار خالد بن الوليد رجلًا يحب العرب أن يسمعوا عنه الغرائب والمدهشات، في الحب، والقتل، والمفازات المهلكة التي يخترقها للوصول إلى الأعداء.

أما آزاذيه حاكم الحيرة، فعلم أن المسلمين قادمون إليه، ولم يكن عنده ما يوقف به تقدمهم إلا حيلة ملاحية، وهي سد مجرى الفرات، وفتح مجاري الأنهار المتفرعة منه، حتى يقل الماء فيه، فلا تستطيع السفن التي استقلها خالد وجيشه من أمغيشيا أن تصل بهم إلى الحيرة شمالًا عبر النهر بعد أن انخفض ماؤه. وتغلب خالد على القوة الحامية للسد، بعد أن عجزت السفن عن السير، فعاد الماء للنهر مندفعًا، وتحرك بجيشه في السفن، ففر آزاذيه ومن معه إلى ما وراء نهر الفرات، فقد علم بموت ابنه ومن معه عند فم الفرات، وعلم بموت أردشير، وانشغال السادة في المدائن عما يجري في الحيرة، فترك هو أيضًا الحيرة حزينًا خائفًا، تركها لمن فيها من العرب يواجهون المصير وحدهم بعد أن شعر بأن عالمه على وشك الانهيار. ثم نزل خالد بجيشه في الخورنق ليعده للمواجهة. وتحصن أهل الحيرة بقلاع المدينة الأربع، بعد أن رفضوا الإسلام، ورفضوا الجزية. وفي النهاية، اقتحم عليهم المسلمون القلاع في شهر ربيع الأول، وصالح خالد أهلها العرب على الجزية؛ وجعل من الحيرة مقرًا لقيادته، ومركزًا لإدارة حركة الجيوش، ووزع منها عماله على الولايات، حتى صار كل من في سواد العراق تابعًا للمسلمين مواليًا لهم. وأرسل خالد شرحبيل بن حسنة كي يبشر الخليفة بالسيطرة على الحيرة.

وظل أبو بكر على الوضع الذي اختاره للروم، وهو أن ينتظروه، بأن يجعل

له جيشًا على مقربة منهم، جيشًا لا يستفزهم بجرأة زائدة تثير الغضب، ولا يستفزهم بمنظر ضعيف يثير الطمع، وكان قد أوصى بأن لا يبدأ المسلمون بقتال الروم أبدًا، وأكَّد على خالد سعيد بأن لا يترك تيماء، فقط يدعو القبائل التي من حولها للانضمام إليه.

كان أبو بكر يدرك أنه بحاجة إلى جيش ضخم قبل أن يواجه الروم، الذين سحقوا الفرس وأذلوهم، جيش لن يستطيع تجهيزه إلا بعد أن يخيم الصمت على جزيرة العرب، وقد خيَّم الصمت، وبعد أن يشعر بأنه لا يمكن أن تحدث مفاجأة ما في العراق، وها هو ذا ينتظر الأخبار القادمة إليه من العراق، والتي تصل إلى الروم قبل أن تصله.

وهذا المرور للأيام بدون أي أخبار جديدة يفجعه بها مساعدوه في الصباحات، هو ما كان يحبه هرقل ويتمنى أن ينعم به طويلًا؛ فهو متوجس من أن تتحرك الأشياء، فتتسبب في إخراج المارد من قمقم النبوءة، نبوءة أمة الختان التي تركب الأمم، وهو يتابع بانقباض شديد ذلك القدر المخيف من التوفيق الذي يمضي به المسلمون من بقعة إلى أخرى، كأنهم صواعق نزلت من سماء السخط، يسقطون الأمراء، ويفتحون الحصون المنيعة، ويرتزقون من خيرات البلاد، ويمضون بالسبايا. وقد كان هرقل يرجو أن لا يكون لدى أبي بكر من الغيظ ما يحركه تجاه الشمال بقوة كبيرة، فالردة ناحية الروم ضعيفة، ولم يكن هناك ما يستحق الحركة إلا ما كان من أهل دومة الجندل؛ وإلى ذلك الوقت، الذي حقق فيه خالد بن الوليد الكثير، كانت دومة الجندل مستعصية على عياض بن غنم، الذي كان من المفترض أن يبذل جهده كي يصل إلى الحيرة قبل خالد بن الوليد.

وقد تدبر أبو بكر الأمر، وفكَّر في أن لديه فرصة ما لدفع جيوش إلى الشمال من العائدين من بلاد اليمن بعد السيطرة عليها، وفي الثلاثين من ربيع الأول دعا إليه عمر وعثمان وعليًّا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بين الجراح ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، وغيرهم، وذكرهم بأن الرسول كانت همته إلى الشام، إلا أن الموت عاجله، فاتفقوا على أن مثله لا يُتهم في رأيه، وإن عزم على هذا الأمر فليمض فيه. وكان علي بن أبي طالب ساكتًا، فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن؟

قال علي: أرى أنك مبارك الأمر، ميمون النقيبة، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله.

قال أبو بكر: بشرك الله بخير، فمن أين علمت هذا؟

قال علي: قال سمعت رسول الله يقول: لا يزال هذا الدين ظاهرًا على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون.

قال أبو بكر: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرك الله في الدنيا والآخرة.

وأرسل أبو بكر رسالة إلى زعماء اليمن، فتحركوا إليه بالفعل مسرعين، بقيادة ذي الكلاع الحميري، وقيس بن مكشوح المرادي، وجندب بن عمرو الدوسي في الأزد، وأرسل يستنفر مَن حول المدينة وأهل مكة من أجل الجهاد في الشام.

وفي أوائل رجب، وفيما كان الرجل المسن أبو قحافة جالسًا يحدث فتيان قريش عند باب داره، يحكي لهم الأحداث العظيمة التي مرت عليه، ويتغير

صوته من الحنان كلما ذكر ابنه الذي صار خليفة، قطع الشبان حديثه بصوت يتلألأ من الفرح وهم يقولون: هذا ابنك.

كان أبو بكر يقترب من أبيه وهو ينظر إليه من فوق راحلته، وقد جاء كي يعتمر ويعود في عصر نفس اليوم، فلما قالوا للرجل الذي راح بصره إن ابنه هنا، بمكة، وعلى بعد خطوات منه، قام الرجل واعتمد على قلبه، فلم يتحمل أبو بكر أن يرى أباه يمضي إليه، فنزل الخليفة الستيني من أعلى راحلته وهي قائمة وهو يقول له: يا أبت لا تقم.

وتقدم مسرعًا إلى أبيه، واحتضنه، وقبل بين عينيه، فيما انخرط الرجل المسن في البكاء من شدة الفرح.

أيام العرب العجيبة

استخلف خالد بن الوليد القعقاع بن عمرو في الحيرة، وخرج بجيشه لضم المناطق التي بينه وبين دومة الجندل التي لم يستطع عياض فتحها إلى ذلك الوقت، ولولا أن أبا بكر كلفه بذلك لترك كل شيء واتجه إلى عاصمة الفرس المدائن وأخذها. واتجه خالد إلى الأنبار، فوجد أن أهلها حفروا خندقًا حولها وتحصنوا في حصونها، وأخذوا يطلون على المسلمين من النوافذ، فأمطر خالد بن الوليد عيونهم بالسهام في الرابع من رجب، في تلك المعركة التي سماها المسلمون ذات العيون. وتفحص خالد الخندق، واختار أضيق نقطة فيه، فذبح ضعاف الإبل وألقاها في هذه النقطة، ومر المسلمون على جسر من الإبل المذبوحة، فأدرك قائد الجنود الفرس أن المسلمين في النهاية سيحطمون الأبواب ويدخلون إليهم، فطلب الصلح، فوافق خالد على أن يخرج بغير أي مال، فقط بحراسة تمضي معه في الطريق إلى المدائن، وصالح خالد السكان على الجزية.

وفي الثامن من رجب استخلف خالد الزبرقان بن بدر الفزاري على الأنبار، واتجه إلى عين التمر بين العراق وبادية الشام، التي كان ينتظره فيها جيشان، جيش فارسي بقيادة مهران بن بهرام، وجيش عربي من بني التمر وتغلب وإياد يقودهم عقة بن أبي عقة. وقال عقة الواثق من نفسه لصاحبه القائد الفارسي: إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالد.

وفي الحادي عشر من رجب، وصل أنس بن مالك إلى المدينة عائدًا من

اليمن بعد أن حمل رسالة أبي بكر إلى أهل اليمن وقرأها عليهم قبيلة قبيلة، وبشره بقرب وصولهم وهو يقول: أتوك شعثًا غبرًا أبطال اليمن، وشجعانها، وفرسانها، وقد صاروا إليك بالذراري والحرم والأموال؛ وفي الحادي عشر من رجب هذا وصل خالد بن الوليد إلى عين التمر، وتواجه الجيشان، وبينما كان عقة يسوي صفوفه متفائلًا، انطلق ناحيته خالد بن الوليد وفي ظهره حُماته، فالتقط الرجل أثناء انهماكه في تسوية الصفوف، بدون حرب، وأخذ المسلمون يأسرون رجاله بالجملة، وهرب العرب المسيحيون بالجملة باتجاه حصن عين التمر، وجيش خالد من ورائهم، بينما هرب مهران ومن معه من الحصن عندما سمعوا بالهزيمة الساحقة. وحاصر خالد بن الوليد الحصن الذي لجأ إليه العرب حتى افتضه، وقتل عقة والمقاتلة.

وفي الرابع عشر من رجب استخلف خالد بن الوليد عويل بن كاهل الأسلمي على عين التمر، وسار إلى دومة الجندل بعد أن راسله عياض بن غنم يطلب معونته على فتحها، وأخذ خبر زحفه تجاه دومة الجندل يطير في الأرجاء.

في السادس عشر من رجب وصل قادة اليمن وأهله، ومعهم أعداد مبشرة أبهجت قلوب أهل المدينة، وقد جاء قيس بن مكشوح ومعه جمع كثير، وجاء رجال كثيرون من قبائل نجد والحجاز للمشاركة في غزو الشام، جاء منهم من جاء بدافع الإيمان الراسخ، ومنهم من جاء منبهرًا وسعيدًا بهذه الأيام العجيبة للعرب التي جعلته يشفو من دعاوى الردة ويهزأ بالمتنبئين الفاشلين، ويؤمن بصدق نبوة محمد ﷺ الذي بشَّر بمثل هذه الفتوح، وصار يكفيه أنه ينتصر وهو في موته، فاندفع بهذه السعادة ومعه رغبة أكيدة أيضًا في الحصول على الغنائم.

لقد ظل بعض الأفراد هنا وهناك في جزيرة العرب يتعاطون بنشوة مريضة مع الجاهلية والوثنية والخرافات، في خيالهم، وفي منعزلاتهم، كعاطفة سرية لا يمكن الشفاء منها، ولا يصح أن يطلع عليها الآخرون، لكن في العموم، قضى أبو بكر على الجاهلية بين الجماهير، ولم تعد تلك الأفكار البالية مما يمكن للإنسان أن يدافع عنه في هذا المناخ المدهش من الصعود المبارك. لقد آمن العرب بنبوة محمد ﷺ، إيمانًا لا رجعة فيه، وما عاد ممكنًا لأي كاهن تبقى من كهنة الوثنية أن يغامر ويدعي النبوة كما كان هذا سهلًا منذ أشهر قليلة. نعم، استقر العرب على الدين بعد المحاربة، وبعد موت محمد ﷺ، ولكن ثمة ماسة غالية أسفر عنها هذا البركان البغيض جدًا، الذي كره الصحابة اندلاعه، وهي أن هؤلاء الذين حاربوا محمداً ﷺ، قد وُضِع في قلوبهم بعد انتهاء الحرب إيمان بنبيهم خالٍ تمامًا من الغلو ومن التأليه، فتأهَّلوا لحمل التوحيد النقي للأمم.

وجاء شرحبيل بن حسنة من العراق إلى المدينة بكل بشاشة، وبشَّر أبا بكر بفتح الحيرة وبالتوفيق الذي يجده خالد بن الوليد. ولم يكن هذا كل ما جاء به، فقد حدث أبا بكر برؤيا كان قد فسَّرها بفتح الشام، فسعد بها أبو بكر وفسر له جميع ما فيها، وقال له: نامت عينك، هذه بشرى، وهو الفتح إن شاء الله لا شك فيه، وأنت أحد أمرائى، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان فأقم ثلاثًا ثم تيسر للسير.

استغل الفرس ومن معهم من عرب الجزيرة فرصة خروج خالد لدومة الجندل، وأعدوا جيشًا يتجه للأنبار بقيادة زرمهر وروزبه، فوصلت الأخبار إلى الزبرقان الذي جعله خالد على الأنبار، فكتب يستنجد بالقعقاع الذي جعله خالد على الحيرة، فأخرج جماعة بقيادة أعبد السعدي لقطع الطريق على ذلك الجيش

عند الحصيد، وجماعة بقيادة عروة البارقي لقطع الطريق عليه عند الخنافس.

انضم إلى أهل دومة الجندل جماعات من بني بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم لمساندتهم في حرب خالد المتجه إليهم، وكان الضغط قد زاد على عياض بسبب انتصارات خالد، فكل من نال منهم خالد بن الوليد خلال هذه الأشهر، ولم يجدوا حيلة في حربه أخذوا يذهبون للانتقام مما حدث لهم في عياض الذي يريد أن يفتح دومة الجندل.

مع اقتراب خالد من دومة الجندل، مال أكيدر للمسالمة وخاف من المواجهة، فبينه وبين خالد معرفة قديمة، فقد أرسل النبي خمسمائة فارس بقيادة خالد إلى دومة الجندل، وأوقعه خالد في الأسر، ففتح أهل دومة أبواب المدينة وإلا تعرض أميرهم للقتل، أميرهم أكيدر الذي أخذه معه خالد إلى المدينة، فأسلم هناك وحالف النبي؛ غير أنه ارتد من بعد ذلك، وهو لا يحب أن يرى هذا القائد المسلم مرة ثانية، فقد حدثت له العقدة التي تحدث للرجل تجاه من أسره وسيطر عليه. عرض أكيدر على أهله الاستسلام، فاعترض الجودي بن ربيعة على رأيه بشدة، فلم يجد أكيدر أمامه إلا أن يترك له المدينة، وصارت قيادة دومة الجندل للجودي وحده بعد أن كانت في الأميرين.

وفي الثالث والعشرين من رجب عقد أبو بكر اللواء ليزيد بن أبي سفيان الأموي، الذي يقود جيشًا قوامه سبعة آلاف مقاتل من أجل فتح الشام، ونصحه نصيحة طويلة عميقة، وحدد له طريقه: وادي القرى، فتبوك، فالجابية، فدمشق؛ وودعه ماشيًا.

وقطع خالد بن الوليد المسافة التي مقدارها ثلاثمائة ميل في عشرة أيام، ووصل إلى دومة الجندل في الرابع والعشرين من رجب، وسمع بهروب أكيدر

في بلدة قريبة، فطلبه خالد فوجده بسهولة، ففي وقت الاختباء يكون القدر والشهرة حملًا ووبالًا، وقتله خالد، لأنه ارتد ونقض عهده مع محمد ﷺ. ووصل خالد إلى حصن دومة الجندل حيث كان المقاتلون يحيطون بالحصن الذي امتلأ عن آخره بالناس، فحاصر خالد هو وعياض المقاتلين الموجودين خارج الحصن، وانتصر عليهم، وأسر الجودي، وقد حاول بعض المقاتلين أن يهربوا من الموت، فأخذوا يطرقون على الباب بأيديهم ويستنجدون، لكن لا أحد يفتح لمن يكون خالد من خلفه، فأخذوا بالداخل يسمعون خالدًا وهو يرمي جثث هؤلاء عند الباب، ويقتل جماعة من الأسرى بما فيهم الجودي. يسمعون وهم في رعب، ولا يأملون في أن يزهد فيهم خالد ويمضي بمن معه، وبالفعل بعد قليل كان المسلمون قد اقتلعوا الباب وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء.

وفي السابع والعشرين من رجب عقد أبو بكر اللواء لشرحبيل بن حسنة، الذي يقود جيشًا قوامه أربعة آلاف رجل يتجه بهم للشام أيضًا، وأوصاه، وحدد له طريقه: معان، فالكرك، فمأدبا، فالبلقاء، فبصرى.

وعندما عاد خالد إلى الحيرة وبلغه خبر تحرك بعض القبائل العربية لدعم الفرس عند الحصيد بقيادة روزبة، وعلى رأسهم بنو تغلب الذين يريدون الثأر لمقتل عقة بن أبي عقة، أرسل القعقاع أميرًا على الحصيد، وتحرك باتجاه عين التمر، بعد أن جعل عياض بن غنم على الحيرة بدلًا من القعقاع. ووصل إلى روزبة أن القعقاع قادم إليه، فطلب العون من رزمهر.

وفي السابع من شعبان، عقد أبو بكر اللواء لأبي عبيدة بن الجراح، الذي يقود جيشًا قوامه أربعة آلاف مقاتل إلى الشام، وأوصاه، وحدد له طريقه: وادي القرى، فالحجْر، فذات المنار، فزيراء، فمآب، فالجابية، فحمص. وقد ضم

إلى جيشه قيس بن مكشوح، وقال لأبي عبيدة بن الجراح عنه وهو يشير ناحيته: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، لا أظن له عظيم حسبة ولا كبير نية في الجهاد، وليس بالمسلمين غنى عن مشورته ورأيه وبأسه في الحرب، فأدنه والطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج منه بذلك نصيحة لك، وجهده وجدُّه على عدوك.

ودعا أبو بكر قيسًا، وقال له: إني قد بعثتك مع أبي عبيدة الأمين، الذي إذا ظُلم كظم، وإذا أُسيء إليه غفر، وإذا قُطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، فلا تعصينَّ له أمرًا، ولا تخالفنَّ له رأيًا، فإنه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، فلا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنا نسمع أنك شريف بئيس مجرب، وذلك في زمان الشرك والجاهلية الجهلاء، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم في الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم، والعز للمسلمين.

فقال له قيس: إن بقيت فسيبلغك من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما يسرك ويرضيك.

وجاء رزمهر إلى روزبة في الحصيد، والتحم الجيشان في العاشر من شعبان، ووقعت مقتلة عظيمة في الفرس، وكان القائدان الفارسيان من ضمن القتلى. وفرت الفلول بارتباك إلى الخنافس بغير قيادة، فتعقبهم أبو ليلى بن فدكي، ففروا من الخنافس إلى المصيخ، فدخل أبو ليلى الخنافس بغير حرب في الحادي عشر من شعبان.

كاتبت القبائل العربية المسيحية هرقل الموجود بفلسطين تخبره بتنقلات جيوش المسلمين نحو الشمال، وكانت أخبار تلك الجيوش تتحرك أسرع من

الجيوش، وحذروه من خطر الاجتياح للشام، فشعر هرقل بأن توازن الرعب قد اختل، وأن الأمور تفلت منه، وأنه إن لم يسرع إلى المبادرة قد يفجعه المسلمون.

وفي العراق، مضى خالد لمهاجمة المصيَّخ التي اجتمع فيها الفرس والعرب لتدبير أمر القتال. وقد هاجم خالد البلدة من ثلاثة أوجه في التاسع عشر من شعبان، فأوقع فيهم خسائر كبيرة. ثم سمع بتجمع بعض القبائل في المثنى يتجهزون لحرب المسلمين، وكذلك سمع بتجمع البعض في الزُميّل، فهاجم من في المثنى فشتتهم، وكذلك من في الزُميل، ووقعت أيضًا الرضاب في أيدي المسلمين، في الثالث والعشرين من شعبان. وفي هذا اليوم الذي وقعت فيه الرضاب، وهو الثالث والعشرين من شعبان، خرج هرقل من فلسطين التي يتمركز بها جيش بيزنطي قوامه سبعون ألف مقاتل، إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى إنطاكية، التي يتمركز بها جيش بيزنطي قوامه مائتا ألف مقاتل أغلبهم من الروم، وقد وصل إليها في التاسع من رمضان، هذا بعد أن تشاور مع مستشاريه وخاصته وحاول أن يقنعهم بالصلح مع المسلمين وتجنب القتال، ولكنهم رفضوا تمامًا، فنزل عند رأيهم، واختار لنفسه أن يكون بعيدًا.

بجوار محمد ﷺ

تحرك خالد بن الوليد الذي بسط سيطرته على سواد العراق ناحية الفراض على الحدود بين الإمبراطوريتين العظميين البيزنطية والفارسية، حتى يؤمِّن ظهره إذا ما فكر في أن يتحرك من السواد لاقتحام فارس، وحط بقواته في الفراض في رمضان، وبدأ في تنظيم جيوشه وتوزيع حاميات في البلدات من حوله، مظهرًا كل علامات السيطرة في هذه المنطقة التي من المفترض أن يشعر فيها بالرهبة وهو عند أنف الأسد البيزنطي.

اشتد غضب الروم من جرأته، فهو يعتبر قد عسكر في أراض خاضعة لهم، فبدأ الروم يجمعون الأنصار، ووفد عليهم تباعًا خلال رمضان وشوال جماعات من الفرس الراغبين في الثأر من خالد، وكذلك من العرب الموالين من تغلب وإياد والنمر المتحرقين هم أيضًا للثأر، وكانوا كل قليل يتحركون ويقتربون أكثر من نهر الفرات الذي يفصلهم عن جيشه، لعل أخبار زحفهم ترده من عند الحدود، وخالد لا يبالي بهم.

وفي ناحية الشام، جهز هرقل قوة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سرجيوس قائد غزة، وجعلها تتمركز في وادي عربة، بهدف أن تتدخل بسرعة لقطع الطريق من الخلف على أي جيش مسلم يتقدم للشمال، فتتم محاصرته وتنقطع عنه خطوط الإمداد من المدينة. ووصل يزيد بن أبي سفيان إلى تبوك، وكذلك وصل شرحبيل إلى بصرى، وأبو عبيدة نزل الجابية.

وقد طال مكوث خالد في هذا الوضع المستفز للروم لا يفصلهم عنه غير

الفرات، وهم على الضفة الأخرى لا يصدقون أن قائدًا على وجه الأرض يقف لمعاداتهم قرابة شهرين وظهره لإمبراطورية أخرى يعاديها؛ كان عملًا جريئًا كأنه الخيال. وأرسل الروم إلى خالد يقولون له: إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم، فقال لهم: بل اعبروا إلينا.

وعبر الجيش الرومي ومن معه، ووقع قتال شديد في الخامس عشر من ذي القعدة، وأوقع المسلمون فيهم عددًا كبيرًا من القتلى فتفككت صفوفهم، وتراجعوا بأعداد ضخمة، والمسلمون يضعون في زحام المدبرين سيوفهم ورماحهم، حتى سقط منهم الآلاف.

ومكث خالد في الفراض عشرة أيام لا يتعرض له أحد ولو من بعيد، ثم أمر الجيش بالرجوع إلى الحيرة بغير إسراع، وتظاهر بأنه في مؤخرة جيشه، وتحرك في الخامس والعشرين من ذي القعدة باتجاه مكة، مع عدد من أصحابه المقربين، لأداء فريضة الحج، مخترقًا الصحراء، وبدون إذن من الخليفة، وبالفعل أدى مناسك الحج، متجنبًا أن يراه أبو بكر الذي كان يحج بالناس، وأنهى خالد المناسك وانفلت مسرعًا، ودخل الحيرة مع أواخر الجيش.

وفي جبهة الشام، أخذ خالد بن سعيد يتوغل لأنه لا يجد شيئًا يوقفه، ويبدو من تحركاته أنه يمضي مطمئنًا قاصدًا ضواحي دمشق، وقد اهتم هرقل وقواده باصطياد هذا الجيش اللامبالي؛ أما يزيد بن أبي سفيان، فاصطدم بجيش سرجيوس في مؤاب وانتصر عليه، فلم يعد للبيزنطيين سيطرة عليها، وأخذ جيش سرجيوس المنهك يتراجع إلى قرية داثن بغزة، والمسلمون يحصدونهم من الخلف، وسقط البطريق المغموم سرجيوس من فرسه، فوضعوه على الفرس مرة ثانية، وأكملوا هروبهم، ثم سقط للمرة الثانية، فوقفوا وأركبوه فرسه،

واستمروا في الركض، والجيش المسلم من خلفهم مثل غمامة مخيفة تسعى على الأرض، وبعد قليل، سقط سرجيوس للمرة الثالثة، بين شباب جيشه الذين يقاومون الانهيار واليأس، فقال الرجل وهو ينفض ثوبه: اتركوني وانجوا بأنفسكم، لئلا تشربوا معي أنتم أيضًا كأس الموت الذي قضاه الله على مملكتنا لغضب العدالة فينا. فتركوه وهربوا، وهو يضبط سيفه في يده الكليلة، في انتظار الموت القادم إليه، وقتله المسلمون بضربة سيف واحدة وهم ماضون في طريقهم وراء جيشه، وهناك، في داثن، وقعت المعركة الثانية في الرابع والعشرين من ذي الحجة، التي كانت عبارة عن مطاردة عنيفة إلى المساء، لم ينج منها إلا القليل من جيش سرجيوس، وذاق الروم الخسارة الثانية المؤلمة. وقد تهلل اليهود فرحًا مستبشرين بزوال الإمبراطورية التي كانوا يؤكدون للمسيحيين أنها زائلة، أما هرقل فأيقن بأن ما يخشاه قادم في الطريق، ولكن منصبه كإمبراطور يملي عليه أن يستمر في المقاومة، وبكل جدية، خلافًا لما هو شبه متأكد منه كإنسان. ومضى يزيد بعد الانتصار، فعبر حوران وغوطة دمشق، حتى وصل إلى أبواب دمشق، وقطع طريق الاتصال بين حاميتها والقيادة في أنطاكية.

ووصلت إلى خالد بن سعيد أنباء عن أن هرقل قد استنفر العرب المسيحيين من بهراء وسليح وتنوخ ولخم وغسان وجذام، فسارع يطلب من الخليفة أن يسمح له بالهجوم على الروم ومن حالفهم قبل أن يفاجئوه، فأعطاه أبو بكر الإذن، لكن نبهه أن لا يقتحم وأن لا يسرع، فيجدهم قد أتوه من الخلف.

توافد الروم والعرب المسيحيون ونزلوا بالقسطل بقيادة القائد الأرمني ماهان، فتقدم إليهم خالد بن سعيد وانتصر عليهم وفروا من أمامه، فأرسل إلى أبي بكر يبشره بالفوز، ويطلب المدد، فبعث له على وجه السرعة جيشًا يقوده عكرمة بن أبي جهل؛ وقبل أن يصل إليه عكرمة الأكثر حنكة، وقبل أن يفكر

بشيء من القلق في السهولة التي تمضي بها الأشياء، تحرك للأمام إلى مرج الصفر، دون أن يرسل أي سرية للاستطلاع، بينما كان ماهان، ومن خلال الأعين التي تطل من ثقوب الحوائط، ومن خلف الأعمدة الأثرية، يرى كل حركة، ويفهم كيف يفكر هذا القائد.

وفي الثالث من محرم من السنة الثالثة عشرة للهجرة، عقد أبو بكر اللواء لعمرو بن العاص، الذي يقود جيشًا قوامه سبعة آلاف مقاتل، ونصحه، وحدد له طريقه: يسلك طريق البحر الأحمر حتى العقبة، فوادي القرى، فالبحر الميت، إلى أن يصل إلى بيت المقدس.

عندما وصل خالد بن سعيد إلى مرج الصفر بين الواقوصة ودمشق، في الرابع من محرم، قطع ماهان عليه خط الرجعة، بهدوء، ثم التف حول الجيش وهجم عليه، واصطادت قوات ماهان فرقة من الجيش فيها سعيد بن خالد وقتلوه من ضمن من قتلوا، وأخذوا يضيقون الخناق على الجيش، فهرب خالد مسرعًا مع كتيبة وترك الجيش ليقوده عكرمة الأكثر ثباتًا منه الذي وصل قبيل الهزيمة الصعبة. ونجح عكرمة في المناورة حتى تراجع بالجيش مرة أخرى بسلام إلى حدود الشام، ووقف هناك يطلب المدد لأنه يريد أن يغسل الهزيمة.

تأمل هرقل المشهد بهدوء ووعي، وتفاهم مع مستشاريه على خطة ناضجة، بعد أن سعد بهزيمة خالد بن سعيد وتفاءل بها، خطة لا تشبه الذي اعتاد عليه المسلمون من أعدائهم في حروب الردة وحروب العراق، أعدائهم المندفعين الذين كانوا يسمحون للجيش المسلم بأن يكون كتلة واحدة صلبة تراهن على القتال بغير هوادة لمدة ساعات حتى يتحطم العدو وتتغير الأوضاع على الأرض. لقد قرر البيزنطيون أن يتراجعوا إلى أنطاكية وفلسطين ويتخلوا عن المناطق الحدودية، ثم يحاربوا كل جيش من جيوش المسلمين على حدة،

فيتجمع جيش البيزنطيين الأول في فلسطين بقيادة تيودور أخي هرقل، في مواجهة جيش عمرو، ويتجمع الجيش الثاني في أنطاكية بقيادة وردان أمير حمص، وينتقل إلى حمص، ويستدرج كل جيش من الجيوش الثلاثة على حدة، وبعد أن يهزم جيشًا منها يستدرج غيره، المهم أن لا يجتمع المسلمون في جيش واحد يدعم أرواحهم الفدائية ويعوض عندهم الإحساس بقلة العدد ويطمعون به في تغيير الوضع على الأرض من خلال صبر ساعات في قتال شرس.

من ذي المروة، القريبة من المدينة نفسها، وبعيدًا عن غدر الميادين، كتب خالد بن سعيد بصعوبة بالغة إلى أبي بكر يحكي له ما حدث، بينما كان القادة المسلمون الأربعة المطلون على المشهد البيزنطي قد قرؤوا استعدادات الروم الذكية والضخمة التي وصلتهم بتفاصيلها، وقد أشار عليهم عمرو بن العاص بضرورة اجتماع المسلمين في جيش واحد، وبالجلاء عن الأراضي التي سيطروا عليها بأقصى سرعة، والتراجع إلى بصرى، لإدارة هذه الحرب القادمة بدهاء.

ضايقت رسالة خالد بن سعيد أبا بكر الذي ينتظر أخبارًا سارة، فأرسل إليه رسالة شديدة يمنعه فيها من دخول المدينة حتى لا يؤثر على الناس بفراره، فمكث هناك مع من معه في العراء حزينًا من الهزيمة ومن موت ابنه، ومن خزي الفرار.

وأخذ القادة يتراجعون بالجيوش الأربعة باتجاه بصرى، بحذر، وهم يتجنبون وقوع أي مناوشات، ولم تكن مهمة عمرو بن العاص بالسهلة، فالروم كانوا قد وضعوا جيشه على رأس المهام. وأرسل أبو عبيدة يخبر أبا بكر بأن هرقل نزل أنطاكية، وأنه بعث يجمع المقاتلين في أنحاء مملكته فاجتمعوا إليه،

فرد عليه أبو بكر برسالة يشد فيها من أزره ويبشره بأن رجوع هرقل إلى أنطاكية هو هزيمة له ولأصحابه، ويقول له فيها أيضًا إن حشد الروم شيء متوقع، ولكن يظل هناك فرق بين الجنود المسلمين وغيرهم، ويعده بالمدد من الرجال. وقد وصلت إلى أبي بكر من يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رسالتين بنفس معنى رسالة أبي عبيدة، فرد عليهما ردًا مشابهًا كثيرًا أفهمهما فيه أيضًا أن ذهاب هرقل إلى أنطاكية هذا من الرعب الذي ألقاه الله في قلبه. وأخذ أبو بكر يستنفر الناس للحاق بإخوانهم من أجل الجهاد.

لم يكن أبو بكر بحاجة إلى التفكير مطولًا ليكتشف أن الوضع المتجمد على الجبهة الشامية يحتاج إلى قائد فذ لديه جرأة في التفكير وقدرة على استدراج أعدائه وقدرة على صنع المفاجآت، فراسل خالد بن الوليد كي يتوجه إلى الشام، وحذره من ترك الجيش مرة ثانية بغير إذن، فقد عرف أنه ذهب إلى الحج تاركًا جيشه، وأوصاه من ضمن ما أوصاه بأن لا يدخل إلى قلبه العجب بالنفس. وأرسل أبو بكر رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح: أما بعد فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإني قد وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد والسلام عليك ورحمة الله. وقد أرسل خالد رسالة طيبة إلى أبي عبيدة، يقول له فيها إنه سيد من سادات المسلمين لا يُنكر فضله ولا يُستغنَى عن رأيه، واستلم أبو عبيدة الرسالتين برضا وروح طيبة وترحاب بسير خالد إليهم. وترك خالد بن الوليد ثمانية آلاف مقاتل مع المثنى، وخرج في الثامن من صفر ومعه تسعة آلاف مقاتل ليقود المسلمين هناك، في طريق تحرى أن لا يكون فيها أي نقاط عسكرية، وقد حقق انتصارات سريعة وهامة في طريقه، فقد حاصر تدمر الحصينة، فاستوعب أهلها غياب

بيزنطة التي اختارت أن تجمع قواها ولا تبعثرها بين الحاميات، فاصطلحوا مع المسلمين، ثم انتصر الجيش من بعد ذلك في طريقه على القريتين، ثم انتصروا على حوارين وقبل أهلها الصلح، ثم انتصروا في غوطة دمشق.

وتحرك خالد بن الوليد بجيشه جنوبًا، حتى وصل إلى بصرى، الواقعة تحت سيطرة الروم، وعندها ثلاثة جيوش من جيوش المسلمين، جيش أبي عبيدة، وجيش شرحبيل، وجيش يزيد، بينما كان جيش عمرو يسير بمحاذاة الضفة الغربية لنهر الأردن يتجنب المواجهة مع جيش تيودور الذي يتعقبه ويمنعه من الوصول إلى جيوش المسلمين. وأحكم القادة بأمر من خالد بن الوليد حصارهم على بصرى، فأذعن أهل هذه المدينة الهامة للصلح في الخامس والعشرين من ربيع الأول، وقد استاء هرقل جدًا من خبر استسلامها.

وسعد المسلمون كثيرًا باستسلام بصرى، فلم يكن قد سبق لهم فتح مدينة قبلها، وقد كانوا يركزون على فتح بلدات الريف، عملًا بوصية أبي بكر الذكية: (بث خيلك في القرى والسواد، وضيق عليهم بقطع الميرة والمادة، ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك أمري) فالجيوش الضخمة لإمبراطورية تحتاج إلى توريد كميات كبيرة ومتواصلة من الغذاء من الريف، والمقاتل فيها لم يعتد على الاحتفاظ باللياقة القتالية مع القليل من الطعام مثل المقاتل الذي نشأ في بيئة عربية.

بعد فتح بصرى، وقبل أن ينصرم شهر ربيع الأول، كان المثنى بن حارثة في خرائب بابل يواجه بجنوده جيشًا فارسيًا قوامه عشرة آلاف رجل، يقوده هرمز جاذويه، وفي مقدمته فيل مدرب وشجاع يضرب بخرطومه الجنود ويتقدم بينهم ويصيبهم بالهلع. فخرج المثنى مع مفرزة من جنوده، وأخذوا يتناولونه

بالطعن من كل ناحية، حتى انهدَّ كأنه بناء عظيم. وقد ارتفعت معنويات المسلمين وانتظمت صفوفهم، وهزموا الفرس هزيمة ثقيلة، وطاردوهم حتى أبواب المدائن. عند أبواب المدائن وقف المثنى ينظر إليها متحسرًا، فهو يعرف أن المدائن يمكن أن تسقط بسهولة، فقط لو أمده الخليفة بالعدد الكافي من الجنود، وتراجع بجيشه قليل العدد باتجاه مناطقه المحصنة.

كان عمرو بن العاص يراوغ الروم هناك، وتيودور متأكد من أنه يحاول أن يجتمع إلى جيوش المسلمين، ففاجأه عمرو بن العاص بأنه غير وجهته، وأخذ يمضي باتجاه أجنادين، حتى وصل إليها، وكان خالد بن الوليد على علم بما فعله عمرو، فمضى تيودور بجيشه إليه وهو أقرب إليه من جيوش المسلمين، وكذلك أسرع خالد بن الوليد ومن معه إليه، ولكن الفارق أن تيودور لم يكن مسرعًا لأن أهم شيء عنده أن يظل هذا الجيش منفردًا حتى ينتصر عليه، ويتوجه من بعد أن يقضي عليه إلى الآخرين، وطالما أنه التف وذهب إلى أجنادين بعيدًا عن أصحابه فلا بأس، وقد تمهل تيودور أيضًا حتى يستنفر من يستطيع في الطريق إلى أجنادين. ولم يتمتع تيودور طويلًا بشهية الانفراد بجيش عمرو والشعور بالتفوق العددي الكاسح، إذ أدرك خالد بن الوليد عمرو بن العاص بالجيش المجمَّع، وبعد صلاة فجر السابع والعشرين من جمادى الأولى، هجم الروم على ميمنة الجيش وهم ما زالوا يشعرون بالتفوق العددي، لكنهم فشلوا في تفكيك الميمنة، وجربوا الميسرة، فوجدوها كذلك راسخة، واختاروا بعد ذلك إمطار المسلمين بالسهام، والمسلمون صابرون لا يتراجعون. وطلب المسلمون الذين انتفخت مناخرهم من النخوة والغضب من خالد أن يدع خيولهم تنطلق، حتى لا يظن الروم أن صبرهم هو خوف وعدم تجاسر على مواجهة جيش الروم الضخم، وفوجئ الروم الذين كانوا يظنون أن المسلمين عاجزون

عن اتخاذ قرار بالهجوم، باندفاع عنيف تجاههم كأن المسلمين لا يرونهم، فلم يستطيعوا تحمل فكرة هذا الارتطام الشديد، فتبلبلت صفوفهم واحتاروا، وأخذوا يهربون في كل ناحية ويتعثَّرون فيمن وقعوا منهم، وسلَّموا ظهورهم للمسلمين بغير أي خطة أو حصافة حتى أن أم حكيم قتلت منهم أربعة رجال بعامود خيمتها.

وفي السابع من جمادى الآخرة، اغتسل أبو بكر في يوم بارد، فأصابته الحمى وأرقدته، ولم يكن هذا التعب الشديد البادي على الوجه النحيف من جراء الحمى وحدها فقط، بل بسبب طول التفكير والتدبير بالليل والنهار من أجل الرعية ومن أجل دولة الإسلام، ومن قبلهما بسبب الكمد الذي لا شفاء منه، الذي أصابه منذ فراق محمد ﷺ. وقد أمر عمر بن الخطاب بأن يصلي بالناس. وقد وصلته في بدايات مرضه رسالة من خالد بن الوليد، يبشره بالنصر في أجنادين، ففرح وقال: الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك.

ولأبي بكر أن يفرح، فأطفال المدينة، الذين ظنوا أن سنوات طفولتهم القادمة كلها ستضيع في بؤس الحروب القادمة والغارات على المدينة، وأن شواربهم ستنبت طفلاً وراء الآخر، فيقفون جميعًا في النهاية على الطرقات والمعابر بجانب آبائهم، بنفس سحنات البالغين المهمومة، من أجل الدفاع عن مدينة الرسول المهددة، لا يزالون أطفالاً بينما هو قضى تمامًا على انتفاضات القبائل العربية وشطحاتها، بل وخيول جيوشه تشرب الماء من الأنهار التي جرت من تحت قياصرة الروم وأكاسرة الفرس.

واتجه الجيش الإسلامي إلى دمشق، وضرب عليها حصارًا شديدًا، فحرَّك هرقل جيشًا صغيرًا لفك الحصار عن أهل المدينة، يتكون من خمسة آلاف

مقاتل، فتحرك المسلمون للفتك بهذا الجيش في الطريق، عند مرج الصفر، تاركين دمشق، فقد كان من عقيدتهم القتالية أن تحطيم جيش أهم من التمسك ببقعة، واشتبكوا معهم في السابع عشر من جمادى الآخرة، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وفر بقية الجيش في كل ناحية.

شعر أبو بكر بأنه سيفارق المسلمين والمدينة قريبًا، فعزم على أن يستخلف على المسلمين قبل أن يموت رجلًا قادرًا على حمل الأمانة الثقيلة، فاستشار كبار الصحابة وسألهم عن رأيهم في عمر بن الخطاب، ولما وجد أغلبهم يرضون به، وحدث اتفاق عليه، جعل له البيعة وهو حي.

وقد قال لعائشة ابنته: أما إننا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا ولا درهمًا، ولكنا قد أكلنا من جريش [خشن] طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، فانظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة الثاثة عشرة للهجرة، وكان قد مر عليه في الخلافة سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام، لم يعرف في أي يوم منها الدعة والاستجمام، ولا التذاذ الملوك بالسؤدد والهيلمان، شعر أنه سيموت في ليلته، فأوصى بأن يُدفن بجانب الرسول. وفي هذا اليوم جاء إليه المثنى بن حارثة من العراق، لأنه أرسل إليه يطلب منه المدد حتى يفتح المدائن، فتأخر عليه رد أبي بكر، فجاء كي يقنعه، فوجده على هذه الحال يودِّع الحياة، وعرض عليه ما يأمل فيه، بكلمات قليلة مراعاةً لحالة الخليفة، الذي لا يصده ما هو فيه عن التفكير في الأمر. وطلب أبو بكر عمر، فلما جاءه قال له: اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت

من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحنَّ حتى تندب الناس مع المثنى، ولا يشغلنَّكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت، ولم يصب الخلق بمثله، وبالله لو أنِّي أَنِي عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا، ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارًا، وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله وولاة أمره وحده، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم.

ولما مات، وانفجرت أحزان المدينة على صاحب محمد ﷺ، جاء علي بن أبي طالب إلى بيته باكيًا ووقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر؛ كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقينًا، وأشبههم برسول الله هديًا وسمتًا، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام خيرًا.

وبعد سنين طويلة قضاها في العمل الشاق في خدمة الإسلام، معرضًا عن الدنيا، مقبلًا على الآخرة، رقد الصاحب الذي صدَّق بجوار النبي الذي صدق.

فهرس

بيت الأصنام ٧
اليوم المخبوء ١١
طاووس الخمر ١٥
صاحب الجمل الأحمر ١٩
كنز النبوة ٢٤
هذا محمد ﷺ ٢٨
اقرأ ٣٢
الباكورة ٣٥
حجر العوراء ٤٣
الجريمة البطيئة ٤٨
الأيام السوداء ٥١
خطبة الحرم ٥٦
فرحة الشيخ ٦٢
الضلوع البارزة ٦٦
بخور التلاوة ٧١
القدمان الداميتان ٧٦
مخيمات الحجيج ٧٩
النسمة والمخلب ٨٧
الرهان ٩٢

ثاني اثنين ٩٦
وداع ١٠٥
شامة وطفيل ١٠٩
لسان الحمار ١١٣
وجه محمد ﷺ ١١٨
صخرة عاتكة ١٢١
الفداء ١٢٨
لم تسلم الجرة ١٣٢
العروس ١٣٨
خير من عثمان ١٤٠
أفيكم محمد ﷺ ؟ ١٤٣
شيء ينمو في المدينة ١٤٨
قبة سعد ١٥٢
الرجل الذي يمسك بكل شيء في المدينة ١٦١
الهدايا التي لم تصل لأصحابها ١٦٥
أوجاع الكاهن ١٦٨
الهودج الفارغ ١٧٧
إمام ومأموم ١٨٦
البعير ذو الحلقة الفضية ١٩١
على ركبة الصنم ٢٠٣
خذ الكبيرة يا جدي ٢٠٨
العقد والتيمم ٢١٤

المناكب اليمنى ٢٢٠
باب الرضا ٢٢٤
الإمارة ٢٣٠
طعام أبي بكر ٢٣٨
الفتح ٢٤٣
الجيل الأخير ٢٦٠
الراقد في الكتان ٢٧٢
كف طليحة ٢٧٦
قمقم النبوءة ٢٨٠
أعلال ٢٨٨
اللات ٢٩١
الأحلام الموحشة ٢٩٨
مجرى النهر ٣٠٥
ما لا ينكره الأعمى ٣١٠
الشيخ الرازح تحت الصبغة ٣١٤
نصف النبوة ٣٢١
الحفرة ٣٢٧
القبلة والقبيلة ٣٣١
الباب الخشبي المحطم ٣٤٠
الملاك الذي نزل إلى مسيلمة ٣٥٠
الوجه المحنط ٣٦٠
الروح التي خربت ٣٦٦

بقعة الدم الدافئة ٣٧٢
تحت رحمة الشوق ٣٧٨
الحركة التي للأمام ٣٨٢
رائحة الخفافيش ٣٨٦
الفانوس الأخضر ٣٩٠
المعسكر الذي لم يلتحق به أبو بكر ٣٩٦
غرفة الأرواح ٤٠٤
الكتاب الذي لم يكتبه محمد ﷺ ٤١٣
النخعة والخوار ٤٢٣
الجسر ٤٢٧
الزحام على أبي بكر ٤٣٢
جدران الحزن الأربعة ٤٤٠
ذلك الستار ٤٤٦
الخرافة التي لم يطلقها أحد ٤٥٢
الأرض كافرة ٤٥٩
حصان الجاهلية ٤٦٨
المرأة التي في ظل شجرة شوك ٤٧٦
مالك الحزين ٤٨٨
حديقة الموت ٤٩٣
النبوءة التي اقترب أوانها ٥٠٠
اللهب الخافت الأخير ٥٠٤
صواعق من سماء السخط ٥١٤

أيام العرب العجيبة ٥٢٠
بجوار محمد ﷺ ٥٢٧
فهرس ٥٣٩

صاحب النبي

المؤلف في سطور

محمود توفيق : كاتبٌ وأديب مصري.

صدر له:

- روايةُ: حجَر الكُحْل.
- روايةُ: شجرة الحِنّاء.
- مجموعة قصصية بعنوان: ودة.
- عمل أدبي باسم: الخبيئة، وهو رواية معرفية.
- كتاب في تنمية الذات بعنوان: كُنْ جميلًا.

له اهتمام خاص بالكتابة الإنسانية حول علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالبشر.

نبذة عن الرواية

دأبت مبرة الآل والأصحاب على تقديم سِير الآل والأصحاب بطرقٍ متنوعة، ما بين البحث العلمي التاريخي، والتراثي، إلى القصص المصوّرة للأطفال والناشئة من المراحل العمرية المختلفة، والآنَ تُبْرز المبرةُ عملًا أدبيًّا إبداعيًّا جديدًا في السلسلة التاسعة من سلاسل إصدارات المبرة: «الآل والأصحاب في الأدب العربي»، وهو هذه الرواية التي بين يديك عزيز القارئ: «صاحب النبي ﷺ»، فلا عجبَ أن تكون فيمن تجلّت فيه الصُّحبةُ بأبرز معانيها وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

هاتف : ٢٢٥٦٠٢٠٣ – فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦
www.almabarrah.net
E.mail : almabarrh@hotmail.com
almabarrah